محاضرات حول

مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم

ألقاها العلامة الكبير والعارف الشهير

الإمام المفسر المحدث الشيخ

عبد الله سراج الدين الحسيني

رحمه الله تعالى

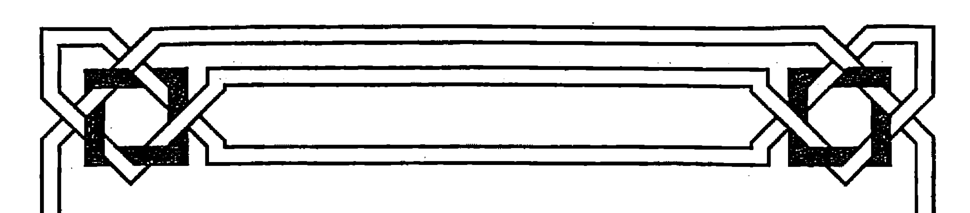
وفي مقدمتها صفحات في ترجمة الشيخ الإمام

رضي الله تعالى عنه

تقديم وجمع
ولده
محمد محيي الدين سراج الدين

ترتيب وضبط
تلميذه
محمد علي الادلبي

الجزء الأول



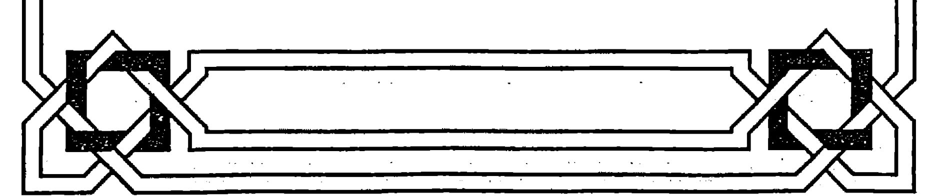
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

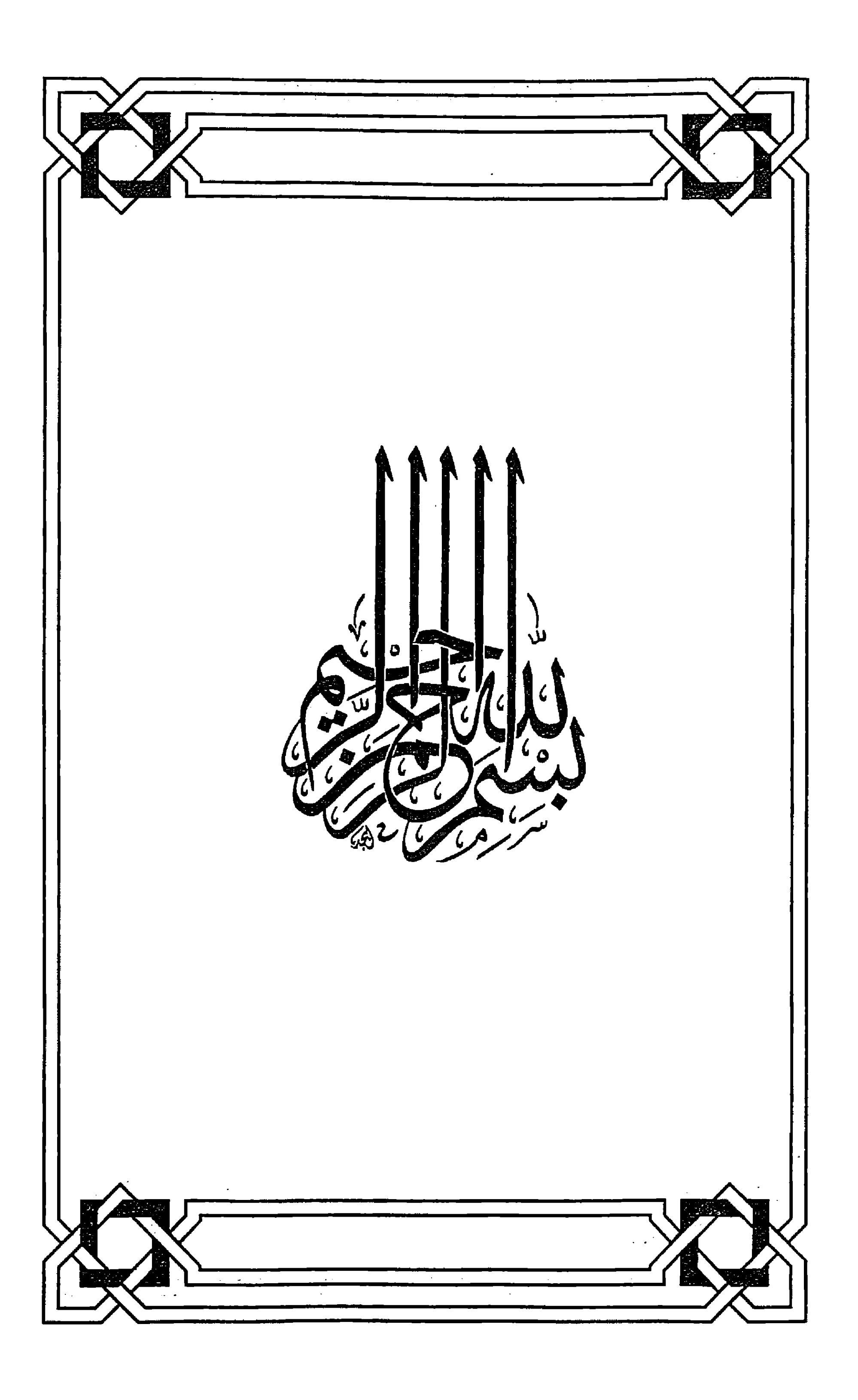
قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ **[آل عمران: ١٦٤]**.

وقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ **[الأحزاب: ٤٥ - ٤٦]**.




بسم الله الرحمن الرحيم

مُحاضَراتٌ حَوْلَ

مَوَاقِفِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ مَعَ العَالَم

أَلْقَاهَا العَلَّامَةُ الكَبِيرُ وَالعَارِفُ الشَّهِيرُ

الإِمَامُ المُفَسِّرُ المُحَدِّثُ الشَّيْخ

عبد الله سراج الدين الحسيني

رحمه الله تعالى

وفي مُقدِّمتها صفحاتٌ في ترجمةِ الشَّيخ الإمام

رضي الله تعالى عنه

تقديمٌ وجمعٌ

وَلَده

محمّد محيي الدّين سراج الدّين

ترتيب وضبط

تلميذه

محمّد علي الإدلبي

الجُزْءُ الأَوَّل

الطبعة الأولى

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فهذه صفحات ، فيها قبسات من سيرة والدي وسيدي ، الشيخ الإمام عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالى ، ولم أكن أجرؤ يوماً أن يخط قلمي كلمات ، أو يجري على لساني عبارات ، تحمل معاني المدح والثناء ، على صاحب ذلك المقام العظيم ، الراسخ في العلم والمعرفة بالله تعالى ، الفاني في محبة الله تعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم. إلا أني إذا عجزت عن إدراك جميع ما هنالك ، فإن كثرة الإلحاح من بعض الأصحاب والأحباب ، لذكر بعض مناقب ذلك الجناب ، جعلتني أسمح لنفسي أن أذكر شيئاً يسيراً عن ذلك الإمام الهمام ، الذي نطق جميع أهل زمنه بفضله ، وأذعن علماء عصره لعلمه ، وتَصَدَّعت القلوب لفقده ، وذرفت العيون لفراقه ، الذي كان يؤثر الخفاء صدقاً مع الله تعالى ، وإخلاصاً له سبحانه وتعالى.

ويرحم الله القائل:

وإنّي أُمَنِّي النفسَ لَثْمَ بَنانِه وما كانَ مثلي للسحائب لاثِمُ

وأسأل الله تعالى أن يوفقني لجمع كتاب خاص بمناقب والدي وسيدي شيخنا الإمام رضي الله عنه، لتكون سيرته الحميدة نِبراساً لكل مؤمن، يتعرف من خلاله على حياة ومآثر أهل العلم والفضل، لَعَلَّه يتأسى بهم، ويسلك طريقهم الموصل إلى رضا الله تعالى، ورضا رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

* * *

ولادته ونشأته العلمية

ولد الشيخ الإمام سيدي الوالد عبد الله بن محمد نجيب سراج الدين رضي الله تعالى عنه في بيت عُرِف ببيت الفضل والكرم والعلم ، وذلك لما اشتهر عن والده رضي الله عنه بحل المعضلات العلمية ، وبيان ما التبس فهمه واشتبه أمره من العلوم والمعارف العالية. حيث إنّ كبار علماء ذلك الوقت كانوا يقصدونه ، فإذا قال لهم قولاً أذعنوا له ، وكان قوله هو القول الفصل ، ولذلك كانوا يتساءلون فيما بينهم: ماذا قال الشيخ محمد نجيب في ذلك؟ رضي الله عنه ونفعنا الله بعلومه وبركاته.

وقد عرف عن الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه عُلو المكانة ، ورِفعة المقام والمنزلة في قلوب أهل عصره ، فقد درج على ألسنة كثير منهم كلمات التكريم والتعظيم لمقام الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه إنْ هم ذكروه؛ أو سمعوا شيئاً من كلامهْ؛ أو عن مناقبه.

في هذا البيت العامر باليمن والبركة ، المشهور بالعلم والمعرفة ، كانت ولادة مولانا الإمام الشيخ عبد الله رضي الله تعالى عنه سنة (١٣٤٢) للهجرة الشريفة.

وفي هذا البيت الفاضل ، المعروف بالنسب والحسب ، نشأ شيخنا الإمام رضي الله عنه ، وتربىٰ في أحضان والده العارف الكبير الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ، ووالدته السيدة خديجة

المكتبي بنت الشيخ وحيد المكتبي ، الذي استُشْهد في أيام الحرب العالمية الأولى ، فكفلها عمها العلامة الكبير ، فقيه عصره السيد الشيخ أحمد المكتبي رحمه الله تعالى.

وقد حظي شيخنا الإمام رضي الله عنه منذ صغره بدعوات وبركات من العلماء والأولياء والصلحاء ، الذين كانوا يزورون مولانا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ، أو يزورهم؛ لأنه كان بصحبته في غالب الأحيان.

وقد تعلم شيخنا الإمام رضي الله عنه تلاوة القرآن الكريم وتجويده في كُتَّاب جامع سليمان الأيوبي ، عند الشيخ عثمان المصري رحمه الله تعالى ، ويقع قريباً من دار الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه.

كما قرأ عند الشيخ المذكور رحمه الله تعالى شيئاً من قواعد اللغة العربية.

ولما أتقن تجويد القرآن الكريم حَبَّبَ إليه والده رضي الله عنه استظهار القرآن ـ يعني: حفظه عن ظهر قلب ـ فشرع شيخنا الإمام في ذلك عند الشيخ عبد الوهاب المصري رحمه الله تعالى[1] في كُتَّاب قَريب من جامع العثمانية ، فاستظهر القرآن الكريم وله من العمر اثنتا عشر سنة.

وكان في تلك الفترة يذهب إلى معهد الفلاح في جامع السلطانية ، الذي كان يديره الأستاذ الكبير الشيخ محمد خير الدين إسبير ، وقد تعلم في تلك السنوات القراءة والكتابة ، وتوسع قليلاً

---

(١) ولد سنة /١٣٢٠/ هـ ، وتوفي سنة /١٤١٢/ هـ رحمه الله تعالى ورضي عنه.

في علوم اللغة العربية، وحفِظَ نصوصاً في البلاغة والشعر كقصيدة: «بانت سعاد» للصحابي كعب بن زهير رضي الله عنه، وقصيدة البردة للبوصيري رحمه الله تعالى، وحفظ شيئاً من القصائد والمدائح النبوية، كما حفظ طائفة كبيرة من أحاديث المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وكان في ذلك كله يحوز على الدرجة الأولى، ويتفوق على مَنْ معه بأسبقية شَهِدَ بها كل من درَّسه أو سمع له.

دراسته للعلوم الشرعية

كان من جملة أَنظمة المدرسة الخسروية التي تُعنى بتدريس العلوم الشرعية: أن لا يُقبل إلاَّ من تجاوز الخامسة عشرة من عمره، ويخضع فيها الطالب لامتحان قبول، يُعرَض فيه على لجنة من العلماء والمدرسين، بحيث يُمتحن الطالب في القراءة والكتابة ومبادىء اللغة العربية وتجويد القرآن الكريم.

وقد قبلت إدارة المدرسة شيخنا الإمام ولم يبلغ الثالثة عشرة من عمره بَعْدُ، وذلك لما وجدوا فيه من الاستعداد الكامل، والأهلية التامة؛ لمتابعة العلوم الشرعية، وكان من المتفوقين في فحص القبول.

أمضى ما يقرب من ست سنين في المدرسة الخسروية، استمع فيها إلى دروس كبار العلماء والمشايخ منهم: الشيخ محمد سعيد الإدلبي(١)، والشيخ إبراهيم السلقيني الكبير، والشيخ أحمد الحجي الكردي أمين الفتوى وقتئذ، والشيخ عيسى البيانوني،

---

(١) ولد سنة /١٢٩٢/ هـ، وتوفي سنة /١٣٧٠/ هـ رحمه الله تعالى ورضي عنه.

والشيخ فيض الله الكردي ، والشيخ عمر مارتيني ، والشيخ راغب الطباخ[1] مدير المدرسة الخسروية وقتها ، وغيرهم من المدرسين أهل الفضل والعلم رحمهم الله تعالى ونفعنا بهم.

وكان في تحصيل العلم من المتفوقين ، حاز الدرجة الأولى في جميع سني دراسته ، والتفت إلى حفظ متون أمهات العلوم؛ وإن لم تكن كلها من مقررات المدرسة وقتها ، إلاّ أنّ رغبته الصادقة في تعلم العلوم الشرعية حملته على ذلك:

فحفظ متن الجزرية في علم التجويد ، ومتن الجوهرة ومتن السنوسية في علم التوحيد ، ومتن السلم في علم المنطق ، ومتن البيقونية في علم مصطلح الحديث ، وألفية ابن مالك في علم النحو والصرف ، وعقود الجمان في علم البلاغة ، ثم حفظ ألفية الحافظ العراقي في السيرة ، والرحبية في علم الفرائض وغيرها.

اشتغاله بعلم التفسير والحديث

قال شيخنا الإمام رضي الله عنه:

«لقد حَبَّب الله تعالى إليَّ حفظ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منذ صغري. ولما كنت في الصف الثاني الإعدادي في المدرسة الخسروية ، رأيت في مكتبة والدي رضي الله عنه كتاب «تيسير الوصول»[2] ويقع في أربع مجلدات ، تناولت المجلد الأول

(١) ولد سنة /١٢٩٣/ هـ ، وتوفي سنة /١٣٧٠/ هـ رحمه الله تعالى ورضي الله عنه.

(٢) إلى جامع الأصول ، وهو مختصر «جامع الأصول لأحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم» للإمام عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الديبع الشيباني ، ولد سنة /٨٦٦/ هـ وتوفي سنة /٩٤٤/ هـ رحمه الله تعالى.

منها في العطلة الصيفية ، وشرعت في الحفظ ، حَتّى حفظت في كل عطلة مجلداً ، وأنهيت الحفظ في آخر عطلة من دراستي في المدرسة الخسروية ، وكنت لا أَشرع في حفظ شيء جديد حتى أتمكن وأتقن محفوظاتي السابقة.

وكنت أتناول كتب تفسير القرآن الكريم ، وأحاول فهم آيات الله تعالى من خلال أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهي في الحقيقة بيانات لمعاني القرآن الكريم ، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] ولم يكن يخطر في بالي مرة أني سأتصدر مجلساً للتدريس ، أو أصعد منبراً للخطبة ، بل إنَّ الباعث لي على ذلك كله هو حبي لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، ورغبتي الشديدة في تعلم آيات الله تعالى وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا أنني بعد ذلك وَجَدْت قيمة ذلك وأثره ، لَمَّا استلمت الخطبة والتدريس عن والدي الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ، وعلمت أَنّ سلاح طالب العلم هو: قال الله تعالى وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وبدون ذلك أنّى للعالم أن يتكلم؟!» اهـ.

قلت: وفي ذلك إعداد من الله تعالى لشيخنا الإمام ، وإمداد له منذ صغره ، ودليل على صدقه وإخلاصه في طلب العلم ، فلم يك يبتغي من وراء ذلك منصباً ولا جاهاً ولا وظيفة ، وقد تجلّىٰ ذلك لما خرج من المدرسة الخسروية ولم يُكمل الصف السادس فيها ، ولم يحصل على شهادة منها ، وكان ذلك بسبب أَن إدارة المدرسة أدخلت جُملة واسعة من العلوم الكونية في المقررات ، وأجبرت طلاب الصف السادس على الرجوع إلى الصف الرابع لدراستها.

مطالعته وتدريسه

ثم إنَّ مولانا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه أَشار على شيخنا الإمام أَنْ يقوم بالتدريس بدلاً عنه ، بسبب الوهن والمرض الذي أصاب الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه. فقام شيخنا الإمام رضي الله عنه بذلك خير قيام ، مستعيناً بالله تعالى وتوفيقه وتأييده ، وقد قارب العشرين من عمره ، ثُمَّ إنه حصل على غرفة والده الشيخ محمد نجيب رحمه الله تعالى في المدرسة الشعبانية ـ وكان يقال لها: أزهر حلب ـ ، وكان الشيخ محمد نجيب رحمه الله تعالى قد جاور فيها أيام طلبه للعلم.

وبقي شيخنا الإمام يتردد إلى تلك الغرفة ، يقضي أوقاته في مطالعة الكتب العلمية ، ويتناول المطولات منها في علم التفسير والتوحيد ، وشروح الحديث ، والفقه ، وغيرها ، وبقي على ذلك ما يقرب من سنتين.

ولما اقتضى الأمر أَنْ تكتسب دروسه صفة رسمية لدى الجهات المسؤولة، تقدَّمَ إلى مسابقة أعلنت عنها دائرة أوقاف حلب، لدرس وقفي شاغر ، وكان لشيخنا الإمام الفوز والأسبقية في النجاح.

أما دروسه العامة فنهج فيها نهج والده الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ، من حيث توقيت الدرس والأبحاث العرفانية العالية

التي كان يتناول الكلام عنها، بأسلوب مُبسَّط يسهل على الحاضرين فهمه، ويفهمونه على حسب علمهم وفطانتهم، خاصة أنه يكثر من ذكر الآيات والأحاديث التي تُؤيد الموضوع الذي يبحث فيه.

فكان هناك درس في جامع بانقوسا بعد صلاة العصر من كل يوم جمعة، يبحث فيه في القضايا الإيمانية العلمية.

وهناك درس في الجامع الكبير بعد صلاة الظهر في كل يوم اثنين، يتناول فيه الكلام حول قضايا الإيمان الغملية.

ولا يخفى على مَنْ كان يحضر دروسه أَنها كانت متسلسلة في الأبحاث، يبتدأ الشيخ الإمام فيها بتذكير الحاضرين بالدرس المتقدم، ليستجمع الحاضر فكره وقلبه إلى ما سيلقي شيخنا الإمام من بيانات وأبحاث.

وكان له صباح كل يوم عدا يوم الجمعة دَرس في جامع الحموي، يقرأ فيه أبحاثاً من السيرة النبوية، والتفسير، والحديث، والفقه وهكذا، ثم اختصر تلك الدروس على أيام الأحد والأربعاء والخميس، وذلك بسبب كثرة مشاغله، خاصة أنّه وُكِّل إليه تدريس التفسير، والحديث وعلومه، والفقه؛ في الثانوية الشرعية ـ وكانت تعرف من قبلُ بالمدرسة الخسروية ـ.

كما كان شيخنا يخطب الجمعة في جامع سليمان الأيوبي، الذي كان يخطب فيه قبله والده الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه.

* * *

افتتاحه للمدرسة الشعبانية وتأسيسه لجميعة التعليم الشرعي

لما عُدِّلت مناهج المدرسة الخسروية ، وقُرِّر فيها دراسة كثير من المواد الكونية على حساب المواد الشرعية ، تأثر لذلك كثير من العلماء الأفاضل في ذلك العصر ، ومنهم الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ، الذي رأى حضرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وهو يأمره أن يفتتح مدرسة تُخصص لدراسة العلوم الشرعية على النهج القديم.

وبحث مولانا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ذلك الأمر مع أصحابه ، إلا أنّ الوهن والمرض الذي أصابه حال دون تحقيق رغبته ، حتى توفاه الله تعالى سنة /١٣٧٣/ هـ وبقيت الفكرة قائمة لدى شيخنا الإمام ، إلى أن وَفَّقَه الله تعالى إلى ذلك سنة /١٣٨٠/ هـ بالتعاون مع بعض المدرسين والعلماء؛ الذين كانوا قد تركوا التدريس في المدرسة الخسروية. وكان افتتاح الصف التحضيري والصف الأول في غرفتين في جامع الحموي ، حتى حصل شيخنا الإمام على المدرسة الشعبانية ، التي كانت قد أُغلقت وأُلْحِقَ طلابها بالمدرسة الخسروية.

وكان شيخنا الإمام قد أشار على بعض المحسنين الموسرين ممن يحضرون دروسه أن يسعوا لإنشاء جميعة خيرية ، تقوم

بالإنفاق على طلاب العلم الذينَ يدرسون في المدرسة الشعبانية.

وقد تحققت رغبة شيخنا الإمام، وأَسَّس جمعية التعليم الشرعية، وأشهرت لدىٰ الجهات الرسمية. حتى إنّ المسؤول الذي وافق على ترخيصها وقتئذٍ ـ وقد نظر في أعمالها وأهدافها ـ قال: هذا ما أرجو الله تعالى أن ينفعني به إذا صرت في قبري.

ولما اكتملت صفوف المدرسة ست صفوف، مِنْ مرحلتين إعدادية وثانوية، رأى أحد خاصة تلامذة الشيخ محمد نجيب، وأحد خاصة مدرسي المدرسة الشعبانيه، فضيلة الأستاذ الشيخ محمد بن محمد بن محمد آل الغشيم رحمه الله تعالى [١٣٢١ ـ ١٣٩٨] في المنام، رأى الشيخ نجيب رضي الله عنه وأثر التعب على وجهه والعرق في جبينه، فقال له: مِمَّ هذا يا سيدي؟!!.

فقال الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه له: «انظر... الآن لقد أتممت لكم رصف الطريق الموصل إلى باب المدرسة الشعبانية» فنظر الشيخ الغشيم فرأى الطريق مُعبدة مرصوفة نظيفة.

ولما قص تلك الرؤيا على شيخنا الإمام قال:

«رحِم الله تعالى والدي، وجزاه عنا خير الجزاء، فإنّ فكرة إنشاء المدرسة كانت بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له، ولا يزال يعمل على تحقيق ذلك حتى حصلت رغبته، وحقق الله مراده، والحمد لله رب العالمين، والأمر كله في كتاب أعماله الصالحة إن شاء الله تعالى».

وبقي شيخنا الإمام رضي الله عنه يدير المدرسة، ويرعاها بعنايته وتوجيهاته ودعواته حتى توفاه الله تعالى، ولا زالت بفضل

الله تعالى تُخرج طلاب العلم الأكفاء ، لمتابعة الدراسات العليا في شتى المعاهد والجامعات ، ومنهم الأئمة والخطباء والمدرسون.

وقد كان رضي الله عنه يقول: «لقد تشعَّب عن المدرسة الشعبانية كل خير والحمد لله ، فقد تفرع عنها دار لتحفيظ القرآن الكريم ، وتعليم القراءات ، وحلقات لقراءة الحديث الشريف. وكم من مدرسة شرعية أُنشئت بعد المدرسة الشعبانية ، وقد استعانت بمناهجها والحمد لله».

وكان رضي الله عنه يقول: «لقد عَمَر المدرسة الشعبانية حساً ومعنىً أكابر الرجال من العلماء والأولياء ، ومنهم مَنْ جاور فيها لفترات طويلة ، ولا تزال بركاتهم وآثار طاعاتهم وعباداتهم لله تعالى مشهودة عند أهل التقى والصفاء».

ويقول رضي الله عنه: «وإن المدرسة الشعبانية وإن كانت حسب الظاهر متواضعة بجدرانها وبنيانها، إلا أنها شامخة بمن عَمَرها ودَرَس أو دَرَّس فيها ، ولها مكانتها وعُلُوُّ مرتبتها عند الله تعالى» ا هـ.

قلت: وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه لا يترك في دعائه الدعاء للمدرسة الشعبانية وما يتبعها ، وللعاملين عليها ، والمدرسين فيها ، ولطلابها وإدارتها.

وكان يوصي المدرسين فيها كلما زاروه ، يُوصيهم بالاهتمام وببذل الجهد في التعليم ، وأن يحافظوا على حلقات السلسلة العلمية الشرعية ، ولا يَدَعُوا النقص والضعف والتفكك يَسْري إليها ، فكما أخذوا العلم عن مشايخهم بقوة؛ فعليهم أن يوصلوه إلى من بعدهم بقوة وهكذا. . .

وكان يشحذ همة المدرسين والطلاب أيضاً ، ويبشرهم بأنّ الشعبانية محفوفة بالأنظار المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم ، فمن عمل فيها أو أسدىٰ إليها معروفاً فقد ناله من النفحات والأنظار المحمدية؛ على حسب صدقه وإخلاصه لله تعالى .

قلت : وقد قص شيخنا الإمام مرة أنه رأى حضرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام ، وهو يصلي إماماً في ساحة المدرسة الشعبانية ، وقال رضي الله عنه : «لقد عمرتها أنوار الحبيب الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنوار العلماء والأولياء والصالحين نفعنا الله تعالى بهم أجمعين» .

وكان من عادته رضي الله عنه في شهر رمضان المبارك أَن يصلي العشاء والتراويح إماماً في جامع الحموي ، وبقي على ذلك سنين ، ثم نقل ذلك إلى جامع المدرسة الشعبانية ، حباً فيها ، وإحياءً لها ، وخاصة أيام العشر الأخير من رمضان ، ويطيل الدعاء بعد الصلاة؛ لِما لتلك الليالي المباركة من عظيم الفضل ومضاعفة الأجر .



كلمات
حول ميزات دروسه العامة

كانت مجالس دروسه مجالس صفاء ونقاء ، وسَمُوٌّ وارتقاء ، ينشرح لها الصدر ، ويصفو بها القلب ، وتسمو النفس في مراتبها ، ويشعر المرء فيها بالتجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، إذ تنساب إلى قلبه معاني آيات الله تعالى ، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأسلوب سهل العبارة ، رقيق الكلمة ، خاصة أنه رضي الله عنه كان يُكثر من ضرب الأمثلة التي تبين للسامع ما أراد ، ولا يلجأ إلى الكلمات العامية المنتشرة على ألسنة الناس؛ إلا إذا أراد أن يبين غُموضَ كلمة ، أو توضيح جملة دقيقة المعنى.

وكان أسلوبه في الدرس أسلوب الإلقاء ، فلا يقرأ من كتاب أمامه ويشرح عباراته ، بل كان قبل أَنْ يذهب إلى الدرس يجمع في صدره ما يريد إلقاءه ، ثم يأتي به كالوابل الصيب ، بكثرة الأحاديث النبوية ـ التي يأتي بها على وجهها لفظاً وتخريجاً ، مع ذكر اسم الصحابي الراوي لها عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان يحذِّر من طريقة كثير من المدرسين والخطباء الذين يأتون بالحديث على معناه ، ويقولون في آخر الدرس أو

الخطبة: أو كما قال. بل كان يستهجن هذا العمل ـ التي تدور في موضوع المحاضرة، وقد أحصى بعضهم عدد الأحاديث التي أتىٰ بها في بعض محاضراته فبلغت سبعاً وعشرين حديثاً برواتها. وكان في درسه يَضع أمامه على الطاولة الصغيرة المعروفة (بالرحلة) يضع كتاب (صحيح البخاري) متبركاً به، وليكون موضع نظره خلال سكتاته القليلة حين إلقائه المحاضرة، وعلى هذا جرى فضيلة مولانا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه.

قال شيخنا الإمام رضي الله عنه: «كنت في بداية دروسي قد تناولت البحث في قصص الأنبياء عليهم السلام؛ بدءاً من آدم عليه السلام، حتى انتهيت في البحث حول بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسيرته وشمائله، ووقفت على بابه صلى الله عليه وآله وسلم ولم أَحِدْ عنه... ووفقني الله تعالىٰ إلى البحث حول مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم، وفصَّلت الكلام على ذلك ولم أنتهِ بَعْدُ.

وأما أبحاثي حول قصص الأنبياء عليهم السلام فكانت مُفَصَّلَةً، أعتمد فيها على ما ذكره الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم حول قصصهم، ومناظراتهم لأقوامهم، والأدلة والبينات التي أيدهم الله تعالى بها، وكثيراً ما كنت أَرَدُّ أباطيل وأدفع شبهات ذُكرت في بعض الكتب تتنافىٰ مع عصمة الأنبياء، وجلالة قدرهم عليهم السلام».

وقال رضي الله عنه: «لما رأيت في بداية الأمر تزاحم الناس على سماع دروسي، سألت الله تعالى أن يُبَشرني بأنَّ دروسي مقبولة مرضية عند الله تعالى وعند رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، خاصة أنَّني كنت لا أبغي من دروسي أجراً ولا منصباً

ولا شُهرة ، بل إنّ غايتي ومقصدي هو رضا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، بتعليم الناس أمور دينهم ، ونشر وبيان شريعة الله تعالى».

قال رضي الله عنه: «فنمت تلك الليلة فرأيت نفسي إلى جانب بستان كبير ، تحيطه أشجار خضراء زاهية ، ووقع في نفسي أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم داخل غرفة في البستان يُدرس أصحابه ، فجعلت أبحث عن باب الدخول ، فإذا أنا بسيدنا أبي بكر رضي الله تعالى عنه يُقْبِلُ عليّ ويقول لي: هيا بنا نحضر مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأخذني ودخلت البستان ، ولما أردنا الاستئذان على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سمعناه يقول: «ادخلا ، ادخلا» فدخل أبو بكر رضي الله عنه فنهض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مجلسه ورد عليه السلام ، ثم تقدمت وسلمت على حضرته الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان أمامه صلى الله عليه وآله وسلم طاولة صغيرة ، تشبه تلك التي توضع أمامي أثناء الدرس ، والبهاء والأنوار مشرقة في وجهه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى إنني لم أتمكن من التحديق في وجهه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم. . . . . فارتميت على أقدامه الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم ، وجعلت أُقَبِّل هذه وهذه ، وأكرر ذلك وأقول في نفسي: هاتان القدمان شَرّفتا السموات ليلة المعراج ـ وغلبني البكاء حتى استيقظت فَرِحاً مستبشراً مطمئناً ، وقلت في نفسي: إنّ انكبابي على أقدامه الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم دليل الاتباع الصادق إن شاء الله تعالى ، ونسأل الله التوفيق لما يحبه ويرضاه».

ولقد كانت محاضراته في جامع بانقوسا تَدور حول أبحاث التوحيد والقضايا الإيمانية العلمية الاعتقادية ، وبقي يبحث حول مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم ما يزيد على عشرين سنة ـ أي: حتى عام / ١٣٩٩/ هـ ـ وهذا الكتاب من تلك الدروس التي ألقاها في هذا الجامع قبل سفره.

ولما رجع من المدينة المنوَّرة التي جاور فيها ثلاث سنوات ونصف السنة ، افتتح محاضراته في جامع بانقوسا بالكلام حول تفسير سورة الفاتحة ، على أثر بشارة كان قد رآها أيام مجاورته في المدينة المنوَّرة ، وبقي واستمر يبحث حول تفسير سورة الفاتحة ما يزيد على سنتين ، ثم شرع في تدريسه حول تفسير خواتيم سورة البقرة ، وخواتيم سورة آل عمران ، إلى أن تَوَقَّف عن التدريس في جامع بانقوسا بسبب اعتلال صحته ، ووهن جسمه ، واقتصر على التدريس في الجامع الكبير المعروف بجامع سيدنا زكريا عليه السلام.

واستمر في التدريس فيه حتى عام / ١٤١٠/ هـ ، وكانت أبحاثه فيه تدور حول قضايا الإيمان العملية ، ويفتتح الدرس ـ في هذا الجامع من حين ابتدائه التدريس به ـ بقول سيدنا رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم:

«بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إلَه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان»[1] وكان يرويه بإسناد الإمام البخاري رحمه الله تعالى ،

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن غير واحد من الصحابة رضوان الله عليهم.

فيقول: أما بعد: فبالسند المتصل إلى الإمام أبي عبد الله ، محمد ابن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه ، قال: حدثنا. . . .

وقال شيخنا الإمام رضي الله عنه: «ولقد لمست في الناس في السنوات الأخيرة جَهلاً شديداً في أمور دينهم ، حتى صارت القضايا الفطرية المسلمة تحتاج إلى دليل وبيان ، وسبب ذلك قِلّة مجالس العلم ، والتفات الناس إلى أمور الدنيا وزينتها ، كل ذلك جعلني أقتصر في دروسي على بيان أمور الدين الضرورية التي لا بد للمؤمن من معرفتها والإحاطة بها؛ اعتقاداً وعملاً وتخلقاً وأدباً ، وتناولت ذلك بأسلوب سهل ، وكلمات مألوفة ، لأنّ قصدي انتفاع الناس بما يسمعون».

ثم لزم البيت واعتزل فيه لأمر يريده الله تعالى ، وعكف على جمع وتصنيف الكتب العلمية الدينية ، وفيها ما يحتاجه الناس لفهمِ أمور دينهم.

وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه يجلس في الدرس كهيئة جلوسه في الصلاة ، وذلك في مقدمة السدة المعروفة في كلٍ مِنْ جامع بانقوسا والجامع الكبير ، ويجلس متوجهاً إلى القبلة ، وأمامه رحلة صغيرة كتلك التي يُوضع عليها المصحف أثناء التلاوة في المسجد.

وكان إذا شرع في الدرس استغرق فيه ، وارتفع صوته ، واحمر وجهه ، ولا يشعر بمرور الوقت ، فلا يتعب ولا يسأم ، لكنه يراعي أحوال الحاضرين في الدرس ، وكان قد كلف بعض أصحابه أَنْ يمر أمام المحراب إذا مضى من الوقت خمسون دقيقة ، فإذا

وقع بصره عليه راحَ يشرع في ختم الدرس ، وكثيراً ما كانت تتجاوز فترة الدرس الساعة وربع الساعة ، ولا أحد من الحاضرين يملُّ أو يكلّ ، بل يراهم الناظر مصغين خاشعين ، متوجهين بقلوبهم إلى كلام الشيخ رضي الله عنه ، وبأبصارهم إلى وجهه المنير رضي الله عنه.

قال شيخنا الإمام رضي الله عنه: «وكنت قد رأيت سيدنا زكريا عليه السلام في المنام فقال لي: إنك إذا جلست إلى الدرس جعلتُ أنظر إليك حتى تنتهي من درسك».

قال شيخنا الإمام رضي الله عنه: «وهذه من البشائر المتوالية عليّ بفضل الله تعالى ، وأننا محفوفون بأنظار سيدنا زكريا عليه السلام ، كما أَنّ أنظار خير البرية وإمام الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا تنقطع عنا ، كما أتتني البشارة بذلك في عدة مناسبات ، وعلى لسان من لقينا من أهل الله تعالى ، ومنهم السيد الكبير ، العارف بالله تعالى ، الشيخ أحمد الحارون الدمشقي وغيره رضي الله عنهم أجمعين».

وأما دروسه في جامع الحموي فكانت مجالس تفسير وحديث ، وقد اقتصرت على أيام الأحد والأربعاء والخميس بعد شروق الشمس بنصف ساعة تقريباً.

فيقرأ صباح الأحد درس تفسير لكلام الله تعالى ، أما صباح الأربعاء فيقرأ من صحيح الإمام البخاري رضي الله عنه ما تيسر له من أحاديث على حسب الأبواب ، ثم يشرع في بيانها ، وكذلك صباح الخميس فيقرأ عدة أحاديث من كتاب رياض الصالحين

للإمام النووي رضي الله تعالى عنه ، ثم يتناول البحث في معانيها ومقاصدها.

قلت: وكان يحضر مجالس تدريسه عَدَد من مشاهير العلماء آنذاك ، فضلاً عن طلاب العلم ، وصلحاء الناس على اختلاف مراتبهم ، وذلك لأن دُروسه وأبحاثه فيها تميزت بأنها عامة وليست لعوام الناس فقط ، وكان كل من الحاضرين ينهل من هذا المعين الفياض على حسب طاقته وفهمه وعلمه.

حضر درسه يوماً العلامة المحدث ، الشيخ السيد عبد القادر السقاف الحضرمي أمتع الله به ، وكان قد قدم من بلاد الحجاز لزيارة شيخنا الإمام صيف سنة /١٣٩٦/ هـ فكان من كلامه لأصحابه لمّا فرغ شيخنا الإمام من درسه: «لقد سمعت من هذا السيد العارف بالله تعالى كلاماً لم أسمعه من أحد قبله ، ولم أقرأه في كتاب» اهـ إنه فتح من الله تعالى ، وفيض منه سبحانه على هذا الشيخ الإمام ، خاصة أنه يأتي بالمعاني العرفانية العالية ، ويدلل عليها ، ويؤيد كلامه بآيات من كلام الله تعالى ، وأحاديث من كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ولا يعرف قدر هذا إلا من كان من أهل العلم والمعرفة والصفاء والتقى..

* * *

نفحات محمدية
صلى الله عليه وآله وسلم
آثارها ـ بركاتها

قال شيخنا الإمام رضي الله عنه:

«كان سيدي الوالد رضي الله عنه قد قص علينا أنه رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام، وأمره أن يفتح فمه، فتفل صلى الله عليه وآله وسلم فِي فِيْهِ ريقاً من فمه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم، ثم أَمَره صلى الله عليه وآله وسلم أن يَفْتح فمه مرَّة أخرى، فأخرج صلى الله عليه وآله وسلم من صدره الشريف نخامة وتَفلها في فم سيدي الوالد فابتلعها، ثم ضرب على ظهر سيدي الوالد وقال له صلى الله عليه وآله وسلم: لا بأس عليك يا شيخ نجيب، لا بأس عليك يا شيخ نجيب».

وكان الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه يتأول هذه التفلات المحمدية بالعلوم الشرعية الظاهرة، والعلوم العرفانية العالية، وهي ما يعرف بعلم الحقائق والمعارف الإلٓهية، وقد اشتهر عن الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه براعته فيها وتمكنه منها.

قال شيخنا الإمام رضي الله عنه: «وإن لهذه التفلات المحمدية آثاراً نورانية، تسري في ذرية الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه،

وقد أكرمني الله تعالى بأني رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام ، وذلك بعد وفاة والدي رضي الله عنه بفترة وجيزة ، رأيت والدي الكريم وقد أخذ بيدي ضمن حشد من العلماء والأولياء ، وكلهم ينتظرون قدومه صلى الله عليه وآله وسلم ليتشرفوا بالسلام عليه صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما أقبل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بطلعته البهية ، وأنواره الزهية ، ومعه عدد من صحابته الكرام ، وإلى جانبه السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وهي في غاية الحشمة والوقار ، فلما سلمتُ عليه صلى الله عليه وآله وسلم تَفَلَ ، فَوقَعتِ التفلة المباركة على كتف السيدة عائشة رضي الله عنها ، فتقدمت وأخذتها وابتلعتها؛ والحمد لله تعالى على ذلك ، ثم التفتُّ فلم أَرَ سيدي الوالد رضي الله عنه ، ثم استيقظت فرحاً مستبشراً ، وعلمت أن سيدي الوالد رضي الله عنه هو الذي قد أوصلني إلى حضرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ، ونلت تلك التفلة المحمدية بأسرارها وأنوارها ، وفي ذلك قلت:

صلاة الله تترا كل حين ... على من حُبُّه روح لروحي
ويصحبها السلام بلا انتهاء ... على من ريقه منه فتوحي

* * *

سلوكه طريق العبادة والتقرب إلى الله تعالى

لقد حَبَّبَ الله تعالى إليه منذ صغره تلاوة القرآن الكريم ، وقراءة (دلائل الخيرات) في الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم للإمام الجزولي رضي الله عنه[1] .

وبعد أن استظهر القرآن الكريم وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، كان يختم القرآن كل سبعة أيام ختمة ، وربما في ثلاث؛ خاصة في الأيام الفاضلة كأيام رمضان وعشر ذي الحجة ، وهكذا. . . لأنه كان أيضاً يُراجع محفوظاته من الأحاديث الشريفة وأمهات المتون.

وكان يقرأ كل يوم أيضاً مجموعة الصلوات الإدريسية. وهي عدة منظومات في الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، من نظم الإمام العارف بالله تعالى الشيخ أحمد بن إدريس رضي الله عنه. وكانت هذه المجموعة وشروحها موجودة في مكتبة والده الإمام الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه ، وتُعجبه كثيراً ، وينشرح لقراءتها لما فيها من أسرار ومعان عرفانية عالية.

---

(١) أبو عبد الله محمد بن سليمان الجزولي الإمام ولد سنة /٨٠٧/هـ وتوفي سنة /٨٧٠/هـ رحمه الله تعالى ورضي عنه.

ثم وفقه الله تعالى إلى قراءة أوراد السادة الرفاعية رضي الله عنهم ، خاصة كتاب: (السَّيْر والمساعي في أوراد سيدي أحمد الرفاعي) رضي الله عنه ، وكذلك حزب الفَرَجِ لسيدي أحمد الرفاعي رضي الله عنه أيضاً. ثم جمع رسالة في الأذكار والأدعية المأثورة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الصباح والمساء ، وكانت هذه من جملة أوراده اليومية رضي الله عنه.

وكانت له أوراد في الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأعداد كبيرة ، وأوراد خاصة بباقي الطرق: كالطريقة القادرية ، والطريقة البدوية رضي الله عنهم أجمعين.

وكان يدير حلقة الذكر بأسلوب يتفق مع جميع الطرق الموصلة إلى الله تعالى ، وذلك ليلة الثلاثاء من كل أسبوع في جامع سليمان الأيوبي ، ثم نقله إلى جامع العثمانية لاتساعه؛ بسبب إقبال الناس على حضور حلقة الذكر.

وأما عن قيامه في الليل للتهجد ، فلم يدعه منذ صغره حتى آخر أيام عمره المبارك ، كما أخبرتنا بذلك الوالدة الكريمة أمدها الله بمدده وعونه.

وكان يجهر في قيامه بتلاوة القرآن ، وبالأدعية المأثورة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قلت: وكثيراً ما كان شيخنا الإمام رضي الله عنه يُحَرِّضُ على قيام الليل ويرغب فيه في مجالسه العامة والخاصة ، ويقول: «لقد دلت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الواردة في ذلك على أن من أراد خير الدنيا والآخرة ، والوصول السريع إلى

مقامات القرب من الله تعالى: فعليه بالمواظبة على قيام الليل ، ولو قبيل الفجر بشيء يسير ، لئلا تفوته ساعة التجلي الأكبر على العباد بالجود والعطاء».

وكان رضي الله عنه إذا أراد أن يختم القرآن الكريم جَمع من كان في البيت من أولاده وأحفاده وشرع في الختم ثم الدعاء ، وذلك عملاً بما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[١].

وكان رضي الله عنه في السنوات الأخيرة من عمره المبارك يختم القرآن الكريم كل ثلاثة أو أربعة أيام. ويا ليتَ عين كل مؤمن تنظر إلى تلألؤ وجهه بالبهاء والنور ، خاصة حينما كان يقرأ القرآن أو يدعو الله تعالى.

* * *

---

(١) ينظر كتاب تلاوة القرآن المجيد للشيخ الإمام ص / ١٣٤/ وما بعدها.

بعض كراماته

كانت صفة الذل والانكسار لله تعالى ظاهرة عليه ، لا تخفى على من اجتمع به ، وكثيراً ما كان يقول: «أنا عبد الله اسماً وصفة وتحققاً ، وإنّ شرفي وعزتي بعبوديتي وعبادتي لله تعالى ، وخدمتي لكتاب الله تعالى وأحاديث رسوله صلى الله عليه وآله وسلم».

وكان متواضعاً مع عباد الله تعالى ، امتثالاً لأمره سبحانه بقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] واتباعاً لما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «وما تواضع عبد لله إلا رفعه الله تعالى»[١].

وكان يقول: «مهما حاول المرء أن يأتي بجملة فيها معنى غاية التواضع للمؤمنين؛ لما استطاع أن يقول جملة أبلغ وأفصح وأدق من قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]».

وكان رضي الله عنه يؤثر الخفاء والتستر على التظاهر والتفاخر، ويذكر الحديث الذي رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي[٢] ، عن

---

(١) رواه الإمام مسلم في (الصحيح) /٢٥٨٨/ (٥/٢٥٢٧) والترمذي في (السنن) /٢٠٣٠/ (٦/ ٢٣٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ابن ماجه /٣٩٨٩/(٢/ ١٣٢٠) والحاكم (٤/١) و(٣/ ٢٧٠) البيهقي في الزهد الكبير (١٩٥).

سيدنا معاذ رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اليسير من الرياء شرك ، ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة ، إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء ، الذين إنْ غابوا لم يُفْتقدوا ، وإن حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل غبراء مظلمة».

أي: أن الله تعالى يحفظهم من الفتن التي يُضَلُّ بها غيرهم.

وكان إذا سمع من أحد مدحاً وثناءً عليه ، أو ذِكْراً لبعض كراماته بادر إلى القول:

«اللهم استرنا اللهم استرنا» ، ويردد ما جاء عن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه: «اللهم اجعلني خيراً مما يظنون ، ولا تؤاخذني بما يقولون ، واغفر لي ما لا يعلمون».

ومن كلامه رضي الله عنه: «إنّه من خلال اطلاعي الواسع على حياة الصحابة رضي الله عنهم وسيرتهم؛ لم أجد أحداً منهم تظاهر يوماً بكرامة ، أو تَحدث عن أمر خارق للعادة ظهر على يده ، بل كان شأنهم الخفاء والتواضع؛ لأنهم صادقون مخلصون لله تعالى ، يخافون من الرياء والسمعة ، مع أن الله تعالى شهد لهم بالإخلاص له تعالى فقال: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩] فلا غاية ولا قصد لهم إلا فضل الله ، ورضاه سبحانه وتعالى».

قلت: ومن كراماته الشهيرة التي اعترف بها كل من جلس معه ، أنّه يحدثك بكلام فيه أجوبة عن كل ما جال في فكرك من أسئلة واستفسارات ، وكثيراً ما يجد طلاب العلم عنده ما التبس عليهم

فهمه من أمور علمية ، وقضايا شرعية ، بادرهم بالحديث عنها وبيانها؛ قبل أن يسألوه عنها.

قلت: وقد حصل معي هذا مرات عديدة ، حتى إنه مرة أجابني عن تسعة أسئلة كنت أُعِدُّ نفسي لسؤاله عنها رضي الله عنه ، وكان إذا أخبره أحد عن ذلك يتبسم ويقول: «اللهم استرنا ، اللهم استرنا ، الفضل كله لله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم».

ومن كراماته التي تواترت ونقلت عنه ، أن الله تعالى يجيب دعاءه لمن شكا له العقم أو عقر زوجته ، فكم مِنْ أشخاص تعبوا وقاسوا ، وعجز الطب عن دوائهم ، حتى يئسوا من الولد ، أمرهم شيخنا الإمام رضي الله عنه بتلاوة بعض الأسماء الإلَهية بأعداد معينة ، وبدعوات مأثورة؛ فأجابهم الله تعالى ووهبهم أولاداً.

وكم من مريض مُحِبٍّ شفاه الله تعالى بسبب شَربة ماء كان شيخنا الإمام قد قرأ ونفث فيها.

قلت: ويضيق المجال بنا في هذه الكلمات اليسيرة الموجزة عن حياة شيخنا الإمام رضي الله عنه أن نستقصي جُل ما ظهر على يده من كرامات ، وما أجرى الله على يده من خوارق عادات ، وأكتفي بذكر بعضها ، على أني سأسهب الكلام على ذلك في مؤلف واسع يتضمن ذكر مناقب شيخنا الإمام رضي الله عنه إن شاء الله تعالى.

خرج مرة كعادته في نزهة مع بعض أصحابه في السيارة (حول البلدة) ، وفي طريق العودة أسرعت طفلة لا تتجاوز السادسة من عمرها لتقطع الطريق ، ومرت أمام السيارة ، ولم يتمكن السائق من إيقاف السيارة فدهس الطفلة بالعجلات الأمامية والخلفية ، حتى

ذكر من كان مع شيخنا الإمام أنهم سمعوا اختلاف أضلاعها والعجلات تمر فوقها ، وصاح الشيخ رضي الله عنه : الله أكبر . ولما توقفت السيارة نزلوا منها ، ونظروا فإذا بالطفلة تنهض وتركض ولا بأس بها ، فتزاحم الناس على سيارة الشيخ لما سمعوا صوت المكابح ، ورأوا ما حصل ، وقد أخذتهم الدهشة ، ولما رأوا شيخنا الإمام داخل السيارة جعلوا يسلمون عليه ، ويقبلون يده ، فما كان منه إلا أن حمد الله تعالى على خفي لطفه سبحانه ، ودعا لهم ، وأمر بإكرام الطفلة وأهلها .

قدم أحد المهندسين من السودان للعمل في الدراسات والأبحاث الزراعية في شركة أجنبية تعرف باسم (إيكاردا) وقد استأجر داراً من رجل صالح مُحب لشيخنا الإمام ، مواظب على سماع دروسه ومجالسه ، وكان هذا المهندس قد شكا من حصىً في إحدى كليتيه وأجمع الأطباء وقتها على صعوبة وخطورة العمل الجراحي لاستئصالها ، فرأى مرة في نومه شيخاً مهيباً ، منير الوجه ، حسن السمت ، يناوله كوب ماءٍ ، ويأمره بشربه فشربه ، فاستيقظ من نومه حاقناً ، وأسرع لقضاء حاجته ، فاندفعت الحصى ولم يبق في كليته شيء منها ، فأخبر جاره الرجل الصالح ـ مالك الدار ـ عن هذه الحادثة ، ووصف له ذلك الشيخ العظيم الذي رآه في المنام ، فقال له : سأصحبك معي لتتعرف عليه ، ومضى معه لسماع درس شيخنا الإمام في جامع بانقوسا ، فلما نظر المهندس إلى وجه شيخنا الإمام صاح : الله أكبر ، والتفت إلى جاره وقال له : هذا هو الذي أتاني في المنام ، وناولني كوب الماء ، وشفاني الله تعالى به .

ولما ذكر ذلك لشيخنا الإمام رضي الله عنه قال له: «إنك ممن تحب الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وتحب الصالحين، وقد أكرمك الله تعالى بذلك. اللهم استرنا».

ولما توجه إلى بلاد الحجاز سنة /١٣٧٥/ هـ، قاصداً حج بيت الله تعالى وزيارة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، تواتر عمن كان معه من أصحاب وأحباب كرامات كثيرة، أكرم الله بها شيخنا الإمام رضي الله عنه، أكتفي بذكر واحدة منها: وهي أن واحداً من أصحابه المتقدمين، ألمّ به مرض شديد، فخشي عليه أهله أن يموت معهم في الطريق، وشكوا أمرهم إلى شيخنا الإمام، فدعا الله تعالى له متوسلاً بسيدنا محمد رسول الله صلى الله وآله وسلم أن يرفع عنه هذا البلاء، ويرده إلى أهله وبلده سالماً غانماً، فبات تلك الليلة فرأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وقدم إليه صحيفة فيها أسماء.

قال شيخنا الإمام: «فنظرت فيها فقرأت فيها أسماء أصحابي الذين قدموا معي وسيعودون معي؛ وبينهم ذلك الذي كان يعاني من المرض».

ثم إنّ شيخنا الإمام بشر أصحابه بذلك، وما لبث ذلك الرجل أن عافاه الله تعالى ببركة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان ممن عاد مع شيخنا الإمام إلى بلده وأهله.

وكذلك لما حج سنة /١٣٨٥/ هـ وصحبته السيدة الفاضلة والدتي أمدها الله تعالى وأكرمها ـ ومعه جمع من أصحابه ـ وجدوا أيضاً من الكرامات المتعددة ما أدهشهم وزادهم إيماناً، كان أولها:

أنهم لما كانوا في الطائرة ، وكانت من النوع القديم ، وتبلغ مدة الطيران من دمشق إلى جدة خمس أو ست ساعات زمنية ، تضررت بعض أسلاك الكهرباء في الطائرة ، وكان قائد الطائرة وأعوانه من الأوربيين ، حتى جعل بعضهم يمس سقف الطائرة فيجد فيه التوتر الكهربائي ، وظهر عليه الفزع والقلق ، وأعلم الركاب بذلك ، وأنهم على خطر ، فما كان من شيخنا الإمام إلا أن أخذ بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى ، والتوسل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال لأصحابه: لا تفزعوا فإن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد قال: «الحجاج والعمار وفد الله ـ أي: ضيوف الله ـ إن دَعَوْه أجابهم ، وإن استغفروه غفر لهم»[1] وقال شيخنا الإمام: «وحقاً على المزور أن يُكْرِمَ الزائر ، فكيف بمن قصد حج البيت الحرام ، وزيارة خير الأنام صلى الله عليه وآله وسلم؟!!!».

ثم إن الطائرة هبطت بسلام في مطار جدة ، وخرج قائدها من غرفته وقال للركاب: إن فيكم رجلاً عظيماً ذا شأن أنجانا الله تعالى بسببه.

وقبل وفاته رضي الله عنه بثلاث سنوات ، قدم إليه وفد من دولة بعيدة ، وشكوا إليه أن ابناً لأحد وجهاء البلد قد أصيب بمرض نفسي ، أعيا الأطباء علاجه ، وقد طاف به أهله البلاد ، حتى بلغوا بلاد الحجاز ومصر وغيرها؛ فلم يسمعوا من علماء وفضلاء هذه البلاد إلا قولهم: ما عليكم إلا أن تقصدوا رجلاً في حلب ، لو أنه بصق عليه أو نظر إليه لشفاه الله تعالى ، وهو العلامة العارف الشيخ

---

(١) رواه النسائي (٥/١١٣) وابن ماجه/ ٢٨٩٢/ (٢/٩٦٦) وابن خزيمة / ٢٥١١/ .

عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالى ، وقد جئناك لهذا الغرض.

فقال شيخنا الإمام رضي الله عنه: «اللهم استرنا وأكرمنا وأكرم ضيوفنا ، ومن حسّن ظنه بنا ، ولا تخيبنا» ثم قرأ على ماء وأمرهم أن يَشرب منها ، وأوصاهم بتلاوة بعض الآيات القرآنية ، والأدعية المأثورة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أوقات معينة ؛ مع المواظبة. ومضت عدة أشهر ، ما لبث فيها أن تماثل الولد للشفاء. والحمد لله رب العالمين.



إجازات وشهادات

نظراً لما كان يحفظه شيخنا الإمام رضي الله عنه من أحاديث كثيرة ، واطلاعه الواسع على كتب الحديث ، بادر كبار العلماء والمحدثين إلى إجازته للرواية عنهم بما أجازهم به شيوخهم ، واستجازته بما يرويه عن شيوخه ، وكان أول من أجاز شيخنا الإمام رضي الله عنه والده الإمام العارف المحدث الشيخ محمد نجيب سراج الدين رحمه الله تعالى بجميع ما أجازه به شيوخه ، ومنهم الشيخ الكبير المحدث العلامة مسند الديار المغربية ، السيد أبو عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني الحسني المغربي الفاسي [١٢٧٤ هـ ـ ١٣٤٥ هـ] ، ومنهم شيخه المحدث ، العلامة المسند ، الشيخ بدر الدين محمد بن يوسف الحسني الدمشقي ، المعروف بالمحدث الأكبر [١٢٦٧ هـ ـ ١٣٥٤ هـ] ، ومنهم شيخه المحدث العلامة الشيخ بكري بن أحمد الزُّبري الحلبي [١٢٤٠ هـ ـ ١٣١٢ هـ] ، ومنهم شيخه المحدث ، العلامة الشيخ كامل المؤقت الحنبلي الحلبي [١٢٧٠ هـ ـ ١٣٣٨ هـ] وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين ونفعنا بهم آمين.

ثم توالت الإجازات على شيخنا الإمام رضي الله عنه ، من كبار

العلماء والأولياء والمحدثين ، في بلاد الشام والحجاز والمغرب والهند ، كان منهم العلامة المحدث الشيخ السيد محمد مكي بن السيد محمد بن جعفر الكتاني الحسني المغربي ثم الدمشقي ، والعارف المحدث الشيخ علوي المالكي الحسني شيخ الحجاز في عصره [١٣٢٥ ـ ١٣٩١] ، والشيخ محمد خير الدين إسبير الحلبي ، والإمام المحدث العلامة الشيخ أبو علي حسن بن محمد بن عباس بن علي المَشَّاط المكي المالكي ، وغيرهم من الأئمة والمحدثين ممن أجاز شيخنا بإجازات خطية وشفهية ، وأجازهم بما أجازه به الإمام العارف المحدث الشيخ محمد نجيب سراج الدين رحمه الله تعالى .

وسأذكر بالتفصيل إن شاء الله تعالى إجازات شيخنا وأسانيده العالية ؛ في كتاب حول مناقب شيخنا الإمام رضي الله عنه .

قلت : وكان شيخنا الإمام رضي الله عنه يحفظ من الأحاديث النبوية ما يزيد على مئة ألف حديث ، فضلاً عن اطلاعه الواسع على كتب الحديث كلها .

وحصل مرة أن تَلاحى رجلان من أهل العلم من أحباب شيخنا الإمام رضي الله عنه ، وممن كان يحضر دروسه ، وهما من أهل مدينة حماة ، حتى قال أحدهما للآخر : امرأتي طالق إن لم يكن شيخنا الإمام رضي الله عنه يحفظ أكثر من مئة ألف حديث ، ثم انطلقا إلى المدرسة الشعبانية ، لسؤال شيخنا الإمام واستفتائه عما جرى بينهما ، فأطرق شيخنا الإمام رضي الله عنه ثم قال للرجل الذي صدر منه لفظ الطلاق : «امرأتك لا تطلق ، وأعظك أن تُجَنِّب لسانك ألفاظ الطلاق والحرام» .

ولقد حفظ شيخنا الإمام رضي الله عنه أيام طلبه العلم في المدرسة الخسروية كتاب «تيسير الوصول إلى جامع الأصول لأحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم» بمجلداته الأربع، إلى أن حصل على كتاب «جامع الأصول» وهو كتاب يقع في إحدى عشر مجلداً، جمع فيه صاحبه[1] الموطأ، والصحيحين، وسنن أبي داود والترمذي والنسائي.

ثم شرع في الاطلاع على كتب الحديث الأخرى كالسنن والمسانيد والمعاجم، وحفظ منها جملة واسعة، وفهرس طائفة واسعة لأحاديث مسند الإمام أحمد رضي الله عنه. وكان يعتمد في تفسير آيات الله تعالى على أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويقول: «إن أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم كلها بيانات لمعاني القرآن الكريم ومقاصده، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]» ويسوق لذلك أدلة كثيرة قد ذكرها في بعض مؤلفاته ومحاضراته.

وإني أذكر في هذه المناسبة كلماتٍ يسيرةً مما امتدحه بها كبار العلماء والمحدثين: لما حج سنة /١٣٨٥/ هـ خرج لاستقباله إلى مطار جدة العلامة المحدث الشيخ علوي المالكي وقال: «هذا رجل يُمشَىٰ إليه ولو على رموش العين».

ولما أرسل كتاب «سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شمائله الحميدة وخصاله المجيدة» إلى السيد الشيخ محمد

---

(١) مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني الجزري ولد سنة /٥٤٤/هـ وتوفي سنة /٦٠٦/هـ رحمه الله تعالى ورضي عنه.

أبي عبد العزيز ابن عبد الدائم الفلالي الموريتاني الشنقيطي صاحب كتاب (النور المحمدي ﷺ) ـ وكان ممن جاور في المدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام، ثم اجتمع به لما ذهب إلى العمرة والزيارة ـ قال له الشيخ محمد أبي عبد العزيز: «لقد عرفتك من كتابك» يعني: لقد عرفت مقامك ومحبتك لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من خلال قراءتي لكتابك الذي أرسلته هدية لي.

وقال الشيخ الكبير، المحب الزاهد الورع، السيد محمد أمين الكتبي، لما لقي شيخنا في المسجد الحرام، وسأله شيخنا الإمام أن يوصيه قال له: «أوصيك بما أنت عليه».

وقال السيد الشيخ عبد القادر السقاف: «يجب على كل عين أن تراه» يعني: أن ترى شيخنا الإمام رضي الله عنه.

وقال العارف الكبير الشيخ أحمد الحارون الدمشقي لشيخنا الإمام رضي الله عنه: «أنت محفوف بأنظار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

وقال له مرة أخرى: «شمسك إذا طَلَعَت غَطَّت على الكل».

وكان المحب الزاهد، ذو الكرامات الشهيرة، الشيخ حسين العبد السلام، المعروف (بالمُجَدَّمي) [١٣٢٦ هـ ـ ١٤٠٤ هـ] إذا قدم لزيارة شيخنا الإمام رضي الله عنه، ينشد مع أصحابه إذا خرج شيخنا لاستقباله عند باب الدار:

أتيناكم أتيناكم ... وللأعتاب جئناكم
وفي أمرٍ قصدناكم ... فشدوا عَزْمَنا بالله

ويكرر ذلك حتى يجلس.

وكان همه أن يسأل كل من وفد إليه عن صحة شيخنا الإمام رضي الله عنه، ويحمِّله السلام، ويسميه: «سراج حلب».

* * *

مؤلفاته رضي الله تعالى عنه

لقد بلغت مؤلفاته خمسةً وعشرين كتاباً ، في مختلف قضايا الإيمان الاعتقادية والعملية ، والقولية والخلقية والأدبية ، وقد تصدر هذه المؤلفات كتابه الشهير «سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شمائله الحميدة وخصاله المجيدة» الذي كان شيخنا الإمام رضي الله عنه يفخر به ، ويحتسبه من أعظم الذخائر عند الله تعالى ، وعند رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ويقول: «يجب على على كل مؤمن أن يقرأ هذا الكتاب ، لأني ذكرت فيه ما لابد منه لكل مؤمن أن يعرفه عن خصال وأخلاق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

وقد نال هذا الكتاب العظيم انتشاراً واسعاً في شتى البلاد ، وأقبل المسلمون على قراءته رغبةً في التعرف والاطلاع على بعض شمائل سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وخصاله المجيدة صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد تطرَّق شيخنا الإمام رضي الله عنه في هذا الكتاب إلى دفع شبهات بأدلة قاطعة حول عصمة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الخطأ والخطيئة ، ولَمَّا فرغ من جمع هذا الكتاب المبارك ؛ حظي بإكرام كبير من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ رآه في المنام وقد وظَّفه

خادماً ملازماً له صلى الله عليه وآله وسلم ، وسأبيِّن ذلك في الكتاب الموسع حول شيخنا الإمام إن شاء الله تعالى.

وقد توالت مؤلفاته رضي الله عنه ، وانتشرت بين المسلمين في شتى بقاع الأرض ، حتى إنّ بعضها تُرجم إلى لغات أجنبية ؛ لأهمية أبحاثها ومكانتها العلمية.

وكان كلما فرغ من جمع كتاب جاءته البشائر والمكرمات من الله تعالى ، ونال من العطايا والنفحات المحمدية المتواصلة ، ما يجعله يترقىٰ في مقامات القرب والمحبة.

وقد تميزت مؤلفاته بسهولة العبارة ، ورقة الكلمة ، بحيث يتيح للقارىء مهما كانت درجة فهمه وعلمه أن يَعِيَ ما يقرأ.

وكان يقول: «غايتي وقصدي أن ينتفع الناس بها على مختلف طبقاتهم ، ولو تكلفت صياغة العبارة وانتقاء الكلمة ؛ لكان الفهم والنفع مقتصراً على أهل العلم فقط».

كما تميزت كتبه بكثرة سرد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، حتى يقرأ الناس آيات الله تعالى ويفهمون معانيها ببيانات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان رضي الله عنه يقول: «إني دوماً أسأل الله تعالى أن يجعل في كتبي نوراً محمدياً صلى الله عليه وآله وسلم يجده القارىء لها في قلبه ؛ فيزداد إيماناً وهدى وصلاحاً ، وقرباً من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم».

* * *

عطايا إلهية
ومنح محمدية صلى الله عليه وآله وسلم

كان شيخنا الإمام رضي الله عنه كثيراً ما يتردّد على لسانه الدعاء المأثور عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «وتولني فيمن توليت»[1] ، والدعاء: «ولا تكلني إلى نفسي ـ ولا إلى أحد من خلقك ـ طرفة عين»[2] ، ومن دعائه المشهور في ختم المجالس: «وتولنا بما توليت به عبادك الصالحين بقولك: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]».

فلقد كان رضي الله عنه يتوجه إلى الله تعالى في أموره كلها ، ويعتمد عليه ويتوكل عليه ، ويولي أمره كله إليه؛ فتولاه الله تعالى بعنايته ورعايته الخاصة ، فترى أن حركاته وأقواله وأفعاله كلها صائبة سديدة.

---

(١) هذا طرف من الحديث الذي علمه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لسيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما ، أن يقوله في الوتر. وهو عند الترمذي في كتاب الصلاة ، باب ما جاء في القنوت في الوتر /٤٦٤/ (٢/ ١٨٤) وعند أبي داود والنسائي وابن ماجه وغيرهم.

(٢) الحديث في (سنن) أبي داود كتاب الأدب /٥٠٩٠/(٥/ ٣٢٥) ونصه: «دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين ، وأصلح لي شأني كله ، لا إله إلا أنت».

إذ كان لا يقدم على أمر له شأنه إلا بإذن صريح من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يأتيه ذلك إما بإشارة غيبية ، أو رؤيا منامية صالحة صادقة.

ولقد رهن نفسه وحياته لخدمة كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، فكان يكثر من الدعاء: «اللهم واجعلنا أنصاراً لدينك وشريعتك ، وسنة نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم» ولقد كانت مِنَنُ الله تعالى عليه عظيمة ، وهباته جليلة ، ظهر ذلك في فيض الله تعالى عليه بالمعارف الإلَهية ، ورسوخه في العلوم الدينية ، وأن أيده سبحانه ببراهين وأدلة الكتاب والسنة.

وألقى محبته وإجلاله في قلوب العباد ، فلا يُذكر عند أحد إلا ترافق ذلك بالمدح والثناء ، ونال ثقة الناس كلهم ، فإذا تكلم أنصتوا ، وإذا أمرهم امتثلوا ، وقد ذاع صيته في شتى البلدان ، وجرى ذكره على لسان أهل العلم والعرفان ، تصديقاً لقول النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: «إن المِقَةَ[1] من الله عز وجل والصيت من السماء».

وكثيراً ما يلجأ إليه العلماء لحل معضلات ، وبيان شبهات.

وقد أكرمه الله تعالى بنيل مراتب متعددة بشرف خدمته للنبي الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، جاء ذلك في عدة مناسبات رأى فيها حضرةَ النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) المقة: المحبة ، وهي بكسر الميم وفتح القاف ، والحديث رواه الإمام أحمد والطبراني بالثقات عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه ، (مجمع الزوائد) (١٠/ ٢٧١).

في المنام ، وقد وظَّفه خادماً له صلى الله عليه وآله وسلم ، ولمن يلوذ به صلى الله عليه وآله وسلم.

خدمته لماء وضوئه وغسله صلى الله عليه وآله وسلم

رأى شيخنا الإمام النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم في المنام ، وقد وظَّفه خادماً لماء غسله ووضوئه صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد استلم شيخنا الإمام هذه الوظيفة وقام بها.

إذ رأى في المنام أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قَدِمَ مع أصحابه من سفر ، وعليه غبار السفر ، فأمر شيخَنا الإمامَ وأحدَ الصحابة معه أن يُحضرا له ماءً ليغتسل به صلى الله عليه وآله وسلم ، قال شيخنا الإمام رضي الله عنه: «فانطلقت مع الصحابي ، وغالب ظني أنه سيدنا ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه ، الذي كان يخدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحياة الدنيوية ، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة»[1].

قال: «فانطلقنا إلى طَسْت ماء كبير ، وحملناه على مِرْجل حتى إذا صارت حرارته مناسبة؛ جئنا به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فنظر إليه وأعجبه ، فالتفت إليّ وقال: أنت خادم لي ملازم». قال شيخنا الإمام رضي الله عنه: «فقلت في نفسي: يا لها من سعادة وكرامة محمدية ، إن الناس يتمنى أحدهم لو يخدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولو ساعة ، وقد وظَّفني رسول الله

---

(١) ينظر (صحيح) مسلم /٤٨٩/(٢/٦٣٨) و(المسند) للإمام أحمد (٤/٥٩) و(مجمع الزوائد) (٢/٢٤٩).

صلى الله عليه وآله وسلم خادماً ملازماً له!! ولم يكن فرحي برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعادله شيء».

خدمته لحجرات
سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
وتعهُّده بيت المؤنة

رأى النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وقد وظَّفه خادماً عنده لبيت المُؤْنة، فاستلم تلك الوظيفة، وقام بها خير قيام، فأقبل صلى الله عليه وآله وسلم ونظر في المكان المخصص للمُؤنة، وسره ما فيه، فنظر إلى شيخنا الإمام متبسماً، وعلى وجهه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم علامة القبول والرضا.

خدمته للبيت الذي يجتمع فيه الأنبياء
عليهم صلاة الله وسلامه

ورأى النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وقد وظَّفه خادماً لبيت يجتمع فيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقام بتلك الوظيفة، وهيأ البيت وأعده، واجتمع الأنبياء عليهم السلام ينتظرون تشريفه صلى الله عليه وآله وسلم، فلما أقبل صلى الله عليه وآله وسلم بطلعته البهية، وأنواره الزهية، قام شيخنا الإمام لاستقباله، ومشىٰ بين يديه مِشْية الخادم بَيْن يدي سَيّده.

قال شيخنا الإمام: فنظرت في المكان فرأيت سَلّة فيها أشياء مُهملة، فقلت في نفسي: مِنْ أين أتت هذه؟ فأسرعت ورميتها بعيداً من نافذة المكان.

ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال لي: أين خليل الله إبراهيم؟

قلت: لما يأتِ. ثم طُرِقَ البابُ، فنهض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لاستقبال خليل الله عليه السلام وأنا خلفه، فسلّم عليه وعانقه، وطال الحديث بينهما، ثم التفت إليَّ صلى الله عليه وآله وسلم وقال لي: سلّم على خليل الله ثم اتبعني، فأقبلت إليه وكان وضيء الوجه، مهيباً جليلاً، فقبّلت يده، ووجهي عند صدره، أتمسح به، وأطلب منه الدعاء، حتى غلبني البكاء فانتبهت».

قلت: وقد نظم شيخنا الإمام رضي الله عنه أبياتاً يذكر فيها نعمةَ الله عليه، ويشكر فضل الله عليه بهذه المراتب في خدمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومنها:

عبد ذليل تحت راية مجدكم ... مِنْ شأنه الإطراق والإصغاء
لا تحرموني فضل جودكم الذي ... شهدت به الخضراء والغبراء
أرجوكم يا سيدي مِنْ فضلكم ... نفحات وصل ليس فيه جفاء
لكُم الأيادي البيض حيث قبلتموني ... خادماً شكري لكم وثناء
فَلَكَمْ وكَمْ أكرمتموني عطفكم ... فلنعم ذاك العطف والإيواء
بجواركم شرفي وغاية منيتي ... وبقربكم حقاً يزول الداء
أشهدتموني نور وجهكمُ الذي ... إشراقة للشمس منه ضياء
أنا خادم لبيوتكم وضيوفكم ... وَامُنيتي ومَسَرَّتي وهناء
عن بابكم لا أنثني طول المدى ... أرجو القبول فأنتم الكرماء

وكان رضي الله عنه كثيراً ما يقص هذه الرؤى على أصحابه

وأحبابه ويقول: «إن خدمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تعني خدمة دينه وسُنَّته صلى الله عليه وآله وسلم؛ بنشر العلوم الشرعية، وتعليمها للناس على وجه يرضاه الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وإن العلوم الشرعية أمانة في أعناق العلماء، عليهم أن يُؤدوها بصدق وإخلاص، كما كان عليه الصحابة وسلف هذه الأمة رضي الله عنهم».

وذكر رضي الله عنه أنه رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وقد وظَّفه مُؤذناً عنده، وقد أذَّن رضي الله عنه لصلاة الظهر بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتقدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصلى إماماً في عَدد من الصحابة، وفيهم سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر رضي الله عنهم.

قال شيخنا الإمام: «ووقفت في الصلاة خلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم مباشرة، وجعلت أنظر إليه... ولما فرغ من الصلاة وَسَلَّم يميناً وشمالاً بَهَرتني أنوار خديه صلى الله عليه وآله وسلم وأنا أنظر إليها».

وكان رضي الله عنه يفتخر بتلك الوظيفة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم ويقول: «الأذان هو دعوة العباد إلى الله تعالى، وإلى عبادته بالصلاة، وإني أدعو الناس إلى الله للتمسك بدينه وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك من خلال الدروس، والمجالس العلمية، وتأليف الكتب التي فيها ما يحتاجه الناس لفهم أمور دينهم».

جواره الحبيب الأعظم
صلى الله عليه وآله وسلم
في المدينة المنورة بأنواره ﷺ

كان ذلك في شهر ربيع الأنور من عام /١٤٠٠/ للهجرة الشريفة ، وحتى شهر شعبان من عام /١٤٠٣/ للهجرة الشريفة فجاور في المدينة المنوَّرة ما يزيد على ثلاث سنوات ونصف السنة.

كان سفره للحجاز لأداء العمرة المباركة والزيارة الشريفة لخير خلق الله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ثم مكث في المدينة المنوَّرة تلك المدة ، امتثالاً لأمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. جاءه ذلك في رؤيا منامية وإشارات غيبية ، إذ لم يكن يُقدم على أمر ذي بال حتى يأتيه الإذن به من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد كان فَرَحُه وبهجته بجوار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يوازيه شيء ، إذ كان ذلك غايته ومُنْيته ، وكان جوابه إذا سأله أحد من أحبابه عن حاله يقول: «الحمد لله الذي أحلّنا دار المقامة من فضله ، فلا دار بعد دار رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم ، ولا إقامة ترجى بعد الإقامة بجوار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

ومن أقواله رضي الله عنه في بعض مخطوطاته:

وقلت إذ حللت في المدينة المنورَّة بأنواره الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم:

يـا قلـب بشـراك أيـام الـرضـا رجعـت
وهـذه الـدار لـلأحبـاب قـد جمعـت
أمـا تـرى نفحـات الحـي قـد عبقـت
مـن طيبـة وبـروق القـرب قـد لمعـت
فعـش هنيئـاً بـوصـل غيـر منفصـل
مَعَ مَنْ تُحب ، فحجب الهجر قد رُفعت
واشهـد جمـال الـذي مِـنْ أجـل طلعتـه
قلـوب عشـاقـه مـن نـوره انصـدعـت
وابشـر بنيـل الـذي قـد كنـت تـأملـه
من طلعة المصطفى شمس السما طلعت

صلى الله عليه وآله وسلم أبداً أبداً أبداً

وكان رضي الله عنه يقول: «إذا كان جار الكرام لا يضام ، بل يكون في رَغَدٍ وسلام ، فكيف حال من جاور سيد الكرام سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ، أكرم الأولين والآخرين على رب العالمين». وقد حرّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة المنورة ، ودعا لها ولأهلها بالخير والبركة ، ودفع الشدة والبلوى عنها ، ووعد صلى الله عليه وآله وسلم بالشهادة والشفاعة الخاصة لمن جاور فيها أو مات فيها ، كل ذلك جاء في أحاديث

وردت عنه صلى الله عليه وآله وسلم. ولقد توالت عليه الكرامات والنفحات الإلَهية المحمدية، مما جعله يترقىٰ في مقامات القرب من الله تعالى، وتواردت عليه البشائر بالرؤى المنامية، وعلى لسان المحبين الصالحين من أهل المدينة وغيرها..

وقصَّ علينا عدة رؤى سأذكر تفصيلها في كتاب مستقل حول مناقبه رضي الله عنه إن شاء الله تعالى. ومنها أنه رأى أن شهادته بأن لا إلَه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مقبولة عند الله تعالى وعند رسوله صلى الله عليه وآله وسلم؛ وقد خُطَّ على باب الكعبة المشرَّفة أن شهادة عبد الله سراج الدين مقبولة. ورأى أنه دخل المسجد النبوي من باب السلام، فاستقبله جمع من الأولياء رضي الله عنهم، وأجلسوه في مكان مهيءٍ لجلوس القطب في غرفة واسعة.

ورأى مرة السيدة الكبرى فاطمة رضي الله عنها وقد بسطت لحافها، وهو لحاف كبير واسع، ومنادٍ ينادي: مَنْ يضم رأسه تحت هذا اللحاف ينال السعادة والأمان، فتقدَّمَ رضي الله عنه والسيدة الزهراء رضي الله عنها تنظر إليه، وأدخل رأسه وجسمه كله تحت اللحاف. وارتفعت الأصوات: لقد فاز.. لقد فاز..

ورأى النبيَّ الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم في المنام، وهو يأمر سيدنا علياً رضي الله عنه؛ أن يأتي بعباءته الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم ليخلعها على شيخنا الإمام رضي الله عنه.

وقد تفرَّغ أيام مجاورته في المدينة المنوَّرة لعبادة الله تعالى، وتصنيف الكتب العلمية الدينية، وكم كان رجاؤه عظيماً أن يخدم

بلد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعمل خير يبقى نفعه وأثره جارياً ، فحقَّق الله تعالى رجاءه ، إذ جعله سبباً وواسطة في إنشاء مدرسة لتلاوة القرآن الكريم وتحفيظه وقراءاته ، وقراءة حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا يزال هذا الصرح باقياً ، يقوم عليه خيرة أهل العلم والصلاح ، ويخرِّج عدداً من طلاب العلم وحَفَظَة القرآن الكريم. والحمد لله رب العالمين.

وكان رضي الله عنه يُكثر الذهاب إلى مسجد سَيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للصلاة فيه ، ولزيارة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فيدخل من باب السلام ، ويتوجه إلى الروضة الشريفة ، فيصلي ما يسر الله تعالى له.. ثم يتقدم ماشياً بأدب وخضوع ، ويقف إلى سارية أمام المواجهة الشريفة ، ويطيل الوقوف بذل وانكسار بين يدي من أرسله الله رحمة للعالمين ، وبالمؤمنين رؤوف رحيم صلى الله عليه وآله وسلم ، ويكثر الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وآله وسلم ، ويدعو الله متوسلاً به. حتى إذا أُذِن له بالانصراف؛ تراجع بأدب وتواضع ناحية الروضة الشريفة ، وصلى فيها وسأل الله تعالى ودعاه ، ثم يتوجه من حيث أتى ، ويخرج من باب السلام وقد اكتسى حلة نورانية محمدية يراها كل ذي بصيرة.

وحصل مرةً أن تبعه أحد المسؤولين عن خدمة الحجرة الشريفة وما حولها ، تبعه إلى خارج المسجد وسلّم عليه وعانقه ، وبذل جهده في تقبيل يده ، لكن شيخنا الإمام لم يمكِّنه من ذلك أدباً وتواضعاً في مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم قال هذا الرجل لشيخنا الإمام: والله لقد رأيت نوراً يخرج من الحجرة

الشريفة ، ويمتد إليك ، ويمضي معك حيثما توجهت؛ ولهذا لحقت بك لأبشرك وأتبرك بك ، فدعا له شيخنا الإمام رضي الله عنه ، وسأله الدعاء له خاصة أمام المواجهة الشريفة.

ولم يكن حديثه في مجالسه يخلو من التذكير بالآداب الواجبة على مَن أقام في مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أو جاور فيها ، أو قصدها لزيارة الحبيب الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ، والصلاة في مسجده عليه الصلاة والسلام. ويذكر في هذا السياق ما كان عليه سلفنا الصالح رضي الله عنهم ، ومنهم الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه ، إمام دار الهجرة ، وأحد الأئمة المجتهدين ، فكان يمشي في سِكك المدينة المنوَّرة حافياً ، ولا يركب مركوباً ، وإذا أراد قضاء حاجته ابتعد خارج أسوار المدينة ؛ أدباً مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتكريماً لأرض وطئتها أقدامه الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم. .

وإذا أراد التحديث في المسجد النبوي توضأ وتطيب ، ولبس ثياباً جدداً ، ولبس ساجاً وتعمم ، وإذا شرع في رواية الحديث خشع وأَخذه الوَجَل والمهابة ، وتغير لونه إجلالاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهكذا سائر علماء السلف رضي الله عنهم.

ولم يرجع شيخنا الإمام رضي الله عنه إلى حلب إلا بعد أن جاءه الإذن من الحضرة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم بالعودة.

وكان يقول: «ذهبت بإذن ، وأقمت بإذن ، ورجعت بإذن ،

ونسأل الله تعالى أن يتولانا في جميع قضايانا».

وقد استأنف دروسه المباركة بعد عودته، وَجَعلت المدرسة الشعبانية تزهو برعايته وعنايته. وإن لم تنقطع توجهاته ودعواته لها وللعاملين فيها طيلة فترة إقامته في المدينة المنوَّرة.

وقد اكتست مدينة حلب بعودته حُلة البهاء والجمال، وشعر أهلها بالأنس وراحة البال، بعد أن بسط شيخنا الإمام مائدته فيها وأقبل الناس عليها.

ويرحم الله تعالى القائل مخاطباً شيخنا رضي الله عنه:

قدمت قدوم الغيث في المَهْمَهِ[1] الصعب
أيا ابن سراج الدين جئت على الرحب
وهَلَّلت الأصحاب فيك وكبرت
وزالت عن الأحشاء فادحة الكرب
أضاء على الشهباء نور سراجه
ولاح عليها من سناه ضيا الشهب
وعاد عليها خيرها وسرورها
بتشريفه، يا منية الروح والقلب
فأهلاً وسهلاً فيك ثم ومرحباً
فلا زلت مَرعياً على البعد والقرب
وصلِّ إلَهي دائماً أبداً على
رسول الهدى المبعوث للعجم والعرب

---

(١) المفازة البعيدة، والبلد المقفر.

وآلٍ وصحب كلما قال قائل
قدمت قدوم الغيث في المَهْمَهِ الصعب

ثم إنه اعتزل الدروس العامة في أوائل عام / ١٤١٠/ هـ بسبب اعتلال صحته ، وكان قد رأى في المنام مرات عديدة ما يشير إلى ذلك ، فالْتزم بيته متوجهاً إلى الله تعالى ، واشتغل بجمع الكتب التي تنفع الناس في أمور دينهم.

وكان رضي الله عنه في هذه الفترة يختم القرآن الكريم كل ثلاث أو أربع ليال ، ويُكثر من ذكر الله تعالى ، والتفكر والتدبر في كلامه سبحانه ، وقد أخبر أن الله تعالى تجلى عليه بالرؤيا في المنام عدة مرات ، قص علينا إحداها ، وذلك أنه رأى نفسه في بيت الله الحرام ، فألهمه الله تعالى أسماء إلَهية راحَ يَذْكره بها ، فتجلىٰ عليه بالنور فقام وسجد له سبحانه. .

* * *

خصائص وفضائل

لقد غَرس الشيخ الإمام رضي الله عنه محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قلوبنا وقلوب كل من لزمه ، أو لزم دروسه ومجالسه ، وحرّضنا وحَرّضهم على بذل الجهد لاتباعه صلى الله عليه وآله وسلم ، وإكثار الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وآله وسلم ، كلماتٌ جرت على لسان كل من استمع إلى دروس شيخنا الإمام رضي الله عنه ، أو حضر مجالسه ، أو قرأ بعضاً من كتبه.

وإذا كانت ألسنة الخلق أقلام الحق ، فلقد كان الشيخ الإمام رضي الله عنه حقاً من المحبين الصادقين ، الذين كانت محبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قلوبهم فوق محبة كل مخلوق ، وقد ظهر ذلك في أقواله وأفعاله وسائر شؤوناته ، فلم يك يخلو مجلس من مجالسه عن ذكر بعض شمائل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخصائصه وفضائله ، كما أنه لم يَدَعْ موضوعاً أو بحثاً مِن الأبحاث التي تكلم عنها في كتبه إلا وضمَّنها ذكر بعض صفاته وخصاله صلى الله عليه وآله وسلم ، حسب ما تقتضيه المناسبة وهكذا. .

وكان رضي الله عنه يعتبر ذلك من مقتضيات الإيمان الصحيح، إذ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ووالده وولده والناس أجمعين»[1].

وقد أسهب رضي الله عنه في الكلام على محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عدد من كتبه منها: كتاب (حول تفسير سورة الكوثر) وكتاب (الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم) وكتاب (حول تفسير سورة الحجرات) وغيرها. وذكر فيها وجوب محبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على كل مؤمن، وفضائلها وآثارها، وسرد في ذلك أدلة كثيرة من الكتاب والسنة، وما كان عليه سلف هذه الأمة من المحبة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والأدب معه صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان رضي الله عنه يقول: «من زعم أننا بالغنا في محبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتعظيمه والأدب معه صلى الله عليه وآله وسلم فقد أخطأ خطأً كبيراً، وكشف عن جهله بمقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإننا لم نبلغ الحد الأدنى المطلوب منا في محبته وتوقِيره والأدب معه صلى الله عليه وآله وسلم حتى يقال: لقد بالغنا».

واعلم أن قضايا الإيمان كلها إنما هي مَعْقولة مقبولة عند أصحاب العقول المجردة من الأهواء والشبهات؛ إن هم تفكروا وتبصروا، ولما كانت محبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوق محبة كل مخلوق أمراً هاماً من قضايا الإيمان: سلَّمَ به وأذعن

---

(١) رواه الشيخان والنسائي وأحمد ـ واللفظ له ـ عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

له العقلاء الفطناء ، لأنهم علموا وأدركوا أن سبب المحبة يعود إلى أمرين هما: الكمال والنوال ، فلو بحث العاقل عن صفات الكمال كلها لوجدها مجتمعة في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على وجه فريد لا يساويه فيها غيره ، بل إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم جاء يُفيض على الناس صفات الكمال والمحاسن ، وهذا مقتضى قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ [البقرة: ١٥١] والتزكية هي: التخلي عن النقائص والرذائل ، والتحلي بالكمالات والفضائل.

وأما صفة النوال وهو الكرم والجود والسخاء ، وهي صفات محبوبة لدى كل إنسان ، فإنّ خير من جاء بها وأمر بها هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله فيه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أي: لكل العالمين ، في جميع العالمين ، أي: العوالم التي يمر عليها كل إنسان..

وإذا وُجِد هناك إنسان عظيم يُريد لك الخير أكثر مما تريده لنفسك ، ويحرص على سعادتك ، وَيَشقّ وَيَصعب عليه ما فيه إحراجٌ ومشقة عليك؛ ألا يجب أن تُحبه أكثر من محبتك لنفسك؟!! بلى إن هذا أمر معقول مقبول عند من أنصف وتفكر.. وفي هذا يقول تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يصعب عليه ما فيه عنت لكم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على هدايتكم وصلاحكم ونفعكم، وسعادتكم في الدنيا والآخرة ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] أي: يسعىٰ في دفع الأذىٰ والضر عنهم ، ويجلب الخير بأنواعه لهم.

وقال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] ـ أي: أحق بهم من أنفسهم ، وأرحم بهم من أنفسهم ـ ولذلك قال

صلى الله عليه وآله وسلم[1] لما نزلت هذه الآية: «ما من مؤمن وإلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ ﴾ فأيما مؤمن ترك مالاً فَلْيَرِثه عصبته مَن كانوا، وإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه».

ولقد نال شيخنا الإمام رضي الله عنه مقامات كبيرة في محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واتباعه في الأقوال والأفعال والأخلاق والآداب، لأن المحبة الصادقة وإنْ كانت من أعمال القلوب لا بد أن يظهر أثرها على الجوارح، وذلك باتباع المحبوب في جميع ما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد جعل رضي الله عنه نفسه رهن إشارة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فكان لا يَقْدُم على أمر ذي بالٍ حتى يأتيه إذن صريح به من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وكان رضي الله عنه كثيراً ما يُحرض ويدعو إلى قراءة كتابه (سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شمائله الحميدة ـ خصاله المجيدة) ويقول: «لا لأنه كتاب مِنْ جمعي وتأليفي، بل لأني ذكرت فيه جوانب متعددة من شمائله صلى الله عليه وآله وسلم، وخصاله وفضائله وخصائصه، والتي يجب على كل مؤمن أن يَتَعرف عليها؛ لتزداد محبته لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويصحّ ويكمل إيمانه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

كما كان رضي الله عنه كثيراً ما يحرض الناس على الإكثار من الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لِما

---

(١) رواه الإمام البخاري، كتاب التفسير / ٤٧٨١/ (٨/٥١٧).

لها من فوائد وآثار وفضائل ، وأن يجعلوا ذلك من جملة أورادهم اليومية ، بالإضافة إلى قراءة جزء من القرآن الكريم ، وبقية الأذكار التي ندب إليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان رضي الله عنه يقرأ قصة المولد النبوي الشريف للإمام البرزنجي رضي الله عنه بمناسبة ولادته صلى الله عليه وآله وسلم ، في شهر ربيع الأنور ، وذلك وقت الدرس في جامع بانقوسا والجامع الكبير وجامع الحموي ، وفي جلسة خاصة لطلاب العلم في المدرسة الشعبانية ، ويُرَغِّب الناس في إقامة تلك الحفلات التي تعبِّر عن الابتهاج والفرح بمولد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، مع مراعاة الآداب الشرعية في تلك المجالس ، لأنها مجالس عبادة ، تنطوي على تلاوة آيات من القرآن الكريم ، وذكرٍ لله تعالى ، وصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وسماع لدُرَرٍ من شمائله وأخلاقه الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم ، فينبغي على كل مؤمن أن يلتزم جانب الأدب في تلك المجالس.

ومن نظم الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم المأثورة عنه رضي الله عنه:

(اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

اللهم صل على سيدنا محمد صلاة تُرضيك وترضيه ، وترضى بها عنا يا رب العالمين ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

اللهم صل على سيدنا محمد بقدر حبك فيه ، وفَرِّج عني وعن المسلمين ما نحن فيه ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً).

والفَرَجُ يتضمن معنى رَفع الكرب والشدائد والمصاعب والهموم والغموم.

ومنها: (اللهم صلِّ على سيدنا محمد صلاة تَغْفر بها ذنوبنا، وتشرح بها صدورنا، وتفرج بها كروبنا، وتنور بها قلوبنا، وتلهمنا بها رشدنا، وتحفظنا بها من كل سوء ومكروه في الدنيا والآخرة يا رب العالمين، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً).

ومنها: (اللهم يا دائم الفضل على البرية، يا باسط اليدين بالعطية، يا صاحب المواهب السنية، يا غافر الذنب والخطية، صَلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد خير الورى سَجِيَّة، وعلى آله وأصحابه البرَرَة النقيّة، في كل لمحة ونفس وغدوة وعشية، وفرّج عنا كل شدة ورزية، بجاه إشراقات الطلعة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم، وأسرارها البهية، يا رب البرية).

ومنها: (اللهم صلى على سيدنا محمد مفتاح خزائنك، اللهم افتح لنا بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما أغلق علينا، من خزائن أسرارك وأنوارك ومشاهداتك وتجلياتك، يا رب العالمين اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً).

ومنها: (اللهم صل على سيدنا محمد حق قدره ومقداره العظيم، صلاة دائمة مقبولة تُؤدي بها عنا حقَّه العظيم، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً).

ومنها: (اللهم صل على سيدنا محمد الذي أرسلته رحمة للعالمين، وبالمؤمنين رؤوف رحيم، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً).

بشائر وحقائق

كان شيخنا الإمام رضي الله عنه كثيراً ما يقول في مجالسه: «إنما نحن وقوف على باب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، نلتمس من أسراره وأنواره، وبركاته ونفحاته صلى الله عليه وآله وسلم» ويشير إلى صورة المواجهة الشريفة للحجرة النبوية وهي معلقة فوق أريكة جلوسه، ويردّد هذه الأبيات:

عَبد بالباب يَرتجي لَثْم الأعتاب
جُد بالجواب مَرحباً قد قبلناك

وكان رضي الله عنه حَريصاً كل الحرص على اتباع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والعمل بسنته، فيما جاء عنه من أقوال وأفعال وأخلاق وآداب، وأَخْبَرَنا مرة أنه كان يضع العمة على رأسه دون أن يضع فوقها طيلسان، فرأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وعلى رأسه العمة الشريفة وفوقها الطيلسان، وقال لشيخنا: «هكذا»، قال شيخنا الإمام رضي الله عنه: «فلم أدع وضعه فوق العمة شتاء ولا صيفاً».

قلت: فكان الطيلسان أيام الشتاء من الصوف، وأيام الصيف من القطن الرقيق.

وكان قد أخبر قبل وفاته رضي الله عنه بسنوات قليلة أنه رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وهو يقول له: «إني مسافر إلى المدينة المنورة، ومتى فرغتَ من عملك فاتبعني»، قال شيخنا الإمام: «وكنت وقتئذ مشغولاً ببعض الأمور، وقد استبشرت لتلك الرؤيا، وسألت الله تعالى أن أكون متبعاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأن أكون معه صلى الله عليه وآله وسلم في جميع العوالم».

وأخبر شيخنا الإمام رضي الله عنه قبل وفاته بأشهر قليلة أنه رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقظة، وقد دخل عليه من الباب الغربي لغرفته التي كان يجلس فيها، وَهي تطل على الجهة الجنوبية القبلية، ثم استبطأ الكلام وغلبهُ البكاء، وقد منعنا الحياء والأدب من سُؤاله مرة أخرى عن تفصيل ذلك. إلا أنه رضي الله عنه أكَّدَ على أن الأمر كان يقظةً. وكان قد رآه صلى الله عليه وآله وسلم يقظة قبل سفره إلى المدينة المنورة بنحو سنتين.

وكان يردد هذه الأبيات من نظمه:

يا ليت عينيَّ تنظرا ... جمال ذاك المظهرا

حتى أكون نيِّرا ... مُهَلِّلاً مستبشرا

فجر الضيا تفجّرا ... من ثغر سيد الورى

والشمس فيها أشرقت ... أنواره بلا امترا

سار الجمال تائهاً ... لَمّا بدا تحيّرا

خَرَّ ذليلاً ساجداً ... مُهلِّلاً مكبِّراً

يا ربنا بجاهه ... أسعد فقير الفقرا

وامنحه دوماً عطفه ... والطف إلٓهي واسترا

بفضـــل مـــن أرسلتـــه خيـــر رســـول للـــورى
ثـــم الصـــلاة دائمـــاً عليـــه مـــا تـــالٍ قـــرا
وآلـــــه وصحبـــــه ســـاداتنـــا غـــرِّ الـــذُّرى

* * *

تبركه بالأثر النبوي الشريف وتعظيمه له

وكان من عادته رضي الله عنه كل ليلة قبل أن يقوم إلى النوم يتناول الأثر الشريف بكلتا يديه ، ويتوجه إلى القبلة ، ويقبله ويمسح به عينيه ووجهه ورأسه وصدره ، ثم يبدأ الحاضرون من أولاده وأحفاده بالتقدم لتقبيله والتمسح به ، والأثر في يديه رضي الله عنه ، والألسنة تلهج بالصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى إذا فرغ الحاضرون من تقبيل الأثر الشريف والتبرك به ، بدأ شيخنا الإمام بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى متوسلاً بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. . ، وكان من دعائه : «اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وأزواجه وذريته وآل بيته ، وعلينا معهم أجمعين ، كما صَلَّيت وسلمت وباركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد ، صلاة تشفينا بها من كل داء ، وتُعافينا بها من كل بلاء ، وأفض علينا يا مولانا من بركاته صلى الله عليه وآله وسلم وأنواره وأسراره ونفحاته ، نفحاتٍ محمدية تُسعدنا بها في الدنيا والآخرة» .

وكان إذا اجتهد في الدعاء يردّد هذه الأبيات :

إلـى بـابـك العـالـي مَـددت يـد الـرجـا
ومـن جـاء ذاك البـاب لا يختشـي الـرَّدى
سـألتـك يـا ألله مستشفعـاً بمـن
ضيـا وجهـه الـوضـاء يبـرق فـي الـدجـى
صلـى الله عليـه وآلـه وسلـم أبـداً أبـداً

ويقول أيضاً:

بـالـذل قـد وافيـت بـابـك عـالمـاً
أن التـذلـل عنـد بـابـك ينفـع
وجعلـت معتمـدي عليـك تـوكـلاً
وَبَسطـت كفِّـيْ سـائـلاً أتضـرع
فبحـق مـن أحببتـه وبعثتـه
وأجبـت دعـوة مـن بـه يَتَشفـع
اجعـل لنـا مـن كـل هـم مخـرجـاً
والطـف بنـا يـا مـن إليـه المـرجـع
ثـم الصـلاة علـى النبـي وآلـه
خيـر الـورى ومـن بهـم يُتَشفـع

وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه؛ عدد خلقك، ورضاء نفسك، وَزِنَةَ عرشك، ومِداد كلماتك، كلما ذكرك وذكره الذاكرون، وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون، وعلينا معهم أجمعين، وعلى والدينا، ومشايخنا، ومن له حق علينا، وعلى جميع المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، آمين، والحمد لله رب العالمين.

وكان إذا مرض أو شكا ألماً لجأ إلى الأثر الشريف وقبّله

وتمسّح به ، ودعا الله تعالى مُستشفياً بأثر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الفياض بالخيرات والبركات.

والأثر النبوي الشريف هو شعرة من شعر لحيته الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم من موضع العنفقة الشريفة ، لأنها في لونها إلى الشيب أقرب ، وما شاب من شعره الشريف إلا شعرات من عنفقته الشريفة المباركة صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد ورثها شيخنا الإمام عن مولانا الشيخ محمد نجيب رضي الله عنهما ، التي كان جدي الفاضل السيد الحاج محمد طوطري رحمه الله تعالى ، قد استوهبها من الشيخ عوني خلاصي رحمه الله تعالى ، وأهداها إلى مولانا الشيخ محمد نجيب رحمه الله تعالى ، ويؤيد صحة تسلسها سند مرفق معها ، وهي موضوعة في زجاجة محكمة الإغلاق ، وفي نهايتها قليل من الشمع متصل بها ، ثم إن هذه الزجاجة موضوعة في أسطوانة مصنوعة من الذهب ونقش عليها: (لا إلّه إلا الله محمد رسول الله) وهذه الأسطوانة ملفوفة بقطعة قماش أخضر وتفوح منها رائحة العطر الزكية دون أن يمسها أحد بطيب.

وإن شيخنا الإمام رضي الله عنه كان يُعظم هذا الأثر النبوي الشريف ، ويضعه في أعلى مكتبته الخاصة به رضي الله عنه.

* * *

مجالس تذكير ونصح

لما اعتزل شيخنا الإمام رضي الله عنه في بيته في السنوات الأخيرة من عمره المبارك ، لم يعد يستقبل إلا بعض أهل العلم والأحباب والأصحاب ، ومَن وفد عليه من خارج مدينة حلب للتبرك به ، والسماع لموعظته ، أو استجازته في الحديث الشريف وأوراد الطريق وغيره .

ولا يتيسر لأحد من هؤلاء لقاؤه إلا مَن كان ذا حظٍّ وافر ، لما سيناله من دعوات وبركات ، ونظرات من شيخنا الإمام رضي الله عنه .

ولا يطول حديثه رضي الله عنه في المجلس عن نصف ساعة تقريباً ، ثم يختم بالدعاء وقراءة الفاتحة ، ويتقدم الحاضرون للسلام عليه ، وربما شكا إليه أحدهم أمراً أهمّه ، أو استفتاه في حكم شرعي ، أو استفهمه عن مسألة علمية ، فيجيب رضي الله عنه كل سائل عن مسألته ، ويجد عند شيخنا الإمام رضي الله عنه ما يطمئن به قلبه ، وتسكن إليه نفسه .

وكان جُلُّ كلامه رضي الله عنه يدور حول وجوب التمسك بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وما كان

عليه الصحابة رضي الله عنهم وسلف هذه الأمة. ثم يُذَكِّرُ الحاضرين بالأخلاق الفاضلة التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والآداب والمحاسن والكمالات التي ندب إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكثيراً ما كان يُحرض الناس على المواظبة على قراءة القرآن الكريم، ويَذكر لهم بعض الأحاديث الواردة في ذلك.

ومن عادته رضي الله عنه أن يُكرم أهل الشيبة في الإسلام، عملاً بما جاء عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويجلسهم إلى جانبه أو أمامه، ويكرمهم وَيجعلهم موضع نظره، ويذكر قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة»[١]. ويقول: «من كثر شيبه في الإسلام أضاء له ولغيره». ويقول لهم: «كيف حالكم يا شباب؟ كلنا شباب في طاعة الله تعالى». ولا يترك في مجلس من مجالسه أن يُذَكِّرَ الحاضرين بكثرة الصلاة والسلام على خير الأنام سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأي صيغة كانت، ويقول: «من كان يريد أن يكون بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلة فليكثر من الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وآله وسلم، لأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من صلى عليّ بلغتني صلاته وصليت عليه»[٢]، فأنت تصلي على رسول الله صلى الله

---

(١) عزاه في (مجمع الزوائد) (١٥٨/٥) إلى البزار والطبراني عن سيدنا فَضَالة بن عبيد رضي الله عنه.

(٢) عزاه في (مجمع الزوائد)، (١٦٢/١٠) إلى الطبراني عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

عليه وآله وسلم وهو يصلي عليك ، وكفاك بهذا شرفاً وفضلاً وفوزاً وقرباً من حضرته صلى الله عليه وآله وسلم».

كما كان يُذَكِّرُ الحاضرين بالاشتغال بالدعاء والإكثار منه ، وأن لا يقتصر أحدهم على الدعاء لنفسه فقط ، بل يدعو لنفسه وأهله وأحبابه والمسلمين أجمعين في مشارق الأرض ومغاربها.

وكان يختم المجلس بالدعاء ومن جملته: «اللهم صل على سيدنا محمد صلاة تُرضيك وترضيه وترضى بها عنا يا رب العالمين ، لأنك يا مولانا قلت وقولك الحق: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢] فنسألك اللهم رضاك ورضا رسولك صلى الله عليه وآله وسلم رضاً لا سخط بعده.

اللهم صلاة تُفيض بها علينا من أسرار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن أنواره ونفحاته وبركاته ، صلاة تعطف بها علينا قلبه الشريف ، اللهم واجمع بيننا وبينه كما جمعت بين الروح والنفس ظاهراً وباطناً ، يقظة ومناماً ، واجعله يا ربنا يا ربنا يا ربنا روحاً لذاتنا من جميع الوجوه في الدنيا قبل الآخرة يا عظيم».

وإذا أطال في الدعاء كان يستمر فيه بقوله: «يا عظيماً يرجى لكل عَظيم ، قد سألناك وتوسلنا إليك بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ذي الخلق العظيم ، أن تُفرج عنا الكرب العظيم ، وأن تحقق رجانا يا مولانا ، وتتولانا في جميع قضايانا بما توليت به عبادك الصالحين بقولك: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] ، يا من لا يرد سائله ولا يخيب آمله.

إلّهي: يا خير مَن مُدّت إليه الأيادي ، سألناك بخير من مد يديه

إليك صلى الله وعليه وآله وسلم ، فأعطنا مُنانا ، وحقق رجانا ، وقد بلَغَنا عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : «إنَّ ربكم حيي كريم يستحي أن يبسط العبد يديه إليه فيردهما صفراً خائبتين»[1] ، وها نحن قد رفعنا إليك أكُفَّنا ، سائلين متوسلين بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن تستجيب دعانا ، فإنك قلت وقولك الحق ، ووعدت ووعدك الصدق : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر : ٦٠] فقد دعوناك كما أمرتنا فاستجب لنا كما وعدتنا إنك لا تخلف الميعاد .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد ، وعلى أزواجه ، وأصحابه ، وآل بيته ، وعلينا معهم أجمعين ، وعلى والدينا ، ومشايخنا ، ومن له حق علينا ، وعلى جميع المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات ، في كل لمحة ونَفَسٍ عدد ما وسعه علم الله العظيم ـ آمين .

﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات : ١٨٠ ـ ١٨٢] والخاتمة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم» ويقرأ الحاضرون الفاتحة ، ثم يمسح وجهه بيديه المباركتين ، ويلتفت إلى الحاضرين ليؤانسهم بكلمات البشر والرجاء ، ثم يتقدموا للسلام عليه ووداعه ، وكلهم رجاء وشوق إلى لقاء آخر معه رضي الله تعالى عنه .

* * *

---

(١) رواه أبو داود في (السنن) ، كتاب الصلاة ، باب الدعاء /١٤٨٨/ (٢/١٦٥) ، والترمذي في الدعوات ، باب /١١٨/ حديث /٣٥٥١/ (٩/٢٠٥).

نسيم الوصل يؤذن بكشف الحجاب
ولقاء الأحباب

كان كلامه رضي الله عنه مع أهله وأصحابه في الأسابيع الأخيرة من عمره المبارك يحمل معاني الوصايا والتوجيهات ، والتنبيهات إلى بعض الأمور والقضايا العائلية الخاصة والعامة ، ولم يكن أسلوبه في الكلام يُشعر أحداً بقرب أجله أو غير ذلك ، بسبب رقّته رضي الله عنه ولطفه العجيب. ولم يَغفل يوماً عن كلمات الرضا والتسليم ، وتفويض أمره كله إلى الله تعالى.

وكانت وفاته رضي الله عنه عشية الاثنين في العشرين من شهر ذي الحجة سنة / ١٤٢٢/ من الهجرة الشريفة.

وقد حصلت أيام مرضه ووفاته من العجائب والكرامات ما تُوجب علينا ذكرها ، ويضيق بنا المجال لاستقصائها ، على أننا سنأتي على ذكر جملة واسعة حول ذلك في الكتاب الموعود إن شاء الله تعالى. ومن ذلك: أن أحد الأطباء الذين كانوا يُشرفون على العناية بشيخنا الإمام رضي الله عنه ، والرعاية الصحية به ، وقد قدم من بلد آخر لهذا الغرض ـ وجزاه الله خير الجزاء ـ هذا الطبيب الماهر لفت نظره بيتان من الشعر كتبا على فراش شيخنا الإمام

رضي الله عنه ، من الجهة اليمنى قريباً من رأسه ، وهما:

ولو كانت الدنيا تدوم لأهلها رأيت رسول الله فيها باقيا
ولكنها تفنى ويفنى نعيمها ويلقىٰ المؤمن ربه راضيا

وقد استحوذ ذلك على إعجاب ودهشة الأطباء والحاضرين ، إذ لم يتيسر لأحد أن يمد يده لملامسة شيخنا الإمام رضي الله عنه فكيف حصل ذلك؟!.

وفي هذا نعي لشيخنا الإمام بخط القدرة الإلٓهية ، كما أخبر أحد الصالحين من أهل المدينة المنورة أنه رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وهو ينعىٰ شيخنا الإمام لأهل البرزخ.

وقد أخبرنا أيضاً بعض الصالحين أنه كلما توجه إلى الله تعالى داعياً بشفاء شيخنا الإمام رضي الله عنه ، رأى شيخنا الإمام بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال: فكيف أطلب من هو في الأحضان المحمدية يحيا وينعم.

ولا غرو في ذلك ، فإن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عطفاً وحناناً وعناية خاصة بأحبابه المتقين في جميع العوالم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه لما أرسله والياً إلى اليمن ، قال له وهو يودعه: «إنَّ أولى الناس بي المتقون ، مَن كانوا وحيث كانوا»[1].

ولا يخفى على كل مؤمن قول الصحابي الجليل سيدنا بلال رضي الله عنه ، وهو على فراش الموت؛ وقد رأى من أهله الحزن

---

(١) الحديث في (مسند) الإمام أحمد (٥/ ٢٣٥).

والبكاء فأنكر عليهم وقال: (غداً نلقى الأحبة ، محمداً وصحبه).

وقد رأى سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام قبل أن يُستشهد ـ وكان رضي الله عنه صائماً ـ فقال له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «إنك ستفطر عندنا».

ولله در القائل:

عليكم وإلا فالبكاء مَضيع ... وفيكم وإلا فالرجاء قطيع
وعنكم وإلا فالأحاديث ضِلَّةٌ ... ومنكم وإلا فالنّوال وضيع

ولقد عزّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمته في مصائبهم بقوله: «ليعزِّ الناس في مصائبهم المصيبةُ بي»[1].

ويرحم الله تعالى القائل:

إمام الرسل أكرمهم خصالا ... وأقربهم لدى المولى وصالا
فيا مَنْ هام فيه هوىً وحالا ... محمد رحمة أَجْرت نوالا
به لمحبه كَمُلَ الكمال

قلت: وقد دفن شيخنا الإمام رضي الله عنه في مدفن جامع المدرسة الشعبانية ، بناءً على وصيته ، ولما لها من منزلة عنده ، وقد ازداد المكان بهاءً وجلالاً وأنواراً بمرقد شيخنا الإمام فيه ، ويشعر الزائر له بالأنس والسكينة ، وكأنه في روضة جنانية ، وهذا هو شأن عباد الله المتقين المخلصين ، المحبين لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ.

وإني أسأل الله العظيم رب العرش العظيم ، بجاه رسوله ذي القدر العظيم صلى الله عليه وآله وسلم أن يَرفع مقام شيخنا الإمام في أعلى المقامات ، وأن يُعلي منزلته في أعلى الدرجات ، وأن يجمعنا معه في الحضرة المحمدية في جملة الأحباب ، مع ﴿ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴾ [النساء: ٦٩ ـ ٧٠] آمين. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، كلما ذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكره الغافلون ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢].

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافىء مزيده ، حمداً كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه ، والصلاة والسلام على خير خلقه وخاتم رسله وأنبيائه ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه ، وبعد:

فقد سمعت من حضرة مولانا الوالد رضي الله عنه مَراتٍ عديدةً رغبته في جمع كتاب واسع حول مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم.

وكنت قد علمت أنه رضي الله عنه قد تناول البحث في ذلك في دروسه في جامع بانقوسا ، واستغرق البحث في مواقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم سنوات عديدة ، إذ كان له درس بعد العصر من كل يوم جمعة ، فقلت له: حبّذا لو جمعنا ما حصلنا عليه من تسجيلات لتلك الدروس ـ والأجدر بنا أن نسميها محاضرات لشموليتها ومكانتها العلمية ـ وقمنا بترتيبها لطباعتها ونشرها.

وقد تمّ هذا الأمر بفضل الله تعالى وتوفيقه ، وكان مولانا الوالد رضي الله عنه يدعو لي بالتيسير والتوفيق كلما عرضت عليه جزءاً

مما جمعته وكتبته ، وفي شهر شوال من عام /١٤٢١/ هـ عرضت عليه جزءاً واسعاً من هذا الكتاب ، فقرأه في عدة أيام ، وسَرَّه هذا العمل ، وأرشدني إلى بعض التوجيهات ، ودعا لنا بالتوفيق والسداد.

وكم كنت أودّ أن يصدر هذا الكتاب ويراه مولانا رضي الله عنه وَقد طبع ونشر ، إلا أنّه أجاب دعوة ربه فانتقل من الحياة الدنيوية إلى الحياة البرزخية العالية ، في العشرين من ذي الحجة لعام /١٤٢٢/ هـ والحمد لله على كل حال ، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وسيكون هذا العمل إنْ شاء الله في صحيفة حسناته الواسعة ، لأنه من العلوم التي وَرَّثها ويُنْتَفَعُ بها إلى يوم الدين ، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[1].

وإن هذه المحاضرات بما احتوت عليه من أبحاث علمية واسعة ، وتحقيقات علمية مؤيدة بنصوص الكتاب والسنة ، تُعتبر من جملة ما ورَّثه مولانا الوالد رضي الله عنه من علوم يَنتفع بها الناس إلى يوم الدين ، وتندرج أيضاً في جملة مؤلفاته العلمية التي زادت على خمسة وعشرين كتاباً في بيان أصول الدين ، وما يحتاجه الناس لمعرفة مبادىء دينهم ، ودفع شبهات ورد أباطيل.

وإني أسأل الله تعالى أن يَجعل هذا العمل المبارك منار هَدْي ونفع لكل من قرأه إلى يوم القيامة ، وأن يكون ذلك في جملة

---

(١) رواه مسلم /١٦٣١/ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

حسنات مولانا الوالد رضي الله عنه ، وأن يُكتب ذلك في كتاب أعماله الصالحة.

وأسال الله تعالى أن يجمعنا معه في الحضرة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم في جميع العوالم ، حتى ندخل الجنة بسلام برفقة خير الأنام صلى الله عليه وآله وسلم.

وإن من جملة إكرام الله تعالى لأحبابه وأوليائه ، أنْ يكرمهم بالاستمرار على ما أحبوه وتولعوا به في الدنيا من عبادات وأعمال صالحة ، وذلك على سبيل الولع والتلذذ دون تكلف ومشقة. فقد ثبت في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضرب بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر ، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها. فأتى ـ ذلك الصحابي ـ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله ضَربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر ، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «هي المانعة ، هي المنجية ، تُنجيه من عذاب القبر»[1].

فأكرمه الله تعالى بقراءتها بعد وفاته ، لأنه كان مواظباً على قراءتها كل ليلة ، كما دل على فضل قراءتها أحاديث وردت عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد رؤي ثابت البناني يُصلي في قبره ، ولما سئلت ابنته عن ذلك قالت: كان يقوم الليل خمسين سنة ، فإذا كان السحر قال في

---

(١) رواه الترمذي / ٢٨٩٠/ وقال: حسن غريب.

دعائه: (اللهم إن كنت أعطيت أحداً الصلاة في قبره فأعطنيها)[1].

ولقد سمعت من مولانا الوالد رضي الله عنه، أنه رأى مرة في منامه مولانا الشيخ محمد نجيب سراج الدين رضي الله عنه وهو يشير إليه لتعديل عنوان كتاب كان الوالد رضي الله عنه بصدد طباعته ونشره، وسمعت منه مرة أنه رأى الشيخ الكبير العلامة الفاضل، السيد محمد سعيد الإدلبي بعد وفاته رحمه الله تعالى ورضي الله عنه، رآه بهيئة مَهيبة، ولِباس جميل، وهو يُدرِّس في الجامع الكبير. قال مولانا الوالد رضي الله عنه: «وقد حضرت درسه حتى فرغ منه».

قلت: ولما قدمت الجزء الأول مِنْ هذا الكتاب للسيد الأستاذ محمد علي الإدلبي للعمل على ضبطه وإخراجه جزاه الله تعالى خير الجزاء، وكان ذلك في السابع والعشرين من شهر رجب عام /١٤٢٣/ هـ، رأيت بعد ذلك بثلاثة أيام في أول ليلة من شهر شعبان، رأيت مولانا الوالد رضي الله عنه وهو جالس في فُسْحة واسعة لدار من الدور القديمة، فجلستُ أمامه وإلى جانبي الأستاذ الشيخ محمد علي، فقال لي الوالد رضي الله عنه: «هات ما عندك» فتقدمت إلى جانبه ومعي جزء واسع من هذا الكتاب، فنظر إليه وقال: «لقد رأيت هذا من قبل». فقلت له: لم نَفرغ بعد من الباقي، فقال: «سأراه متى فرغتم من جمعه إن شاء الله تعالى» ودعا لنا، وعلامات الرضا مقروءة في صفحات وجهه المشرق رضي الله عنه، وقد علمت من ذلك قبوله لهذا العمل ورضاه عنه،

---

(١) أورده أبو نعيم في (الحلية) (٢/٣١٩).

وأن الأمر قد عُرض عليه وهو في البرزخ ، وأسأل الله تعالى أن يَرفع مقامه ، ويُعلي درجته ويكرم منزلته ، وأن لا يحرمنا دعاءه ، وأن ينفعنا ببركاته وأسراره ، وأن يَحشرنا معه في زمرة عباده الصالحين ، تحت لواء سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم.

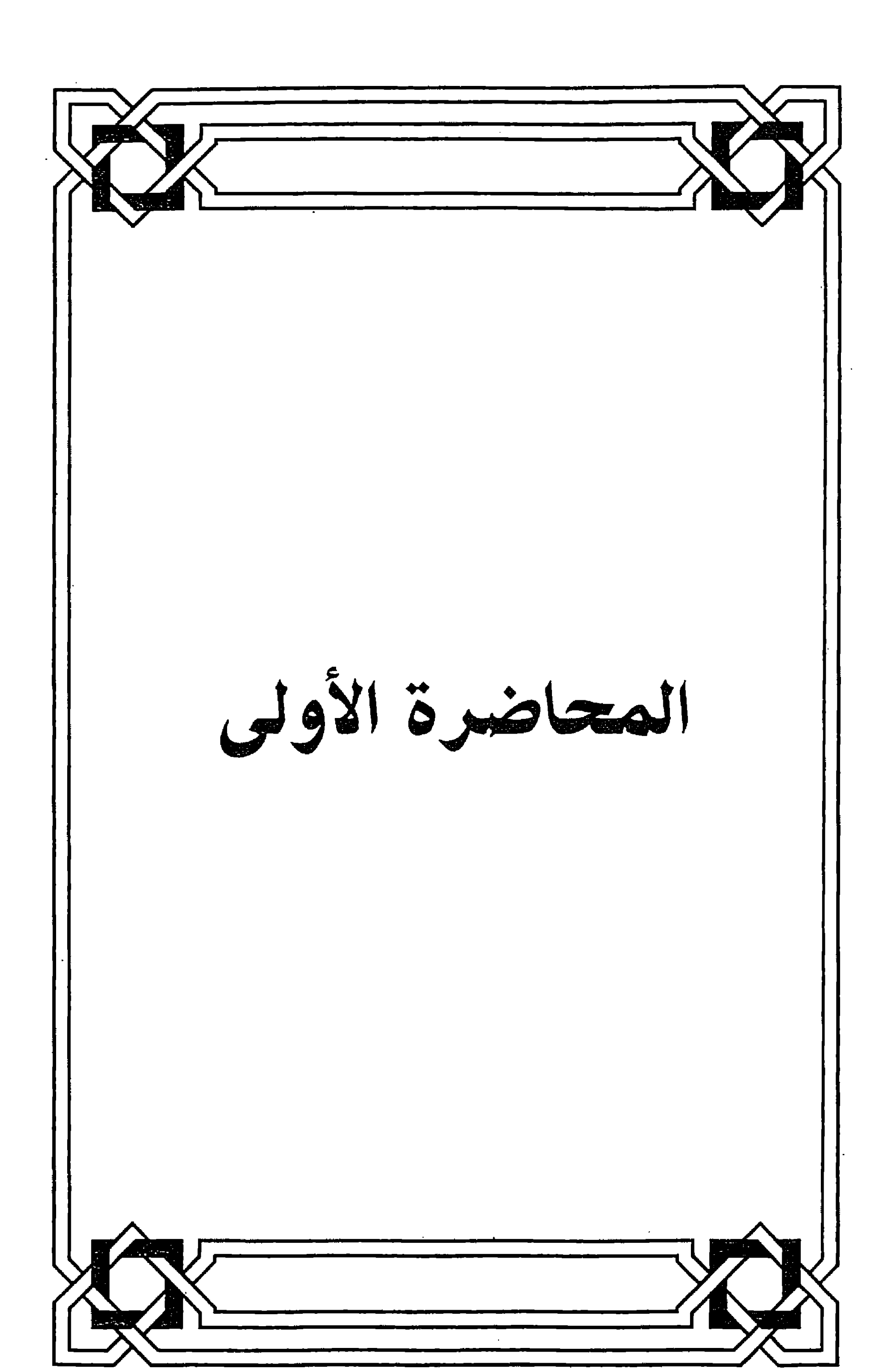
وإني أشكر كل من ساهم في إخراج هذا الكتاب وطباعته ونشره ، ومنهم الأستاذ الفاضل صاحب الأيادي البيضاء في طباعة كتب مولانا رضي الله عنه ونشرها ، وخدمة العلم وأهله السيد الشيخ محمد علي الإدلبي ، أجزل الله له المثوبة.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد أكرم الأولين والآخرين على رب العالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين

كتبه

محمد محيي الدين سراج الدين



المحاضرة الأولى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمدُ لله رَبِّ العَالَمينَ ، وأَفضَلُ الصَّلاةِ وَأَكمَلُ التَّسلِيمِ ، عَلَى سَيِّدنَا مُحَمَّدٍ وَعلَى آلِهِ وَصَحبِهِ أَجمَعِينَ ، سُبحَانَكَ لا عِلمَ لَنا إِلا مَا عَلَّمتَنا إِنَّكَ أَنتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

أَمَّا بَعدُ:

فلقدْ أَرسَلَ الله تَعالَى النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى العَالَمِ ، وَلَهُ مَعَهُم مَواقِفُ تَتَوقَّفُ عَلَيهَا سَعَادَتُهم فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ وَعَظِيمَةٌ ، وَمِن تِلكَ المَوَاقِفِ: المَوَاقِفُ الأَربَعَةُ ، التي جَاءَ بَيَانُها فِي الآيات الكَرِيمَةِ ، وَهِيَ قَولُهُ تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة: ٢].

وقَولُهُ تَعالَى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وَهذه المواقفُ هيَ دَعوَةُ سَيِّدنَا إبرَاهِيمَ علَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، إذ قَالَ اللهَ تَعَالَى إخبَاراً عَن سَيِّدنَا إبْراهيمَ عَليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وَلَقَد حقَّقَ الله تَعَالى دَعوَةَ سَيِّدِنَا إِبرَاهِيمَ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، فكَانَ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى الله عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنِّي عَندَ الله لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَمَ لَمُنجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ ، وَسَأُنبِئُكم بِأَوَّلِ ذَلِكَ: دَعوَةُ أَبِي إبرَاهِيمَ ، وبِشَارَةُ عِيسَى بِي»[1].

وَقالَ الله تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فَقَد امتَنَّ الله تَعَالَى فِي هذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ عَلَى عِبَادِهِ بِبِعثَةِ النَّبِيِّ الأَكرَمِ صَلَّى الله عَلَيهِ وآلِهِ وسَلَّمَ ، وَبَيَّنَ الحِكمَةَ في إرسَالِهِ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَذَلِكَ أَنَّ الله تَعَالَى أرسَلَهُ لأَجلِ أَن يَتلُوَ عَلَى النَّاسِ آيَاتِ الله تَعَالَى ، ويُزَكِّيهُمْ ، وَيُعَلِّمَهُمُ الكِتَابَ والحِكمَةَ.

وَسَنَأتِي عَلَى بَيَانِ هَذِه المَواقِفِ مَفَصَّلَةً إن شاءَ اللهُ تَعالى.

* * *

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (٤/١٢٧) عن العرباض بنِ سارية رضي الله تعالى عنهُ قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إنِّي عندَ الله لخاتمُ النَّبيِّين وإنَّ آدم لمنجدلٌ في طينته ، وسأنبئكم بأوَّل ذلك: دعوةُ أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى بي ، ورُؤيا أمِّي التي رأت ، وكذلك أمَّهات النَّبيِّين ترينَ» (وإنَّ أمَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأت حين وضعته نوراً أضاءت منه قصور الشَّام).

مَوقِفُ تِلاوةِ آيَاتِ الله تَعَالى

مَعنَى الآيَاتِ الكَونيّةِ والآيَاتِ الشَّرعِيَّةِ:

إنَّ آيَاتِ الله تَعَالى تَتَضَمَّنُ الآيَاتِ الشَّرْعِيَّة ، التي تَتَعلَّقُ بالأَحكَامِ والأوَامرِ وَالمَناهي ، والآيَات الكَونيَّةِ ، أي: التَّكوِينيَّة الخَلقِيَّة.

وَلَقَد جَاءَ سَيِّدُنَا رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيه وآلِهِ وسَلَّمَ يَتلُو عَلَينَا آيَاتِ الله تَعَالى الشَّرعِيَّةَ والكَونيةَ.

أَمَّا الآيَاتُ الشَّرعِيَّةُ: فَكانَ سَيِّدنا رَسُولُ الله صلَّى الله عَليهِ وآلِهِ وسَلَّمَ يَتلُو القُرآنَ الكَرِيمَ عَلى الصَّحَابَةِ الكِرَام عَامَّةً وَخَاصَّةً.

قَالَ الله سُبحَانَهُ وتَعالَى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾ أي: بِصِفَة أَنَّهُ قُرآنٌ يُقرَأُ[١] ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ

(١) لأنَّ التِّلاوة قد يراد منها المتابعة ، كما في قوله تعالى: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ﴾ أي: اتَّبع ما أوحي إليك ، وكما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: يتَّبعونهُ حقَّ اتِّباعه ، علماً وعملاً ، ومن جملة العمل به: قراءته ، أمَّا قوله تعالى: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾ أي: أقرأ القرآن ، ولم يقل: أتلو الكتاب ا هـ.

﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩١ ـ ٩٣].

فَلَقد أمرَهُ الله تَعَالى أَن يَقرَأَ عَلَيهِم هَذَا القُرآنَ الكَريمَ؛ حَتَّى يُسمِعَهُم كلامَ الله تَعَالى، ويُدخِلَ نُورَ هَذَا القُرآن فِي قُلُوبِهم، فَمَن كَان في قَلبِهِ استِعدَادٌ وَقَابليَّةٌ لِهَذا النُّور القُرآنِيِّ استَنارَ قَلبُهُ واهتَدى إلَى الله تَعَالى، ومَن لَم يَكُن فِيه هَذا الاستعدَادُ بَقِي عَلى مَا هُوَ عَلَيهِ.

ولِهَذا قَالَ: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: وَبَعدَ التِّلاوةِ ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: بِنُورِ هَذَا القُرآنِ ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي أَنزَلَ هذِهِ الآيَاتِ الشَّرعِيَّةَ هُدَىً وَبَيَاناً وَشِفَاءً ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أَي: الكَونِيَّةَ ﴿فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أَي: أَنَّكُم جَحَدتُم بِآيَاتِه الشَّرعِيَّةِ، فَسَيُرِيكُم آيَاتِه الكَونِيَةَ المَرئِيَّةَ لَكُم؛ حَتَّى تَعرِفُوا أَنَّ مَا أَخبرَ عَنهُ القُرآنُ الكَرِيمُ هُوَ الحَقُّ.

وَذَلِكَ لأنَّ الآيَاتِ الكَونِيَّةَ مُطابِقَةٌ وَمُوَافِقَةٌ للآيَاتِ الشَّرعيَّة تَماماً، كَما قَالَ الله تَعَالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] أي: أَنَّ هَذا القُرآن الكَريمَ هُوَ حَقٌّ.

فَالآياتُ الكَونيَّةُ والآفَاقِيَّةُ والنَّفسِيَّةُ كُلُّها شَوَاهِدُ عَلى أَنَّ هَذا القُرآنَ الكَرِيمَ هُو حَقّاً كلامُ الله تَعالى، وأَنَّ سَيِّدَنا مُحَمَّداً هُو رَسُولُ الله حَقّاً صَلَّى الله عَلَيهِ وآلِه وسَلَّم.

وَقالَ بَعضُهُم: إنَّ الضَّمِيرَ فِي قَولِه تَعَالى: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ عَائدٌ

لِرَسُولِ الله صَلَّى الله عَليهِ وآلِه وسَلَّمَ ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ﴾ أَيْ: سَيِّدُنَا مُحمَّدٌ صَلَّى الله عَليهِ وآلِه وسَلَّمَ ﴿ٱلْحَقُّ﴾.

وَيَكُوْنُ المَعْنَى: حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً هُوَ حَقّاً رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

ولاَ تَنَافِي فِيْ هَذَا، لأَنَّهُ مَتَى ثَبَتَتِ الشَّوَاهِدُ عَلَىٰ حَقِّيَّةِ القُرْآنِ الكَرِيْمِ، ثَبَتَ صِدْقُ سَيِّدِنَا رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهُ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وَمَتَى ثَبَتَتِ الشَّوَاهِدُ عَلَى أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ثَبَتَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيْمِ هُوَ كَلَامُ اللهِ تَعَالَى حَقّاً.

فَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أَي: الكَوْنِيَّةَ، بِدَلِيْلِ قَوْلِهِ: ﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ أَي: فِيْ مَا حَوْلَهُمْ وَفِيْ الأَطْرَافِ ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

فالآيَاتُ الدَّالَّةُ علَى قُدرةِ الله تعالَى ووَحدَانِيَّتِهِ وَكَمالاتِهِ، مِنْهَا آياتٌ تَدوينيَّةٌ تَفصِيليَّةٌ، وَمِنهَا تكوينيَّةٌ مُنتَشِرةٌ في العَالَم.

والعَالَمُ عَالَمَانِ: إِنسانٌ وَآفَاقٌ.

فالله تَعالَى تَكَفَّل أَنْ يُرِيَ آيَاتِه الدَّالَّةَ عَليهِ في الآفَاق وَفي النَّفسِ، فإِن تَعَامَى الإنسَانُ عَن نَفسِه فَلْيَنظُر في الآفَاقِ، لأَنَّ العَالَمَ لَدَى الإنسَانِ هُوَ نَفسهُ، ومَا يَراهُ مِن سَماوَاتٍ وأَرضٍ وما فِيهِما.

ولَقَدْ كَانَ صَلَّى الله عليهِ وَآلهِ وسلَّم يَجْهَد كُلَّ الجُهدِ في تلاوةِ

هذا القُرآنِ الكَريمِ على الصَّحَابَة الكِرامِ عامَّةً وخاصَّةً ، حَسبَ ما يَرى المَصْلَحة في ذَلِكَ .

فمِنْ جُملَة ذَلك : ما جَاءَ في الحَديث الذي رَواهُ البُخاريُّ[١] عَن أَنس بنِ مَالكٍ رضيَ الله تعالَى عَنهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْه وآلهِ وسَلَّم لأُبَي[٢] : «إنَّ الله أمَرِني أَن أَقرأَ عَليكَ : ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾» .

قال : وَسمَّاني ـ أي : ذَكَرَني الله تَعالَى باسمِي ـ؟ .

قالَ : «نَعمَ» فَبَكىٰ .

وَفي رِوايَةٍ لَه أيضاً[٣] : «إن الله أمَرني أَن أقرَأَ عَليكَ القُرآنَ» .

قَالَ أُبَي : آلله سَمَّاني لَك؟ .

قالَ : «الله سَمَّاك لِي» فَجَعل أُبَيٌّ يَبكِي .

وَفي رِوايَةٍ للطَّبرانِيِّ[٤] : «نَعم بِاسمِكَ ونَسَبِكَ في المَلأ الأعلَى» .

وَفي رِوَايَةٍ عِندَ الإمَام أحمَدَ فِي (المُسند)[٥] عَن عَبدِ الله بْنِ عَبْدِ الرَّحمنِ بنِ أَبزَى ، عَن أَبيهِ ، عَن أُبَي بنِ كَعبٍ رضيَ الله تَعالَى عَنهُ قَالَ : قالَ لِي رَسُولُ الله صَلَّى الله عَليهِ وآلِه وسَلَّمَ : «يَا أُبَيُّ أُمِرْتُ أَنْ أقرَأَ عَلَيكَ سُورةَ كَذَا وكَذَا» .

---

(١) في كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه /٣٨٠٨/ (١٢٦/٧).

(٢) أي: للصَّحابيِّ الجليل أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه.

(٣) كما في كتاب التَّفسير ، باب تفسير سورة ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ / ٤٩٦٠/ (٨/ ٧٢٥).

(٤) (مجمع الزوائد) (٩/ ٣١٢).

(٥) (٥/ ١٢٣).

قَالَ: قُلتُ: يَا رَسُولَ الله وقَدْ ذُكِرتُ هُنَاكَ؟.

قَالَ: «نَعَم».

فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا المُنذِر فَفَرِحتَ بِذَلك؟.

قَالَ: وَمَا يَمنَعُنِي، والله تَبارَكَ وَتَعالَى يَقولُ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وَجَاءَ فِي رِوايَةٍ أُخرَى فِي (مُسنَد) الإمَام أَحمَدَ[١] عَن أَبِي حَبَّةَ البَدرِيِّ رَضِيَ الله تَعالى عَنهُ قَالَ: لَمَّا نَزلَتْ ﴿لَمْ يَكُنِ﴾[٢].

قَالَ جِبرِيلُ عَلَيهِ السَّلامُ: يَا مُحَمَّد ـ صَلَّى الله عَليهِ وآلِه وسَلَّمَ ـ إنَّ رَبَّكَ يَأمُرُكَ أَن تُقرِىءَ هَذِهِ السُّورَةَ أُبَي بنَ كَعبٍ.

فَقالَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَليهِ وآلِه وسَلَّمَ: «يَا أُبَي إِنَّ رَبِي عَزَّ وجَلَّ أَمَرَنِي أَنْ أُقرِئَكَ هَذِهِ السُّوْرَةَ».

فَبَكَى، وَقَالَ: ذُكِرتُ ثَمَّة؟ قَالَ: «نَعَمْ».

فَقَرَأَ عَليهِ صَلَّى الله عَلَيهِ وآلَه وسَلَّمَ سُوْرَةَ ﴿لَمْ يَكُنِ﴾[٣].

---

(١) (٣/ ١٨٩).

(٢) أي: سورة ﴿لَمْ يَكُنِ﴾.

(٣) والسِّرُّ في هذا التَّخصيص: أنَّ أُبيّاً رضي الله تعالى عنه كان إذا قرأ القرآن الكريم يلاحظ أنَّه يتلقَّى عن روحانيَّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ أنَّه سمع القرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم أُذناً وقلباً، أي: أنَّه كان شديد الإصغاء حين الإلقاء من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فكان عندما يقرأ القرآن الكريم يلاحظ تلقِّيه وأخذه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأراد الله تعالى أن يكرمه، بأن يجمع له السَّمعين من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: القلبيَّ والأُذنيَّ، فأمر رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام أن يقرأ عليه سورة ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ التي جاء فيها: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ [البينة: ١ ـ ٢].

وَقَد قَرأَها صَلَّى الله عَلَيهِ وآلِهِ وسَلَّم على الصَّحَابَةِ الكِرَام عَامَّةً.

ومِنْ ذَلكَ: مَا جَاءَ في (سُنَنِ) التِّرمذيِّ[1] وَغَيرِهِ، عَنْ أَبِيْ بَكْرٍ الصِّدِّيْقِ رَضِيَ الله تَعالَى عَنهُ قَالَ: كُنتُ عِندَ رَسُولِ الله صلَّى الله عَليه وآله وسَلَّمَ، فأُنزلَت عَليهِ هَذهِ الآيَةُ: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء: ١٢٣].

فَقَالَ رَسُولُ الله صلَّى الله عَليهِ وآلِهِ وسَلَّمَ: «يَا أَبا بَكرٍ ألا أُقرِئُكَ آيَةً أُنزلَت عَليَّ»؟.

قُلتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله ـ صَلَّى الله عَلَيهِ وآلَهِ وسَلَّمَ ـ.

قَالَ: فأَقْرَأنِيهَا، فَلَا أعلَمُ إلا أنِّيْ قَد كُنتُ وَجَدتُ انقِصامَاً في ظَهرِي، فتَمَطَّأتُ لَها.

فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عليه وآلِه وسَلَّمَ: «مَا شَأنُكَ يَا أَبَا بَكرٍ»؟.

قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله بِأَبِيْ أَنْتَ وأُمِّيْ، وأَيُّنَا لَم يَعْمَل سُوْءاً، وإنَّا لَمَجْزِيُّونَ بِمَا عَمِلنَا؟.

فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيهِ وآلِهِ وسَلَّمَ: «أَمَّا أَنْتَ يَا أَبا بَكْرٍ والمُؤْمِنُونَ[2] فَتُجْزَونَ بِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا؛ حَتَّى تَلْقَوا الله وَلَيسَ لَكُمْ ذُنُوبٌ، وأَمَّا الآخَرُونَ فَيُجْمَعُ ذَلِكَ لَهُمْ حَتَّى يُجْزَوا بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ».

وقَدْ سَمِعَ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أيْضاً مِنَ الصَّحابَةِ الكِرَامِ

---

(١) في كتاب التَّفسير، بابٌ ومن سورة النِّساء / ٣٠٤٢/ (٨/ ٢٠٩).

(٢) أي: المؤمنون الكُمَّلُ.

رَضِيَ الله عَنْهُم تِلَاوَتَهُمْ لِلقُرآنِ الكَرِيمِ ، تَحْرِيضاً لَهُمْ عَلَى تِلَاوَتِهِ.

فَمِنْ ذَلِكَ: سَمَاعُهُ مِن ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ الله تَعالَى عَنْهُ سُورَةَ النِّسَاء إِلَى قَولِه تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

فَعَنْ عَبْدِ الله بنِ مَسعُودٍ رضيَ الله تَعالَى عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيهِ وآلِهِ وسَلَّمَ: «اقْرَأْ عَلَيَّ».

قُلتُ: يا رَسُولَ الله أَقْرَأُ عَلَيْكَ وعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟!.

قالَ: «نَعَم ، إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعُهُ مِنْ غَيْرِيْ».

فَقَرَأْتُ سُوْرَةَ النِّسَاءِ ، حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الآيَةَ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾.

فَقَالَ: «حَسْبُكَ الآنَ»[1]. فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ[2] صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وَلِبَيَانِ مَعْنَى الآيَةِ الكَوْنِيَّةِ: فَقَدْ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠].

هَلْ هَذَا يَعْنِي آيَةً شَرْعِيَّةً فِيْهَا أَمْرٌ وَنَهْيٌ؟! أَمْ آية كونية ـ يَعنِي: أَنَّ تَكوِينهُ وإِيجَادَهُ لِعيسَى عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ آيَةٌ؟ ـ

ولَا شكَّ أَنَّ الآيَةَ مُؤَلَّفةٌ مِنْ كَلمَات ، والكَلمَاتُ مُؤَلَّفةٌ مَنْ حُرُوفٍ؛ فكَمَا أَنَّ الآيَاتِ التَّدوينيَّة مُؤَلَّفةٌ مِن كَلمَاتٍ ، والكَلِمَاتُ

---

(١) أي: كافي ، ولم يقل: لا تقرأ لأنَّ هذه اللَّفظة موهمةٌ. فافهم.

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير ، باب ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ /٤٥٨٢/ (٨/ ٢٥٠) ، ومسلم في صلاة المسافرين ، باب فضل استماع القرآن الكريم /٨٠٠/ (٢/ ٨٧٧).

مُؤَلَّفةٌ مِنْ حُرُوف ، وَبِهذَا التَّأْلِيف ظَهَرَت المَعاني ، فَكَذلك لَوْ دَقَّقْتَ في هَذا العَالَم ، لَرَأَيْتَ أَنَّ هَذَا العَالَم بَلْ كُلُّ العَوالِم المُمكِنَة حُرُوفٌ كَونيَّةٌ ، وكَلِمَاتٌ كَونيَّةٌ ، وآيَاتٌ كَونيَّةٌ؛ وَبتَأَلُّف الحُرُوفِ مَعَ بَعْضِها تَنْشَأُ الكَلِمَةُ الكَونيَّةُ، وبِتأَلُّف الكَلِمَة مَعَ الكَلِمَة تَنْشَأُ الآيَةُ الكَونيَّةُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ [المؤمنون : ٥٠]. وَلَمْ يَقُلْ : وَجَعَلْنَا ابنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَتَيْنِ ! ! فَهُمَا آيَةٌ.

فَعِيْسَى عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كَلِمَةُ الله تَعَالى ، والكَلِمَة الأُخْرَى هِيَ مَرْيَمُ ، فَبِالانْضِمام مَعهَا وإِلَيْها صَارَا آيَةً.

ولِذَلِكَ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ [المؤمنون : ٥٠].

قَالَ جَلَّ جَلالُهُ: ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ [النساء : ١٧١].

والكَلِمَةُ مُؤَلَّفةٌ مِنْ حُرُوفٍ ، والحُرُوْفُ الكَوْنِيَّةُ في عِيْسى عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ هِيَ أَعْضَاؤُهُ وأَجْزَاؤُهُ وحَوَاسُّهُ التي مَجْمُوْعُها كَلِمَةٌ. وبانْضِمَامِها إلى تَخْلِيقِ مَريَمَ وكَلِمَةِ مَريَمَ صَارَ آيَةً ، قَالَ الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ أي : آيَةً كَوْنيَّةً دَالَّةً على وُجُوْدِ الله تَعَالى وقُدْرَتِهِ؛ فَإِنَّ مِثلَ هذا التَخْلِيقِ على هذه الكَيفيَّةِ لا يَصْدُر إلا عَمَّنْ يَعْلَمُ التَّخليقَ بأيِّ نَوع كَانَ ، ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : ٧٩] أَي : بِكُلِّ نَوعٍ مِن أَنواعِ التَّخلِيقِ والتَّكوِينِ والإِيْجَادِ عَلِيمٌ سُبحَانَهُ وتَعَالى.

فهُو سُبحَانَهُ عَالمٌ وقَادرٌ عَلى أَنْ يَخلُقَ إنسَاناً من أَبٍ وأُمٍّ، وهَذِهِ عادَتُهُ سُبحَانَهُ فِي الخَلْقِ، كَمَا أَنَّهُ عالِمٌ وقَادرٌ على أَنْ يَخلُقَ إنسَاناً مِن غَيرِ أَبٍ ولا أُمٍّ؛ كمَا خَلَق آدَمَ عَلَيه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهُوَ سُبْحَانَهُ

عالِمٌ وقادرٌ على أَنْ يَخْلُقَ إِنْسَاناً منْ أَمٍّ بلا أب كمَا خَلقَ عيسَى عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ أَي: تَخْليقٍ ﴿عَلِيمٌ﴾.

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذه الكَلمَات الكَونيَّةَ المشْهُودَةَ ، ما هيَ إلا مَظَاهِرُ للكَلماتِ الإلَهيَّةِ الأمريَّة ، والله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى يَقُولُ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

والمُرَادُ بالكَلِماتِ في هَذِهِ الآيَةِ: كَلِمَاتُ التَّكْوينِ بالأَمْرِ ، لأَنَّهُ مَا مِن شَيءٍ مِن العَالَمِ الإمْكانيِّ ، سَواءٌ كَانَ مَحْسُوساً أَوْ معقُولاً أَو مَوْهُوماً؛ إلا وَهُوَ مَوْجُودٌ بِقَوْلِ الله تَعَالى: ﴿كُن﴾ ، بِدَليلِ قَولِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ﴾ أي: مَحْسُوسٍ أو مَعْقُولٍ أَو مَوْهُوم ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَوْجُوداً وأَرَادَ الله تَعالَى إيْجَادَهُ ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

فَهَذَا الشَّيءُ الذي صَارَ مَوجُوْداً إنَّمَا وُجِدَ بالكَلِمَةِ التَّكْوينيَّة الأمريَّة الإلٰهيَّة ، وهِيَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿كُن﴾ ، ثُمَّ بَعدَ ذَلكَ لَهُ صُورَةٌ وَمظهَرٌ وُجُوديٌّ ، والله تَعَالَى يَقُوْلُ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وَقالَ الله تَعالَى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] أَيْ: كُلُّ شَيءٍ مُتَلاشٍ مُضْمَحِلٌّ إلا مَا تَوَجَّهَ عَلَيهِ أمرُ الله تَعالَى ، وهُوَ قَولُهُ تَعالَى: ﴿كُن﴾.

وَما صَارَ للأَشياءِ وجُودٌ إلا بِقَولِ الله تَعالَى: ﴿كُن﴾ ، وهِيَ مُفتَقِرَةٌ إلَيهِ في كُلِّ لَحْظَة ، لأَنَّ الكَلمَاتِ الأَمْريَّةَ التَّكوينيَّةَ هيَ رُوْحُ الأَشياءِ وقِوَامُهَا ، ولَو انْقَطَعَتْ عَنهَا لصَارَتْ إلى العَدَمِ.

كمَا أَنَّ كَلِمَةَ ﴿ كُن﴾ تُعْطِي الشَّيء وُجُوداً لَمْحيّاً لَحظيّاً ، بدَليْلِ قَوْلِهِ تَعالَى : ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر : ٥٠].

فَفِي اللَّحظَةِ الثَّانيَةِ والثَّالِثةِ يَحْتَاجُ إلَى كَلِمَةٍ تكوينِيَّةٍ أمْرِيَّةٍ أُخرَى لِيَبقَى عَلى هَذا الشَّيء وجُوْدُهُ؛ وهَكَذَا.

فَسَيِّدُنَا عِيْسَى عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إنَّمَا وُجِدَ بِقَوْلِ الله تَعالَى: ﴿ كُن﴾ أَيْ: بالكَلِمَةِ الأَمريَّةِ التَّكوِيْنيَّة ، كَمَا قَالَ جَلَّ وعَلا: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فَمَظْهَرُهُ صُوْرَةٌ خَلْقِيَّةٌ قِوَامُهَا قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿ كُن﴾.

وَفي الحَقيقَةِ فَإنَّ جَمِيعَ المَخْلُوقَات هِيَ كَلِمَاتُ الله تَعالَى ، أَيْ: مَا وُجِدَتْ إلا بِقَوْلِ الله تَعَالى لَهَا: ﴿ كُن﴾.

وَإنَّمَا سُمِّيَ عِيسَى عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بِكَلِمَةِ الله ، باعْتِبَارِ أَنَّهُ خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى عَلى غَيْرِ الأَسْبَابِ المُعْتَادَةِ ، فَكَانَ أحَقَّ أَنْ يُسَمَّى بكَلِمَةِ الله مِنْ غَيْرِهِ.

وقَولُهُ سُبحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾ [لقمان: ٢٧] أي: الأمْرِيَّةُ التَّكْوينيَّةُ ، لأَنَّ سِلسِلَةَ العَوَالِم المُمْكِنَة لا نِهَايَةَ لَهَا ولا حَدَّ ، إذاً كَلِمَاتُ الله تَعَالَى لا تَنْفَد.

وَهَذَا مَا يُعرَفُ مِن الآيَة قَبْلَهَا ، وهِيَ قَولُهُ سُبحَانَهُ وَتَعالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ [الكهف: ١٠٧ ـ ١٠٨].

أي: مَا يَطلُبُونَ التَّحَوُّلَ عَنْهَا لا اسْتِعْدَاداً ولا اخْتِيَاراً ، أَيْ: أَنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيسَ عِنْدَهُم استِعْدَادٌ أَنْ يَطْلُبُوا التَّحَوُّلَ إلَى الفَنَاء أَوِ

العَـدَمِ، بَـلْ اسْتِعْدَادُهُم وَنَشأَتُهُم أَبَـدِيَّـةٌ بَاقِيَـةٌ بِإبْقَـاءِ الله تَعالَى ، لا أَنَّهُمْ بَاقُـون مَعَ الله تَعالَى ويُشَارِكُونَـهُ في وُجُـوْدِهِ ، بَلْ بَـاقُـوْنَ بِإبْقَاءِ الله تَعالَى لَهُمْ؛ فَافْهَمْ.

وَهُنَـا قَـدْ يَـقُوْلُ قَائِلٌ: كَيفَ أَنَّ أهلَ الجَنَّـة بَـاقُـونَ هَذِهِ الآبَـادَ والمُدَدَ السَّرمَدِيَّةَ اللامُتَنَاهِيَةَ؟!.

فَيقَالُ في الجَوابِ: قَالَ الله تَعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

فلا عجَبَ فِي أَنَّ أهلَ الجَنَّـةِ بَاقُونَ أبَـدَاً ، لأَنَّ مَدَد اللهِ تَعالَى لَهُمْ لا يَنقَطِعُ أبَدَاً.

ومِنَ الآيَات الكَونيَّةِ: مَا أخبَرَ الله تَعالَى عَنْ زَكَرِيَّا عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عِندَمَا سَألَ اللهَ تَعالَى وَلَدَاً ، وبَشَّرتْهُ الملائِكَةُ عَليهِمُ السَّلامُ: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤٠ ـ ٤١].

فَقَوْلَهُ تَعالَى: ﴿ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ أي: علامة ، والمُرَادُ مِنها آيَـةً كَونيَّـةً تُعلِمُني أنَّ زوجَتي قَد حَمَلتْ بيحْيَى عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَذلكَ حَتَّى يَشكُر الله ويُثنيَ عَلَيه تَعالَى ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ وَهَذه هي الآيَةُ.

أيْ: أنَّ عَلامَـةَ بَدءِ الحَملِ: أنَّكَ تُصبحُ في بَعضِ الأيَّامِ تُحَاوِلُ أَنْ تُـكَلِّمَ النَّـاسَ فلا تَستَطِيعُ ، وتَبقَى كَذَلِكَ ثَلاثَةَ أيَّـامٍ.

إلا أنَّـهُ ما حُجِبَ عَنِ الكَلامِ كُلِّـهِ ، فَكَـانَ يَـذكُـرُ الله تَعـالَى ويَحْمَدُهُ ، لَكِنَّـهُ لا يستَطِعُ تكلِيمَ غَيرِهِ.

فَأصْبَح في بَعض الأيَّام كَذَلِكَ فَصَارَ هَذَا آيَةً مُؤلَّفةً مِنهُ ومِنهُم. وَقولُهُ تَعالَى: ﴿إِلَّا رَمۡزٗا﴾ أَيْ: إشَارَةً، فأَشَارَ إليهمْ إشَارَةً أَنَّ زَوجَتَهُ قَدْ حَملَتْ بيَحيَى عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فاحمَدُوا الله تعالى عَلَى ذَلكَ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ أَيْ: أَومَأَ وأَشارَ إليْهم ﴿أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ [مريم: ١١] أَيْ: احْمَدُوا الله تَعَالَى عَلَى نِعْمَتِهِ وَفَضْلِهِ.

وَلَقَدْ قَدَّمَ سُبْحَانَهُ وتعالَى لِقَضِيَّةِ خَلْقِ عِيسَى عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ مُقَدِّماتٍ سابقةً ومَهَّدَ لَهَا.

فَتَرى أَنَّ إبْرَاهِيمَ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلاَمُ لَمَّا تَقَدَّمَ في السِّنِّ، وكَانَتْ زَوْجَتُهُ عَجُوزاً عَقِيماً، فَقَدْ خَرَقَ الله تعالَى لَهُ العَادَةَ ووهَبَ لَهُ إسْحَاقَ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهَذَا مِنْ آيَاتِ الله تَعالَى الدَّالَّة عَلَى قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهِ وتَعالَى.

ونَسَبُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا الصَّلاةُ والسَّلامُ يَرجِعُ إلَى إسْحَاقَ علَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولَيْسَ إلَى إسماعِيلَ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، فَظَهَرتِ الآيةُ فِي جَدِّه الأعْلَى، ثُمَّ لَمَّا قَرُبَ زَمَنُ عِيسَى عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ظَهَرَتِ الآيَةُ الأُخرَى في يَحْيَى عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، كَما تَقَدَّمَ.

وَلَقَدْ جاءت الآيَاتُ الشَّرْعِيَّةُ مُتَّفقةً تَمامَاً ومُطابِقَةً للآيَاتِ الكَوْنِيَّةِ، فَلا يُمكِنُ أَنْ يَأتي القُرْآنُ بِخَبرٍ أَو نَبأ ويَكُوْنَ الوَاقعُ مِنَ الآيَاتِ الكَوْنِيَّةِ مُخَالِفاً لَها، لأَنَّ خَالِقَ العَالَمِ هُوَ مُنْزِلُ هَذَا القُرْآنِ، ومِنْ جُمْلَةِ مَا جَاءَ فِيهِ: أَنَّهُ تَرجُمَانٌ للعَالَمِ وجامِعٌ لِما فِيهِ، ويَصفُ

لَكَ ما في العالَمِ مِنْ عَوَالِمَ مُتَعَدِّدَةٍ ، وَيُبَيِّنُ خَصائصَ العَوالِمِ عَلى وَجهٍ مُفصَّلٍ.

كَما إذَا اشْتَريتَ مَصنعاً فإنَّكَ ستَحصُلُ بالضَّرورةِ مَعَ المَصْنَعِ عَلى كِتَابٍ فِيهِ مَيِّزاتُ وصِفاتُ هَذا المَصْنَعِ ، وكُلُّ مَا تَقرَؤُهُ في هَذا الكِتابِ مَوجُودٌ في المَصْنَعِ.

وَهَذَا العَالَمُ والكَوْنُ خَلقُ الله تَعالَى ، وصُنعُ الله تَعالى ، وهَذا القُرآنُ الكَريمُ يَذكُرُ لكَ ما فِي هَذا العالَمِ مِنْ سَماوَاتٍ وَأرضينَ وكَواكِبَ وهَكَذا. . .

وَلذَلكَ قالَ سُبحانَهُ وتَعالَى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أَيْ: الكَوْنيَّة ﴿فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] أيْ: هَذا القُرْآنُ الكَريمُ.

وقال جَلَّ وَعلا: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أَيْ: الكَونيَّة ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣] أَيْ: لأَنَّها مُصَدِّقَةٌ لمَا أَخْبَرَ الله تعالَى عَنهُ في قُرْآنِهِ الكَرِيمِ سُبْحَانَهُ وتَعالَى.

ولقد تلا صلَّى الله عليهِ وآلهِ وسلَّمَ الآياتِ القرآنيَّةَ التي تأمُرُ بالنَّظرِ في الآياتِ الكونيَّةِ.

قالَ الله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وقال اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟﴾ أي: نظرَ اعتبارٍ وتفكُّر ، لا نظراً إلى ظاهرِ الشيء ، لأنَّه قال: ﴿فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وقال جلَّ شأنهُ: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٥] أي: أينما توجَّهتمْ يظهر لكم النُّورُ الدَّال على الله تعالى.

وقالَ الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢].

ففي كلِّ أمرٍ سلكتَ فيهِ انتهيتَ إلى الله تعالى، فالنِّهايةُ بحثاً، والنِّهايةُ إثباتاً، والنِّهايةُ سؤالاً وحساباً، والنِّهايةُ رجوعاً، كُلُّها إلى الله تعالى جلَّ شأنهُ.

فإنْ أخذتَ ورقةً من شجرةٍ، وتأمَّلتَ فيها، وفي صُنعها وخلقها، لانتهيتَ بعقلكَ إلى إثباتِ عظمةِ الله تعالى وقدرتهِ.

وَلو توجَّهتَ في نفسكَ وتأمَّلتَ فيها لشاهدتَ نورَ الله تعالى ظاهراً فيكَ، ولانتهيتَ إلى الله تعالى بحثاً وإثباتاً، قال تعالى: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [البقرة: ١١٥].

كلُّ هذا إذا كان التَّفكيرُ والتَّأمُّل على منهجِ العقلِ الصَّحيح والحكمة، مجرَّداً عن تأثير شياطين الإنس والجنِّ وضلالاتهم.

قال الله سبحانه وتعالى مخبراً عن لقمان عليه السلامُ: ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ١٦].

قولهُ تعالى: ﴿ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ ﴾ أي: يأتِ بها للحسَابِ، ويأت بها الله ـ أيْ: يأتِ بها نُورُ الله تعالى ـ.

لأنَّ هذه الذَّرَّة تدلُّ على الله تعالى، كما قال جلَّ وعلا: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [البقرة: ١١٥].

وقال سبحانَهُ: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٣].

وقالَ سبحانهُ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا [١] فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٣] أي: فماذا بقي بعدَ ذلك؟!!.

ومن الآياتِ الكونيَّة التي أمر الله تعالى رسولهُ سيِّدنا محمَّداً صلى الله عليه وآلهِ وسلم أن يتلوها: قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٧٠].

وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: ٧١].

وقولُه سبحانهُ وتعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

الحكمُ والفوائدُ من تلاوتهِ صلى الله عليه وآلهِ وسلم لكتاب الله تعالى

أوَّلاً: إنَّ في تلاوتهِ صلى الله عليه وآله وسلم لهذا القرآن بياناً على أن هذا القرآن معجزٌ، ولا يمكن للبشر أن يقرؤوه من تلقاء أنفسهم [٢]، إنَّما يأخذون ويتلقَّون كيفيَّة تلاوته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي هذا دليلٌ على أنَّ هذا القرآن الكريم هو كلامُ الله تعالى

---

(١) أي: باستمرار إلى ما شاء الله تعالى.

(٢) ألا ترى أنَّك في غير القرآن لا تستطيع التَّمييز في قراءة ﴿الٓمٓ﴾ بـ ألف، لام، ميم؛ وبين ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ أمَّا في كتاب الله تعالى، وإن كان كلٌّ منهما رسمهما واحدٌ، إلاَّ أنَّ قراءتهما تختلف، وهذا لا يُعرف إلاَّ بالتَّلقِّي والأخذ من قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم عن جبريل عليه السَّلام عن الله تعالى.

على الحقيقه ، وليس من كلام رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ثانياً: إنَّ في تلاوته صلى الله عليه وآله وسلَّم لهذا القرآن إيصالاً لنور هذا القرآن إلى قلوب السَّامعين؛ فمن كان في قلبه استعدادٌ لتلقِّي هذا النُّور اهتدى إلى الله تعالى ، ومن أعرض وحجبَ قلبه عن نورِ القرآن الكريم ضلَّ.

وهذا كما قال سبحانهُ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ﴾ أي: قل يا محمَّدُ صلى الله عليه وآله وسلم ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩١ ـ ٩٢].

فكان صلى الله عليه وآله وسلم في تلاوته للقرآن الكريم يوصلُ النُّور الإلّهيَّ النَّازل مع هذا القرآن إلى القلوبِ ، فتنصبغُ القلوب المستعدَّة بهذا النُّورِ؛ فتكون تلاوتهُ صلى الله عليه وآله وسلَّم قلماً ، والقلوب المستعدَّة ألواحاً ، لأنَّ شأن المتقبل أنَّه لوحٌ ، وشأن المسطر والقارىء أنَّه قلم مُمْلٍ.

فهو صلى الله عليه وآله وسلم يخطُّ في القلوبِ معاني كلام الله تعالى.

ثالِثاً: إنَّ في تلاوته صلى الله عليه وآله وسلَّم إسماعَاً لكلام الله تعالى ، فهُم يسمعُون كلام الله تعالى بواسطة رسُول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أي: بقراءته صلَّى الله عليه وآله وسلَّم للقرآن الكريم.

فهو صلَّى الله عليه وآله وسلم الواسطةُ عن الله ، والنَّاطق عن الله تعالى.

وفي هذا يقولُ سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ أيْ: طلبَ الجوار والأمان ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] أيْ: أعطِهِ الأمان ثمَّ أتلُ عليه كلام الله تعالى حتَّى يسمعهُ منك يا محمَّد صلى الله عليه وآله وسلَّم.

رابعاً: إنَّ في تلاوته صلَّى الله عليه وآله وسلَّم تنزُّلاً لروحانيَّة القرآن الكريم ورحمته وسكينته ونوره ، لأنَّ في القرآن الكريم نوراً ورحمةً تنزلُ معه حينَ تلاوته ، قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

فأخبرَ سبحانه أنَّه يُنزِّلُ من القرآن الكريم شيئاً عظيماً ، أشارَ إليه بقولهِ: ﴿مَا هُوَ﴾ ثمَّ بيَّن ذلك بقوله: ﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أيْ: باعتبار أنَّه قرآنٌ يقرأُ ، ولم يقل: من الكتاب ، ممَّا يدلُّ على أنَّ في قراءة القرآن أو سماعهِ استنزالاً للرَّحمة والشِّفاء.

ولهذا قال بعضهُم: إنَّ للقُرآن تجدُّد نُزولٍ ، بمعنى: أنَّ أنوارَهُ ورُوحانيَّته وسكينتهُ متجدِّدة النُّزول كلَّما قُرِئ.

فهوَ متجدِّد النُّزول بهذا المعنى ، لا من حيثُ الكلمُ والنَّصُّ.

ومن أدلَّتهم على ذلك قولُهُ تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ ولمْ يقُل: وأنزلنَا من القرآن ، فكلَّما قرىء القرآنُ تنزلُ الرَّحمةُ والشِّفاء والنُّور والهدى ، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وممَّا يدلُّ على أن للقرآن تنزُّلاً بأسرارِهِ وأنوارِهِ وسكينته عندَ قراءته ، ما جاء في الحديث الذي رواهُ البُخاريُّ[1] وغيرهُ ، عن البراء بنِ عازبٍ رضي الله تعالى عنه قال: كان رجلٌ يقرأُ سورة الكهف ، وإلى جانبه حصانٌ مربوطٌ بشطنين[2] ، فتغشَّتهُ سحابةٌ فجعلت تدنُو وتدنُو ، وجعَلَ فرسُهُ ينفِرُ؛ فلمَّا أصبحَ أتى النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فذكرَ ذلك له ، فَقالَ: «تلكَ السَّكينةُ تنزَّلت بالقُرآن».

ومن ذلكَ قولُهُ صلى الله عليه وآله وسلَّم: «وما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ، ويتدارسُونه بينهم: إلا نزلَت عليهم السَّكينةُ ، وغشيتهم الرَّحمة ، وحفَّتهم الملائكةُ ، وذكرهُم الله فيمن عندهُ»[3] .

ومن هذا قولُ أبي يَزيد البسطاميِّ رضي الله تعالى عنه لمَّا سمع قارئاً يقرأ: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢] قالَ أبو يَزيدَ رضي الله تعالى عنهُ: فأينَ مريدُ الله؟! .

فَقد قصدَ بذلك أهل زمانهِ ، لأنَّه لاحظ أنَّ هذه الآية لمَّا قرئتْ تنزَّل معناها ، فأخذ هذا الإنزالُ حكمه ، فكان الخطابُ لأهل زمانهِ.

---

(١) في كتاب فضائل القُرآن ، بابُ فضل سورة الكهف / ٥٠١١/ (٩/ ٥٧).

(٢) الشَّطن: الحبل الطَّويل تشدُّ به الدَّابة.

(٣) الحديث رواه مسلمٌ في كتاب الذِّكر والدُّعاء ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذِّكر / ٢٦٩٩/ (٥/ ٢٦٠٠).

خامساً: لقد أخبر الله تعالى أنَّه ما مِنْ رسولٍ أرسلهُ إلى قومٍ إلا وأمرهُ أن يتلو عليهم آيات الله تعالى ، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾[1] [القصص: ٥٩].

لأنَّه حينمَا يتلُو عليهم الآياتِ تتنزَّلُ أنوارُ هذه الآياتِ ورُوحانيَّتُها بواسطةِ ذلك الرَّسول صلى الله عليه وآله وسلَّم، وتنعكسُ على القُلوب ، فأيُّ قلب تقبَّلها أضاء واستنارَ واهتدى إلى الله تعالى.

ولقدْ كان هذا سبباً في إسلام كثيرٍ من الصَّحابة رضي الله تعالى عنهم ، وما ذاكَ إلا لأنَّ هذا القرآن الكريم كما وصفهُ الله تعالى بأنَّه بصائرُ تبصِّر القلوب والعقول وتنوِّرُها ، فيهتدي الإنسان إلى معرفَةِ حقائق الأمورِ.

كما قال الله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

فمِن ذلكَ إسلامُ عثمانَ بنِ مظعونٍ رضي الله تعالى عنهُ.

فقد روى الإمامُ أحمدُ في (مسندهِ)[2] عن عبد الله بن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما قال: بينما رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم بفناء بيته بمكَّة جالِسٌ ، إذ مرَّ به عثمانُ بن مظعونٍ ،

---

(١) قوله تعالى: ﴿فِىٓ أُمِّهَا﴾ أي: عاصمةُ القرى؛ وهذه سنَّةُ الله تعالى في بعثة الرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام ، أن يبعثهم من المدن الحاضرة العامرة بالسُّكان ، وهي العاصمة ، وتسمَّى أُمّاً ، أي: قلب القرى ، فالقلبُ يأتي إلى القلب؛ ولمَّا كانت مكَّةُ أُمَّ القرى كلِّها ـ أي: عاصمة العواصم وقلب القِوالب ـ بُعث فيها قلب القلوب وإمامُ الرُّسل والأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) (٣١٨/١).

فتكشَّر[1] إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقالَ له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا تجلسُ»؟ قال: بَلى.

قال: فجلس رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم مستَقبلَهُ، فبينَما هو يحدِّثهُ إذ شخص رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم ببصرِه إلى السَّماء ، فنظر ساعةً إلى السَّماء فأخذ يضع بصرهُ حتَّى وضعهُ على يمينه في الأرض ، فتحرَّف رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم عن جليسه عُثمان إلى حيث وضع بصرهُ ، وأخذ ينفُضُ رأسهُ كأنَّه يستَفْقِهُ ما يُقالُ له ، وابنُ مظعونٍ ينظرُ ، فلمَّا قضى حاجتهُ واستَفقهَ ما يُقالُ لَهُ ، شخصَ بصَرُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم إلى السَّماء كما شخص أوَّل مرَّةٍ ، فاتبعه بصرهُ حتَّى توارى في السَّماء ، فأقبلَ إلى عثمان بجلْستِه الأولى.

قالَ: يا محمَّد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيمَ كنتُ أُجالسك وآتيك ما رأيتكَ تفعلُ كفعلك الغداة.

قال: «وما رأيتني فعلتُ»؟.

قال: رأيتُ تشخصُ ببصرك إلى السَّماء ، ثمَّ وضعته حيث وضعتهُ على يمينك ، فتحرَّفت إليه وتركتني ، فأخذت تنفُض رأسك كأنَّك تستَفقهُ شيئاً يقال لك.

قال: «وفَطنتَ لِذلك» ؟. قال عثمانُ: نعم.

قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أتاني رسولُ الله آنفاً وأنتَ جالسٌ». قال: رسولُ الله؟!.

---

(١) الكشرُ: ظهورُ الأسنان للضَّحك.

قال: «نعم». قال: فما قالَ لك؟.

قال: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

قال عثمانُ: فذلِك حين استقرَّ الإيمانُ في قلبي، وأحببتُ مُحمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

وهذا عَمرُو بنُ الجَمُوحِ رضي الله تعالى عنهُ أيضاً.

فقد أخرجَ أبُو نُعيمٍ في (الدَّلائلِ)[1] عن رجُلٍ من بني سلمةَ قال: لمَّا أسلَم فتيانُ بني سلمةَ، وأسلمَ ولدُ عمرو بنِ الجَموحِ، قالت امرأةُ عمرو لهُ: هل لكَ أن تسمعَ من ابنكَ ما روى عنهُ.

فقالَ: أخبِرني ما سَمِعتَ من كلامِ هذا الرَّجلِ[2].

فقرأَ عليهِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إلَى قولهِ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

فقالَ: ما أحسنَ هذا وأجملَهُ، وكلُّ كلامِه مثلَ هذا؟!.

فقالَ: يا أبتَاهُ، وأحسن من هذا).

ثُمَّ أسلمَ رضي الله تعالى عنه وحَسُن إسلامهُ.

وكذلكَ إسلامُ سيِّدنا عُمر بن الخطَّاب رضيَ الله تعالى عنهُ.

فعنْ أنسٍ رضيَ الله تعالى عنهُ قال: خرجَ عُمر مُتقلِّداً بالسَّيفِ،

---

(١) انظر (الدُّرّ المنثور) عند الكلام على سورة الفاتحة.

(٢) أي: سيِّدنا رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم.

فَلَقِيَهُ رجلٌ من بني زُهرةَ[1] فقالَ لهُ: أينَ تغدُو يا عُمر؟.

قال: أُريدُ أن أقتُل محمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

قالَ: وكيفَ تأمنُ بني هاشمٍ وبني زُهرةَ؟.

فقال له عمرُ: ما أراك إلا قد صبأت وتركت دينَك!.

قالَ: أفلا أدُلُّك على العجبِ؟!، إنَّ أُختكَ وختَنكَ[2] قد صبأا وتركا دينكَ[3].

فمشَى عُمرُ ثائراً حتَّى أتاهُما، وعندَهُما خبَّابُ بنُ الأرتِّ رضيَ الله تعالى عنه[4]، فلمَّا سمعَ خبَّابٌ بحس عمرَ[5] توارى في البيتِ، فدخلَ عليهما فقال: ما هذهِ الهينَمَةُ[6] التي سمعتُها عندَكُم؟.

وكانُوا يقرؤُونَ ﴿طه﴾[7]، فقالا: ما عدا حدِيثاً تحدَّثنا به.

قال: فلعلَّكما قد صبأتُما.

فقَالَ لهُ خَتنه: يا عُمر، إنْ كان الحقُّ في غيرِ دينكَ؟!!.

فوثَب عمرُ على خَتنهِ فوطئهُ وطأً شَديداً، فجاءت أُختهُ لتدفَعهُ عنْ زوجها، فنفحَهَا نفحَةً بيَدِهِ فدمَى وجهُهَا.

---

(١) وذُكر في بعض الرِّوايات أنَّه نُعيمُ بنُ عبد الله النَّحَّامُ رضي الله تعالى عنهُ، وكان قد أسلم وهو يُخفي إسلامَهُ.

(٢) أي: أُختهُ فاطمة بنتُ الخطَّاب، وزوجُها سعيدُ بنُ زيد بنِ عُمَرَ رضيَ الله تعالى عنهما. والختنُ: هو زَوجُ الأُخت.

(٣) وقد أخبرهُ بذلكَ يُريدُ أن يصرفَ أذاه عن رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٤) وكانَ يقرئهُما القرآن الكريمَ.

(٥) أي: صوتِهِ.

(٦) الهينمَةُ: صَوتٌ وكلامٌ لا يُفهَمُ.

(٧) أي: سُورةَ طَهَ.

فقالَ عُمرُ: أعطُوني الكتابَ الذي هوَ عندَكُمْ فأقرَأَهُ[1].

فقالتْ أختُهُ: إنَّكَ رجسٌ، وإنَّهُ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾، فَقُمْ فتوضَّأْ[2]، فقامَ فتوضَّأَ[3] ثُمَّ أخَذَ الكتاب، فقرأَ: ﴿طه﴾ حتَّى انتهَى إلَى ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤].

فَقال عُمرُ: دُلُّوني على مُحمَّدٍ[4] ـ صلى الله عليه وآله وسلَّم ـ.

فلمَّا سمعَ خبَّابٌ قولَ عمرَ، خرجَ من البيت فقال: أبشرْ يا عُمرُ، فإنِّي أرجُو أن تكُونَ دعوَةُ رسُولِ الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لك ليلةَ الخميس: «اللَّهُمَّ أعزَّ الإسلامَ بعُمرَ بنِ الخطَّاب، أوْ بعمرو بنِ هِشام» فخرج رضيَ الله تعالى عنهُ حتَّى أتى رسُولَ الله صلى الله عليه وآله وسلمَ[5].

وفي روايةٍ أنَّه صلى الله عليه وآله وسلم خصَّص عُمرَ بن الخطَّاب رضيَ الله تعالى عنهُ بالدُّعاءِ.

فقدَ روى ابنُ ماجه والحاكمُ[6] وغيرُهُما، عن السَّيِّدة عائشة

---

(١) وفي روايةٍ: أنَّه لمَّا رأى ما بأُخته من الدَّم ندم على ما صنع، فارعوى وطلب منها الصَّحيفة ليقرأ ما فيها.

(٢) وكانت قد طمعت رضي الله تعالى عنها بإسلامه.

(٣) وكفى بهذا دليلاً على حرمةِ مسِّ القُرآن الكريم بغيرِ وُضوءٍ.

(٤) أي: حتَّى يُسلمَ على يديهِ صلى الله عليه وآله وسلم، كما دلَّ على ذلك بعض الرِّوايات.

(٥) أي: فأعلن إسلامَهُ أمام رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم. قال في (الدُّرِّ المنثور): أخرجهُ ابنُ سعدٍ، وأبُو يَعلى، والحاكمُ، والبيهقيُّ في (الدَّلائل) ا هـ.

(٦) أخرجهُ ابنُ ماجه في المُقدِّمة، باب فضلِ عُمر رضي الله تعالى عنهُ /١٠٥/ (١/٣٩)، والحاكمُ في كتابِ معرفةِ الصَّحابة، باب ومنْ مناقب أميرِ المؤمنينَ =

رضي الله تعالى عنهَا قالت: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اللَّهمَّ أعزَّ الإسلامَ بعُمر بنِ الخطَّاب خاصَّة».

وفي رواية للحَاكم(١) عن ابنِ عُمر رضي الله تعالى عنهُما قال: قال رسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اللَّهمَّ أيِّد الدِّين بعُمر بنِ الخطَّاب».

ولا تَنافيَ في هذا، إذ إنّه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم دعا أوّلاً بإسلام أحبِّ الرَّجلينِ، ثُمَّ لمَّا أطلعَهُ الله تعالى أنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ رضي الله تعالى عنهُ سيُسلِمُ خصَّهُ بالدُّعاء.

قَالَ عُمرُ رضي الله تعالى عنهُ: فَأتيتُ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم في دارِ الصَّفا، فجلستُ بينَ يديه، فأخذ بمجمعِ قميصي ثُمَّ قال: «أسلِم يا بنَ الخطَّاب، اللَّهُمَّ اهْدِهِ».

قالَ: فقُلَتُ: أشهدُ أن لا إلَه إلا الله، وأشهدُ أنَّك رسُولُ الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قالَ: فكبَّر المسلمُونَ تكبيرةً سُمعتْ في طُرقِ مكَّة(٢).

وَمن فوائدِ تلاوتهِ صلى الله عليه وآله وسلم لآياتِ الله تعالى:

التماسُ العبد ذِكْرَهُ وَوَصْفَهُ فيه، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠] أيْ: إنَّ الله

= عُمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله تعالى عنهُ (٣/ ٨٣).

(١) ذكرَها الحاكمُ في كتاب معرفةِ الصَّحابَة، باب ومنْ مناقبِ أميرِ المُؤمنينَ عُمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله تعالى عنهُ (٣/ ٨٣).

(٢) رواهُ أبو نُعيمٍ في (الحلية) (١/ ٤١) وانظُر شرحَ المواهبِ اللَّدُنيَّة للحافظ الزُّرقانيِّ عندَ الكلام على إسلام سيِّدنا عُمرَ رضي الله تعالى عنهُ.

تعالى ذكرَ في هذا القرآن الكريم أوصافكُم ، وأوضاعكُم ، ومراتِبكُم ، وعواقِبَكُم ، أفلا تتلُونهُ وتنظرونَ فيه وتتعقَّلونَ ، حتَّى تنظُروا ذكرَ الله تعالى لكُم في هذا الكتاب؟!.

فلينظُر أحدُكم وليلتمِس ذكرهُ في القرآن الكريم ، وفي أيِّ فرقةٍ ذكرهُ الله تعالى ، أمع الفُجَّار أم مع الأبرار ، أَمِنَ الصَّالحين ، أم الأشرار ، أمِنَ الصَّادقين ، أم من المُنافقين؟.

فالغَنيُّ مثلاً ينظرُ: هل هو مذكُورٌ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] أيْ: لا يُؤدِّي زكاةَ مَالهِ؟.

أم هو مذكُورٌ في الآية: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧].

والمُصلِّي ينظُرُ: هل هوَ من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

والفقيرُ ينظرُ: هل في قلبهِ حسدٌ وحقدٌ على سيِّده الذي يعملُ أجيراً عندَهُ ، فهوَ من الذين قال الله تعالى فيهمْ: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤].

ومن كان ربَّ عملٍ ـ كمن كان عندهُ مَصنعٌ وعندهُ أُجراءُ ـ فلينظُر: هل هو من فرقة الظَّالمين الذين يُشدِّدون على الأجير ، ويُنقصُهُم أُجُورهم ، أو يمنعُهُم عن أداءِ الصَّلوات في وقتها رغبةً في زيادة الإنتاجِ وكثرة المالِ؟ فهوَ من الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ [المنافقون: ٩].

وكذلك الأجيرُ فهو مؤتَمنٌ على مالِ سيِّدهِ، فعليه بأداءِ ذلكَ، وإلا فهو من الذين ذكرهُم الله تعالى بالخيانة.

فما من أحدٍ إلا وقد جاء ذكرهُ في القرآن الكريمِ، فليَنظُر الإنسان في أخلاقه وعقيدته وملَّته، وفي حقُوقه وواجبَاته، وليعرِف ذلكَ، وليجدْهُ في القرآن الكريم، وهذا لا يكُون إلا بتِلاوته.

وقد ذكر الحافظُ محمَّدُ بن نصر المروزيُّ في جزء (قيام اللَّيل) عن الأحنف بن قيس رحمه الله تعالى، أنَّه كان جالساً يوماً، فعرضت له هذه الآية: ﴿ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠] فانتبَه.

فقال: عليَّ بالمُصحف لألتَمس ذكري اليومَ، حتَّى أعلمَ مَنْ أنا ومن أُشْبِه - يعنِي: لمَّا علم أنَّ القُرآن قد ذكر جميع صفات البشرِ وبيَّن صفاتهم ومراتِبهم، أراد أن يبحث عن نفسه في أيِّ الطَّبقات هوَ -.

فنشر المُصحف، فمرَّ بقوم: ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٧ - ١٩].

ومرَّ بقوم: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦].

ومرَّ بقوم: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

ومرَّ بقوم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ومرَّ بقوم: ﴿يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٧ ـ ٣٨].

فوقفَ الأحنف ثمَّ قال: اللَّهمَّ لستُ أعرفُ نفسي ها هنا ـ يعني: لم يجد هذهِ الصِّفات في نفسه، حتَّى يعدَّ نفسهُ من هذهِ الطَّبقة ـ.

ثمَّ أخذ الأحنفُ السَّبيل الآخر، فمرَّ في المصحف بقوم: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥ ـ ٣٦].

ومرَّ بقوم قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

ومرَّ بقوم يقال لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٢ ـ ٤٧].

فوقفَ الأحنفُ ثمَّ قال: اللهمَّ إنِّي أبرأ إليك من هؤلاء!.

فما زال الأحنف يقلِّب ورق المصحف، ويلتمس في أيِّ الطَّبقات، حتَّى وقعَ على هذه الآية: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢] فقال الأحنفُ: أنا من هؤلاء.

فانظر أيُّها المُسلمُ موضعَ نفسك من كتاب الله تعالى، وفي أيِّ

الطَّبقات أنت ، واحذر أن تكُونَ ممَّن تنطبقُ عليهم صفاتُ المنافقين أو الفاسقين ، عياذاً بالله العَظيم.

واعلم أنَّ من لم يَعْمَل ويتحقَّقْ بأمرٍ جاءَ في آيةٍ ، سواءٌ كان نهْياً أو أمراً ؛ فقد هجر هذه الآيةَ ، ويكُون من الذين ذكَرهمُ الله تعالى بقولهِ: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾[1] [الفرقان: ٣٠].

ومن هذا أيضاً: فإنَّ المرأة التي لا تلتزمُ الحجابَ الشَّرعيَّ الذي جاء ذكرهُ في الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [الأحزاب: ٥٩] فقدْ هجرت هذه الآيةَ وارتكبت إثماً كبيراً.

ولبيان معنى ﴿ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ﴾ فانظر إلى ما فهمهُ ابنُ عبَّاس رضي الله تعالى عنهما ، إذ قال[2] لمَّا نزلت هذه الآية: (أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهنَّ في حاجة أن يُغطِّين وجوههنَّ من فوق رؤوسهِّن بالجلابيب[3] ، ويُبدين عيناً واحدةً).

وجاء[4] عن السَّيِّدة أُمِّ سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: (لمَّا

---

(١) وهجرُ القرآن الكريم على أنواعٍ: فمن النَّاس من هجر الإيمان به وهم الكُفَّارُ، ومنهم من هجَرَ العمل به أو العَمَل ببعضه وهمُ الفسقةُ والعصاة ؛ ويكفرُون إذا استحلُّوا ذلك ، ومنهم من هجر تلاوتهُ وخالفَ أمر الله تعالى بالأمر بتلاوته.

(٢) ذكرَهُ في (الدُّرِّ المنثور) عند الكلام على هذه الآية الكريمة ، وقال: أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه ا هـ.

(٣) أي: أن تُلقي بجلبابها على رأسها وسائر جسمها.

(٤) كما في (سنن) أبي داود ، كتاب اللباس ، باب في قوله تعالى: ﴿ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ﴾ /٤١٠١/ (٤/٣٥٧).

نزلت هذه الآيةُ ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ خرجَ نساءُ الأنصار كأنَّ على رؤوسهنَّ الغربانُ؛ من أكسيةٍ سُودٍ يلبسْنَها).

ولينظرِ المؤمنُ إلى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

أي: احفظ نفسكَ، واحفظ أهلك أيضاً، وهم زوجتكَ وأولادُك، بأن تأمرهم بما أمر الله تعالى، وتنهاهم عمَّا نهى الله تعالى، وإلا فهو قد هجر هذه الآية.

ومن هجر القُرآن الكريم بترك تلاوته، أو بترك العمل بما جاء به أو هجر آيةً منه، وقد اتَّخذ القرآن وراءهُ ظهريّاً، كان ممَّن توَّعدهمُ الله وهدَّدهم بقولهِ: ﴿ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [هود: ٩٢].

وقد ذمَّ الله تعالى اليهودَ الذين نبذوا القرآن ولم يعملوا به، بقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠١].

كما يَنبغي على المُؤمن أن يكون له في كلِّ يوم حصَّةٌ يتلو فيها من كتاب الله تعالى، لأنَّ هذا القرآن الكريم عهدٌ بين الله وبيننا، وفيه عهود الله تعالى وشرعُهُ إلينا.

ولِهذا كان الصَّحابةُ رضي الله تعالى عنهم يعكُفُون على تلاوة هذا القرآن، ولابدَّ لكلِّ واحدٍ منهم أن يفتح المصحفَ كلَّ يومٍ ويقولَ: (عهدُ رَبِّي).

فعنِ ابنِ عبَّاس رضي الله تعالى عنهما قال: (كان عُمر بن الخطَّاب رضي الله تعالى عنه إذا دخل البيت نشر المصحف فقرأ فيه)[1].

وروى ابن الإمام أحمد في زوائده على كتاب (الزُّهـد) عن عثمان بن عفَّان رضي الله تعالى عنه قال: (ما أُحبُّ أن يأتي عليَّ يومٌ ولا ليلة إلا أنظر في كتاب الله تعالى)[2] يعني: القراءة في المصحف.

وعن عثمان رضي الله تعالى عنه أيضاً قال: (إنِّي لأستحي من ربِّي تعالى أن يمرَّ عليَّ يومٌ لا أنظرُ في عهدِ ربِّي)[3].

وجاء في روايةٍ أخرى عنه رضي الله تعالى عنهُ أنَّهُ قال: (لو أنَّ قُلُوبنا طهرت ما شبعت من كلام ربِّنـا ، وإنِّي أكرهُ أن يأتي عليَّ يومٌ لا أنظرُ فيه في المُصحف)[4].

وما مات عثمانُ رضي الله تعالى عنه حتَّى خرقَ مصحفهُ من كثرة ما كان يُـديـمُ النَّظر فيه[5].

وهكذا كان أبُـو موسى الأشعري رضي الله تعالى عنهُ ، وكان يقُولُ: (إنِّي لأستحي أن لا أنظرُ كلَّ يومٍ في عهد ربِّي مرَّةً).

مرادهُ أن ينظر في المصحف أكثر من مرَّةٍ في اليومِ.

---

(١) رواه ابن أبي داود وهو في (المنهاج في شعب الإيمان) (٢/ ٢٣٣).
(٢) (الزهد) ص /١٨٨/ .
(٣) رواه البيهقيُّ في (شعب الإيمان) (٢/ ٤٠٩).
(٤) كما في (شعب الإيمان) (٢/ ٤٠٩).
(٥) كما في (شعب الإيمان) (٢/ ٤٠٩).

ورَوَى البيهقيُّ بسند حسنٍ ، عن ابنِ مسعُودٍ رضيَ الله تعالى عنهُ أنَّهُ قالَ: (أديموا النَّظر في المُصحف)[1].

وكان عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله تعالى عنْهُما ، كان يأخذ المصحف كلَّ غداةٍ ويُقبِّله ويقولُ: (عهدُ ربِّي ، ومنشورُ ربِّي عزَّ وجلَّ)[2].

وكان تميمٌ الدَّاريُّ رضي الله تعالى عنهُ كلَّما أصبحَ فتح المُصحف وقبَّله ، وقال: (هذا عهدُ الله إلينا) ، وكان يقولُ: (أرأيْتم لو أنَّ عاملاً[3] أرسل إليه الخليفة الأوامر ، ألا يجب عليه أن يفتح هذه الأوامر ويُطبقها)؟!.

ونقل الحليميُّ في (شعب الإيمان)[4] عن يُونس بنِ عُبيد رحمه الله تعالى أنَّهُ قال: (كان خُلُقاً للأوَّلين النَّظر في المصحف).

واعلم أنَّ النَّظر في المصحف عبادةٌ ، فينبغي على المؤمن أن يقرأ بالمصحف وإن كان حافظاً للقرآن.

ولهذا جاء في الحديث الذي رواه الطَّبرانيُّ والبيهقيُّ[5]، عن أوس بن أوسٍ رضي الله تعالى عنهُ ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «قِراءة الرَّجل في غير المُصحفِ ألفُ درجةٍ ،

---

(١) (شعب الإيمان) (٢/٤٠٨).
(٢) نقل هذا في: (الدُّر المختار).
(٣) أي: والياً.
(٤) (٢/٢٣٣).
(٥) الطبراني (مجمع الزوائد) (٧/١٦٥) ، البيهقي في (شعب الإيمان) (٢/٤٠٨).

وقراءته في المُصحفِ تُضعَّف على ذلك إلى ألفي درجةٍ»[1].

وعنِ ابن مسعُودٍ رضي الله تعالى عنهُ مرفُوعاً: «من سَرَّه أن يُحبَّ الله ورَسولهُ فليقرأ في المُصحف»[2].

وذلك لأنَّ الله تعالى يحبُّ أن يُنشر هذا المصحف الذي فيه كلامه وعهدهُ.

وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «أفضلُ عبادة أمَّتي القراءةُ نظراً»[3] أي: نظراً في المُصحف.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أعطوا أعينُكم حظَّها من العبادة».

قالُوا: يا رسول الله وما حظُّها منها؟!!

قالَ: «النَّظر في المُصحف، والتَّفكُّر فيه، والاعتبارُ عند عجائبِه»[4].

ففي فتح المصاحفِ ونشرها والقراءة فيها استنزالٌ لرحمة الله تعالى، وخيرهِ وبركاتهِ وأنوارهِ سبحانهُ وتعالى.

* * *

---

(١) أي: لابدَّ لحافظ كتاب الله تعالى أن يكون له حصَّة يقرأ فيها بالمصحف لينال الأجر والفضيلة.

(٢) رواه أبو نعيم، والبيهقيُّ في (شعب الإيمان) (٢/٤٠٨).

(٣) رواه الحكيم التِّرمذيُّ عن عبادة بن الصَّامت رضي الله تعالى عنه، كما في (فيض القدير).

(٤) رواه البيهقيُّ في (شعب الإيمان) (٢/٤٠٨)، والحكيم التِّرمذيُّ في (نوادر الأصول) الأصل الثالث والخمسون والمائتان.

سلطان الوحي الإلَهيِّ وعظمتهُ
تنزُّلاتُ القرآن الكريمِ على القُلوبِ

الخُشوعُ وآثـــارهُ:

قال الله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ١ ـ ٥].

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾، ﴿حمٓ﴾ تعني: الله.

﴿عٓسٓقٓ﴾ تعني: العليم السَّميع القديرُ.

أي: أنَّ الله السَّميع العليم القدير، أنزل عليك الوحي كما أنزل على من قبلك يا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ﴾ أي: يتشقَّقن من أجل الأمر الوارد عليهنَّ من فوقهنَّ من عالم العرش، وهذا الوارد عليها هو الوحي الإلَهيُّ التَّشريعيُّ أو التَّكوينيُّ، ومن جملةِ ذلك: الوحي القرآنيُّ.

قولهُ تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ﴾ أي: تتشقَّقُ حينما ينزل عليها من الكلام الإلَهي، وهذا لعظمة هذا الوارد عليها وقوَّته،

كمَا قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

ويدلُّ على هذا ما جاء في الحديث، عن النَّوَّاس بن سمعان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا أراد الله أن يوحي بأمرٍ تكلَّم بالوحي، فإذا تكلَّم بالوحي أخذت السَّماءَ رجفةٌ شديدةٌ من خوف الله تعالى، فإذا سمع بذلك أهل السَّماوات صُعقُوا وخرُّوا سُجَّداً، فيكونُ أوَّل من يرفعُ رأسهُ جبريلُ عليه السَّلام، فيُكلِّمه الله من وحيه بما أراد، فيمضي به جبريل عليه السَّلام على الملائكة عليهم السَّلام، كلَّما مرَّ بسماءٍ سماءً سألهُ ملائكتُها: ماذا قال ربُّنا يا جبريل؟.

فيقول: قال الحقَّ وهو العلي الكبير.

فيقولونَ كلُّهم مثل ما قال جبريل عليه السَّلام؛ فينتهي جبريل عليه السَّلام بالوحي حيثُ أمرهُ الله من السَّماء والأرض»[1].

أي: فينفُذُ هذا الأمرُ في السَّماء أو الأرض على حسب ما أراد الله تعالى، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

ومعنى ﴿فُزِّعَ﴾: زال الفزعُ، وهكذا فالسَّماواتُ ترتعدُ وترتجفُ حينما يردُ عليها الوحي الإلٰهيُّ.

---

(١) قال في (الدر المنثور): رواه ابن جرير، وابنُ خزيمة، وابن أبي حاتم، والطَّبرانيُّ (مجمع الزوائد) (٧/ ٩٤)، وأبو الشَّيخ في (العظمة)، وابن مردويه، والبيهقيُّ في (الأسماء والصِّفات) اهـ.

وقد روى مسلمٌ في (صحيحه)، وأحمد في (مسنده)[1] ـ واللَّفظُ لهُ ـ عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم جالساً في نفرٍ من أصحابه ـ قال عبدُ الرَّزَّاق: من الأنصارِ ـ فرمي بنجمٍ عظيمٍ فاستنارَ.

قال صلى الله عليه وآله وسلَّم: «ما كنتم تقولونَ إذا كان مثل هذا في الجاهليَّة»؟.

قال: كُنَّا نقول يولدُ عظيمٌ أو يموت عظيمٌ.

ـ قلت للزُّهريِّ: أكان يُرمى بها في الجاهليَّة؟. قال: نعم، ولكن غلَّظت حين بُعث النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فإنَّه لا يُرمىٰ بِها لموت أحد ولا لحياته، ولكنَّ ربَّنا تبارك اسمه إذا قضى أمراً، سبَّح حملة العرش، ثمَّ سبَّح أهل السَّماء الَّذين يلونهم، حتَّى يبلغ التَّسبيح هذه السَّماء الدُّنيا، ثمَّ يستخبر أهلُ السَّماء الَّذين يلون حملة العرش، فيقول الَّذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربُّكم؟ فيُخبِرونهم:

ويخبر أهلُ كلِّ سماء سماءً، حتَّى ينتهي الخبر إلى هذه السَّماء، ويخطف الجنُّ السَّمع فيُرْمون[2]، فما جاؤوا به على وجهه فهو حقٌّ، ولكنَّهم يقذفون ويزيدون».

فقد أخبر صلى الله عليه وآله وسلم أنَّ الملائكة يُصعقون عندما

---

(١) أخرجهُ مسلمٌ في كتاب السَّلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهَّان/ ٢٢٢٩/ (٤/ ٢٢٦٥)، وأحمدُ في (المسند) (١/ ٢١٨).

(٢) أي: بالشُّهُب.

يَرِدُ عليهم الوحي الإلٰهيُّ ويُغشى عليهم ، وأخبر في حديث آخر أنَّهم يُسَبِّحون ، والتَّوفيق بينهما أنَّهم يسبحون بعد ما يزول عنهم الفزع والغشية .

وهذا كما قال تعالى : ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى : ٥] لأي شيء؟! لِنزول الوحي الإلٰهي القرآني وغيره .

وهذا دليل عظمة القرآن الكريم وسلطانه ، حتَّى أنَّ السماوات تكاد أن تتشقَّق ، وفي هذا بيان للإنسان وموعظةٌ له ، إذ إنَّ السماوات تكادُ أن تتشقَّق . فما بالك أنت معرضٌ عن القرآن؟!! .

ولهذا كان كثيرٌ من الصَّحابة والتَّابعين رضوان الله تعالى عليهم يُصعقون عندما يقرؤون القرآن الكريم .

فلقد جاء أنَّ عمر رضي الله تعالى عنه سمع قارئاً يقرأ : ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور : ٧ ـ ٨] فأُغمي عليه ، فحملوه إلى بيته ثمَّ أفاق وهو مريض الجسم ، حتَّى عادهُ بعضُ الصَّحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم .

ونُقل عن الإمام الشَّافعي رضي الله تعالى عنهُ أنَّهُ سمع قول الله تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين : ٦] فأُغمي عليه .

وقال الإمامُ الجُنيدُ رضي الله تعالى عنه : دخلتُ على خالي سري السَّقطيِّ رضي الله تعالى عنه ، فرأيتُ عنده رجلاً مغميً عليه ، فقلت : ما لهذا؟ .

فقال : تَلَيْتُ عليه آيةً فأُغمي عليه .

فقال الجُنيدُ : اقرأها عليه ثانيةً . فقرأها عليه ثانيةً فأفاق .

فقال السَّريُ للجُنيد رضي الله تعالى عنهما : ومن أين لك هذا؟ .

قال: ألا ترى إلى ما أخبر الله تعالى عن يَعقُوب عليه الصَّلاة والسَّلام، فلقد كُفَّ بصرهُ لأجلِ يُوسُف عليه الصَّلاة والسَّلام، فلمَّا جاءته البشارةُ من المخلُوق بيُوسفَ عاد بصرهُ إليهِ، فيُوسفُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام هوَ سببُ الدَّاء وهو سبب الدَّواء.

فكان فراقهُ داءً، ولقاؤُهُ دواءً.

فكان كثيرٌ منهم رضي الله تعالى عنهم تتنزَّل عليهم المعاني القُرآنية بقوَّة فلا يتحمَّلوْنها فيصعقون، لأنَّ القرآن له تنزُّلٌ روحانيٌّ أثناء قراءته أو سماعه.

ومن هنا قال عروةُ بن الزُّبير رضي الله تعالى عنه[1]: دَخَلْتُ على عائشة رضي الله تعالى عنها في أوَّل النَّهار، فرأيتها قائمةً تصلِّي وهي تقرأ ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ١٧] وجعلتْ تكرِّرها وتدمع عيناها، فذهبتُ إلى السُّوق وقضيت حاجة لي، ثمَّ رجعت بعدما ارتفع النَّهار فإذا هي قائمةٌ تُصلِّي وتقرأ الآية نفسها.

فانظر هنا!!

فلو أنَّها في تكرارها للآية ترى المعنى واحداً لما كرَّرتها ولملَّت، ولكنَّها كلَّما كرَّرتها وجدت معنى آخر، ونزلت روحانيَّة القرآن على قلبها، وراحت تبكي أثناء تلاوتها.

وهذا من شأن الكمَّل أن يبكوا إذا قرؤوا القرآن أو سمعوه.

فلما سمع عليه الصَّلاة والسَّلام القرآن من ابن مسعودٍ رضي الله تعالى عنه قال: «حسبك الآن».

---

(١) والسَّيِّدةُ عائشةُ رضي الله تعالى عنها خالتُه، وأمُّه السَّيدةُ أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله تعالى عنهُما.

قال ابن مسعودٍ رضي الله تعالى عنه: فإذا عيناهُ تذرفان ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ.

وهذا كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ ﴾ [الشورى: ٥٢].

فبيَّن سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة قوَّة أثر القرآن الكريم بأنَّه روحٌ ، ومن شأن الرُّوح أن تعطي الحياة.

وقال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

أيْ: بالقُرآن ومعانيه ، فإذا نزل الرُّوح القرآنيُّ على القلب صار هذا القلب حيّاً حياة الأبد.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد: ١٦ ـ ١٧].

وَقَد أنزل الله تعالى هذه الآية لمَّا استبطأ القلوب الخاشعة ، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ إلا أربع سنين[1].

---

(١) أخرجه مسلم ، في كتاب التفسير ، باب في قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ / ٣٠٢٧/ (٥/ ٢٨٢٧).

وفي هذه الآية الحثُّ والتَّحريض على الخشوعِ ، كما أنَّ فيها التَّهديد والتَّحذير من قسوةِ القلبِ وعدم خشُوعه.

قولهُ تعالى: ﴿ ۞أَلَمْ يَأْنِ﴾ أي: ألم يقترب زمنُ خشوعِ قلوبِ المؤمنين لله تعالى.

قولُه تعالى: ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: القُرآنِ الكريم.

كمَا قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وقال سُبحانه: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

قولهُ تعالى: ﴿ ۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ وهي بياناتُ القرآن الكريم التي جاءت على لسان سيِّد الأنام صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، وهو الحديث الشَّريف.

وقال بعضهم: إنَّ المُراد من ذكرِ الله في الآيةِ: هو القُرآنُ والحديثُ الشَّريفُ ، أمَّا قولهُ تعالى: ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: من معارفِ وأسرارِ هذا القرآن النَّازلة على القُلوب ، كما قال الله تعالى: ﴿ ۞وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

فلمَّا سَمعُوا القُرآن الكريم تنزَّلت روحانيَّتهُ على قُلوبِهم ، وتنزَّلَتْ معارفه وأنواره على قلوبهم؛ فخشعت قلوبهم لله تعالى ، وظهر أثرُ ذلك الخشوع بفيض الدَّمع من أعيُنِهم.

واعلم أنَّ القرآن الكريم نزل بروحه ولفظه وجوهره ومعانيه على قلب سيِّد الأنام صلى الله عليه وآله وسلم ، ولكن بعد ذلك له

تنزُّلاتٌ روحيَّة بالمعاني على القلوب حين تلاوته أو سماعه.

قولهُ تعالى ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ [الحديد: ١٦] أي: لا يليقُ بهذه الأمَّة المحمَّديَّة ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يكُونُوا كالأمم السَّابقة في قساوة قلوبهم.

ثمَّ بيَّن سبحانه السَّبب الذي قست به قلوب الأمم السَّابقة، وهو طول الأمل، فقال: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ لأنَّ طول الأمل والانشغال في الدُّنيا يجعل القلب في غفلة عن الله تعالى؛ فيقسو القلب.

وقد يتساءل الإنسان هنا: ما السَّبب الذي يحمل القلب على الخُشوع؟.

فالجواب: إنّ الله تعالى قد ذكر في القرآن الكريم منبِّهاً لك على الاستعانة به، وطلب الرَّحمة والفضل منهُ، بأن يمنَّ عليك بهذا، أي: بأن يُنزلَ على قلبك روحَ القرآن وسلطانه فيخشع القلبُ، قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧].

فالمراد من الأرض هنا أرضُ القلوب، لأنَّ الأرض التُّرابيَّة وإحياء الله تعالى لها بماء المطر؛ أمرٌ معقولٌ مشهودٌ لدى كل إنسانٍ، فما وجه التَّعقل في قوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إذاً؟.

نعم إذا أردتَ أن يحيا قلبك بروح القرآن؛ ويخشع لذلك؛ فعليكَ أن تسترحم الله وتطلب منه هذا الفضل: أن يُنزل هذا الرُّوح القرآنيَّ على قلبك ليخشع لذكر الله.

فاعرض قلبكَ القاسيَ الميّت على ربِّ العزَّة جلَّ وعلا ، ليُحييه ويرحمهُ.

كما أنَّ هذه الأرض لمَّا ماتت وجفَّت ، وتشقَّقت وتصدَّعت ، عرضت نفسها على ربِّها خاشعةً منكسرةً إليه؛ فرحمها الله تعالى وأنزلَ عليها المطر وأحياها ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ [فصلت: ٣٩].

وفي هذا دليلٌ على الخشوع ، وهو انكسار القلب لله تعالى ، وليس فقط حضورهُ مع الله ، فقد قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩].

وخُشوعُ الأرض بتصدُّعها وتشقُّقها ، وكذلك انكسارُ القلب يظهر أثرهُ على الجوارح من بكاءٍ ونحوه.

وهذا كما قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

فأثرُ الخشوعِ في الجبلِ: التَّصدُّع والتَّشقُّق.

وأثر خشوعِ القلب: أن يظهر على الجوارح ، كما قال عليه الصَّلاة والسَّلامَ عندما رأى رجلاً يعبثُ بلحيتهِ في الصَّلاة: «لو خشع قلبهُ لخشعت جوارِحهُ»[1].

أي: يظهرُ أثر خشُوعه على جوارحه بأن يقف في صلاته بأدبٍ

---

(١) رواهُ الحكيمُ التِّرمذيُّ في (نوادر الأصولِ) الأصل الخامس والأربعون والمائتان عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنهُ ، ولعل الأرجح أنه من كلام سيدنا سعيد بن المسيب ، انظر سنن البيهقي (٢/ ٢٨٥).

وسكينةٍ ووقار بين يدي ربِّه الكبير المتعال.

وكما أنَّ للأرض ربيعاً عندما يحييها المطرُ، فإنَّ للقلب ربيعاً عندما تنزلُ روحُ القرآن ومعارفه عليه، وهذا كما قال عليه الصَّلاة والسَّلام في دُعائه: «أن تجعل القرآن ربيع قلبي»[1].

وفي هذا قال مالكُ بنُ دينارٍ رضي الله تعالى عنه: يا أهل القرآنِ، أينَ ربيعُ القرآن؟ ماذا زرع ربيعُ القرآن في قلوبكم؟

فإن للقرآن ربيعاً كما أنَّ للغيث ربيعاً.

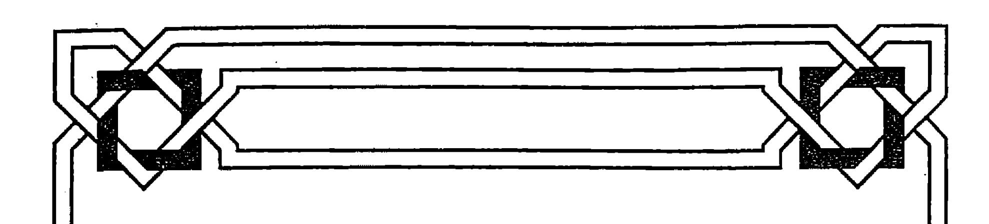
وربيعُ القرآن: بأن يثمر الطَّاعات، والقربات، والنَّفحات الزَّكية.

ونسأل الله التَّوفيق، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

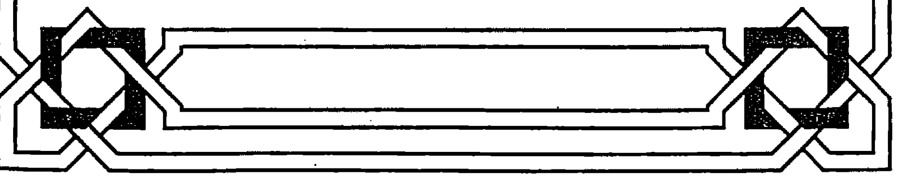
* * *

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمدُ في (المسند) (١/ ٣٩١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أصاب أحداً قطُّ همٌّ ولا حزنٌ فقال: اللَّهمَّ إنِّي عبدُك، ابنُ عبدكَ، ابنُ أمتكَ، ناصيتي بيدكَ، ماض فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكلِّ اسم هو لك، سمَّيت به نفسك، أو علَّمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همِّي؛ إلا أذهب الله همَّهُ وحزنه، وأبدله مكانه فرحاً».
قال: فقيلَ: يا رسول الله، ألا نتعلَّمُها؟.
فقال: «بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلَّمها».
وعزاه في (الترغيب) إلى البزار وأبي يعلى (مجمع الزوائد) (١٠/ ١٨٦)، وابن حبان في (صحيحه) /٩٦٨/ (٢/ ١٥٩).



المحاضرة الثانية



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمدُ لله رَبِّ العالَمِينَ ، وأَفضَلُ الصَّلاةِ وأكْمَلُ التَّسْليمِ ، على سيِّدنَا محَمَّد وعَلَى آلِهِ وصَحْبِه أجْمَعينَ ، سُبحانَكَ لا عِلمَ لَنا إلا ما عَلَّمْتَنا إنَّك أَنْتَ العَلِيمُ الحكيمُ.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

أمّا بعدُ:

فقد تقدَّم الكلامُ على قَول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فقد امْتنَّ الله تَعالى عَلى عِبَادِه ببعثَةِ النَّبِيِّ الأكْرَم صَلَّى الله عليه وآله وسلَّمَ ، وبيَّن الحِكمةَ في إرسالِه عَلَيه الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وذَلِكَ أنَّ الله تعالى بَعَثَهُ إلى العَالمِ ولَهُ مَعَهُم مَوَاقِف؛ تتوَقَّفُ عليهَا سَعَادَتُهمْ فِي الدُّنْيا والآخِرةِ.

ومِن جُمْلةِ مواقِفهِ صَلَّى الله عليهِ وآلهِ وسلَّمَ: هَذِه المَواقِفُ الأَرْبعَةُ المَذْكُورةُ في الآية المُتقدِّمَةِ؛ ومِنْها: أَنَّهُ صَلَّى الله عليْهِ وآلهِ وسلَّمَ جَاءَ يتلُو على النَّاسِ آيَاتِ الله تعالى، ويُعلِّمُهُم الكتابَ والحِكْمَة.

وقَد تقَدَّمَ مَعَنا بَعْضُ الكلام علَى مَعْنَى الآيَاتِ الشَّرْعيَّة المتلُوةِ، ومَعْنَى الآياتِ الكَوْنيَّة المشهُوْدةِ، وعَلى الحِكمَةِ مِن تلاوَتِه صَلَّى الله عليْه وآله وسلَّم لآياتِ اللهَ تعالى، وأَثَرِ ذَلِكَ في قُلُوبِ السَّامِعيْنَ، إِذْ إنَّ لِلقُرْآنِ الكَرِيمِ رُوْحَاً تَسْرِي في قَلْبِ السَّامِعِ، فإِنْ هُوَ أَصْغَى واستَجَابَ انْشَرَح صَدْرُهُ وآمَن قَلْبُهُ، وإن هُو أعْرَض واسْتكبَرَ فَقَد دَخلَ رُوحُ الإيمَانِ قَلْبَهُ وَخَرَج، لأَنَّهُ لم يَجِد مِن صاحِبِه قابِليَّةً، كَمَا يدخُلُ السِّلكُ فِي الخَرزَاتِ ويَخْرُجُ مِنْها.

وسنُتمِّمُ البَحث إن شاءَ الله تعالى على الحِكَم والفَوائِد مِن تلاوَتِه صَلَّى الله عليه وآلهِ وسَلَّمَ لآيَاتِ الله تعالى، ثمَّ نأتِي عَلى بَعْض الكَلام حَولَ موقِفِه صَلَّى الله علَيْهِ وآلِهِ وسَلَّم فِيْ تَعْلِيمِ النَّاسِ الكِتَّابَ والحِكْمَةَ.

* * *

الحِكَمُ والفوَائِدُ المُتَرتِّبَة عَلَى تلاوَتِه صَلَّى الله علَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ لآيَاتِ الله تَعالى

إنَّ الحِكَمَ والفَوائِدَ المُتَرَتِّبَة على تِلاوَتِهِ صَلَّى الله علَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ لآيَاتِ الله تَعالى تتلَخَّصُ فِيْمَا يَلِي:

أَوَّلاً: حتَّى يُبَيِّن للعَالَمِ أَنَّهُ رَسُولُ الله حَقَّاً صَلَّى الله علَيْه وآلِهِ وسلَّمَ، وذَلِكَ لأَنَّهُ صَلَّى علَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ نَشَأَ أُمِّيَّاً لَمْ يَتَعلَّم القِرَاءَةَ ولا الكِتَابَةَ مِن مُعلِّمٍ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أنزلَ الله علَيْهِ هَذَا القُرْآنَ، الذي ذَكَرَ الله تعالى فيهِ العُلومَ والعوَالِمَ كُلَّها، وعلَّم سُبحَانَهُ وتعالى رَسُوْلَه صلَّى الله عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ تلاوَةَ هذَا القُرآنِ الكَريمِ، وإِذَا بِهِ يَقْرؤُه على النَّاسِ.

فلْيتأمَّلِ العَاقِلُ في هذا!!.

فمِنْ أَينَ له صَلَّى الله عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ هذِهِ العلوْمَ؟ وكيْفَ جاءَ بهذَا القُرآنِ؟ وكَيْفَ عَرَفَ أن يتْلُوَ هَذا القُرْآنَ في حَيْنِ أَنَّهُ صَلَّى الله علَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ نَشَأ أُمِّيّاً؟!.

ومِنْ هُنَّا يَعْلَمُ العَاقِلُ عِلْمَاً يَقينيَّاً جازِمَاً، أنَّ سيِّدنا مُحَمَّداً صَلى الله علَيْه وآلِهِ وسلَّمَ هوَ رَسُولُ الله حقَّاً صلى الله علَيْه وآلِهِ وسلَّمَ،

وأنَّ هذَا القُرآنَ هوَ كلامُ الله تعالى ، أنزَلَهُ على رسُولِه صلَّى الله علَيْه وآله وسلَّمَ.

وفِي هذا يَقُولُ سُبْحانهُ وتعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ أي: ما كنت تقرأ كتباً ولا تكتب ﴿ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨ ـ ٤٩] أيْ: ما هذَا القُرْآنُ إلا كلامَ الله تعالى، أنزَلهُ على قَلْبِ النَّبيِّ صَلَّى الله عليهِ وآلِهِ وسَلَّمَ ، وجمعَهُ له فِيْ صَدْرِهِ، وَعن قلبِهِ صَلَّى الله عليْهِ وآلِهِ وسلَّم أخَذَت وتأْخُذُ القُلوبُ إلى يومِ القِيامةِ.

فمن فكَّر وتأمَّلَ في أَمرِ هَذا الرَّسُول صَلَّى الله عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ عَلِم عِلمَ يَقِين أنَّ هذَا القُرآنَ ليْسَ مِن تِلْقَاء رَسُولِ الله صَلَّى الله عليهِ وآله وسلَّمَ ، أو مِنْ عِنْديَّاتِهِ؛ فقَد لَبِثَ صَلَّى الله عليهِ وآله وسلَّمَ أربَعِينَ سَنَةً ولم يأتِهِم بآيَةٍ واحِدَةٍ ، ثُمَّ عَلى تَمَامِ الأَرْبعينِ إذا به يَقْرأُ عليهِمُ القرآنَ بأُسلُوبٍ خاصٍّ ، وعلى وجهٍ مُعجزٍ.

وفي هذا يَقُولُ سُبحانهُ وتعالى: ﴿ قُل ﴾ أيْ: قُل لهم يا رَسُولَ الله: ﴿ لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦].

أيْ: لبثتُ فيكُم أربَعينَ سنةً ولم آتِكم بآيَةٍ ولا سُورَةٍ ، ولا عِنديْ عِلمٌ بذَلِك ، ثُمَّ بَعد تَمَام الأربعينَ جئتُكُم بهذا القُرآنِ الذي فيهِ علمُ الأوَّلِينَ والآخرينَ ، والَذِي أعجَزَ الخَلائِقَ بوُجُوهٍ من الإعجَازِ ، فَهُوَ مُعجزٌ من حيثُ نصُّه وتلاوَتُهُ ، وَهُو معجزٌ من حيثُ

معانِيهِ وإخبَارَاتُهُ ، وهوَ مُعجِزٌ من حَيثُ أسرَارُهُ وأنْوارهُ ورُوْحُهُ وهكذا.

كما أنَّ القُرآنَ الكريمَ هُوَ حُجَّةُ الله تعالى على خَلقِه كلِّهِم بِمُختلفِ طَبقاتِهِم وأصنافِهم ، لأنَّ هذا القُرآنَ نَزَلَ على صاحبِ الرِّسالةِ العامَّةِ ، المُرسلِ لجميعِ طَبقاتِ البَشرِ ، وهوَ سيِّدُنا مُحمَّد صلَّى الله عليهِ وآلهِ وسلَّمَ.

فالقُرآنُ الكريمُ حجَّةٌ على جميعِ خلقِ الله تعالى ، لكنْ لِمَنْ تَعقَّلَ وتبصَّر.

ولذلك خاطبَ الله سُبحانه وتعالى أُولي الألْباب والعُقولِ والأبصار: بالتَّبصُّر والتَّفكُّر والتَّأمُّلِ.

فمن تعقَّل عقلَ ، ومن تَفَهَّم فهمَ ، ومن بَحَث فيهِ وجَد الدَّليلَ ، ومن نظرَ فيه قامَت عليهِ الحجَّةُ.

ثانياً: لقَد أنزلَ الله تعالى القُرآن الكريمَ وله حقائِق قُرآنيةٌ ، ومِن جُملَتها: أنَّه جاءَ بالرُّوح ، وإنَّ في تلاوتِه صلَّى الله عليهِ وآلهِ وسلَّمَ لآيَات الله تعالى إيصَالاً للرُّوحِ القُرآنيِّ إلى القُلوب ، وفي هذا يقُولُ سُبحانَه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

فوصفَ الله تعالى القُرآنَ بأنَّه روحٌ ، ومن المعلُوم أنَّ الرَّوح سببُ الحياةِ ، ولمَّا كانتِ الحياةُ أنواعاً كانت الرُّوحُ أنواعاً ، فهناكَ الرُّوحُ الإنسانيُّ الذي به يحيا جسمُ الإنسانِ.

ولمَّا كان القرآنُ روحاً فهو يحيي الأرواحَ الإنسانيَّة والقلوبَ.

فالرُّوح الإنساني إنَّما تحيا بالرُّوح القرآنيِّ الذي جاءَ به سيِّدنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد أمرَ الله تعالى نبيَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم أن يوجِّه هذا الرُّوح القُرآنيَّ على قلوبِ العالمِ ، فأي قلبٍ مستعدٍّ للحياةِ تقبَّل هذه الرُّوح ، وسرت إليه ، ودبَّت فيه حياةُ الإيمانِ ، وعرف الله تعالى؛ وأمَّا القلبُ المعرضُ الجاحدُ فيمرُّ عليه الرُّوحُ القرآنيُّ؛ ولكنَّه لا ينتفعُ به.

وفي هذا يظهرُ لكَ وجهٌ من وجوهِ الحكمةِ في تلاوتِه صلى الله عليه وآله وسلم لآياتِ الله تعالى.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩١ - ٩٣].

والمعنى: قل لهم يا رسولَ الله: أمرني الله تعالى أن أتلُو القرآنَ عليكم؛ وذلك حتَّى تسري روحُ القرآنِ إلى قلوبهم ، وبعدَ سريان هذه الرُّوح إلى القلوب ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ﴾ أي: بعدما سرى روح القرآن إلى قلبه، إلا أنه أبى وأعرض ﴿فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢] أي: لقد بلَّغت وأنذرتُ ، وأقمتُ الحجَّة ، وما لكم حجَّة عندَ الله تعالى.

وقد بيَّن سبحانه وتعالى أثرَ سريانِ الرُّوح القرآنيِّ إلى القلوبِ بقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾أي: أن أعظم روح ملكيٍّ، وهو جبريل عليه السلام، نزل بأعظم روح أمريٍّ ربَّانيٍّ ، وهو القرآن الكريمُ ، على أعظم روح إنسانيٍّ ، وهو سيِّدُ الأنامِ صَلَّى الله عليهِ وآله وسلَّم: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ

ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٦] أي: أن هذا القرآن محدَّثٌ ومخبَرٌ عنه في التَّوراة والإنجيلِ.

ثمَّ قال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي: أنَّ الدَّليل على صدقك يا رسول الله وحقِّية هذا القرآن، أنَّ علماء بني إسرائيل وأحبارهُم يعلمونَ ذلك حقّاً، لأنَّه مبشَّر به في التَّوارة والإنجيل؛ ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم ﴾ أيْ: باللُّغة الأعجميَّةِ ﴿ مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ ﴾ أي: القرآن ﴿ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي: أدخلنا هذا القرآنَ في قلوبِ المجرمين حتَّى يؤمنوا به، وإذا بهم يُعرضون ولا يؤمنونَ، كما قال سبحانه وتعالى ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [الشعراء: ١٩٧ ـ ٢٠١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ ﴾ أي: القرآنُ ﴿ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الحجر: ٩ ـ ١٣] أي: هذه عادةُ مَنْ قبلهم من الأمم، فكانَ كلامُ الله تعالى يسري إلى قلوبهم لمَّا يسمعونَه من أنبيائهم؛ إلا أنَّهم يُعرضون عنهُ كبراً وعناداً.

ثمَّ قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: ١٤ ـ ١٥].

وإن مناسبةَ هذه الآية لما قبلها هي: إعراضُ الكفَّار وتكبُّرهم عن الإيمان بعد سريانِ الرُّوح القرآنيِّ إلى قلوبهم وتذوُّقهم حلاوتَه.

ونظيرُ هذا: لو أنَّ الله تعالى فتح لهم باباً من السَّماء وجعلوا

يصعدون إليْه ، ويدخلونَ في السَّماء ، ويرونَ من عجائبها ، وما فيها من ملائكَة؛ لأنكَروا ذلك ولقالُوا: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا﴾ أي: أنَّنا لا نرى شيئاً ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٥] أي: أصابَنا السِّحر ، وهذا من كبرِهم وإعراضهم وعنادِهم.

وكذلِكَ فإنَّ الحقَّ يتراءى لهم بنور القرآن الكريم ، إلا أنَّهم يكفرون ويُعرضون ، كما أنَّهم يعرضون ويكفرون لو كشف الله لهم عن أُمورٍ غيبيَّة ورأوها بأبصارِهم.

ولذلك كان النَّاسُ في زمَنِ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم ، منهم من يسمع القرآن فيسري روح القرآن إلى قلبه؛ فيُذعن ويؤمِنُ ومنْهم من يعرفُ الحقَّ لكنهُ لا يعترفُ به كبراً وعناداً.

ومن جملتهم: أبو جهل وجماعته ، لمَّا سمعوا القرآن من النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم ورقَّت قلوبهم ، ثم تعاهدوا أن لا يعودوا إلى سماعهِ ، إلى أن قالَ أبُو جهلٍ: تنازَعنا نحنُ وبنُو عبدِ منافٍ الشَّرف ـ أي: صار كلٌّ منَّا يُنافسُ الآخرَ ويتعالى عليه بالشَّرف ـ أطعموا فأطعمنا ، وحملُوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتَّى إذا تجاثَيْنا على الرُّكب، وكُنَّا كَفَرسي رهانٍ قالُوا ـ أي: بنو عبدِ منافٍ ـ: منَّا نبيٌّ يأتيه الوحيُ من السَّماء.

فقالَ أبو جهلٍ: فمتى ندركُ مثلَ هذهِ؟ ـ أي: فمن أينَ نأتي بنبيٍّ حتَّى ندركهم في هذه الفضيلة ونتساوى معهم؟ ـ والله لا نؤمن أبداً ولا نصدِّقه ـ أي: وإن كان نبيًّاً حقَّاً ، حتَّى لا تفتخر عليهم بنُو عبد منافٍ ـ أيْ: وهذا سببُ كُفره وعنادِه ، فقد عرفَ الحقَّ وجحدهُ[1].

---

(١) ونص الواقعة كما جاء في السيرة النبوية لابن هشام ، عن الإمام محمد بن إسحاق=

= قال: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، أنه حُدِّثَ: أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كلٌّ رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطَّريق ـ أي: حين عادوا إلى بيوتهم ـ فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا ـ أي: إلى بيوتهم ـ حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كلٌّ رجل منهم إلى مجلسه، فباتُوا يستمعون له صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: لأنَّ روح القرآن جذَبت قلوبهم، فأرغمهم أن يعودوا ويستمعوا؛ لما ذاقوا من الحلاوة ـ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطَّريق، فقال بعضهم لبعض مثلَ ما قالوا أوَّل مرَّة، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كلٌّ رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطَّريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا، فلمَّا أصبح .. الأخنسُ بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ؟ فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يُراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفتَ به كذلك ـ أي: مثلك ـ قال: ثمَّ خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال: ماذا سمعت!! ـ أي: سمعتُ كلاماً عظيماً حكيماً ليس من كلام البشر، وإنما هو من كلام ربِّ البشر، نازلٌ على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن هناك المانعُ التَّعصبيُّ الجاهلي الذي يحولُ دون الاعتراف بذلك، والإذعان إلى ذلك ـ ثمَّ بيَّن أبو جهل ذلك فقال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشَّرف ـ أي: صار كلٌّ منَّا يُنافس الآخَر ويتعالى عليه بالشَّرف ـ أطعموا ـ أي: بنو عبد مُناف ـ فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الرُّكب، وكنَّا كفرسي رهان ـ أي: متساوين في المفاخر ـ قالوا ـ أي: بنو عبد مناف ـ: منَّا نبيٌّ يأتيه الوحي من السَّماء ـ أي: نحن نفخر ونعلو =

ومن هؤلاءِ الذين سرى روحُ القرآن إلى قلوبهم ؛ إلا أنَّهم أعرضوا وجحدوا: عتبةُ بن ربيعة ، وكان يُلقَّب أبَا الوليدِ.

فقد روى الحافظُ ابنُ كثير[1] عن الإمام محمَّد بن إسحاق ، بإسنَاده عن محمِّد بن كعب القُرظيِّ قال: حُدِّثت أنَّ عتبة بن ربيعة وكان سيِّداً ، قال يوماً وهو جالس في نادي قُريشٍ ـ ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جَالسٌ في المسجد وَحْدهُ ـ: يا معشَر قُريشٍ ، ألا أقومُ إلى محمَّد فأكلِّمَه وأعرض عليه أموراً لعلَّه أن يقبلَ بعضها ، فنعطيه أَيَّهَا شاء ويكفَّ عنَّا؟ ـ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله تعالى عنه ، ورأَوْا أصحابَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم يزيدون ويكثرونَ ـ فقالوا: بلى يا أبا الوليد ، فقم إليه فكلِّمه.

فقام إليه عتبةُ حتَّى جلس إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقالَ: يا بنَ أخي إنَّك منَّا حيثُ علمتَ من البسطة في العيش ، والمكان في النَّسب ـ أي: أنتَ المعروفُ في النَّسَب والحسب والمكانة العلياء والرُّتبة العصباءِ ـ ، وإنَّك قد أتيتَ قومكَ بأمرٍ عظيمٍ: فرَّقت به جماعتهم ، وسفَّهتَ به أحلامهُمْ ، وَعِبْت به

= على غيرنا بالشَّرف والفضل ، بسبب أنَّ الله تعالى بعثَ منَّا نبيّاً يُوحى إليه، وهذا شرفٌ وفضلٌ لا يعادله شيءٌ ـ قال أبو جهل: فمتى نُدركُ مثل هذه؟ ـ أي: فَمِنْ أين نأتي بنبيٍّ حتَّى ندركهم في هذه الفضيلة ونتساوى معهم؟ ـ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدِّقه ـ أي: وإن كان نبيّاً حقّاً ، حتَّى لا تفتخر عليهم بنو عبد مناف ، أي: وهذا سببُ كفره وعناده ، فقد عرفَ الحقَّ وجحدهُ ـ قال: فقامَ عنه الأخنسُ وتركه.

(١) في تفسيره عند الكلام على أوَّل سورةِ فصِّلتْ.

آلهتهُمْ ودينهم، وكفَّرتَ به من مضى من آبائهِم، فاسمَعْ منّي أعرِضْ عليك أُموراً تنظرُ فيها لعلَّك تقبلُ منها بعضها.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قُل يا أبا الوليدِ أسمعُ».

قالَ: يَا بن أخي، إن كنتَ إنَّما تريد بما جئتَ به من هذا الأمرِ مالاً؛ جمعنا لك من أموالنا حتَّى تكونَ أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوَّدناك علينا حتَّى لا نقطع أمراً دونَك، وإن كنت تريدُ به مُلكاً ملَّكناكَ علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع ردَّهُ عن نفسكَ؛ طلبنا لك الأطبَّاء، وبذلنا فيه أموالنا حتَّى نبرئَك منه، فإنَّه ربَّما غلبَ التَّابعُ على الرَّجل حتَّى يداوى منه ـ يريدُ بذلك الجنَّ ـ، حتَّى إذا فرغ عتبةُ ورسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يستمعُ منه، قال: «أفرغتَ يا أبا الوليد؟» قالَ: نعم.

قال: «فاستمع منِّي». قال: أفعلُ.

فقالَ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ١ ـ ٤].

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيها، وهو يقرؤُها عليه، فلمَّا سمع عتبة أنصتَ لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمعُ منه، حتَّى انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى السَّجدة منها فسجد، ثمَّ قال: «قد سمعتَ يَا أبا الوليد ما سمعت، فأنتَ وذاك».

فقامَ عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعضٍ : نحلفُ بالله لقد جاءكم أبو الوليدِ بغيرِ الوجهِ الذي ذهَب به .

فلمَّا جلسَ إليهم قالُوا : ما ورَاءكَ يا أبَا الوليدِ؟ .

قالَ : ورائِي أنِّي سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ مثلَه قطُّ ، والله ما هو بالسِّحر ، ولا بالشِّعر ، ولا بالكهانةِ ، يا معشر قريشٍ أطيعونِي واجعلوها لي ، خلُّوا بينَ الرَّجُل وبين ما هو فيه ، فاعتزلُوه ، فوالله ليكونَنَّ لقولِه الذي سمعتُ نبأً ، فإن تصبهُ العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكُه ملككم ، وعزُّه عزُّكم ، وكنتم أسعدَ النَّاس به .

قالُوا : سحركَ والله يا أبَا الوليدِ بلسانِه .

قالَ : هذا رأيي فيه ، فاصنعُوا ما بَدا لكُم .

وفي رواية[1] أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأَ عليه من أوَّل سورة فصِّلت ، حتَّى وصل قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت : ١٣] .

فَلَمَّا سمع عتبةُ ذلك أمسكَ فِيْهِ ، وناشدهُ الرَّحم ـ أي : حتَّى يمسك عن التَّهديد والوعيد ـ ورجع إلى أهله ، ولم يخرجْ إلى قريشٍ واحتبس عنهم ، فلمَّا استبطؤُوه جاؤوا إليه يستعلمون منه الخبَر ، فقصَّ عليهم ما حصلَ معه وما سَمِع ، وبيَّن لهم أن ما سمعهُ ليسَ شعراً ولا سحراً ولا كهانةً ، لكنَّ جماعتَهُ أخذُوا يُلحُّون عليه ويضلِّلونه ، حتَّى بقي على الكُفر وعاد إلى ما كان عليه .

---

(١) نفسُ المرجعِ السَّابق .

وكذلك لمَّا سمع الوليد بن المغيرةِ القُرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لقومه: واللهِ إنَّ لقوله الذي يقول لحلاوةً، وإنَّ عليه لطلاوةً، وإنَّه لمثمِرٌ أعلاهُ، مغدقٌ أسفلُه، وإنَّه ليعلُو وما يُعلى عليه، وإنَّه ليحطمُ ما تحته ولكنَّ أبا جهلٍ لم يزلْ يُضلِّله. حتَّى غيَّر كلامه وقال ـ أي: الوليدُ ـ: إن هو إلا سحرٌ يؤثَرُ[1].

وهناك من سمع القرآنَ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فآمَن واعترفَ بالحقِّ؛ ومنهم عثمان بن مظعونٍ رضي الله تعالى عنه، لمَّا قرأ عليه صلى الله عليه وآله وسلم قوله جل وعلا: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]، فقال رضي الله تعالى عنه: (فذلك حين استقر الإيمانُ في قلبي

(١) ونصُّ الواقعة أخرجها الحاكم وصحَّحها، والبيهقيُّ في (الدَّلائل) من طريق عكرمة، عن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما، أنَّ الوليد بن المغيرة جاء إلى النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ عليه القُرآن، فكأنَّهُ رقَّ له، فبلغ ذلك أبَا جهلٍ فأتاهُ فقال: يا عمِّ، إنَّ قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوه لك، فإنك أتيت محمداً لتعرض لِمَا قِبَلَهُ، قال: قد علمت قريشٌ أنِّي من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغُ قومك أنك منكرٌ أو أنَّك كارهٌ له، قال: وماذا أقولُ؟ فوالله ما فيكم رجلٌ أعلم بالشِّعر منِّي، ولا برجزه ولا بقصيده منِّي، ولا بشاعر الجنِّ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوةً، وإنَّ عليه لطلاوةً، وإنَّه لمثمرٌ أعلاه مغدقٌ أسفله، وإنَّه ليعلو وما يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك، حتى تقول فيه، قال: دعني حتى أفكر، ففكَّر، فلمَّا فكَّر قال: هذا سحرٌ يؤثر، يأثره عن غيره، فنزلت ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾. اهـ. انظر (الدرَّ المنثور) للسُّيوطيِّ عند الكلام على قوله تعالى ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ المدثر: ١١.

وأحببتُ محمَّداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ)[1].

ومنهم جبيرُ بن مطعمٍ رضي الله تعالى عنه ، لمَّا سمعَ من رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم سورة الطُّور.

فقد روى البخاريُّ في (صحيحه)[2] عن محمَّد بنِ جبير بن مُطعم ، عن أبيه رضي الله تعالى عنهُما قال: (سمعتُ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأُ في المغرب بالطُّور ، فلما بلغ هذه الآية ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٧] قال: كاد قلبي أن يطير).

وفي رواية له أيضاً[3] قال رضي الله تعالى عنه: (سمعت النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ في المغربِ بالطُّور ، وذلك أوَّلَ ما وقرَ الإيمانُ في قلبي).

ومنهمُ النَّجاشيُّ ملكُ الحبشة وجماعته، لمَّا قرأ عليهمْ جعفرُ ابنُ أبي طالبٍ رضي الله تعالى عنه أوَّلَ سُورةِ مريمَ ، جعلُوا يبكُونَ حتَّى ابتلَّتْ لحاهُم ، ثم آمنَ النَّجاشيُّ وجماعَتُهُ؛ وفيهم نزلَ قولُ الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[4].

---

(١) كما في (مسند) الإمام أحمد: (١/٣١٨).
(٢) كما في كتاب تفسير القرآن ، باب سورة ﴿وَٱلطُّورِ﴾ / ٤٨٥٤/ (٨/٦٠٣).
(٣) في كتاب المغازي ، باب شهود الملائكة بدراً / ٤٠٢٣/ (٧/٣٢٣).
(٤) فقد أخرج ابن أبي شيبة ، وابن أبي حاتم ، وأبو نعيم في (الحلية) والواحديُّ من طريق ابن شهاب قال: أخبرني سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن بن =

ولقد ضربَ سبحانه مثَلاً لأَثَر الرُّوح القرآنيِّ على القُلوبِ، كماءٍ نزَلَ من السَّماء على الأرض، فقالَ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: أنَّ القرآنَ النَّازل من عند الله تعالى هوَ الحقُّ، أمَّا الباطلُ فهو ما خالَفَ القرآنَ ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

ونُقل[1] عن ابنِ عبَّاس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعنيْ: قُرآناً.

= الحارث بن هشام، وعروة بن الزبير قالوا: (بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عمرو بن أمية الضَّمريَّ، وكتب معه كتاباً إلى النَّجاشيِّ، فقدم على النَّجاشي، فقرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثمَّ دعا جعفر بن أبي طالبٍ والمهاجرين معه، وأرسل النَّجاشيُّ إلى الرُّهبان والقسِّيسين فجمعهم، ثمَّ أمر جعفر بن أبي طالب أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ عليهم سورةَ مريم، فآمنوا بالقرآن وفاضت أعينهم من الدَّمع، وهم الذين أُنزلَ فيهم ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾ إلى قوله ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]. اهـ. انظر (الدرَّ المنثورَ) عند الكلام على قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [المائدة: ٨٣].

وأخرجه أحمد وابن أبي حاتم، والبيهقي في (الدلائل) عن أمِّ سلمة رضي الله عنها: أنَّ النَّجاشيَّ قال لجعفر بن أبي طالب: هل معك ممَّا جاء به ـ يعني: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ من الله من شيءٍ؟ قال: نعم، فقرأ عليهم صدراً من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، فبكى النَّجاشيُّ حتَّى أخضلَ لحيتهُ، وبكت أساقفته حتَّى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلي عليهم، ثم قال النَّجاشيُّ: إنَّ هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، كما في (الدُّر) أيضاً عند الكلام على أول سورة مريم.

(١) انظر تفسير الخازن عند الكلام على قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ [الرعد: ١٧].

أي: أنَّ هذا تمثيلٌ لنزولِ القرآن الكريم على القلوبِ.

فضربَ الله مثلاً في نزولِ القرآن الكريمِ على القلوب كنزولِ الماءِ من السَّماء.

فلمَّا ينزِلُ الماءُ من السَّماء تسيلُ الأوديةُ وتمتلىء بقدرِهَا، فهُناك الوادي الكبيرُ، وهناكَ الوادي الأصغَرُ والصَّغيرُ، وهناكَ الوادي النَّظيف، وهُنَاك الواديْ الممتَلىءُ بالأَقْذَار والأَوخامِ.

فالأَوديةُ مثلٌ للقلوبِ، والمرادُ بالقلبِ: اللَّطيفةُ الرَّبانيةُ التي أقامها الله تعالى في موضعِ القلبِ الجسمانيِّ الصَّنوبريِّ الشَّكل، وهيَ موضعُ الإدراكِ والتَّعقُّلَ والعلمِ والفهمِ.

فلمَّا يمرُّ ماءُ السَّماء على الوادي الممتلىء بالأَقذَارِ والأوخامِ لا يمكثُ فيه شيءٌ من الماءِ.

وأمَّا الوادي الذي حوى في أسْفَله بعضَ الأوخام والأوساخِ، فإنَّ الماءَ يحرِّك مافي بطنِ الوادي، حتَّى إذا امتلأَ الوادي بالماء صارَ الزَّبدُ يطفو على وجه الماء، حتَّى يطرحه على جانب الوادِي.

فلمَّا ينزلُ الرُّوح القُرآنيُّ في القلبِ، فإنَّه يحرِّكُ الشُّبهات والشُّكوك الموجودة فيه، حتَّى يغلبها ويطرحَها خارجَ القَلب، قالَ الله تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨] وعندها يمتلأ القلب بحقائقِ القرآنِ ويكملُ الإيمانُ.

وقد شكا بعض الصَّحابةِ الكرامِ في أوَّل أمره ما يجدهُ في قلبهِ، شكا أمرهُ إلى رسول اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم.

فقد روى مسلمٌ[1] عن أبي هريرةَ رضي الله تعالى عنه قال: جاءَ ناسٌ من أصحابِ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم فسألوهُ: إنَّا نجدُ في أنفسنَا ما يتعاظمُ أحدنَا أن يتكلَّم به؟!!.

قال: «وقد وجدتُموهُ»؟.

قالوا: نعَمْ.

قال: «ذاكَ صريحُ الإيمانِ».

وأخرجَه الإمامُ أحمدُ في (مسندِه)[2] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسولَ الله إنِّي أحدِّث نفسي بالحديثِ؛ لأن أخرَّ من السَّمَاء أحبُّ إليَّ من أن أتكلَّم به؟.

قال: «ذَلِكَ صريحُ الإيمانِ».

وفي روايةٍ لَهُ أيضاً[3] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنَّهم قالُوا: يا رسولَ الله إنَّ أحدنا يحدِّثُ نفسَه بالشَّيء ما يحبُّ أنَّه يتكلَّم به؛ وإنَّ له ما على الأَرضِ من شيءٍ؟.

قال: «ذاكَ محضُ[4] الإيمانِ».

---

(١) كما في كتاب الإيمان، باب بيانِ الوسوسة في الإيمان؛ وما يقوله من وجدها / ١٣٢/ (١/ ٢٨٣).

(٢) (٢/ ٣٩٧).

(٣) كما في (المسند) (٢/ ٤٥٦).

(٤) أي: ذلك خالص الإيمان.

وفي روايةٍ[1] عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهُمَا قال: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم فقالَ: يا رسول الله إن أحدنا يجدُ في نفسه يعرِّض بالشيءِ؛ لأنْ يكونَ حممةٌ أحبَّ إليهِ من أن يتكلَّمَ به؟.

فقال: «الله أكبرُ، الله أكبرُ، الحمدُ لله الَّذي ردَّ كيدهُ[2] إلى الوسوسةِ».

أي: فما دامت قلوبُكُم تُنكِرُ هذه الأمورَ؛ فهذا دليلٌ على قوَّةِ الإيمانِ، ولابُدَّ لهذه الوساوسِ أن تزُولَ، ولابُدَّ أن تصفو قلوبكُم من هذه الأكْدَارِ، كما يصفُو الوادي من الزَّبد حينَ ينزِلُ عليهِ ماءُ السَّمَاء.

وكذَلك الذَّهب الذي يُرادُ أن يتَّخذ منهُ الزِّينة، فإنَّه يدخلُ في البُوْدَقَةِ حتى يتخلَّص من الشَّوائب، ويخرج إبريزاً ذهباً خالصاً، وهذا مَثَلٌ أيضاً لتمحيضِ الإيمانِ في القلبِ.

وقد جاء في الحديث الذي علَّم فيه النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم أمَّته ما فيه تفريجُ الهمِّ والكربِ، فقد روى الإمامُ أحمدُ[3] عن عبد الله بنِ مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما قالَ عبدٌ قطُّ إذا أصابهُ همٌّ وحزنٌ: اللهمَّ إنِّي عبدكَ، وابنُ عبدكَ، وابنُ أمتكَ، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمُكَ، عدلٌ فيَّ قضاؤُك، أسأَلُكَ بكُلِّ اسْمٍ هو لك، سمَّيت

---

(١) أخرجهاأبو داود في كتاب الأدب، باب في ردِّ الوسوسة /٥١١٢/ (٥/٣٣٦).
(٢) أي: كيد الشيطان.
(٣) في (مسنده): (١/٣٩١).

به نفسكَ ، أو أنزلتهُ في كتابك ، أو علَّمته أحداً من خلقك ، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندكَ ، أن تجعل القُرآن ربيع قلبي ، ونور صدرِي، وجلاء حُزني، وذهابَ همِّي، إلا أذهَبَ الله عزَّ وجلَّ همَّه ، وأبدله مكانَ حُزنهِ فَرحاً».

قالُوا: يا رسول الله ينبغي لنا أن نتعلَّمَ هؤلاءِ الكلماتِ؟.

قال: «أجلْ ، ينبغي لمنْ سمعهُنَّ أن يتعلَّمهنَّ».

والرَّبيع هُوَ الماء ، لأنَّه إذا نزل في أرضٍ أعشبت واخضرَّت ثمَّ أينعت وأثمَرَت ، وكما أنَّ حياة الأرضِ بالماء فحياةُ القلبِ بالقُرآنِ وروحِه.

ثالثاً: إنَّ للقُرآن فعاليَّة وسيطرةً وهيمنةً على القُلوب ، وهذا ما تشعرُ به القُلوبُ حين سماعِ القُرآنِ أو تلاوَتهِ.

وفي هذا يقولُ سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ أي: قرآناً يقرأُ ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١] فأيُّ قرآن له هذه القُوَّة والفعَّاليَّةُ ، والمعنى: لكانَ هذا القُرآنُ ، وهوَ تقديرُ جوابِ لَوْ.

فلو نزلَ هذا القُرآنُ بنصِّه أو بمعناهُ على صُمِّ الجبالِ الرَّواسي لتصدَّعَت وتشقَّقت ، ولما تحمَّلت القوَّة القرآنيَّة.

كما قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ أي: جبل عظيمٍ ، والتَّنكيرُ للتَّفخيم ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] فيعتبرونَ من ذلك ، وأنَّ هذا القرآن لو نزل على جبلٍ لتصدَّع وتشقَّق!!.

فكيف لا تتأثَّر قلوبهم وتخشع وقد نزل القرآن عليها ، فقد بلغت قسوة قلوبهم ما هو أشدُّ من الجبلِ وقسوتِه ؟!!.

ولذلك كان الصَّحابة رضي الله تعالى عنهم إذا سمعوا القُرآن خشعُوا وبكوا ، ومنهم الخلفاءُ الأربعةُ رضي الله تعالى عنهم.

ومن هذا ما جاءَ عن عبد الله بن عُروةَ بن الزُّبيرِ رضي الله تعالى عنهُم قال: قُلْت لجدَّتي أسماء رضي الله تعالى عنها: (كيف كان يصنعُ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قرؤوا القرآنَ؟.

قالتْ: كانوا كما نعتهمُ الله تعالى: تدمعُ أعينهمْ ، وتقشعرُّ جلودهمْ)[1].

وكان الصِّدِّيق الأكبر رضي الله تعالى عنه لا يملكُ دمعهُ إذا قرأ القرآنَ ، فقد روى مسلمٌ في (صحيحه)[2] عن السَّيدة الكبرى ، الصِّديقة بنتِ الصِّديق ، السَّيدة عائشةَ رضي الله تعالى عنها قالتْ: (لمَّا دخل رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم بَيْتي قال: «مُروا أبَا بَكْرٍ فليصَل بالنَّاسِ».

قالتْ: فقلتُ: يا رَسُولَ الله ، إنَّ أبَا بكرٍ رجُلٌ رقيق ، إذا قرأَ القرآنَ لا يملك دمعهُ) الحديثَ.

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وابن أبي حاتم ، وابن عساكر ، كما في (الدر المنثور) للسيوطيِّ عند الكلام على قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ الآية [الزمر: ٢٣].

(٢) في كتاب الصلاة ، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما من يصلي بالناس /٤١٨/ (٢/ ٥٩٢).

ولمَّا قدمَ أهلُ اليمنِ زمانَ أبي بكر رضي الله تعالى عنه، وسمعُوا القُرآن[1] جعلُوا يبكونَ، قال: فقالَ أبو بكرٍ رضي الله تعالى عنهُ: (هكذا كنَّا[2] ثمَّ قستِ القُلوبُ)[3].

وهكذا كان الفاروقُ عمر رضي الله تعالى عنه، فقد قال عبدُ الله بن شدَّاد رضي الله تعالى عنه ـ وهو من كبارِ التَّابعينَ ـ سمعتُ نشيجَ[4] عمرَ بنِ الخطَّاب رضي الله تعالى عنهُ، وإنِّي لفي آخر الصُّفوفِ في صلاةِ الصُّبح، وهوَ يقرأُ ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[5] [يوسف: ٨٦].

ولقدْ خطَّتِ الدُّموعُ خطوطاً في وجهِ عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهُمَا[6].

ولمَّا نزَل قولُ الله تعالى: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ﴾[7] [النجم: ٥٩ ـ ٦١]، قرأَها النَّبيُّ صلى الله

---

(١) أي: حين تلاه عليهم رضي الله تعالى عنهم.

(٢) أي: هكذا كنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا سمعنا القرآن منه عليه الصلاة والسلام.

(٣) كما في (حلية الأولياء) عند الكلام على مناقب الصِّديق الأكبر رضي الله تعالى عنه (١/ ٣٤)، و(مصنف) ابن أبي شيبة.

(٤) أي: بكاء.

(٥) أخرجه البيهقيُّ في (شعب الإيمان) (٢/ ٣٦٤)، وأخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب إذا بكى الإمام في الصَّلاة (٢/ ٢٠٦).

(٦) فقد جاء في (حلية الأولياء) (١/ ٣٢٩)، عن أبي رجاء قال: كان هذا الموضع من ابن عباس رضي الله تعالى عنه ـ مجرى الدُّموع ـ كأنَّه الشِّراك البالي.

(٧) أي: معرضون لا هُون عن القرآن، وهذا تعنيفٌ للمشركين وتوبيخٌ لهم.

عليه وآله وسلم على أهلِ الصُّفة رضي الله تعالى عنهم فجعلُوا يبكونَ.

فقد أخرجَ البيهقيُّ في (شعب الإيمانِ)[1] عن أبي هريرةَ رضي الله تعالى عنه قال: لمَّا نزلت ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ [النجم: ٥٩ ـ ٦٠] بكى أصحابُ الصُّفة حتَّى جرت دموعهم على خدودهم، فلمَّا سمع رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم حنينهم بكى، فبكينا ببكائهِ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يلجُ النَّارَ من بكى من خشية الله، ولا يدخلُ الجنَّة مُصِرٌّ على معصيةِ الله، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقومٍ يذنبونَ فيغفرُ لهم».

ولذلك أمر الله تعالى رسولهُ صلى الله عليه وآله وسلم أن يتلُوَ القرآنَ على الناس، لأنَّ القرآنَ له هيمنةٌ وسيطرةٌ على القلوبِ، ولذلك إذا سمعه أيُّ إنسانٍ عن قلبٍ حيٍّ تحرَّك القلب وتذكَّر، أمَّا إذا كان قلبه مريضاً بداءِ الغفلة والهوى فما عليه إلا أن يلقي سمعه ويحضر قلبه ما استطاع، فلابُدَّ له حينئذٍ من فائدةٍ وأن يحيا قلبُه.

وفي هذا يقولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وقولهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما سبقَ، وهي قولُهُ سبحانه في أوَّل السُّورة: ﴿قٓ ۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾.

---

(١) /٧٩٨/ (١/ ٤٨٩).

والمعنى: إن في القرآن ﴿لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

ومعنى ﴿قٓ﴾: قلبُ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، وهيَ لغةُ الفصاحة والبيانِ عندَ العربِ كما هو معروفٌ، أن يؤتَى بالحرفِ ويرادُ منه كلمةٌ.

فقد أقسمَ سبحانهُ بقلبِ النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وأقسَمَ بالقُرآنِ المجيدِ النَّازلِ على قلبهِ الطَّاهر، ولِمَا بينهُمَا من المُناسبة والأُلفة والارتباط، كما قالَ سبحانه وتعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤] أي: خاصَّةً من بينِ سائِرِ القُلوبِ.

رَابِعَاً: ومن جُملَةِ الحِكَمِ في تلاوته صلَّى الله عليه وآله وسلم القُرآنَ على النَّاسِ، أنَّ القرآنَ هو كلامُ الله تعالى، وهذا الكلامُ الإلَهيُّ أنزلَهُ الله تعالى إلى عبادِهِ، وأرسَلهُ رسائِلَ وكتباً حتَّى يقرؤُوه ويسمعوهُ، فهذا القُرآن إنَّمَا هو رسَائِلُ رَبِّ العالمينَ إلى كُلِّ مكَلَّفٍ منَ الإنْسِ والجِنِّ، إلا أنَّهم عاجزونَ عن الأخذ عن الله تعالى مباشرةً، وإنَّمَا هناك من اصطفاه الله تعالى وخصَّهُ بهذه القوَّة، وهو سيِّدنا محمَّدٌ صلى الله عليه وآله وسلم، فأنزَلَ عليه القرآنَ وأمرهُ أن ينشرَهُ على النَّاس، وأن يقولَ هذا كتابُ الله إليكُم.

قال سُبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

فالكتابُ مرسلٌ إلى كُلِّ مكلَّفٍ بواسطةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي هذا يقولُ سبحانه وتعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٢ ـ ٣].

أي: فيها كُتُبٌ ورسَائِلُ من الله تعالى إلى عباده، وهذا هو القُرآنُ الكريمُ، وهوَ الكتابُ الجامعُ الذي جمعَ العلومَ كلَّها، وجمع ما جاءت به الكتبُ السابقةُ كلِّها، وإنَّ كلَّ سورةٍ فيه هي كتابٌ بحدِّ ذاتها، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الزخرف: ١ ـ ٢].

وقد وصفَ الله سبحانهُ وتعالى هذه الكتبَ التي جاء القُرآنُ بها بأنَّها قيِّمةٌ، أي: مستقيمة لا اعوجاجَ فيها.

وقال الحسنُ البصريُّ رضي الله تعالى عنه: (إنكمُ اتَّخذتُم قراءة القُرآنِ مراحِلَ، وجعلتم الليلَ جَمَلاً تركبونه، فتقطعون به المراحلَ، وإنَّ من كان قبلكم[1] رأوهُ رسَائِلَ إليهم مِن ربِّهم، فكانُوا يتدبَّرونه باللَّيْلِ، وينفِّذونه بالنَّهار)[2].

خامسَاً: ومن الحكمة في تلاوتهِ صلى الله عليه وآله وسلم القرآنَ على النَّاسِ، أنَّ تلاوته صلى الله عليه وآله وسلم بابٌ في الدَّعوة إلى الله تعالى، وذلك لأنَّ هذا القرآن حججُ الله تعالى على خلقِه، وفيه البراهينُ السَّاطعة.

وإنَّ حجج الله تعالى لا تقبل الردَّ، فهي الحجَّةُ البالغةُ والقاطعةُ، ولا ينكرُها إلا من لم يتعقَّل فيها، ومن تعقَّل ثم أنكر فهو جاحدٌ جاهِلٌ.

---

(١) أي: من الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم.

(٢) كما في تفسير الثعالبيِّ.

وانْظُر تفاصيلَ ذلِكَ في كتابِ: (هديُ القرآنِ الكريم إلى الحُجَّةِ والبُرهانِ).

سادِساً: إنَّ في تلاوته صلى الله عليه وآله وسلم القرآنَ استعراضاً لآياتِ الله الكونية، فأمرَ الله تعالى النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يَتْلو القرآنَ على النَّاسِ، لأنَّ فِي تلاوةِ الآياتِ القرآنيَّةِ استعرَاضاً للآيَاتِ الكونِيَّةِ الخَلقيَّة: السَّماويَّة والأرضيَّةِ، والعرشيَّةِ، وما هُنالك من عَوالمَ.

ولهذا قالَ الله تعالى: ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾ أي: بعد سماع القُرآن من رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي: الذي نزَّل هذا القرآن الجامعَ للعلوم والمعارفِ كما قال سبحانهُ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [الكهف: ١] ـ ثمَّ قال جل ذكرهُ: ﴿ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٩٢ ـ ٩٣] أي: سيريكم آياته القرآنيَّة عياناً مشهودة لكم في الأكوان، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ ﴾ أي: سنريهم آياتنا القرآنية مشهودة لهم عياناً في الآفاق ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] أي: أنَّ هذا القرآن حقٌّ، وأن الذي نزَّله هو الله الحقُّ، وأنَّ الذي نزل عليه هو رسولُ الله حقاً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

وإنَّ في قولهِ سبحانه وتعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ ضماناً من الله تعالى بأن يُريَ عبادهُ ما أخبرهُم عنهُ في الآيات القرآنية، ولذلك ترى أنَّ القرآنَ يستعرض دائماً الآيات الكونيَّة والنَّفسية.

ومن هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١ ـ ٧] فقابلَ سُبحانه الآياتِ الكونيَّة بالنَّفس الإنسانية، لِمَا حوى الإنسان من آيات كبرى دالَّة على قدرة الله تعالى.

وإنَّ جميع ما أخبرتْ عنهُ الآياتُ القرآنيَّة لابدَّ للإنسان من أن يراه عياناً في العوالم الكونيَّة الدنيويَّة أو الأخرويَّة؛ حسب ما أخبر القرآنُ الكريمُ.

فمن الأمورِ التي ظهرتْ في الدُّنيا قوله تعالى: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، فقد نزلت هذه الآية في مكة المكرمة، وتلاها رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم على المشركين، فأنكروا ولَم يصدِّقوا، ثمَّ بعدما هاجر إلى المدينةِ المنوَّرة ووقعت وقعةُ بدرٍ، وإذا به صلى الله عليه وآله وسلم خرجَ وذكَّرهم بالآيةِ، وقرأ قول الله تعالى: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ فرأوا الآيةَ القرآنيَّة عياناً إذ انهزمُوا وقُتِّلوا[1].

ولمَّا قرأ صلى الله عليه وآله وسلم على اليهودِ قوله سبحانَه وتعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ

---

(١) فقد أخرج البخاريُّ /٤٨٧٥/ (٨/٦١٩)، عن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما، أنَّ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال وهو في قُبَّة له يوم بدرٍ: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تشأ لا تُعبد بعد اليوم» فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده فقال: حسبكَ يا رسول الله، ألححت على ربِّك، فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٥ ـ ٤٦].

ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢] لم يصدِّقوا وأنكروا ذلك، فلم تمضِ مدَّةٌ إلا ورأوا هذه الآية عياناً، إذ أجلاهُم رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم عن المدينة، وشتَّت شملَهُم، وأخرجهم من أرضِ الحجازِ[1].

ولقد أخبرَ القرآنُ عن دابَّةِ الأرضِ التي ستخرجُ قُبيلَ الساعة، ومن أدركه ذلك الزَّمن سيراها، كما أخبر الله سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

وهناك إخبارات قرآنيَّة عن أمورٍ أخرويَّة: كسؤالِ القبرِ، ونعيمِ القبر، ومواقفِ الحشر وغيرها؛ ولابدَّ للإنسانِ أن يراها كما أخبر سبحانه وتعالى.

ومن جملة ذلك: سؤالُ القبرِ، قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] وهوَ قولُ لا إلَه إلا الله سيِّدنا محمَّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ ولابدَّ أن يرى المؤمن ذلك حين يسألُ، ويثبِّتهُ الله

---

(١) فقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير، والبيهقي في (الدلائل) عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمَّا أصاب من بدر ورجع إلى المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع، وقال: «يا معشر يهودٍ، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً».

فقالوا: يا محمد، لا يغرَّنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً، ولا يعرفون القتال، إنك والله لو ما قاتلتنا لعرفت أنا نحن النَّاس، وأنك لم تلق مثلنا.

فأنزلَ الله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾).

انظر (الدر المنثور) عند الكلام على قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾.

تعالى على الإيمانِ ويجيبُ ، ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] فالكافرُ يضلُّ عن الجواب ، ويرى قوله سبحانه: ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ يراهُ عياناً.

ولابدَّ للإنسانِ أن يرى أهوال السَّاعة والقيامة والبعثِ والنَّشر وهكذا.

ولهذا كان الصَّحابة رضي الله تعالى عنهم؛ إذا سمعوا القُرآنَ من رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وجدُوا من أنفُسهم حضُوراً وخشوعاً ؛ لا يجدُون مثلَهُ في حالٍ آخر.

ولهذا قال قائلهم ـ وهو أُسَيدُ بن حضيرٍ رضي الله تعالى عنه ـ: (لو أنِّي أكونُ كما أكونُ محلَّ حالٍ من أحوالٍ ثلاث ؛ لكنتُ من أهلِ الجنَّة وما شككت في ذلك[1]:

حين أقرأُ القُرآنَ وحينَ أسمعهُ[2] ، وإذا سمعتُ خُطبةَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإذا شهدتُ جنازَةً ، فما شهدتُ جنازةً قطُّ فحدَّثت نفسي سوى ما هو مفعولٌ بها، وما هي صائرةٌ إليه)[3].

فما أعظمَ أثر تلاوةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم في القلوبِ ، وما أعظمَ أثَرَ خُطبته صلى الله عليه وآله وسلم؟!!.

---

(١) أي: لو أنه يقبض على حال من أحوال ثلاثة لجزم أنه من أهل الجنة ، وذلك لما يرى من صفاء وإنابة.

(٢) أي: من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٣) رواه الإمام أحمد في (مسنده): (٤/ ٣٥٢) ، والحاكم في (المستدرك) ـ واللفظ له ـ في كتاب معرفة الصَّحابة ، باب ذكر أسيد بن حضير رضي الله تعالى عنه (٣/ ٢٨٨).

فلقد كانت خطبته صلى الله عليه وآله وسلم تهزُّ القلوبَ وتحرِّكُ الجماداتِ.

روى الإمامُ أحمدُ[1] عن عبدِ الله بن عمرَ رضي الله تعالى عنهُما، أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبرِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] ورسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يقولُ هكذا بيده ويحرِّكها، يقبلُ بها ويدبرُ: «يمجِّد الرَّب نفسهُ، أنا الجبَّار، أنا المتكبِّر، أنَا الملكُ، أنا العزيزُ، أنا الكريمُ».

فرجف برسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم المنبرُ حتَّى قلنا: ليخرَّنَّ به.

وفي روايةٍ لمسلمٍ[2]: قال ابن عمرَ رضي الله تعالى عنهما: حتَّى نظرتُ إلى المنبر يتحرَّك من أسفلِ شيءٍ منه، حتى إنِّي لأقولُ: أساقِطٌ هو برسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم؟!.

وفي روايةِ البزَّار[3] فقالَ المنبر هكذا، فجاءَ وذهبَ ثلاث مرَّاتٍ.

ونسألُ الله التَّوفيق. وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) في (مسنده): (٢/ ٧٢).

(٢) في كتاب صفة القيامة والجنَّة والنَّار / ٢٧٨٨/ (٥/ ٢٦٧٥).

(٣) انظر (الدر المنثور) عند الكلام على قوله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

موقفهُ صلى الله عليه وآله وسلم في تعليمِ النَّاسِ الكتابَ والحِكمةَ

أمَّا موقفه صلى الله عليه وآله وسلم في تعليمِ النَّاس الكتابَ والحكمةَ ، فقد قال الله تعالى في ذلك: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: معانيَ الكتابِ.

أما تعليمه الناس تلاوة الكتاب ، فقد حصل من خلال تلاوته صلى الله عليه وآله وسلم لكتاب الله تعالى ، وهو بمقتضى قوله جل وعلا: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فَمِنْ مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم: تعليمُ الكتابِ ، أيْ: معانيه ، باعتبار أنَّه كتابٌ جامعٌ للعلوم كلِّها ، ومتضمِّن لذكرِ العوالم كلِّها ، وعلومُ هذا القرآن لا تتناهى ، وكلُّ علمٍ فيه بمنزلة كتابٍ.

قال الله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٢ ـ ٣].

وفي هذا إعجازٌ من القرآن بإخباره عن أمر غيبيٍّ ، وهو كتابةُ هذا القرآن في الصُّحف ، إذ إنه لم ينزل صُحفاً بل وحياً على قلب

رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويبقى ما شاء الله مطهَّراً عن التَّلاعُبِ والتَّغيير .

قوله تعالى : ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة : ٣] لأن كلَّ علم جاء به القرآنُ الكريمُ بمنزلةِ كتابٍ ، وهذه الكتب قيمةٌ ـ أي : مستقيمةٌ ـ فيها بيانُ حقائقِ الأمورِ وغوامضِهَا .

قال عبدُ الله بن مسعُودٍ رضي الله تعالى عنه : (من أرادَ العلمَ فَلْيُثَوِّرِ القُرآنَ ، فإنَّه فيهِ علمُ الأوَّلينَ والآخرِيْنَ)[1] .

ولذلك قال مسرُوقٌ أحدُ التَّابعينَ رضي الله تعالى عنه : كان عبدُ الله رضي الله تعالى عنه يقرأُ علينا السُّورة ، ثمَّ يحدِّثُنا فيها ويُفسِّرُها عامَّة النَّهار ـ أيْ : ولم ينتهِ من الكلام والتَّفسيرِ ـ .

وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهُمَا قال : (إنَّ القرآنَ ذو شجونٍ وفنونٍ ، وظُهورٍ وبطونٍ ؛ لا تنقضي عجائبهُ ، ولا تُبلغ غايتهُ ، فمن أوغلَ فيه برفقٍ نجا ، ومن أوغلَ فيه بعُنفٍ غوى) أي : يجبُ ردُّ المعاني والمفاهيمِ القرآنيَّة إلى ما جاء عن سيِّدنا رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأحاديث النبويَّة ، ومفاهيمِ الصحابة رضي الله تعالى عنهم .

ثمَّ قال رضي الله تعالى عنهما : (أخبارٌ وأمثالٌ ، وحرامٌ وحلالٌ ، وناسخٌ ومنسوخٌ ، وَمُحْكمٌ ومتشابهٌ ، وظهرٌ وبطنٌ ؛ فظهرُه

---

(١) رواه الطبراني (مجمع الزوائد) (٧/ ١٦٥) ، والبيهقيُّ في (شعب الإيمان) (٢/ ٣٣٢) . ومعنى فليثور : فليبحث .

التِّلاوة وبطنُهُ التَّأويل، فجالِسُوا به العلماءَ، وجانبُوا به السُّفهاءَ، وإيَّاكم وزلة العالم)[1].

ولذا كان أصحابُ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم يتعهدونَ هذا القُرآنَ بكثرَةِ التِّلاوة، والتَّدبُّر في آيات الله تعالى.

ومنهم أهلُ الصُّفة رضي الله تعالى عنهم.

والصُّفَّة مكانٌ مرتفعٌ في المسجد النَّبويِّ، يأويْ إليها من وقفَ نفسهُ على أمرِ الجهادِ ومصَالحِ المسلمينَ، وليسَ لهُ علاقاتٌ ماليَّةٌ من زراعةٍ أو تجارةٍ أو غيرِها؛ ولم يكُن أهلُ الصُّفة رضي الله تعالى عنهم عالةً على غيرهم، أو أنهم تركوا التَّكسُّب كسلاً وإهمالاً، بل أرادوا بذلك أن يجعلُوا أنفسهم رهينةَ الجهاد، ونشر الدِّين، وتعلُّمَ وتعليمَ القُرآنِ الكريمِ، وأنَّ يكونوا في ذلك حسبَ أوامِرِ الرَّسولِ الكريمِ صلى الله عليه وآله وسلم.

ولهذا كان عليه الصلاة والسَّلام إذا أرادَ أن يبعثَ إلى بعضِ الأطرَافِ من يعلِّمُ القرآنَ من المُقرئينَ اختارَ منهُم، وقد بعثَ منهُم سبعينَ قارئاً إلى ناحية اليمنِ، وغُدِرَ بهم وقتلُوا رضي الله تعالى عنهم[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في (الدُّر المنثور) عند الكلام على قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ ﴾ [آل عمران: ٧].

(٢) فقد أخرج البخاريُّ في كتاب المغازي، باب غزوة الرَّجيع ورعلٍ وذكوان / ٤٠٩٠/ (٧/ ٣٨٥)، عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه: (أنَّ رعلاً وذكوان وعُصيَّة وبني لِحيان، استمدُّوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على عدو، فأمدَّهم بسبعينٍ من الأنصار، كنَّا نسمِّيهم القرَّاء في زمانهم، كانوا يحتطبون بالنَّهار، ويصلُّون باللَّيل، حتَّى كانوا ببئر معونةَ قتلوهم وغدروا بهم، فبلغ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقنت شهراً يدعو في الصُّبح على أحياءٍ من أحياءٍ =

وكان من عَملهم الدُّنيويِّ: الاحْتطابُ في النَّهار ، والقراءةُ في اللَّيل؛ وإذا لم يتيسَّر لهم عملٌ أو لم يكفِهم ما عملوا ؛ فكان صلَّى الله عليه وآله وسلم يأمُرُ الصَّحابة بأن يستضيفُوا عدداً من أهل الصُّفة ، فيوزِّعهم على الصَّحابة كلَّ مساءٍ حتَّى يذهبُوا للعشَاءِ ، وكان هوَ صلى الله عليه وآله وسلم يدعو عدداً منهم للعشاءِ ، ولهذا كان أهلُ الصُّفة يسمَّون: أضيافَ الإسلامِ[1].

= العرب: على رعلٍ وذكوان وعصيَّة وبني لِحيان).
قال أنسٌ رضي الله تعالى عنه: فقرأنَا فيهِم قُرآناً ، ثمَّ إن ذلك رُفعَ: «بلِّغُوا عنَّا قومنا أنَّا لقينا ربنا فرضي عنَّا وأرضانا».

(١) روى البخاري في كتاب الرِّقاق ، بابٌ كيف كان عيشُ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه /٦٤٥٢/ (١١/ ٢٨١) ، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه كان يقولُ: (أللهِ الذي لا إلّه إلا هو ، إن كنت لأعتمدُ بكبدي على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع ، ولقد قعدتُ يوماً على طريقهم الَّذي يخرجون منه ، فمرَّ أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، فسألته عن آيةٍ من كتاب الله ؛ ما سألته إلا ليشبعني ، فمرَّ ولم يفعل ، ثم مَرَّ بي عمر رضي الله عنه ، فسألته عن آية في كتاب الله ؛ ما سألته إلا ليشبعني ، فمر فلم يفعل ، ثم مرَّ بي أبو القاسم صلى الله عليه وآله وسلم ، فتبسَّم حين رآني ، وعرف ما في نفسي ومافي وجهي ، ثم قال: «يا أبا هرٍّ» قلتُ: لبَّيك يا رسولَ الله ، قال: «اِلحق» ومضى فتبعتُه ، فدخلَ فاستأذَن ، فأذن لي ، فدخل فوجد لبناً في قدحٍ ، فقال: «مِنْ أينَ هذا اللَّبنُ؟» قالوا: أهداهُ لك فلانٌ ـ أو فلانةٌ ـ قال: «أبا هرٍّ» قُلتُ: لبَّيك يا رسولَ الله ، قال: «الحقْ إلى أهلِ الصُّفَّة فادعُهُم لي» ـ قال: وأهلُ الصُّفة أضيافُ الإسلامِ ، لا يأوُونَ إلى أهل ولا مَالٍ ولا على أحدٍ ، إذا أتتهُ صدقةٌ بعث بها إليهم ؛ ولم يتناول منها شيئاً ، وإذا أتته هديةٌ أرسل ، وأصاب منها وأشركَهُم فيها ـ فساءني ذلك؛ فقلتُ: وما هذا اللَّبن في أهل الصُّفة؟ كنتُ أحقُّ أنا أن أُصيبَ من هذا اللَّبن شربةً أتقوَّى بها ، فإذا جاء أمرَني فكنت أنا أعطيهم ، وما عسى أن يبلُغني من هذا اللَّبَن ، ولم يكن من طاعةِ الله وطاعة رسُوله صلى الله عليه وآله وسلم بُدٌّ؛ فأتيتُهُم فدعوتُهم، فأقبَلُوا فاستأذَنُوا ، فأذِنَ لهم ، وأخذوا مجالسهم من البَيت ، قال: «يَا أبَا هرٍّ» قلتُ: لبَّيك يا رسولَ الله ، قال: «خُذ =

فكانَتْ الصُّفَّة مدرسةً للقرآنِ الكريم ، وكان الصَّحابة يسمعون دويَّ قراءتهم في اللَّيل.

ولقد كان عليه الصلاة والسلام يحثُّ الصَّحابة الكرام على قراءة القرآن وحفظه ، ويحذِّرهم من نسيانه.

فقد روى البخاريُّ ومسلم[1] ـ واللفظُ له ـ ، عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله تعالى عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «تعاهدوا هذا القرآن ، فوالَّذي نفس محمد بيده ؛ لهو أشدُّ تفلُّتاً من الإبل في عُقُلِها».

ولقد علَّم رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم الصَّحابة من علومِ القرآنِ: الشَّريعة، والتَّوحيد، والآداب، والمعاملة بأنواعها، وبحثَ لهم في كلِّ شيءٍ ، وأخرجَ لهم من القرآن إخبارَه عن كلِّ شيءٍ.

كما جاء في (صحيحِ) مسلم[2] عن عمرو بن أخطبَ رضي الله

= فأعطِهِمْ»، قال: فأخذتُ القَدَح ، فجعلتُ أُعطيهِ الرَّجُل فيشربُ حتَّى يروَى ، ثمَّ يرُدُّ عليَّ القدَحَ ، فأعطيه الرَّجل فيشربُ حتَّى يروى ، ثمَّ يرُدُّ عليَّ القدَح فيشربُ حتى يروى ، ثمَّ يردُّ عليَّ القدح ، حتى انتهيتُ إلى النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم وقد رويَ القومُ كلُّهم ، فأخذَ القدحَ فوضعه على يده فنظرَ إليَّ فتبسَّم؛ فقال: «أبا هرٍّ» ، قلتُ: لبَّيك يا رسولَ الله ، قال: «بقيتُ أنا وأنتَ». قلتُ: صدقتَ يا رسول الله ، قال: «اقعُد فاشرَب» فقعدتُ فشربتُ ، فقالَ: «اشربْ» فشَربت ، فمَا زال يقولُ: «اشرَب» حتَّى قلتُ: لا والَّذي بعثكَ بالحقِّ ، ما أجدُ له مسلكاً ، قال: «فأَرني» فأعطيته القدح ، فحمد الله وسمَّى وشرب الفضلة).

(١) أخرجه البُخاري في كتاب فضائل القرآن ، باب استذكار القرآن وتعاهده /٥٠٣٣/ (٧٩/٩)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين ، باب الأمر بتعهُّد القرآن /٧٩١/ (٨٧٠/٢).

(٢) في كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب إخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما يكون /٢٨٩٢/ (٢٧٣٨/٥).

تعالى عنه قالَ: (صلَّى بنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم الفجرَ وصعد المنبر، فخطبنا حتَّى حضرت الظُّهر، فنزل فصلَّى، ثم صعد المنبرَ فخطبنا حتى حضرت العصرُ، ثم نزل فصلَّى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتَّى غربت الشَّمس، فأخبرنا بما كان، وبما هو كائنٌ، فأعلمُنا أحفظنا[1]).

وروى البخاريُّ[2] وغيره، عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: (قام فينا النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم مقاماً، فأخبرنا عن بدءِ الخلقِ حتى دخل أهل الجنَّة منازلهم، وأهلُ النَّار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه).

وقدْ بيَّن صلَّى الله عليه وآله وسلم أن أحاديثهُ هي بياناتٌ للقرآنِ الكريم وملازمةٌ له، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

فقد روى التِّرمذيُّ[3] وغيره، عن المقدامِ بن معدي كرب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

---

(١) وقد انطوت في هذا معجزاتٌ كثيرةٌ، من جملتها: إخباره عليه الصَّلاة والسَّلام عن المغيَّبات، وقوَّته صلى الله عليه وآله وسلم على الخطابة، وثباتُه طيلة النَّهار على ذلك، وإمداده للصَّحابة الذين هم في مجلسه، فما أحد منهم قام لحاجة أو لوضوءٍ، أو غير ذلك، بل ظلُّوا يسمعون من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهم في غاية التأدُّب في مجلسه عليه الصَّلاة والسَّلام.

(٢) في كتاب بدءِ الخلقِ، بابُ ما جاءَ في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] / ٣١٩٢/ (٦/ ٢٨٦).

(٣) في كتابِ العلمِ، بابُ ما نُهي عنه أن يقال عند حديث النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم / ٢٦٦٦/ (٧/ ٣١٠).

«ألا هل عسى[1] رجلٌ يبلغهُ الحديثُ عنِّي ، وهو متّكىءٌ على أريكته ، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما وجدنا فيه حراماً حرَّمناه[2]. وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما حرَّم الله».

ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وبيَّنَ سبحانه وتعالى أنَّ ردَّ الأمور إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو ردٌّ إلى الله تعالى ، فقد قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي: إلى أحاديثه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

قولهُ تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو الكتابُ الجامعُ ، لأن الكتاب يعطي معنى الجمعِ.

فقد اشتمل هذا الكتاب وهو القرآن العظيم على جميع الكتب السَّماوية السابقة ، وهو جامع لجميع العلوم ، ولهذا وصفه الله

---

(١) وفي رواية عند ابن ماجه: «يوشك الرَّجل متّكئاً على أريكته ، يحدَّث بحديث من حديثي ، فيقول: بينا وبينكم كتابُ الله عزَّ وجلَّ ، ما وجدنا فيه من حلالٍ استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرَّمناه ، ألا وإن ما حرَّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل ما حرَّم الله» أخرج هذه الرِّواية في المقدِّمة ، بابُ تعظيمِ حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والتَّغليظ على من عارضه / ٢/ (٦/١).

(٢) يعني: أنه لا يقبل إلا من القرآن، ولا يأخذُ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً.

تعالى بأنه كتبٌ قيمة ، قال تعالى: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [البينة: ٢ ـ ٣].

كما أن هذا الكتاب مكتوبٌ في صحف الملائكة ، كما قال الله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس: ١١ ـ ١٦].

فالملائكة تقرأ في هذا الكتاب على حسب ما كُتِب في صحيفتها ، وكلُّ ملك يدرسُ طائفةً من هذا الكتاب على حسبِ ما كُتِب في صحيفتهِ.

ومن جهةٍ أخرى: كان صلَّى الله عليه وآله وسلم يأمُرُ بكتابةِ ما ينزلُ عليه من آياتِ الله تعالى في الصُّحفِ امتثالاً لأمر الله تعالى له.

ثم في عهد الصِّديق رضي الله تعالى عنه جُمعت هذه الصُّحف إلى بعضها وسمَّاها مصحفاً ، لأنَّه كان مكتوباً في صحفٍ ، منها من جلدٍ ، ومنها من عسيبِ النَّخلِ وهكذا.

وفي هذا إخبارٌ عن أمرٍ غيبيٍّ بأنَّ هذا القرآن سيكتب في الصُّحف.

قوله تعالى: ﴿ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ [البينة: ٢] أي: من أيدي المتلاعبين من شياطين الإنس والجنِّ ، ومن التَّحريف والتَّبديل.

قوله تعالى: ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [البينة: ٣] لأنَّ هذا القرآن يشتمل على الكتب السَّابقة من التَّوراة والإنجيل والزَّبور ، وصحف إبراهيم وموسى عليهم الصلاة والسَّلام.

ولقد أخبر الله تعالى عن أوصافِ الكتب السَّماوية ، وليس هناك كتاب يأتي بالفضل بعد القرآنِ إلا التَّوراة.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا

﴿ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

فاستحفظهم الله تعالى التَّوراة ، فما حفظوها بل بُدِّلت وغيِّرت وحرِّفت.

ثمَّ وصف الله تعالى ما فيها ـ أي: التَّوراة ـ من الأحكام الشَّرعيَّة فقال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

ثم ذكر سبحانه الإنجيلَ فقال: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٦ ـ ٤٧].

ثم بعد هذا قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ الآية [المائدة: ٤٨].

فهذا الكتاب مصدِّق لما سبقه من الكتاب ـ أي: من الكُتبِ ـ وله الهيمنةُ عليها ، فهو الحاكم والشَّاهد عليها ، أي: أنَّه جامعٌ لما جاءت به التَّوراة والإنجيلُ ، فيبيِّن ما فيها ، ويبطل ما ليس فيها ممَّا نُسِبَ إليها.

ومعنى المهيمن: هو الشَّاهد على الشَّيءِ بما هو له أو عليه.

وبهذا يعلمُ أن هذا الكتاب نزل من حضرة اسمه تعالى (المهيمن) وهي حضرةٌ إلَهيَّةٌ، ما نزلَ منها كتابٌ سماويٌّ إلا هذا الكتابُ العظيمُ.

وقد نزل هذا الكتابُ المهيمنُ على من له الهيمنةُ صلى الله عليه وآله وسلم، على أُمَّة لها الهيمنة على باقي الأمم، فنزل على الرَّسول المهيمن صلى الله عليه وآله وسلم، الذي يشهدُ للأنبياءِ السَّابقين أنَّهم قد بلَّغوا الرِّسالة، ويشهد على أممهم المكذِّبين أنهم قد بلَّغتْهم رسلهم.

وأما أمَّته صلى الله عليه وآله وسلم فهي الأمَّة المهيمنة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ الآية [البقرة: ١٤٣].

فهذه الأمَّة تشهد على الأُمم السَّابقة بالتَّبليغ، روى البخاريُّ[١] وغيره، عن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يُدعى نوحٌ يوم القيامة، فيقولُ: لبَّيك وسعديك يا ربِّ.

فيقول: هل بلَّغت؟.

فيقول: نعم.

فيُقال لأمَّته: هل بلَّغكم؟.

---

(١) في كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] /٤٤٨٧/ (٨/ ١٧١).

فيقولون: ما أتانا من نذيرٍ.

فيقولُ: من يشهدُ لكَ؟.

فيقولُ: محمدٌ وأمَّته، فتشهدون أنه قد بلَّغ، ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾، فذلك قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣]، والوَسطُ: العدلُ».

فالأمَّة المحمَّدية تشهد على أن الأمم السَّابقة قد بلَّغتها رسلها، والرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام يزكِّيهم ويعدِّلهم.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ﴾ [البينة: ٣] أي: بما اشتمل عليه من معانٍ، لأنَّه تبيانٌ لكل شيء، قال سبحانه وتعالى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقال جل وعلا: ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥] أي: على اختلافِ أصنافِهم.

واعلم أنَّه لابدَّ لفهم القرآن من نُورٍ من عندِ الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤] أي: زدني علماً بهذا القرآن الذي يوحى إليَّ، زدني علماً بكَ، لأن العلومَ الإلَهيَّة تؤخذُ من القرآنِ الكريم.

كما لابدَّ لفهم معاني القرآنِ من ميزانٍ توزنُ به صحَّةُ المفاهيمِ، فلا يصحُّ لأحدٍ أن يفسِّر القرآنَ برأيه دونَ الرُّجوع إلى أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم، التي هي بياناتٌ للقرآنِ الكريم.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾ [الشورى: ١٧].

طرقُ التَّفسير

أوَّلاً: تفسيرُ القُرآنِ بالقُرآنِ:

وهذا ما فعله سيِّدنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفتح هذا البابَ للصَّحابة رضي الله تعالى عنهُم.

ففي الحديث الذي رواه البخاريُّ[1] عن عبدِ الله بن مسعُودٍ رضي الله تعالى عنه قال: لمَّا نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شقَّ ذلك على المُسلمينَ، فقالُوا: يا رسُولَ الله، أيُّنا لا يظلمُ نفسهُ؟.

قال: «ليسَ ذلك، إنَّما هو الشِّركُ، ألم تسمعُوا ما قال لُقمانُ لابنه وهو يعظهُ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾» [لقمان: ١٣].

فقد فهم الصَّحابة الكرامُ رضوان الله تعالى عليهم من ظاهرِ الآية أنَّ المؤمن لا يأمن إلا إذا خلا عن كلِّ الذُّنوب بأنواعها، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي: لم يخلطُوا إيمانَهُم بذنبٍ ولو

---

(١) في كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢] /٣٤٢٩/ (٦/٤٦٥).

كان صغيراً ، فذكرُوا ذلك للنَّبي عليه الصَّلاة والسلام ، فبيَّن لهُم أنَّ المراد من: ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام: ٨٢] ، أي: لم يخلطوا إيمانهُم بالشِّرك.

ويدُلُّ هذا الحديثُ أيضاً على أنَّه لا يجوزُ للإنسان أن يقتصر على اللُّغة العربيَّة وقواعدها في فهم معاني القُرآن الكريم ، وأنَّه لابدَّ من الرُّجوع إلى أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم ، التي هي بيانَاتٌ للقُرآنِ الكَريم ، فقد قال سبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤] ، وهذا بعد أن بيَّن سبحانه لرسُوله صلى الله عليه وآله وسلم معاني القُرآن الكريم ومقاصِدهُ بقوله: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٧ ـ ١٩] أيْ: بيانه لك يا رسُولَ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم.

ففي الحديث المتقدِّم فهمَ الصَّحابةُ رضي الله تعالى عنهم من الظُّلم العمومَ ، لأنَّها نكرةٌ جاءت بعد نفي ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام: ٨٢] أي: ولم يخلطوا إيمانَهم بظُلمٍ أي: بذنبٍ ولو كان من الصَّغائر؛ هذا ما فهمه الصَّحابة رضي الله تعالى عنهم فشقَّ ذلك عليهم ، ولمَّا سألُوا النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم بيَّن لهم أنَّ المراد من الظُّلم في الآيَة هُو الشِّركُ ، ولم يُوافِقهُم على فهمِهِم ؛ وإن كان مُوافقاً لأُصُول اللُّغة العربيَّة ، ثمَّ تلا عليهم قولَه تعالى مخبراً عن لُقمان عليه السَّلام: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

فقد فسَّر لهم القرآنَ بالقرآنِ ، وبيَّن لهم أنَّ المُراد بالظُّلم في

الآيَةِ هو الشِّرك ، وهذا ما سلكهُ الصَّحابة الكرام في فهمِ القُرآنِ الكريمِ.

ومن هذا استدلالُ حبرِ الأمَّةِ عبد الله بن عبَّاس رضي الله تعالى عنهُما بقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١] استدلالُه بهذه الآيَة الكريمة على إثباتِ عذَاب القَبرِ.

ففهِمَ أنَّ العذابَ نوعَانِ: العذابُ الأكبرُ ، وهو عذابُ الآخرةِ؛ وأمَّا الأدنى ـ أيْ: الأَقْرَب ـ فهذا بعضُه في الدُّنيا وبعضُه في البَرزخِ.

استدلَ على ذلك من قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أيْ: بغضِ العذابِ الأدنَى ، فالعذابُ الأدنَى موزَّعٌ على عالمينِ: عالَمِ الدُّنيا ، وعالم البرزَخِ.

ودليلهُ على ذلك أيضاً قولهُ تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ [يونس: ٤٦] أيْ: نُريك يا محمَّد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بعض العذابِ الذي نعدهُم وأنت في الدُّنْيا؛ فهذا تفسيرٌ لقوله تعالى ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [السجدة: ٢١] أي: بعض العذاب الأدْنَى.

وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨] وهو العذابُ الدُّنيويُّ ، الذي هو بعضُ العذاب الأدنى الذي منه عذابُ القبرِ؛ وهو غير العذاب الأكبر الذي يكونُ يومَ القيامة.

وهكذا فبعرض هذه الآيات على بعضها يُستدلُّ على أنَّ عذاب

القبر ثابتٌ بالنَّص ، كما أنَّ هناك آياتٍ وأحاديثَ أخرى تدُلُّ عليه.

ثانياً: تفسير القرآنِ بالحديث (السُّنَّة المطهرة):

كما قال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «ألا إنِّي أوتيتُ الكتابَ ومثلَهُ معهُ»[١] أي: ومثلهُ وحياً من الله لبيانِ معاني هذا القُرآنِ ، وهو السُّنَّة والحديثُ.

ثمَّ هناكَ مفاهيمُ الصَّحابة رضي الله تعالى عنهم وتفاسيرهُم ، فهي معتمدةٌ ، لأنَّهم عاصروا فترة نزولِ القُرآنِ على رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن هذا ما فسَّره وفهمهُ عمرُ بن الخطَّابِ رضي الله تعالى عنه لمَّا قرأ قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] أي: عُلُوّاً ومُضايقةً.

فقدْ رُويَ[٢] أنَّ عمرَ رضي الله تعالى عنه قرأ هذا الآيةَ: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ بنصب الرَّاء ، وقرَأها بعضُ من عنده من أصحابِ رسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿حَرِجًا﴾ بالخفضِ.

فقال عمرُ رضي الله تعالى عنه: أبغُوني رجلاً من كنانَةَ ،

---

(١) أخرجه أبو داود عن المقدام بن معدي كربَ في كتابِ السُّنَّة ، بابٌ في لزومِ السُّنَّة / ٤٦٠٤/ (٥/ ١٠).

(٢) أخرجه عبدُ بنُ حميدٍ ، وابنُ جرير ، وابنُ المنذرِ ، وأبو الشَّيخ ، كما في (الدرِّ المنثور) عند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

واجعلُوهُ راعياً ولكن مُدْلجيّاً[1] ، فأتوهُ به؛ فقالَ لهُ عُمرُ رضي الله تعالى عنه: يا فتى ، ما الحرجةُ فيكُم.

قال: الحرجةُ فينا ، الشَّجرةُ تكونُ بينَ الأَشجَارِ التي لا تصِلُ إليها راعيةٌ ، ولا وحشيَّةٌ ، ولا شيء.

فقال عُمر رضي الله تعالى عنه: كذلِكَ قلبُ المنافقِ ، لا يَصِلُ إليه شيءٌ من الخيرِ.

فمن هذا المثلِ القُرآنيِّ فهمَ عُمَر رضي الله تعالى عنه بأنَّ الإيمانَ لا ينتهي إلى قلبِ الكافرِ والمُنافقِ.

وهذا يدلُّ أيضاً على أنَّ من طُرقِ التَّفسير: أن تفسِّرَ القُرآنَ بمُوجبِ اللُّغة العربيَّة ومفاهيمها ، إن لم يرد نصٌّ - أيْ: آيةٌ تفسِّر آيةً ، أو حديثٌ يفسِّرها ، أو فهمٌ عن أحد الصَّحابة أو أتباعِهم - فلتكنِ الحقائقُ اللُّغويَّة ، أمَّا التَّفسير على غير هذا فهو تأوُّلٌ وافتراءٌ على الله سبحانه وتعالى.

وقد يعطي الله عبداً في فهمِ آية ما لم يُعطِ غيرهُ ، كسيِّدنا عُمرَ وسيِّدنا عليٍّ وسيِّدنا عبد الله بن عبَّاس وغيرهم رضي الله تعالى عنهم ، فإنَّ الله تعالى قد يخُصُّ من شاء ببعضِ المفاهيمِ.

ومن هذا ما رواهُ البخاريُّ[2] وغيرُه ، عن أبي جُحيفةَ رضي الله تعالى عنه قال: (سألتُ عليّاً رضي الله تعالى عنه: هل عندكم شيءٌ ممَّا ليس في القُرآنِ[3]؟.

---

(١) وذلك لأنَّ بني مُدلجٍ فيهم الفصاحةُ في لُغتهِمْ.

(٢) في كتاب الدِّيَاتِ ، بابٌ لا يُقْتَلُ المسلمُ بكافر / ٦٩١٥/ (١٢/ ٢٦٠).

(٣) وكان غرض أبي جحيفة رضي الله تعالى عنه من هذا السؤال إزالة إشكالٍ من =

فقالَ: والَّذي فلقَ الحبَّة، وبرأ النَّسمة، ما عِندنا إلا ما في القُرآنِ، إلا فهماً يُعطى رجلٌ في كتابه، وما في الصَّحيفةِ.

قلتُ: وما في الصَّحيفةِ؟.

قال: العقْلُ، وفكاكُ الأسير، وأن لا يُقتلَ مسلمٌ بكافِرٍ).

وهذه أُمورٌ عامَّةٌ ليستْ خاصَّةً بأهلِ البَيتِ.

فقد يفهَمُ البَعْضُ من القُرآنِ ما لا يفهمُهُ غيرهُ، وبهذا اختلفت مقاديرُ العُلَماءِ، لأنَّهُم كلُّهم يستندُون إلى قولِ الله تعالى ورسولِه صلَّى الله عليه وآله وسلم، ولكن اختلفتْ مراتبهم في الفهمِ.

قولهُ سبحانه وتعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

الحكمةُ تأتي على معانٍ كثيرةٍ، فهنُاك الحكمةُ القُرآنيَّةُ، وهناكَ الحكمةُ النَّبوية ـ أي: نزلت بالوحي النَّبويِّ لا بالوحي القرآنيِّ ـ.

فمن الحكمِ القُرآنيَّة قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٤ ـ ٥].

أي: جاء كفَّارُ قُريش وغيرهم من الأخبار الإلَهيَّة التي نزلت عليك يا محمَّد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ والتي فيها أخبارُ من قبلهُم، وعنادهم وكفرهم؛ وكان هذا لمَّا طلبت كفَّارُ قريشٍ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آيةً كونيَّةً أن يشُقَّ لهمُ القَمَر، وحصلَ هذا، ولكنَّهم بقَوا على عنادِهم وجحودهم، وقالوا:

= ادَّعى ذلك، وهو أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم قد خصَّ أهلَ البيتِ بشيءٍ دون الناسِ.

سحرٌ مستمرٌ ، فأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ [القمر : ١ ـ ٣].

ثمَّ وبَّخهم سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ ﴾ أي: مِنْ أخبار مَنْ قبلهم ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ أي: ما فيه موعظةٌ لهم ، ففي هذه الأنباء ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ ﴾ بلغتِ القلوبَ والصَّميم ، ولكن لِمَنْ كانَ له قلبٌ ﴿ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ أي: لقدْ بَلَغَتْهم أخبارُ من قبلهم من الأمم السَّابقة ، كيف جاءتهُم رسلهم بالآيات الكونيَّة ، ولكنَّهم بقَوا على كُفرهم وعنادهم ، فأهلكهمُ الله تعالى ، فليعتبروا!!.

ومن الحكم القُرآنيَّة أيضاً قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ۝٢٤ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ۝٢٥ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ۝٢٧ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۝٢٨ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٢٩ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝٣٠ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ۝٣١ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ۝٣٣ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ

أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٣ _ ٣٩].

فقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي: باعتبار أنَّه الرَّبُّ وأنتم عبادهُ، فيجبُ عليكم ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

وعبادته تعالى على حسب ما شرع، لا كما تهوى أنفسكم، وإنَّ مَنْ عَبَدَه على حسب ما يهوى فقد عبد هواه، ولم يعبدْ ربَّه سبحانه؛ وهذا كلُّه من حِكَمِ الرُّبوبيَّة.

وهناك الحكمُ النَّبويةُ التي جاءت عن طريقِ النُّبوَّة، فما من نبيٍّ إلا وعلَّمه الله تعالى الحكمة، أي: الحكمةَ النَّبويَّة على حسب مقام نبوَّته.

والحكمةُ تقتضي العلم الصَّحيح، والعمل الصَّائب، فلا يُقالُ عن أحدٍ حكيمٌ، إلا إذا كان عندَه علمٌ صحيحٌ بالحقائق والدَّقائقِ، وعمل بمُوجب هذا العلم فأصابَ؛ فالحكمةُ هي صحَّةُ العلمِ وصوابُ العملِ.

ويدلُّ على أنَّ كلَّ نبيٍّ قد أعطَاه الله تعالى الحكمةَ، قولُه جلَّ وعلا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: عامَّةً ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ

﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال سيِّدنا عليُّ بن أبي طالب كرَّم الله تعالى وجهه: (لم يبعث الله نبيّاً؛ آدم فمن بعده، إلا أخذ عليه العهد في محمد صلَّى الله عليه وآله وسلم، لئنْ بُعِثَ وهو حيٌّ ليؤمننَّ به، ولينصرنَّه، ويأمُرُه فيأخذُ العهدَ على قومه، ثمَّ تلا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾)[1] [آل عمران: ٨١].

وقال ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهُمَا في هذه الآية: (ثم ذكرَ ما أُخِذَ عليهم ـ يعني: على أهلِ الكتابِ ـ وعلى أنبيائهم من الميثاقِ بتصديقِهِ ـ يعني: بتصديقِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إذا جاءهم، وإقرارهم به على أنفُسهِمْ)[2].

وإنَّ الحكمة التي أعطيها سيِّدُنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم جامعةٌ لجميع حكم النَّبيين قبلَهُ.

قال الله تعالى في داودَ عليه الصَّلاة والسَّلامُ: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]،

---

(١) أخرجه ابنُ جرير، انظر (الدر المنثور) عند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ [آل عمران: ٨١].

(٢) قال في (الدر المنثور) عند الكلام على هذه الآية الكريمة: أخرجه ابن جرير وابن المنذر. اهـ.

حكمةَ تدابير المملكة لأنَّه كان ملكاً.

وقال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦] أي: في المقامِ لا في الأملاكِ.

أمَّا فصلُ الخطابِ: فهو القولُ الفاصلُ بين الحقِّ والباطلِ، الذي من جملته القولُ البليغُ، وقد أُوتي هذا عليه الصَّلاة والسلامُ: «وأوتيتُ جوامعَ الكلمِ»[1].

ومن جملةِ فصْلِ الخطابِ: إعادةُ الكلامِ على حسب المصلحةِ، وكان عليه الصَّلاة والسلام يعيد الحديثَ ثلاث مرَّات، إذا كانَ الحديثُ يقتضيْ الإعادةَ، وليسَ في هذَا إملالٌ، ففي المرَّةِ الأُولَى يسمعُها مَنْ سمعَها، وفي المرَّةِ الثَّانية يسمعُها من لَمْ يسمعهَا أولاً، ومن سمع أوَّلاً استفاد من الثَّانيَة زيادةَ ضبْطِ الكلمَةِ وفي المرَّةِ الثَّالثة تزيدُهُ معنى وفهماً[2].

وكذلكَ سيِّدنا عيسى عليه الصَّلاةُ والسلامُ، فقد أُعطِيَ من الحكمَةِ على حسب نبوَّتهِ ورسالَتهِ، وقد نُقِلَ من كلامهِ حكمٌ كثيرةٌ.

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «نصرتُ بالرُّعب على العدوِّ، وأوتيتُ جوامع الكلمِ، وبينما أنا نائمٌ أتيتُ بمفاتيح خزائن الأرض؛ فوضعت في يديَّ» رواه البخاري في كتاب التَّعبير، باب المفاتيح في اليد / ٧٠١٣/ (١٢/ ٤٠٠)، ومُسلمٌ ـ واللفظُ لهُ ـ في كتاب المساجد ومواضع الصَّلاةِ / ٥٢٣/ (٢/ ٦٦١).

(٢) فقد جاء في (صحيح) البخاري، في كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه / ٩٤/ (١/ ١٨٨)، عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه، عَنِ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: (أنه كان إذا تكلم بكلمةٍ أعادها ثلاثاً حتى تُفهم عنه، وإذا أتى على قومٍ فسلَّمَ عليهم؛ سلم عليهم ثلاثاً).

وأُعطِيَ الحكمةَ أيضاً فيما يتعلَّقُ بالعلاجَاتِ ومُداواةِ المرضى ، قالَ تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

فكلٌّ منهم له علاجٌ خاصٌّ وإن كان علاجُهُ لهم بالمسحَةِ النَّبويَّة ، إلا أنَّ هذا يحتاجُ إلى علم نبويٍّ وحكمةٍ؛ فيقرأُ على هذا كذا وكذا من الأسماء ، ويمسحُ على هذا ، مع مُلاحَظَةِ عدم تعطيلِ الأَسبابِ الظَّاهرة من العلاجَات ، لأنَّه لا يمكنُ لنبيٍّ أن يعطِّل الأَسبابَ التي شرعها الله تعالى ، فهُم يأخذونَ بالأسبَابِ الظَّاهرَةِ والبَاطِنَةِ؛ وهذا من الحكمةِ التي أُوتُوْهَا.

أمَّا أن تقولَ بالأخذِ بالأَسْبَابِ الباطِنَةِ دونَ الأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ ، فيقالُ لكَ: إنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسلامُ خاضَ المعارِكَ مع أصحابِهِ الكرامِ ، فبدَلاً من ذلك فإنَّ دعوةً واحدةً منه تُهلِكُ الكُفَّارَ كلَّهُم!!.

فهذا ليس من الحكمة في شيءٍ ، لأنَّ فيه تعطيلاً للأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ من جهادٍ وغيرِهِ ، فالحكمةُ النَّبويَّةُ مصحوبَةٌ بالعلم الصَّحيح ، الذي من جملَتِه معرِفَةُ أمزِجَةِ النَّاسِ.

ومن هذا ما كان صلَّى الله عليه وآله وسلم يفعلُه مع من يسأَلُهُ: «أيّ الأعمالِ خيرٌ»؟ فيُعْطِي الجوابَ على حَسَب حالِ السَّائلِ ومزاجِهِ ومصلحتِهِ.

فقد قال لأحدهم: «الصَّلاةُ لوقتِهَا»[(١)].

---

(١) رواه البخاريُّ في كتاب التَّوحيد ، بابٌ وسمَّى النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم الصَّلاة عملاً / ٧٥٣٤/ (١٣/٥١٠) ، عن ابن مسعودٍ رضي الله تعالى عنه أنَّ رجلاً سألَ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم: أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ قال: «الصَّلاة =

وقال لآخرَ: «تُطعِمُ الطَّعام ، وتُقْرِئُ السَّلامَ على من عرفتَ ومن لم تعرِفْ»[1] ، وهكَذَا. . .

وقال لِرَجُلٍ عندما قال له: أوصني ، قال: «لا تغضَبْ»[2] .

وقال لمعاذٍ رضي الله تعالى عنهُ لمَّا قال له أوصني: «أُوصيكَ بتقوى الله»[3] .

ونسأل الله التَّوفيقَ ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

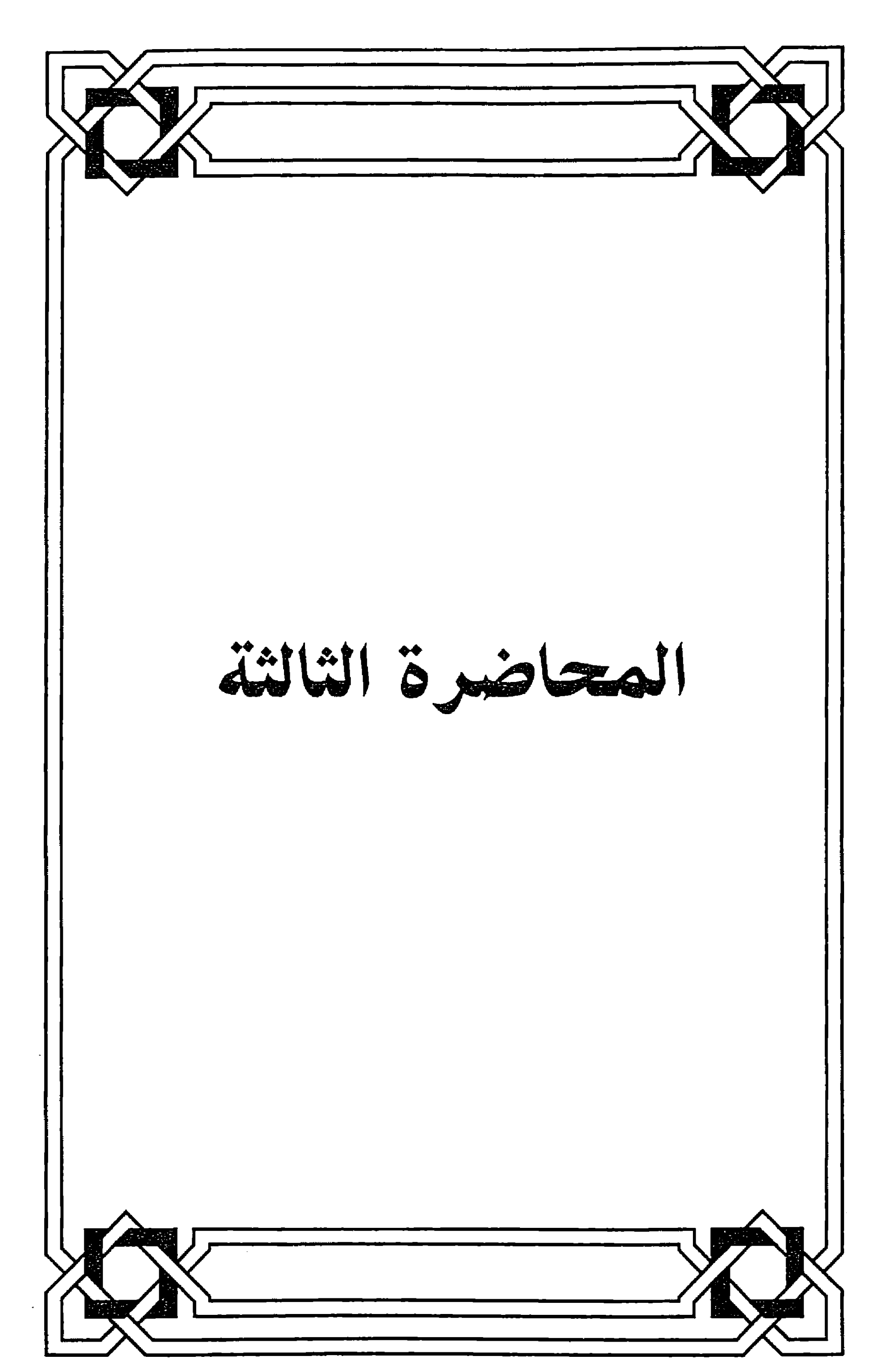
* * *

= لوقتها ، وبِرُّ الوالدين ، ثمَّ الجهادُ في سبيل الله».

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند): (٢/١٦٩) ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما ، أنَّ رجلاً سأل النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم: أيُّ الأعمالِ خيْرٌ؟ قال: «أن تُطعِمَ الطَّعام ، وتُقرِئَ السَّلام على من عرفْتَ ومن لم تعرِفْ».

(٢) رواه البخاريُّ في كتاب الأدبِ ، بابُ الحذَرِ من الغضَب /٦١١٦/ (١٠/٥١٩) ، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن رجلاً قال للنَّبي صلى الله عليه وآله وسلم: أوْصني ، قال: «لا تغضب» ، فردَّدَ مراراً ، قال: «لا تغضب».

(٣) رواه الإمام أحمد في (مسنده): (٢/٢٣٦) ، عن معاذٍ رضي الله تعالى عنه أنَّه قال: يا رسولَ الله أوصني، قال: «اتَّقِ الله حيثما كنتَ» أو «أينما كنت» قال: زِدْنِي. قال: «أتبعْ السَّيئةَ الحسنةَ تمحُهَا» قال: زدني ، قالَ: «خالقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حسنٍ».



المحاضرة الثالثة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، وأفضلُ الصَّلاة وأكمل التَّسليم ، على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سُبْحانك لا علم لنا إلا ما علَّمتنا إنَّك أنت العليم الحكيم.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

أمَّا بعدُ:

فقد تقدَّم الكلام على قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فقد امتنَّ الله تعالى على عباده ببعثة النَّبيِّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، وبيَّن الحكمة في إرساله عليه الصَّلاة والسَّلام ، وذلك أنَّ الله تعالى بعثه إلى العالم ، وله معهم مواقف تتوقَّف عليها سعادتُهم في الدُّنيا والآخرة.

ومن جملة مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم: هذه المواقف الأربعة المذكورة في الآية المتقدِّمة؛ ومنها: أنَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم جاء يتلو على الناس آيات الله تعالى، ويُعلِّمهم الكتاب والحكمة، ويزكِّيهم.

وقد أجملنا الكلام على موقفه صلى الله عليه وآله وسلم في تلاوة آيات الله تعالى، وموقفه في تعليم النَّاس الكتاب والحكمة، وسنذكر الآن جملاً حول موقفه صلى الله عليه وآله وسلم في تزكية العالم، لأنَّ من مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم أنَّه جاء مزكِّياً لهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

* * *

موقفهُ صلى الله عليه وآله وسلَّم في تزكية النُّفوس

لقد أرسلَ الله تعالى رسولهُ سيِّدنا محمَّداً صلىٰ الله عليه وآله وسلَّم إلى العالم وله معهم مواقفُ متعدِّدةٌ ، تتوقَّف عليها سعادتُهم في الدُّنيا والآخرة ، ومن جملة هذه المواقف وأجمعها ، ما ذكره سبحانه وتعالى بقوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وإنَّ الله تعالى سيسأل الإنسان عن مواقفه مع هذا الرَّسول الكريم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، وماذا عمل فيما جاء به؟ وهل أنَّهُ تزكَّى بتزكية النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم؟ وهل أنَّه تذكَّر بتذكير النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلَّم؟ وهكذا. . .

وفي هذا يقول سبحانهُ وتعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

فمن مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم: أنَّه جاء يُزكِّي العالم ، فما هي التَّزكية ، وما هي مراتِبها ، وأهمِّيتها ، وفضائلها؟.

اعلم أيُّها الإنسان ، أنَّ التَّرقِّي في مقامات القرب ، والارتقاء

إلى الدَّرجات ، متوقِّف على مقام التَّزكية ، ولا يدخلُ الجنَّة إلا من كان ذا نفسٍ زكيَّة طاهرة نقيَّة ، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه: ٧٥ ـ ٧٦] أي: من تزكَّى بتزكية النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنَّ التَّزكية لا تنالُ إلا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله سبحانه فيه: ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾.

ومن هنا يفهم العاقل أنَّه لا غنى له عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فيجب أن يحقِّق الارتباط الوثيق بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي جاء يُبيِّن طُرُق السَّعادة في الدُّنيا والآخرة.

وإنَّ حياة الإنسان وسعادتهُ وسيادته ، وزكاة نفسه وصحَّة عقْلِهِ ، كُلُّ هذا منوطٌ باتِّباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولهذا فإنَّ الإنسان أحوجُ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم من حاجته إلى والده ، لأنَّ والدهُ كان سبباً في حياته الجسميَّة الدُّنيويَّة ، أمَّا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد جاء بالحياة الحقيقية الأبديَّة ، التي قال الله تعالى فيها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فلا غنى للإنسان عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الدُّنيا ولا في الآخرة ، فَلْيُحْكم الصِّلة بينهُ وبين رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ليحيا حياة الأبد ، وينال سعادة الأبد.

وإنَّ حياةً لم تؤخذ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم ،

ولم تُستمدَّ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ إنَّما هي حياةٌ بهيميَّةٌ حيوانيَّةٌ ، وليست حياةً إنسانيَّةً كاملةً.

وإنَّ نفساً لم تتزكَّ بتزكية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم؛ إنَّما هي مجمعُ خبائث وقبائح.

وإنَّ قلباً لم يتزكَّ بتزكية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنَّما هو مجمعٌ للآفات والمفاسدِ.

وذلك لأنَّ الله تعالى خلق الإنسان ، وأودع فيهِ الصِّفات الملكوتيَّة العلويَّة ، وفيه الصِّفات البهيميَّة الحيوانيَّةُ.

ولذلك جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُزكِّي النُّفوس والقُلوب من بواعث الشَّرِّ والفساد ، وينهضُ بها إلى الكمالات الإنسانيَّة.

فمن لم يتزكَّ عن صفة الحقد مثلاً ؛ صار حقوداً كالجمل ، ومن لم يتزكَّ عن صفة الحرصِ صار حريصاً كالفأرِ ، ومن لم يتزكَّ عن صفةِ الأذَى والشَّرِّ صار عقرباً مؤذياً . . . وهكذا.

ورُبَّما أصبح في البغي والظُّلم كالسَّبع المفترس ، وقد يصيرُ في بلادَتِه كالحِمار وهكذا. ولا يتخلَّص الإنسانُ من هذه الصِّفات البهيميَّة الحيوانيَّة إلا إذا تزكَّى بتزكية سيدنا رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولذلك وصف الله سُبحانه وتعالى الكُفَّار الذين لم يستجيبُوا لرسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وصفهُم بالأنعام ، فقال جلَّ وعلا: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤] لأنَّهم مجمعُ القبائح والرَّذائل.

وإنَّ من شأن النَّفس أن تأمرَ بالسُّوء: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

فمن لم يُزكِّ نفسه بتزكيةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم اجتمعتْ فيه الصِّفات السَّيئةُ والأخلاقُ الذَّميمة.

ولمَّا كانت حاجةُ الإنسان إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم حاجةً ملحَّةً قويَّةً، تتوقَّفُ عليها حياتُهُ وسعادتُهُ، فإنَّ أوَّل ما يُسألُ عنه الإنسانُ إذا صار في قبرِهِ؛ يُسألُ عن صِلتهِ برسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم وارتباطه معه.

فيقال له: «ما كنت تقولُ في هذا الرَّجل»[1]، ولا يكفي أن يُقال إنَّه عبدُ الله ورسولهُ، بل هل أجبتهُ واتَّبعته، أم أنَّك شهدتَ لهُ بالرِّسالة فقط؛ دونما انقيادٍ وطاعةٍ لما جاء به؟!.

لأنَّ الله سُبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

---

(١) رواه البخاريُّ ـ واللَّفظ له ـ في كتاب الجنائز، باب الميِّت يسمع خفق النِّعال /١٣٣٨/ (٣/٢٠٥)، ومسلم في كتاب الجنَّة، باب عرض مقعد الميِّت من الجنَّة أو النَّار عليه /٢٨٧٠/ (٥/٢٧٢٤) عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه، عن النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «العبد إذا وضع في قبره وتُولِّي وذهب أصحابهُ، حتَّى إنَّه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فأقعداه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرَّجل محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم؟ فيقول: أشهد أنَّه عبد الله ورسوله. فيقال: انظر إلى مقعدك من النَّار، أبدلك الله به مقعداً من الجنَّة».

قال النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «فيراهما جميعاً».

«وأمَّا الكافر ـ أو المنافق ـ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقولُ النَّاس. فيقال: لا دريت ولا تليت. ثمَّ يضرب بمطرقةٍ من حديدٍ ضربةً بين أُذنيه، فيصيح صيحةً يسمعها من يليه إلا الثَّقلين».

ولهذا كان جوابُ المُؤمنِ الكاملِ: «هُو مُحمَّدٌ رسولُ الله ، جاءنَا بالبَيِّنات والهدى ، فأجبنا واتَّبعنا ، هو محمَّدٌ ـ ثلاثاً»[1] .

ثُمَّ لمَّا يصيرُ الإنسانُ في الحشرِ والحساب ، فإنَّ الله تعالى يسألهُ عن موقفه مع رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فيقول: «ألم أبعث إليك رسولاً فيبلِّغك»[2] ؟ أي: فما هو موقفك معه؟ .

---

(١) رواه البخاريُّ ـ واللَّفظ له ـ في كتاب العلم ، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرَّأس / ٨٤/ (١/ ١٨١) ، ومسلمٌ في كتاب الكسوف ، باب ما عُرض على النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم في صلاة الكسوف من أمر الجنَّة والنَّار / ٩٠٤/ (٢/ ٩٦٣) عن أسماء رضي الله تعالى عنها قالت: أتيتُ عائشة رضي الله تعالى عنها وهي تُصلِّي ، فقلت: ما شأن النَّاس؟ فأشارت إلى السَّماء ، فإذا النَّاس قيامٌ. فقالت: سبحان الله. قلت: آيةٌ ، فأشارت برأسها ـ أي: نعم ـ فقمتُ حتَّى تجلاني الغشيُ ، فجعلتُ أصُبُّ على رأسي الماء ، فحمد الله عزَّ وجلَّ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم وأثنى عليه ، ثمَّ قال: «ما من شيء لم أكن أريته إلا رأيته في مقامي حتَّى الجنَّة والنَّار ، فأوحي إليَّ أنَّكم تفتنون في قبوركم مثل أو قريب ـ لا أدري أيَّ ذلك قالت أسماء ـ من فتنة المسيح الدَّجَّال ، يقال: ما علمك بهذا الرَّجل؟ فأمَّا المؤمنُ أو الموقن ـ لا أدري بأيِّهما قالت أسماء ـ فيقول: هوَ محمَّدٌ رسول الله ، جاءنا بالبيِّنات والهدى ، فأجبنا واتَّبعنا ، هو محمَّدٌ (ثلاثاً) فيقال: نم صالحاً ، قد علمنا إن كنت لموقناً به؛ وأمَّا المنافِق أو المرتاب ـ لا أدري أيَّ ذلك قالت أسماء ـ فيقول: لا أدري ، سمعت النَّاس يقولون شيئاً فقلته».

(٢) كما في الحديث الذي رواه البُخاريُّ في كتاب المناقب ، باب علامات النُّبوَّة في الإسلام / ٣٥٩٥/ (٦/ ٦١٠) عن عديِّ بن حاتمٍ رضي الله تعالى عنه ، وفيه قال النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «وليلقينَّ الله أحدُكم يوم يلقاهُ ، وليس بينهُ وبينهُ ترجمانٌ يترجم له ، فليقولنَّ له: ألم أبعث إليك رسولا فيبلِّغك؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أعطك مالاً وأُفضل عليك. فيقول: بلى. فينظرُ عن يمينه فلا يرى إلا جهنَّم ، وينظرُ عن يساره فلا يرى إلى جهنَّم». قال عديٌّ رضي الله تعالى عنه: سمعتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم يقولُ: «اتَّقوا النَّار ولو بشقَّة تمرةٍ ، فمن لم يجد شقَّة تمرةٍ فبكلمة طيِّبة».

ولهذا يجب على الإنسان أن يفهم ويُوقن أنَّه لا غنى له عن رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم أبداً.

ويجبُ عليه أن يُحكِمَ الصِّلةَ برسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم والارتباط معه، وذلك بالاقتداء العمليِّ، والتَّزكية النَّفسيَّة، والاهتداء بهديه صلى الله عليه وآله وسلم، حتَّى يؤهِّل نفسه ويكون ممَّن يقول: «فأجبنا واتَّبعنا».

ولمَّا قال الله تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٥١] دَلَّ على أنَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم جُمعت له العلومُ والمعارفُ كلُّها، ونال أعلى مقام في زكاة النَّفس والقلب على وجه خاصٍّ، لأنَّه لا يكونُ معلِّماً إلاَّ من كان عالماً، ولا يكون مزكِّياً إلا من كان في أعلى مراتب التَّزكية، وهي الطُّهرُ النَّفسيُّ، والبعدُ عن الخبث والدَّنس: الخُلقيِّ والعقليِّ والنَّفسيِّ.

فتأمَّل واعتبر في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ حتَّى تعلمَ أنَّه لا أعظمَ من زكاة نفس رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا أعظم من المقام الذي ناله في التَّزكية، حتَّى صار يُزكِّي العالمين كلَّهم؛ ولا شكَّ أنَّ الله تعالى هو الذي تولَّى تزكيةَ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد خلق الله تعالى الرُّسل وربَّاهُم تربيةً خاصَّةً، واصطفاهُم وزكَّى نُفوسَهم وطهَّرها من صغرِهم، ثمَّ نشؤوا وهم يترقَّون في مقامِ التَّزكية، وأعظمُهُم سيِّدُنا مُحمَّدٌ صلى الله عليه وآله وسلم.

فلقد نالَ الأنبياءُ عليهم الصلاة والسَّلام تزكية النَّفس من

صِغرِهم ، وهي تطهيرُ النَّفسِ من رُعوناتِها وأدنَاسها ، وتزكيةِ القلبِ من الغِشِّ والمكرِ والحقدِ والغلِّ والحسدِ وما وراء ذلك.

ونالُوا التَّزكية العمليَّة بالقُربُات والطَّاعات لربِّ العالمين ، والتَّزكية الخُلقيَّة وهي الأخلاقُ الفاضلةُ العاليةُ.

إنَّ هذه التَّزكية بأنواعها فَطَرَ الله تعالى أنبياءهُ ورُسُلَهُ عليها من صِغَرهم ، وأنشأهم نشأةً زكيَّةً طاهِرةً ، ثمَّ جعلُوا يترقَّونَ في هذهِ المقاماتِ بحيثُ لا ينالُ مقامَهُم غيرُهُم ممَّن ليسَ بنبيٍّ ولا رسولٍ صلواتُ الله وسلامُهُ عليهم أجمعين.

وممَّا يدُلُّ على أنَّ الله تعالى توَلَّى تزكيةَ نُفُوسِ رُسُله من صِغرهم، وأنشأهُم نشأةً زكيَّةً طاهرةً ، قولهُ سُبحانَهُ وتعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ [مريم: ١٢] ، والحُكم هو الإصابة في القول والعمل ، وقد أعطى الله تعالى هذا ليحيى عليه الصَّلاة والسَّلام منذُ كان صَبيَّاً ﴿وَحَنَانٗا﴾ أي: آتيناهُ حناناً ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: عطفاً خاصَّاً منَّا عليه ، ومن حناننا عليه صارَ يحنُّ ويعطفُ على خلقِ الله تعالى ﴿وَزَكَوٰةٗۖ﴾ أي: آتيناهُ زكاةً من صغره حين كان صَبيَّاً ، وهي زكاةُ النَّفس والقلبِ والعقلِ والخُلقِ ، وليس زكاة المال لأنَّ الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام لا زكاة مَالٍ عليهم.

وقال الله سُبحانَهُ وتعالى في سيِّدنا عيسى ابنِ مريمَ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾ [مريم: ١٩] أي: بمراتِب الزَّكاة ، فهو زكيُّ القلب فلا غِشَّ ولا حسدَ ولا حِقدَ ، وزكِيُّ النَّفسِ فلا تأمُرُه نفسُهُ إلا بالخَيرِ ، وزكيُّ الخُلقِ ويتحلَّى بالأخلاقِ الكريمةِ العاليَةِ.

وقال سُبحانه في سيِّدنا إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١] أي: من قَبل أن يُنبَّأ حين كان صغيرَ السِّنِّ، آتيناهُ رشدهُ فلم يضلَّ ولم يغوِ ولم يفسُق.

قولُهُ تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي: كُنَّا في آزالِ الآزالِ عالمينَ بصدق إبراهيم، ولياقتِهِ واستعداده للرِّسالة ومقام الخلَّة.

وإنَّ أعظمَ الأنبياء زكاةً في النَّفس، وأعلاهُم مقاماً في طهارةِ وطيب القَلب والخُلق، هُو سيِّدُنا محمَّدٌ صلى الله عليه وآله وسلَّم الذي قال الله سُبحانه وتعالى فيه: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١ ـ ٢] أي: بَل هو على الهداية والرَّشاد(١) منذُ صغرِه، وهذا باعترافكُم، لأنَّه نشأ بينكم، وما جرَّبتم عليه إلا الصِّدق والأمانة والعفَّة والنَّزاهة.

ولمَّا كان رَسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم أزكى العالمين نفساً، وأزكاهُم قلباً وخُلقاً، بل نال من مقام التَّزكية الإلَهيَّة أعلى مقام فيها، صار أهلاً أن يُفيضَ على العالمين، وأهلاً أن يُزكِّي العالَمينَ كُلَّهُم، ولذلك كان من مواقفه مع العالم أنَّهُ جاء مُزكِّياً لهم، كما قال الله سُبحانه وتعالى: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾.

وجوب حاجة الإنسان إلى تزكية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

اعتبر أيها العاقل وتفكر في قوة زكاة نفسه صلى الله عليه وآله

---

(١) والغواية ضدُّ الرَّشاد، والرُّشدُ هو الإصابة في القول والعمل والخُلُقِ.

وسلم، وطهارة قلبه، وطيبه، وقوة معناه، لأنّ الذي جاء يزكي العالم لابد أن تكون نفسه أزكى النفوس، وقلبه أطهر وأطيب القلوب. فما أعظم زكاة نفسه صلى الله عليه وآله وسلم وما أطهرها وما أقدسها!!.

وقد دل على هذا ما رواه الدارمي[١]، عن أبي ذر رضي الله عنه قلت: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف علمت أنك نبي حين نبئت[٢]؟.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «جاءني ملكان، قعد أحدهما في الأرض والآخر بين السماء والأرض، فقال أحدهما للآخر: أهو هو؟ قال: نعم هو هو ـ أي: هذا هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم المعروف في الأعلى، والمعلن شرفه في الملأ الأعلى ـ.

فقال أحدهما للآخر: زنه، قال: فوزنت برجل ـ أي: كبير ـ من أمتي فرجحته ـ وهذا وزن المعاني والفضائل لا وزن المباني ـ.

قال: فزنه، فوزنت بعشرة فرجحتهم، قال: زنه بمائة، فوزنت بمائة فرجحتهم، قال: زنه بألف ـ أي: من خيار أمته ـ قال: فوزنت بهم فرجحتهم.

ثم قال الملك: لو وزن بأمته كلهم لرجحهم».

فلو وضعت كمالات العالمين في كفة، ووضعت كمالاته صلى الله عليه وآله وسلم لرجح بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا أرسله الله تعالى يزكي العالمين، لما فيه من أهلية

---

(١) (٩/١).

(٢) وهي من جملة علامات نبوته التي ظهرت وعرفها صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوة في زكاة النفس، وطهارة القلب، وكمال الخلق. حتى إن فيه القوة أن يفيض على العالمين كلهم كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

إذاً فقوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يدل على شرف مقامه صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه أطهر العالمين وأزكاهم وأفضلهم، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿طه ۝١ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ١ ـ ٢] فالطاء للطيب والطهر، والهاء للهداية، والمعنى: يا أيها النبي الطيب الطاهر المطهر، والهادي للعالمين.

ولا تنكر أن حروف فواتح السور تدل على معانٍ سامية كبيرة.

وقوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يدل أيضاً على شدة حاجة الناس إلى تزكيته صلى الله عليه وآله وسلم، ولأن يتزكوا بتزكيته صلى الله عليه وآله وسلم؛ ليتخلوا من الدنس والرجس، ويتحلوا بالفضائل والكمالات التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فتزكوَ نفوسهم، وتتحقق لهم الإنسانية الكاملة الفاضلة.

وأما قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢] أي: فلا تزكوا أنفسكم بالأقوال، بأن يمدح أحدكم نفسه ويثني على نفسه، ويرى لنفسه شأناً واعتباراً، وإنْ بلغ من المراتب والمقامات ما بلغ، فما له أن يمدح نفسه ويدَّعي طهارتها وطيبها فهو سبحانه العالم بكل إنسان، وبما انطوت عليه نفسه.

ولقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام من قبضة قبضها من جميع تراب الأرض، وكل بني آدم إنما هُم فروع منه، فهو سبحانه يعلم

الأرض والتراب الذي خُلق منه كل إنسان ، وهل أنه من الأرض الطيبة أم الخبيثة ، وهل هو من الأرض السهلة أم الوعرة ، وهل هو من السوداء أم البيضاء وهكذا. . .

وقد جاء بنو آدم على قدر الأرض ، منهم السهل والحزن ، والخبيث والطيب ، والأحمر والأسود وبين ذلك ، وقد قال سبحانه: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾ [الأعراف: ٥٨].

وهو سبحانه العالم بكل إنسان لمَّا كان في بطن أمه ، وتتوارد عليه المعاني على حسب استعداده وهو جنين ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ﴾ [النجم: ٣٢] بالمدح والثناء على أنفسكم ، ومن رأى في نفسه صلاحاً وتقىً فليحمد ويثني على الذي تفضل عليه بذلك ، ووفقه لذلك ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وهذا من باب التحدث بنعمة الله تعالى بأن يقول للمؤمنين: لقد أنعم الله عليَّ بالإيمان ، وأكرمني بالتقوى ، وتفضل عليَّ ووفقني لفعل الصالحات وهكذا. . .

وأما قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] أي: تطهر بتزكية النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، بأن تحقق بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أوامر عملية وقولية وخلقية وأدبية.

وأما الأسباب التي توجب على الإنسان أن يتزكى بتزكية النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتتلخص فيما يلي:

لقد خلق الله الإنسان وجعل نفسه مجمعاً كبيراً لأمور عديدة ، وقوى متناقضة.

فشعرُ الإنسان الذي يَنْبت في جسمه هو بمنزلة العشب الذي

ينمو على وجه الأرض ، وكما حوت الأرض جملة من المعادن فإنّ في جسم الإنسان: الحديد والنحاس والكلس وغيرها ، لكنه بشكل متطور ملائم لجسم الإنسان.

وقد حوى الإنسان أيضاً على القوى الحيوانية البهيمية والغضبية والشهوانية ، وفيه الروح الإنسانية التي هي من عالم الأمر الرباني ، فلقد اجتمع في الإنسان عالمان: عالم علوي وعالم سفلي ، وهذا العالم السفلي فيه القوى المتشاكسة ، التي أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ١ ـ ٢].

والمعنى: لقد أتى على كل إنسان زمن طويل لم يكن فيه شيئاً مذكوراً ـ أي: معروفاً تذكره الناس ـ إلى أن خلقه الله وصار يُذكر ، ففي الآية استفهام تقريري ـ أي: أنّ الأمر هكذا مُقرٌ به لا ينكره عاقل ـ ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ أي: بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ﴿ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ أي: مختلف الدواعي والقوى ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ أي: خلقناه من نطفة حوت أخلاطاً من الدواعي والقوى لنبتليه ـ أي: نختبره بالتكاليف الشرعية ـ فهل هو يميل إلى الرذيلة أم إلى الفضيلة؟ وهل هو يميل إلى الدنس والنجس فيتسفل إلى الصفات البهيمية ؟ أم يرقى بنفسه إلى مستوى المَلَكِيَّة العلوية.

قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ أي: ومن أجل ذلك التكليف جعلناه ﴿ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ ذا عقل يُفكر ويتعقل به ، إذ إن السمع والبصر لا ينفعان صاحبهما إلا بالعقل ، فهو ينظر فيتعقل ، ويسمع فيتعقل، فيعرف ما ينفعه وما يضره ، ولما كان الإنسان بعقله قاصراً عن إدراك كثير من الأمور بسعادتها وشقائها ، فلقد بين له سبحانه

طريق الخير وطريق الشر، وطريق السعادة وطريق الشقاء، فقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣] أي: بَيَّنَّا له طريق الخير والحق بواسطة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي أرسله الله هادياً فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

فلقد جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبين للإنسان طريق الخير والسعادة، ويبين له القوى المجموعة فيه، وكيف يتحكم فيها، وما هو مقياس شرف الإنسان واعتباره.

فإذا كنت تعتبر أن شرفك بجمع المال ومنعه، فإنَّ جبال الذهب أشرف منك، فاذهب إليها وَقَبِّلها، وامنع الدواب أن تطأها بأقدامها.

وإذا كنت تعتبر أن الشرف بضخامة الجسم والهيئة؛ فإن الفيل والجمل أشرف منك، لأنهما أضخم منك جسماً.

وإذا كنت تعتبر أن الشرف بجمال الهيئة والزخرفة؛ فإن الطاووس أشرف منك.

وإذا كنت تعتبر أن الشرف بكثرة إتيان النساء؛ فإن العصفور أسرع وأقوى...

فما هو إذاً مقياس الشرف والاعتبار؟.

نعم إنَّ شرف الإنسان واعتباره يكون على حسب تحققه بالتكاليف الشرعية، وتمسكه بما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ إن الشريعة فيها صلاح الإنسان وسعادته، فكلما تمسك بها كلما ازداد ارتقاءً في الكمال الإنساني، ونال شرف التقرب والكرامة من الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ

﴿عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ولم يقل أغناكم أو أقواكم أو أجملكم، وإنما للإنسان من هذه الصفات والقوى ما حَدَّد له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبين له مصارفها.

ولقد خلق الله تعالى الإنسان شريف الأصل، وشريف الفصل، وشريف البداية، فليحرص على ذلك، وليرجع إلى ربِّه كريماً مُكرَّماً كما خلقه.

أما شرف أصلك فلقد خلق الله تعالى جسم آدم بيديه، كما قال لإبليس لما امتنع عن السجود لآدم: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩] أي: سجود تكريم وتعظيم.

ولقد أدركت الملائكة سر قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ فسجدوا كلهم لآدم، وأما إبليس فقد عمي عن ذلك السر وامتنع عن السجود، واعترض على حكمة الله تعالى، وراح يقرن النار بالطين، فظهر له أن الشرف لمن خلقه الله من نار؛ فَضَلَّ وَكَفَر والعياذ بالله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ أي: روحاً بداية خلقها مشرفة مطهرة، وأوصلتها إلى جسم آدم، ثم إلى ذريته من بعده.

فيجب على من عرف شرف أصله أن يحافظ عليه، ولا يدنس نفسه، بل يزكيها بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيرتقي في مدارج الكمال حتى يحل ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥].

ومن أعرض وبقي على دنسه وخبثه ، فيهوي أسفل سافلين ، وصار في مستوى البهيمية التي أخبر عنها سبحانه بقوله: ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤].

وقد وصف سبحانه بَلْعَم بن باعوراء لما انسلخ عن الأوامر الشرعية التي جاء بها موسى عليه السلام: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦].

فلا بد لكل إنسان أن يتزكى بتزكية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى تتحقق له الإنسانية الكاملة العالية ، ويصير إنساناً كاملاً بالمعنى كما هو إنسان بالصورة والمبنى.

ومن أعرض عن تزكية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وانسلخ من شريعته صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد تجرد عن حقيقته الإنسانية ، وصار إنساناً بالصورة فقط ، ولكنه من حيث المعنى والحقيقة حيوانٌ بهيميٌّ شهوانيٌّ ، لا يعرف من الدنيا إلا الأكل والشرب والشهوة ، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾[القتال: ١٢].

واعلم أن العبرة من الأشياء للصفة والحقيقة وليس للصور والشكل ، فالسيارة مثلاً لم تسم سيارة إلا لأنها تسير ، ولو أصيبت بضرر وعطل ولم تعد قادرة على السير صارت في صورتها واسمها سيارة ، ولكنها في معناها وحقيقتها كتلة حديد ومعادن.

وكذلك الإنسان إنْ هو لم يتحقق بالكمالات الإنسانية التي جاء بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فهو في صورته إنسانٌ لكنه حيوانٌ في الحقيقة ، ومَنْ تحقق بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد كملت له إنسانيته ، وصار إنساناً في الصورة وإنساناً في المعنى ، يحيا إنساناً ويموت إنساناً ، ويُحشر إنساناً ، ويرقى في المقامات الإنسانية ، حتى يدخل الجنة على أجمل صورة إنسانية.

ومن وجوه الحاجة إلى تزكية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أن التقرب إلى الله تعالى لا يكون إلا لمَنْ طهّر نفسه من الدنس والرجس ، وعالج قلبه من الأمراض والشبهات ، وإن ذرَّة فساد في نفس المؤمن تمنعه عن دخول الجنة حتى يتطهر منها ، وتطيب نفسه ، ومن لم يُحصِّل ذلك في الدنيا ، ومات ولم يتب؛ فسيمر على برازخ الآخرة ليطهر ويطيب ، ومن كان الفساد والخبث متمكناً فيه؛ فلا بد له من غمسة في جهنم ، حتى إذا تطهر وطاب صار أهلاً لدخول الجنة ، لأن الجنة لا يدخلها إلا طاهر طيب كما قال تعالى: ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] وقال: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»(١).

---

(١) كما في (صحيح) الإمام مسلم ، كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه / ٩١/ (٤/ ٣١٠).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: الديوث، والرَّجِلَةُ من النساء، ومدمن الخمر»[1] ـ وفي رواية: «والعاق لوالديه»[2].

والديوث هو الذي يرضى السوء والعار، ولا يبالي ولا تأخذه الغيرة على أهله؛ إن نظر أحد إليها أو لامسها أو شم ريحها...

والرجلة من النساء هي: المرأة التي تتشبه بالرجال، في كلامها وفي أفعالها.

كما أن دنس النفس يحجب الإنسان عن التقرب إلى الله تعالى، ولذلك أخبر سبحانه عن موسى عليه السلام لما ذهب إلى فرعون فقال: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨ ـ ١٩] فعليك أولاً أن تتزكى بأن تتطهر من تكبرك وعلوك، ودعواك الربوبية، ثم ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾.

وقد بين سبحانه صفة أهل الفلاح والفوز فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤ ـ ١٥] وصفة أهل الجنة: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٦].

واعلم أيها الإنسان العاقل أن للذنوب ظلمة تحجب القلب عن الله تعالى، فلا يرى صاحب القلب المذنب حلاوة في عبادته، ولا يجد خشوعاً في قلبه إن هو صلى أو قرأ القرآن أو ذكر الله تعالى.

---

(١) رواه الطبراني، قال الحافظ المنذري في (الترهيب): ورواته لا أعلم فيهم مجروحاً، وانظر (مجمع الزوائد) (٤/ ٣٢٧).

(٢) عند البزار انظر (مجمع الزوائد) (٨/ ١٤٧).

وقد أخبر سبحانه عن احتجاب الكفار عن الله تعالى بسبب ظلمة ذنوبهم ؛ حتى يتنبه المؤمنون ويتجنبوا خطر الذنوب ، قال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤] أي: خيَّم وأحاط بقلوبهم ظلمة ذنوبهم ، فحجبت قلوبهم عن ربهم في الدنيا ، وكانت النتيجة في الآخرة: أن احتجبوا عن رؤية الله تعالى ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ .

وفي الحديث يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِتَ في قلبه نكتة سوداء ، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه»[١] الحديث.

وفي الحديث أيضاً: «تعرض الفتن على القلوب كالحصى عُوداً عُوداً[٢] ـ أي: تعود مرة بعد مرة ـ فأي قلب أشربها[٣] نكت في قلبه نكتة سوداء ، وأيُّ قلب أنكرها نُكت في قلبه نكتة بيضاء ، حتى تَصِيرَ قلوب الناس على قلبين: على أبيض مثل الصفا ، لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسود مرباداً كالكوز[٤] مُجخِّياً؛ لا يَعْرِف معروفاً ، ولا ينكر منكراً ، إلا ما أشرب من هواه»[٥].

---

(١) رواه الترمذي وصححه في كتاب تفسير القرآن ، ومن سورة المطففين ، برقم /٣٣٣١/ (٩/٦٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) بفتح العين، وفي رواية بضم العين، كعود الحصير واحداً بجانب الآخر... وهكذا.

(٣) أي: شربها واستحلاها.

(٤) أي: كالكوز المقلوب رأساً على عقب.

(٥) ينظر (صحيح) مسلم كتاب الإيمان ، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب /١٤٤/ (١/٢٩٥) عن سيدنا حذيفة رضي الله عنه.

فلابد إذاً لكل مؤمن لكي يحفظ قلبه من زوال الإيمان ، أو زيغه ، لابد له أن يُحاسب نفسه ، ويبادر إلى التوبة والاستغفار ، عملاً بوصية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإرشاده ، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الكَيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[1].

وقوله: «دان نفسه» أي: حاسبها ، والكَيِّسُ هو الفطن اللبيب.

والمحاسبة تقتضي التوبة ، والتوبة هي أول مقامات الإيمان الكامل، كما قال تعالى في أول صفة من صفات المؤمنين: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢] أي: وهؤلاء هم أهل الإيمان الكامل ، أهل البشائر من الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً
والحمد لله رب العالمين



(١) رواه الترمذي / ٢٤٦١/ (٧/ ١٦٥) وابن ماجه / ٤٢٦٠/ (٢/ ١٤٢٣).

علاقةُ التَّزكية ومعناها

إنَّ التَّزكية تتعلَّق بالنَّفس ، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ٩].

فالأصلُ في التَّزكية هو النَّفس ، ثمَّ يظهرُ أثر ذلك على الخلق ، فبتزكية النَّفس تترقَّى النَّفس في مراتبها ؛ من الأمَّارة بالسُّوء ، إلى اللَّوَّامة ، إلى المُطمئنَّة.

وأمَّا معنى التَّزكية فيشملُ التَّخلية والتَّحلية.

فيقال فلانٌ زكَّى ماله: أي: طهَّره ممَّا دخل فيه ، ثمَّ نمَّاه وزادهُ بركةً ، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما نقص مالُ عبد من صدقة»(١).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٣١) والتِّرمذيُّ في كتاب الزُّهد ، باب ما جاء مثل الدُّنيا مثل أربعة نفر /٢٣٢٦/ (٧/ ٨١) عن أبي كبشة الأنماري رضي الله تعالى عنه ، أنَّه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ثلاثةٌ أقسم عليهنَّ ، وأحدِّثكم حديثاً فاحفظوه» قال: «ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمةً فصبر عليها إلا زاده الله عزّاً ، ولا فتح عبدٌ باب مسألةٍ إلا فتح الله عليه باب فقرٍ ، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه» قال: «إنَّما الدُّنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً ، فهو يتَّقي فيه ربَّه ، ويصل فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقّاً؛ فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً ، فهو صادق النِّيَّة يقول: لو =

فالزَّكاة تدلُّ على أمرين: إبعادٍ عن النَّقصِ والخلل ، وتكميلٍ بالفضلِ.

فالتَّزكيةُ: تخليةٌ عن القبائح والرَّذائل ، ثُمَّ تحليةٌ بالكمالات والفضائل.

ويقالُ: زكى الشَّيء إذا نما وزادَ؛ ولكنَّهُ لا ينمو إلا إذا صحَّ في نفسه من كلِّ نقصٍ وخللٍ ، كما لا تنمو حبَّةُ الحنطة إلا إذا صحَّت في نفسها من العُفونَةِ والفَساد ، وفي ذلك عبرةٌ لأولي الأبصار.

فلمَّا قال الله تباركَ وتعالى: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ دلَّ ذلك على أنَّهُ يجب على الإنسان أن يكون موقفهُ موقف من تزكَّى بتزكية رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بأن يتطهَّر من المفاسد ، ثمَّ يتكمَّل بالفضائل التي أرشد إليها وبيَّنها صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ أي: أفلحَ من تحقَّقَ بمقامِ التَّزكية ، وهو الطُّهرُ النَّفسيُ والطُّهرُ القلبيُّ.

ثُمَّ بيَّن الله سُبحانَهُ وتعالى أنَّهُ قد يعترضُ الإنسان شواغِلُ ، فقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: تُفضِّلونها على تزكية النَّفس ، وتعطوا نفوسكم ما تريد من شهوات الدُّنيا ونعيمها ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦ ـ ١٧] أي: خيرٌ من الدُّنيا ، وأدوم نعيماً ، وأسعد حالاً ، ولا تتأهَّلون لتلك الحياة السَّعيدة ، والنَّعيم الدَّائم ،

= أنَّ لي مالاً لعملت بعمل فلان ، فهو بنيَّته فأجرهما سواءٌ. وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً ، فهو يخبط في ماله بغير علم ، لا يتَّقي فيه ربَّه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقاً؛ فهذا بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً ، فهو يقول: لو أنَّ لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان ، فهو بنيَّته فوزرهما سواء».

إلاَّ بأن تتزكَّوا بتزكية رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ويقول سبحانه وتعالى في وصف أهل الإيمان الكامل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٣] أي: عن فضول الكلام المباح الذي لا فائدة منه في الدُّنيا والآخرة.

وليس المُرادُ باللَّغو في الآية الحرامُ، لأنَّ سياق الآيات في وصفِ أهلِ الكمال، فهم من بابٍ أولى مُعْرِضون عن الحرام.

ويقال عن صوتِ العصافير: لغي، لأنَّ الإنسان لا يفهم معناه، فاللَّغو هو الكلامُ الذي لا فائدة منه في الدُّنيا ولا في الآخرة؛ أمَّا الكلام الحرامُ فلا يجوزُ أصلاً الاشتغال به.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤] أي: فاعلون ما أمرهم الله تعالى به لتزكية نفوسهم، لأنَّ هذه الآية في سورة المؤمنون، وهي مكيَّة النُّزول، ولم تكن زكاة المال مفروضة في مكَّة قبل الهجرة.

وهُناك من قال: كانت زكاة المال مفروضَةً في مكَّة؛ ولكن بمقدارٍ غير معيَّنٍ، ثمَّ حدِّدت المقادير في المدينة المنوَّرة.

وعلى كلٍّ يقال: إنَّ كلَّ عملٍ يقرِّب إلى الله تعالى، فيه تزكيةٌ للنَّفس وتطهيرٌ وتكميلٌ لها، ومن جملة ذلك: زكاةُ المال، ومن أدَّى زكاة ماله حقّاً كاملاً فإنَّه قد زكَّى نفسهُ وطهَّرها من البُخل والشُّح، ثمَّ إنَّ نفسهُ تنحُو وتطمعُ لعملِ الخيرات، فزكاةُ المال هي من جملة الأمورِ التي يفعلُها أهل الإيمان.

أمَّا قولهُ سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] فلا

يتنافَى مع قوله سُبحانَهُ وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] وقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤].

لأنَّ المُرادَ من قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ المراد بها التَّزكية العمليَّة، وهي التَّحقُّق بالأعمال الصَّالحة، والأخلاق المرضيَّة التي أمر بها النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: بالأقوال، أي: لا تذكُر ما فيك مادحاً لنفسك بالكلام ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال سُبحانه وتعالى في بيان تزكية النَّفس وفضلها: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ أي: نورها وضيائِها ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ تبعها حينما يكون بدراً، فإنَّه يظهر فور غروب الشَّمس ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ أي: إذا جلَّى الأرض وأظهرها ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ يغشى الأرض ويغطِّيها ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ١ ـ ٥] أي: والذي بناها، لأنَّ كلَّ بناء لابدَّ له من بانٍ، قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] أي: بقدرةٍ وقوَّة إلَهيَّة، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: وإنَّا لواسعون في القدرة، وموسعونَ البناء والخَلْق، وهذا ما ترونه في السَّماء والأرض لأنَّ قدرتنا لا تتناهى ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨] ثُمَّ قال سبحانه: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ [الشمس: ٦] أي: والذي مهَّدها ودحاها، و﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣١].

وبعد ما ذكر سبحانه وتعالى الآفاق الكونيَّة ذكر الإنسان، فقال

سُبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧] فقابل الإنسان بالأكوان، ليدلَّ على أهميَّة خلق الإنسان وخطر شأنه، وكأنَّ الأكوان في كفَّة، والنَّفس الإنسانيَّة في كفَّة ثانية.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أي: والذي جعلها سويَّةً مستقيمة الخَلْق، في أكمل اعتدالٍ، وأحسنِ تقويم، حِسَّاً وصورةً ومعنىً ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨] أي: دلَّها على الخير والشَّرِّ، كما قال سُبحانَه وتعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، ثمَّ أثنى سبحانهُ وتعالى على أهل النُّفُوس الزَّكيَّة ثناءً خاصَّاً فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩] أي: أفلحَ من زكَّى الله تعالى نفسهُ، وأفلح من زكَّى نفسه بتزكية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فمن سعى وزكَّى نفسه بتزكية رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنَّ الله تعالى يزكِّيه، ويخلقُ فيه التَّزكية، وهذا أمرٌ معروفٌ، وهوَ من باب الأخذ بالأسباب التي لابُدَّ منها، والمُزكِّي على الحقيقة هوَ الله تعالى، كما أنَّ الرَّزَّاق على الحقيقة هو الله تعالى، إلا أنَّـهُ لابُـدَّ للإنسان من سعي وطلبٍ للرِّزق.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ أي: من رزق الله تعالى ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [تبارك: ١٥].

فالله سبحانه وتعالى هو يُزكِّي النُّفوس، وعلى العباد أن يسلكُوا طريق التَّزكية لينالوا ذلك.

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٠] وهذا لأنَّ من زكَّى نفسهُ حتَّى صارت نفساً زكيَّةً ارتقت حتَّى صارت ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ

مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥] وأمَّا من دسَّ نفسهُ بأنْ أهانها وارتكب ما حرَّم الله؛ فقد خابَ وخسرَ، لأنَّ الدَّسَّ والتَّدسيسَ بمعنىً واحد، وهو وضعُ الشَّيء في مكان حقير، وهذا شأنُ من لم يتزكَّ بتزكية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد ضيَّع نفسه وأهانها، وكأنَّهُ وضعها في مواضع الرَّذائل والقبائح.

وكان صلَّى الله عليه وآله وسلم إذا قرأ هذه الآيات جهر بهذا الدّعاء، ليُعلِّمَهُ الصَّحابة الكرام ومن بعدَهُم: «اللَّهُمَّ آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خيرُ من زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها»(١).

وقد بيَّن صلى الله عليه وآله وسلم طريق التَّزكية، ومن جملة ذلك ما قاله للرَّجُلِ الذي سألهُ: ما تزكيةُ المرء نفسه يا رسول الله؟ ـ أي: ما هو طريقُ التَّخلِّي والتَّطهُّر من الرَّذائل، والتَّحلِّي بالفضائل؟ ـ قال: «يعلمُ أنَّ الله معهُ حيث ما كان»(٢) أي: كنْ على خشيةٍ منهُ، ومراقبةٍ لعظمته وجلاله سبحانه، ممَّا يحملك على الكفِّ عن الرَّذائل والميل إلى الفضائل.

ويقول سبحانهُ وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣] أي: إلا الذين رحمهُمُ الله تعالى ففطرهُم على

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر، باب التَّعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل /٢٧١٦/ (٥/٢٦١١) عن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب القبر؛ اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهمَّ إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها».

(٢) أخرجه البخاري في (تاريخه)، والبيهقي في (السنن الكبرى) في الزكاة، باب لا يأخذ الساعي فيما يأخذ مريضاً ولا معيباً، كما أخرجه في (الشعب) أيضاً.

تزكية النَّفس ، وهم الرُّسل والأنبياءُ عليهم الصَّلاة والسَّلام ، وهناك من رحمهم الله تعالى بأن زكَّى نفوسَهُم فحفظهم سبحانه وهم الأولياء.

وهذه الآيةُ إخبارٌ عن كلام زَليخا ، وليس عن يُوسف عليه الصَّلاة والسَّلامُ ، لأنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام رسولُ الله ، وهوَ زكيُّ النَّفس بأصل فطرته وخلقته ، كما تقدَّم أنَّ الأنبياء والرُّسل أزكياء النُّفوس بأصل فطرتهم.

ومن ارتقى بنفسه الأمَّارة إلى النَّفس اللَّوامة ، وهي التي تفعل الطَّاعات ، وقد تقع في المعاصي وتلومُ نفسها وتتأسَّف وتتوب إلى الله ، ثمَّ ترتقي إلى النَّفس المطمئنَّة ، وهي التي اطمأنَّت على أوامر الله وانشرحت لها ، وتكرهُ المحرَّمات كراهية النَّار.

وسنذكر إن شاء الله تعالى وُجوهاً من تزكيته صلى الله عليه وآله وسلم للنُّفوس ، أي: تطهيرها من الرُّعونات والقبائح ، وتحليتها وتَطييْبها بالفضائل والمكارم؛ ونسأل الله تعالى ذلك من فضله ، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

المحاضرة الرابعة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، وأفضلُ الصَّلاة وأكملُ التَّسليمِ ، على سيِّدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علَّمتنا إنَّك أنت العليمُ الحكيمُ.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

أمَّا بعدُ:

فقد تقدَّمَ الكلامُ على قول الله تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فقد امتَنَّ الله تعالى على عباده ببعثة النَّبيِّ الأكرم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، وبيَّن الحكمةَ في إرسالِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وذلك أنَّ الله تعالى بعثهُ إلى العالمِ وله معهُم مواقفُ تتوقَّف عليها سعادتهم في الدُّنيا والآخرة.

ومن جُملَةِ مواقفه صلَّى الله عليه وآله وسلم: هذه المواقِفُ الأربعةُ المذكُورةُ في الآيَةِ المتقدِّمة؛ ومنهَا: أنَّه صلى الله عليه وآله وسلم جاء يتلُو على النَّاسِ آياتِ الله تعالى، ويعلِّمهُم الكتاب والحكمةَ، ويزكِّيهم.

وقد تقدَّم بعضُ الكلام على موقفه صلَّى الله عليه وآله وسلم في تلاوَةِ آياتِ الله تعالى، وموقفه في تعليم النَّاسِ الكتابَ والحكمةَ، وتقدَّم بعضُ الكلام على موقفه صلَّى الله عليه وآله وسلم في تزكيَةِ العالمينَ، وسنُفصِّلُ الكلامَ إن شاءَ الله تعالى على معنى التَّزكية وآثارِهَا وفضائِلهَا.

* * *

معنى التَّزكية

قولُه تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ التَّزْكيةُ هي: التَّطهيرُ، وفيها معنى النَّمَاءِ أيضاً، فهيَ تخليَةٌ وتحليةٌ كما تقدَّمَ بيانُ ذلكَ.

ولقد جاء صلى الله عليه وآله وسلم يزكِّي النُّفوس حسَّاً ومعنى، ظاهِراً وباطناً، خَلقاً وخُلُقاً، رُوحاً وجسماً، فكرَاً واعتقاداً.

وتتضمَّنُ تزكيته صلى الله عليه وآله وسلم للعالمينَ: تطهيرَ النُّفوسِ وتنظيفَها من الدَّنَسِ والرِّجْسِ، ومن النَّجَسِ والخَبَثِ، ومن الأدواءِ والعللِ القلبيَّةِ.

فلقد أمرَ صلَّى الله عليه وآله وسلم بالنَّظافة من الدَّنَسِ، وبيَّنَ أنَّ النَّظافة من الإيمَان، كما في قوله: «إنَّ الإسلامَ نظيفٌ، فتنظَّفُوا، فإنه لا يدخلُ الجنَّة إلا نظيفٌ»[1].

وهناكَ النَّظافةُ الأقوى، وهي النَّظافةُ من النَّجس، بالتَّطهُّر عن الأَبْوالِ والأَقْذارِ، وعن كُلِّ ما ثَبتَتْ نجاستُهُ شرعاً.

وهناكَ الطَّهارةُ والنَّظافةُ من الرُّعونَات القلبيَّةِ، والشَّهواتِ

---

(١) أخرجه الطبراني في (الأوسط) كما في (مجمع الزوائد) (٥/ ١٣٢) بلفظ «الإسلام نظيفٌ فتنظَّفوا، فإنَّه لا يدخل الجنة إلا نظيفٌ» عن السيدة عائشة رضي الله عنها، وأخرجه الخطيب (٥/ ١٤٣) بلفظ: «إن الإسلام...».

الحيوانيَّة، وهي طهارةُ القلوبِ حتَّى تستعدَّ للتلقِّي من علاَّمِ الغيوبِ سبحانه وتعالى.

ولا يُعرفُ طريقُ الطَّهارةِ هذا إلا عن سيِّدنا رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي قال فيه سبحانه وتعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

فلقد جاء صلى الله عليه وآله وسلم بالعلاجَات والأدوية الشَّافية للأمراض القلبيَّة والنَّفسيَّة ، كما بيَّن صلى الله عليه وآله وسلم كيفيَّة الطَّهارة الشَّرعيَّة من الأنجَاس والأقْذارِ ، وأمرَ بالطَّهارة الحسِّية للأجسام ، والتَّباعُدِ عن الأوسَاخِ والأوخَامِ.

* * *

تزكيته صلى الله عليه وآله وسلم للنُّفوسِ

لقد طبعَ الله تعالى النَّفْسَ الإنسانيَّةَ على صِفَاتٍ مختلفَةٍ، وجعلَ فيها صِفاتٍ حيوانيَّةً بهيميَّةً ، ففيها صفةُ المكرِ ، وهي موجودةٌ في الثَّعلبِ ، والحقدِ ، وهو عند الجملِ ، وصفةُ الإفراط في الشَّهوَةِ وعدمِ الحيَاءِ ، وهي أكثرُ ما تكونُ عندَ الكلبِ ، وصفةُ استحلالِ المحرَّمَات والقبائح كما هُوَ شأن الخنزيْرِ ، وصِفَةُ الشُّحِ والطَّمَعِ ، كما هُوَ صِفَةُ الفِئْرَانِ ، وغَيْرِ هذا من الصِّفَاتِ والطَّبَائِعِ.

ولكي يترقَّى الإنْسَانُ في الكَمالات الإنسانيَّة ، ويتخلَّصَ من هذه الصِّفَاتِ البهيميَّةِ ، عليْه أن يَصْرِفَ هذهِ الصِّفات والأخلاقَ في مصارِفِهَا التي بيَّنها، وجاء بنظامِهَا وكمالاتِهَا سيِّدُنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا مُقْتَضى قوله تعالى: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾.

والخُلُقُ هو صِفَةُ الخَلْقِ ، فما يصدُرُ عن خَلْقِ الإنْسَانِ ـ أي: ذاتِه ـ يسمَّى خُلُقاً ، والذي أعْطَى الإنْسانَ خلقَهُ هو الذي أعْطَاهُ خُلُقَهُ؛ فهُمَا مُتلازِمَان ، أي: الخَلْقُ والخُلُقُ؛ وهذا يدلُّ على أنَّ الأخلاق أمورٌ جبلِّيَّةٌ.

فكما أنَّه سبحانه فطَرَ الإنسانَ على التَّوحيد ، فطرَهُ أيضاً على الأخْلاقِ الحميدةِ الكاملةِ ، لكنَّه بعد ذلك اتَّبع هواهُ وضلَّ ، وسلكَ بخُلُقِه نحوَ الشَّهواتِ البهيميَّةِ ، والأهواءِ الفاسدةِ ، فأرْسَلَ

الله تعالى الرُّسُلَ عليهم الصَّلاةُ والسلام حتَّى يردُّوا النَّاسَ إلى الصِّراط المستقيم ، وأن يعُودوا بهم إلى الأخلاق الفاضلة الحميدة ، وأن يصرفُوا ما أودعَ الله تعالى فيهم من طبائعَ وغرائِزَ في مصارِفِها المُناسِبَةِ.

فمن الأخْلاقِ والطَّبائع التيْ جَبَلَ الله تعالى علَيْهَا الإنْسانَ:

الحِرْصُ ، والحسَدُ ، والغَضبُ ، والغيبةُ ، والنَّميمةُ ، والبَطْشُ ، والتَّكبُّر ، والعُجالةُ ، وغيرُها.

لكنَّ الله تعالى بيَّنَ مصارِفَ هذه الطَّبائع ، فهُناك الحسدُ المذْمُومُ ، وهُناك الحسدُ المحمُودُ ، وهُناكَ الغضبُ المذمُومُ ، وهناك الغضبُ المحمُودُ ، وهكذا. . .

فلقدْ جاءتِ الشَّرائعُ تُعرِّف الإنسان وتُرشدهُ إلى كَيفيَّة التَّصرف بهذه الطَّبائع والأخلاقِ ، وأن يصرفها في مصارفها ، وإلا فالإنسان لا يستطيع أن ينتزعَ من نفسهِ هذه الأوصافَ والطَّبائع ، لأن الله تعالى خلقها فيه وجبله عليها ، وقد بيَّن سبحانه مصارف هذه الطَّبائع والقوَّات والشَّهوات بواسطة الرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام وشرائعهم.

وأعظمُ من جاء ينهضُ بالأخلاق والطَّبائع الإنسانيَّة إلى كمالاتها ، هُو سيِّدنا محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم ، كما بيَّن ذلك صلَّى الله عليه وآله وسلم بقوله: «بعثتُ لأتمِّم مَكارم الأخلاق»[1].

---

(١) قال العلامة الزُّرقاني في شرحه على المواهب ، في الفصل الثاني فيما أكرمه الله تعالى من الأخلاق الزكية: رواه مالكٌ في الموطأ بلاغاً. اهـ ، وأخرجه بلفظ «إنما بعثت لأتمم مكارمَ الأخلاق» عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعاً =

وممَّا يدلُّ على أنَّ الأخلاق جبلِّية ، ما رواهُ الإمام أحمد في (مسنده)[1] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قالَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله قسمَ بينكم أخلاقكم كما قسمَ بينكم أرزاقكم ، وإنَّ الله عزَّ وجلَّ يعطي الدُّنيا من يحبُّ ومن لا يُحبُّ ، ولا يعطي الدِّين إلا لمن أحبَّ ، فمن أعطاه الله الدِّين فقد أحبَّه ، والَّذي نفسي بيده لا يُسلم عبدٌ حتَّى يُسلم قلبُه ولسانه ، ولا يؤمن حتَّى يأمن جارهُ بوائقهُ».

قالُوا: وما بوائقهُ يا نبيَّ الله؟.

قالَ: «غشمُهُ وظلمهُ[2].

ولا يكسبُ عَبْدٌ مالاً مِنْ حرامٍ فينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتصدَّق به فيقبل منه ، ولا يتركُ خلف ظهره إلا كان زادهُ إلى النَّار ، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يمحو السيِّىءَ بالسَّيِّىءِ ، ولكن يمحو السَّيِّىءَ بالحسنِ ، إنَّ الخبيثَ لا يمحو الخبيث».

فنهى صلى الله عليه وآله وسلم عن إيذاء الجار ، فهناك الجار في الدَّار ، وهناكَ الجارُ المجاور للجسمِ كالملائكة ، وهناك الجارُ المجاورُ للإنسانِ وهو أقربُ إليه من نفسه ، وهو الله العظيمُ سبحانهُ وتعالى.

= البيهقي في(السنن الكبرى) في كتاب الشهادات ، باب بيان مكارم الأخلاق ، والشهاب القضاعي في (مسنده) ، وجاء في (مسند) الإمام أحمد: (٢/ ٣٨١) بلفظ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق».

(١) (١/ ٣٨٧).

(٢) أي: أذاهُ وطغيانه.

وأمَرَ صلى الله عليه وآله وسلم أن يتقرَّب الإنسان إلى هؤلاءِ كلِّهم بما فيه المرضاة والرِّضا.

فالإيمانُ يوجب على الإنسانِ أن لا يؤذي جاراً.

جاء في (الصَّحيحين) عن ابنِ عبَّاس رضي الله تعالى عنهما قال: إنَّ وفد عبد القيس أتوا رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنِ الوَفْدُ» ـ أوْ «منِ القوْمُ»[1] ـ؟. قالُوا: ربيعَةُ.

قالَ: «مَرْحَباً بالقَوْمِ ـ أو بالوَفدِ ـ غير خزايَا ولا ندامىٰ».

قال: فقالوا: يا رسولَ اللهِ، إنَّا نأتيكَ من شقَّةٍ بعيدةٍ، وإنَّ بيننا وبينكَ هذا الحيَّ من كفَّار مُضَرَ، وإنَّا لا نستطيعُ أن نأتيكَ إلا في شهرِ الحرامِ، فمُرْنَا بأمر فصلٍ نُخبر به من وراءنا، ندخلُ به الجنَّة.

قال: فأمرهم بأربعٍ، ونهاهم عن أربعٍ.

قال: أمرهم بالإيمان بالله وحده، وقال: «هل تدرون ما الإيمانُ بالله»؟. قالوا: الله ورسُولُه أعلمُ.

قال: «شهادةُ أن لا إلَه إلا الله، وأنَّ محمدا رسولُ الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وإقام الصَّلاة، وإيتاءُ الزَّكاة، وصومُ رمضان، وأن تؤدُّوا خُمُسَاً من المغنمِ...» الحديث[2].

---

(١) الشكُّ من الراوي.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب تحريضِ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم وفد عبدِ القيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم /٨٧/(١/١٨٣)، ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وشرائع الدين والدُّعاء إليه /١٧/(١/١٣١).

وفي روايةٍ لمسلمٍ[1]: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم للأَشَجِّ أَشَجِّ عبدِ القيسِ: «إنَّ فيكَ خصلتينِ يُحبُّهما الله: الحلمُ والأناةُ».

وفي (سُننِ) أبي داود[2] عن الزَّارِع بن عامرٍ رضي الله تعالى عنه ـ وكان في وفد عبد القيس ـ قال: لمَّا قدمنا المدينة فجعلنا نتبادَرُ من رواحلنا، فنقبِّل يد النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ورجله، قال: وانتظر المنذِرُ الأشجُّ حتَّى أتى عيبته[3] فلبس ثَوبيهِ، ثمَّ أتى النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فقالَ لهُ: «إنَّ فيك خَلَّتين يحبُّهما اللهُ: الحلم والأنَاةُ».

قالَ: يا رسولَ اللهِ، أنَا أتخلَّق بهما أم الله جبلنِي عليهما[4]؟.

قالَ: «بل اللهُ جَبَلَكَ عليْهِمَا».

قالَ: الحمدُ لله الَّذي جبلني على خلَّتين يحبُّهما اللهُ ورسولُهُ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

وسببُ قولِ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ذلك له، ما جاء في

---

(١) كما في كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وشرائع الدِّين والدعاء إليه /١٧/ (١/ ١٣٧).

(٢) كما في كتاب الأدب، باب في قُبلة الرَّجل /٥٢٢٥/ (٥/ ٣٩٥).

(٣) العيبةُ: وعاء من جلد ونحوه يكون فيه المتاع.

(٤) وفي رواية في (مسند) أبي يعلى الموصلي (١٢/ ٢٤٢) وغيره، و(مسند) الإمام أحمد (٣/ ٤٣٢ و٤/ ٢٠٦): قال: (يا رسولَ الله كانا فيَّ أم حدثا؟ قال: «بل قديم» قال: قلت: الحمدُ لله الذي جبلني على خلقينِ يحبهما الله ورسوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ) وانظر شرح النووي على مسلم، في كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وشرائع الدين والدعاء إليه، عند ذكر وفد عبد القيس /١٧/ (١/ ١٣٧).

حديثِ الوفدِ ، أنَّهم لمَّا وصلوا المدينة بادروا إلى النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأقام الأشجُّ[1] عند رحالهم ، فجمعها ، وعقل ناقته ، ولبس أحسن ثيابه ، ثم أقبل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقرَّبه النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم وأجلسه إلى جانبه ، ثمَّ قال لهمُ النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم : «تُبايعونَ على أنفسكم وقومكم»؟ فقالَ القومُ : نعم.

فقالَ الأشجُّ : يا رسول الله إنكَ لم تُزاول الرَّجلَ عن شيءٍ أشدَّ عليه من دينه ، نبايعك على أنفسنا ، ونرسلُ من يدعوهم ، فمن اتَّبعنا كان منَّا ، ومن أبى قاتلناه.

قال : «صدقت[2] ، إنَّ فيك خصلتين يحبُّهما اللهُ : الحلمُ والأناةُ . . » الحديثَ[3] .

وقَدْ يُقالُ : إذا كانت الأخلاق جبلِّية فعلامَ جاءتِ الشَّرائعُ؟ .

فيقالُ : إنَّ الدِّين والإيمانَ أمرٌ جبلِّي فطريٌّ أيضاً ، لكن هناك من غَيَّرَ فطرته وبدَّل دينه ، فكذلك هناك من بدَّل أخلاقه واتَّبع شَهوتهُ وهواهُ الفاسدَ ، ولذا جاءت الرُّسل عليهم الصلاة والسلام بالشَّرائع التي فيها مصالحُ وسعادة الإنسان ، وفيها بيانُ أمراضِ القلوبِ وعلاجاتها ، فالرُّسل عليهم الصلاة والسلام جاؤوا أطبَّاء

---

(١) وكان زعيم الوفد ، واسمه المنذر بن عائذ رضي الله تعالى عنه.

(٢) وقد أراد عليه الصلاة والسلام بذلك امتحانهم ، ولكنهم استعجلوا الجواب ، ورأى من الأشج حلماً وأناةً ، وأقرَّه على جوابه.

(٣) كما في شرح مسلم للإمام النووي ، في كتاب الإيمان ، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وشرائع الدين والدعاء إليه ، عند ذكر وفد عبد القيس /١٧/ (١/١٣٨).

يداوون المرضى ، مرضى القلوب والنُّفوسِ ، وإلا فالأصلُ في الجسم والخُلُقِ أنَّهما صحيحان ، لكن اعتراهما المرض فجاءت الرُّسل عليهم الصلاة والسَّلام بعلاجٍ لمن كان فيه استعدادٌ وقابليَّة للطَّبابة والنَّجاح.

وممَّا يدلُّ على أنَّ الأخلاق جبليَّة ، ما جاء في الحديث عن ابن مسعودٍ رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا رأى وجهه في المرآة قال: «اللَّهمَّ أنت حسَّنت خَلْقِيَ فحسِّن خُلُقِيْ»[1].

وفي روايةٍ[2] عن أمير المؤمنين سيِّدنا عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا نظر في المرآةِ قال: «الحمد لله ، اللهمَّ كما حسَّنت خَلْقِي فحسِّن خُلُقِي».

وكذلك ما جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «اللَّهمَّ اهدني لأحسنِ الأعمالِ وأحسنِ الأخلاقِ؛ لا يهدي لأحسنها إلا أنتَ، وقنِي سيِّئَ الأعمالِ وسيِّئَ الأخلاقِ؛ لا يقي سيِّئها إلا أنت»[3]

---

(١) أخرجه ابن حبان في (صحيحه) /٩٥٥/ (٢/ ١٥٤) ، وانظر (المسند) (١/ ٤٠٣ و٦/ ٦٨ ، ١٥٥) ، ومجمع الزوائد (١٠/ ١٧٣).

(٢) أخرجها ابن السني في كتابه ، انظر (الأذكار) للإمام النووي ، باب ما يقول إذا نظر في المرآة.

(٣) أخرجه النسائي في كتاب الافتتاح ، نوع آخر من الدعاء بين التكبير والقراءة (٢/ ١٢٩) ، عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا استفتح الصلاة كبر ثم قال: «إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين ، اللهم اهدني لأحسن الأعمال وأحسن الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، وقني سيىء الأعمال وسيىء الأخلاق لا يقي سيئها إلا أنت».

أي: بصرفِ الطَّبائع والأخلاق إلى مصارفها التي شرعها الله تعالى.

فالخُلُقُ أمرٌ جبليٌّ، لكنَّ صرفَ الخُلقِ في مصرفهِ ووضعَهُ في موضعه أمرٌ تكليفيٌّ يعود إلى الإنسان واختياره.

فمن ذلك: قُوَّة الغضب، فهي أمرٌ مجبولٌ عليه الإنسان، إلا أنَّ الشَّارع يقولُ له: لا تغضبْ إلا فيما يُغضبُ الله تعالى، أمَّا لشيءٍ نفسيٍّ أو دنيويٍّ: فلا تغضبْ.

فقد روى البُخاريُّ[1] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أنَّ رجلاً قال للنَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: أوصني، قالَ: «لا تغضب» فردَّد مراراً، قال: «لا تغضب».

أي: لا تغضب فيما أنت عليه من مواقع الغضب لحظٍّ نفسيٍّ أو لأمرٍ دنيويٍّ، بل ليكن غضبُك لله تعالى.

ومن ذلك أيضاً: قوَّة الشَّهوةِ، فلقد أمر الشَّارع بصرفِها في نكاحٍ مُباحٍ، ونهى عن وضعها في سفاح كَزِنَا ونحوهِ.

وكذلك صفة العُجالة، فلم ينهه الشَّارع عن كبحِ هذه الصِّفة من نفسه؛ بل أمره أن يصرفها في مصرفها بالتَّعجُّل إلى الصَّلوات وفعل الخيرات.

قال الله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال سبحانه: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤].

---

(١) في كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب /٦١١٦/ (١٠/٥١٩).

وروى التِّرمذي في (سننه[1]) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «بادروا بالأعمالِ سبعاً: هل تنتظرونَ إلا فقراً مُنسياً ، أو غِنىً مُطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنِّداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدَّجَّال فشرٌّ غائبٌ ينتظرُ ، أو السَّاعةَ فالسَّاعة أدهَى وأمَرُّ»؟.

وكذلِك صفةُ الحرص ، فهي صفةٌ جبليَّةٌ في الإنسان ، إلا أنَّ الشَّارع نهاه أن يحرصَ على حُطامِ الدُّنيا وزخارفها ، بل أمرهُ أن يحرص على المنافع الحقيقية ، ولم يأمرهُ بالقضاءِ على قوَّة الحرصِ الموجودة فيه ؛ بل بصرفها في مصارفها الحسنة.

فلقد جاء في الحديث الذي يَذُمُّ فيه صلى الله عليه وآله وسلم الحرص على الدُّنيا وزينتها: «لو أنَّ ابنَ آدمَ أُعطِيَ وادِياً ملآنَ من ذهبٍ أحبَّ إليه ثانياً ، ولو أُعطي ثانياً أحبَّ إليه ثالثاً ، ولا يسدُّ جوفَ ابنِ آدمَ إلا التُّراب ، ويتوبُ الله على من تاب»[2].

أمَّا الحرص على الأمور النَّافعة ، فقد جاء في (صحيحِ) مسلمٍ عنه عليه الصلاة والسلام: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمنِ الضَّعيف ؛ وفي كُلٍّ خيرٌ ، احرص على ما ينفعك[3] ، واستعنْ بالله[4] ولا تعجز ، وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أنِّي

---

(١) في كتاب الزهد ، باب ما جاء في المبادرة بالعمل /٢٣٠٧/ (٧/ ٧٠).

(٢) أخرجه البخاري عن ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما ، في كتاب الرِّقاق ، باب ما يتقى من فتنة المال /٦٤٣٨/ (١١/ ٢٥٣).

(٣) أي: احرص على كل شيءٍ ينفعك في دنياك ولا يضر بدينك ، واحرص على كل شيءٍ ينفعك في دينك.

(٤) أي: لا تعتمد على نفسك وذكائك ومهارتك.

فعلتُ كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدَر الله وما شاءَ فعل ، فإنّ لو تفتحُ عملَ الشَّيطانِ»[١] .

وكذلك صفةُ الحسدِ ، فهي أمرٌ جبليٌّ ، وهي محبَّة الإنسان أن يكون عنده ما عند الغير .

ولقد نهى الشَّارع عن الحسد المذموم ، وهو تمنِّي زوال النِّعمة عن الغير ، أو تمنِّي انتقالَ نعمة الغيرِ إلى الحاسد؛ جاء في الحديث «ولا تحاسدوا»[٢] .

وأمر بصرفِ هذا إلى الحسدِ المحمود ، وهو حسدُ الغبطة ، أي : أن يرجو من الله أن يعطيه ما أعطى غيره .

جاء في (الصحيحين[٣]) ـ واللفظ للبخاريِّ ـ عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله تعالى عنه قال : قال النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم : «لا حسد إلا في اثنتين : رَجُلٌ آتاه اللهُ مالاً فسُلِّطَ على هلكته في الحقِّ ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ الحكمةَ فهو يقضي بها ويعلِّمها» .

وفي روايةٍ لهُما[٤] ـ واللَّفظ للبخاريِّ ـ عن عبد الله بن عمر

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعاً ، في كتاب القدر ، بابٌ في الأمر بالقوة وترك العجز ، والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله / ٢٦٦٤/ (٥/ ٢٥٧٨).

(٢) كما في صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب ما ينهى عن التحاسد والتباغض / ٦٠٦٥/ (١٠/ ٤٨١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب العلم ، باب الاغتباط في العلم والحكمة / ٧٣/ (١/ ١٦٥) ، ومسلمٌ في كتاب صلاة المسافرين ، باب فضلِ من يقوم بالقرآن ويعلمه ، وفضل من تعلم الحكمة من فقهٍ أو غيره فعمل بها وعلَّمها / ٨١٥/ (١/ ٨٨٤).

(٤) ذكرها البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد ، باب قول النبي صلى الله عليه =

رضي الله تعالى عنهما ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاهُ اللهُ القرآنَ فهو يتلوهُ آناءَ اللَّيلِ وآناء النَّهار ، ورجلٌ آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناءَ الليلِ وآناءَ النَّهار».

وقد جاء في (الصَّحيحين) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إياكُم والظّن ، فإنّ الظَّن أكذبُ الحديث ، ولا تحسّسوا ولا تجسّسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً»[1].

زادَ مسلمٌ في روايةٍ: «وكونوا إخواناً كما أمركم الله».

وفي رواية له: «إنّ الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظرِ إلى قلوبكم وأعمالكم»[2].

وفي رواية لمسلمٍ[3] أيضاً: «المسلمُ أخو المُسلمِ ، لا يظلمهُ ، ولا يخذله ، ولا يحقره ـ وفي رواية التِّرمذي «ولا يخونه

= وآله وسلم «رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار» /٧٥٢٩/ (١٣/ ٥٠٢) ، ومسلمٌ في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضلِ من يقوم بالقرآنِ ويعلمه ، وفضل من تعلم الحكمة من فقهٍ أو غيره فعمل بها وعلمها /٨١٥/ (١/ ٨٨٤).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر /٦٠٦٤/ (١٠/ ٤٨١) ، ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب البر والصلة والآداب ، بابُ تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها /٢٥٦٣/ (٥/ ٢٠١٢).

(٢) أخرجها مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله /٢٥٦٤/ (٥/ ٢٠١٤).

(٣) في كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله /٢٥٦٤/ (٥/ ٢٠١٣).

ولا يكذبهُ»[1] ـ التّقوى ههُنا ـ ويُشير إلى صدره ثلاث مرّاتٍ ـ بِحَسب امرىءٍ من الشّر أن يحقر أخاه المُسلم ، كلُّ المسلم على المُسلم حرامٌ: دمُه ، وماله ، وعرضهُ».

وزاد أيضاً في روايةٍ: «ولا يبع بعضكم على بيع بعضٍ»[2].

وفي رواية للشَّيخين: «ولا يحلُّ لمُسلمٍ أن يهجر أخاهُ فوق ثلاثٍ»[3].

فنهى صلى الله عليه وآله وسلم عن سوء الظَّنِّ بالمسلمين ، وإنَّ سوءَ الظَّنِّ بالمسلمين دليل خبْث الباطن؛ فعلى المسلم أن يحسِّن الظَّن بالمسلمين ، إلا إذا ظهر له علامة ظاهرةٌ على ظنِّه ، فإنَّه عندئذ قد ظنَّ بشيءٍ ظاهرٍ.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ [الحجرات: ١٢] أي: لا تقعوا في الإثم نتيجة ظنّكم السَّيِّىء بالمسلمين ويكون الأمر خلاف ما ظننتم.

كما يجب على المسلم أن يحسِّن ظنَّه بالله تعالى وبأفعاله سبحانه ، ولكن في أفعال النَّاس فقد تظُنُّ سوءاً إذا ظهرتْ علامةٌ

---

(١) أخرجها الترمذي في كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم /١٩٢٨/ (٦/ ١٧٤).

(٢) أخرجها مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها /٢٥٦٣/ (٥/ ٢٠١٣).

(٣) أخرجها البخاري عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه ، في كتاب الأدب ، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر /٦٠٦٥/ (١٠/ ٤٨١) ، ومسلم ـ واللفظ له ـ في كتاب البر والصلة والآداب ، باب النهي عن التحاسد والتباغض والتدابر /٢٥٥٩/ (٥/ ٢٠١٠).

سيِّئةٌ منهم ، أمَّا في مقام ربِّ العالمين ومعاملته فيجبُ على المسلم أن يحسِّن ظنَّه دائماً في ذَلك كلِّه.

جاء في (الصَّحيحين) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «يقولُ الله تعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي»[1].

وفي رواية عند الإمام أحمد[2]: «أنا عند ظَنِّ عبدي بي فليظُنَّ بي ما شاء».

فإنْ ظنَّ المرء بالله خيراً عامله سبحانه بما ظنَّ ، وإن ظنَّ به غير ذلك عامله على ما ظنَّ كما قال الله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣] أي: أنَّ ظنَّكم السَّيِّىء بالله تعالى هو الذي أهلككمْ.

وقال عليه الصلاة والسَّلام قبل وفاته بثلاثٍ: «لا يموتنَّ أحدكمْ إلّا وهو يُحسِّن بالله الظّنَّ»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] /٧٤٠٥/ (١٣/٣٨٤) ، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب الحث على ذكر الله تعالى /٢٦٧٥/ (٥/٢٥٨٧) ، ولفظ البخاري: عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منهم ، وإن تقرب إلي بشبرٍ تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرّب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولةً».

(٢) أخرجها في (مسنده) (٣/٤٩١) عن واثلة بن الأسقع رضي الله تعالى عنه.

(٣) رواه الإمام مسلمٌ، عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما ، في كتاب الجنَّة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت /٢٨٧٧/ (٥/٢٧٢٨).

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ولا تحسَّسوا» فالتَّحسُّس بالأذنِ والسَّماعِ، والتَّجسُّس بالعين والبصر، وبعد ذلك يذهب يُشهِّر بالآخرين، ويشيعُ وينشر هفواتهم بين النَّاسِ.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

ولا يَجُوزُ التَّحَسُّس أو التَّجَسُّس إلا للحاكم، وذلك لدفعِ منكرٍ وفسادٍ.

روى الترمذي، عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: صعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنبرَ، فنادى بصوتٍ رفيعٍ، فقال: «يا معشر من قد أسلم بلسانه ولم يُفْضِ الإيمانُ إلى قلبهِ، لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيِّروهم، ولا تَتَّبِعوا عوراتهم، فإنَّه من تتبَّع عورةَ أخيه المسلم تتبَّع الله عورته، ومن تتبَّع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله»[(١)].

قال: ونظرَ ابنُ عمرَ رضي الله تعالى عنهما يوماً إلى البيتِ - أو إلى الكعبة[(٢)] - فقالَ: ما أعظمكِ وأعظمَ حُرمتكِ، والمؤمنُ أعظمُ حرمةً عند الله منكِ[(٣)].

ثمَّ قال عليه الصلاةُ والسَّلامُ: «ولا تجسَّسُوا» لأنَّ الظَّنَّ السَّيِّىء بالآخرينِ يحملُ على التأكُّد مما ظنَّه فيهم، فيذهب يتجسَّس

---

(١) أي: داره.

(٢) الشك من الراوي.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن / ٢٠٣٣/ (٦/ ٢٣٢).

بالبصر ، بأن يتتبَّع عورات المسلمين وزلّاتهم ، أو يتحرَّى أن يسمع عنهم ما يسوؤهم بالتَّحسُّس.

وإنَّ سوء الظَّنِّ والتَّحسس والتَّجسُّس والغيبة أمورٌ متلازمة ، يجرُّ بعضها إلى بعضٍ ، فمن أساء ظنَّه بالآخر حمله ذلك على التَّحقُّق من سوء ظنِّه ، فيذهب يتجسَّس عليه أو يتحسَّس منه ، حتَّى إذا عثر على زلَّةٍ أو هفوةٍ أخذ يغتابه ويشيعُ ذلك بينَ النَّاسِ؛ ومن وجد في نفسه سوء ظنٍّ ؛ فليدفع ذلك وليستعِنْ بالله تعالى.

ولهذا جاء في الحديث الذي رواهُ الطَّبرانيُّ في (الكبيرِ)[1] عن حارثةَ بن النُّعمانِ رضي الله تعالى عنه قال: قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاثٌ لازِمَاتٌ أُمَّتِيْ: الطِّيَرَةُ ، والحَسَدُ ، وسوءُ الظَّنِّ».

فقالَ رجُلٌ: ما يُذهِبهُنَّ يا رَسُولَ الله ممَّن هُنَّ فيه؟.

قال: «إذا حسدتَ فاستغفرِ الله ، وإذا ظننتَ فلا تُحَقِّقْ ، وإذا تطيَّرت فامْضِ» أيْ: إذا تشاءمتَ في أمرٍ فادفع ذلك واعزِم الأمرَ ، وتوكَّل على الله تعالى.

وجاء في الحديث الذي رواه ابنُ ماجه[2] عن عبدِ الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: رأيتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم يطوفُ بالكعبةِ ويقولُ: «ما أطيبكِ وأطيبَ ريحكِ ، ما أعظمكِ وأعظمَ حرمتكِ ، والذي نفس محمَّد بيده لحُرمةُ

---

(١) انظر (الدر المنثور) للسيوطي عند الكلام على قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢] ، و(مجمع الزوائد) (٨/ ٧٨).

(٢) في كتاب الفتن ، باب حرمة دم المؤمن وماله / ٣٩٣٢/ (٢/ ١٢٩٧).

المؤمنِ أعظمُ عند الله حُرمةً منك؛ ماله ودمه ، وأن نَظُنَّ به إلاَّ خيراً» فانتهاكُ حُرْمةِ المؤمن أعظم من انتهاك حُرمَةِ الكعبةِ.

وأخرج ابن مردويه[1] عن السَّيِّدة عائشة رضي الله تعالى عنها قالتْ: قال: رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من أساءَ بأخيه الظَّنَّ ، فقد أساء بربِّه ، إن الله يقول: ﴿ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾» [الحجرات: ١٢].

فلما يظنُّ المؤمن ظَنَّاً سيِّئاً بأخيه ، فقد وقع فيما نهى الله تعالى عنه ، فقد ساء ظنُّه بربِّه.

وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «من ستر عورة مُؤمنٍ فكأنَّمَا استحيا مَوْءُوْدَةً من قبرها»[2].

وقد جاء في النَّهي عن التَّحسُّس ، ما روَى البُخاريُّ[3] عن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون[4] ؛ أو يفرُّون منه: صُبَّ في أذنيه الآنكُ[5] يوم القيامة».

وأمَّا ما كان من التَّجسُّس أو التَّحسُّس في سبيل دفع ضُرٍّ أو جَلبِ خير للمسلمين ومصالحهم فجائزٌ شرعاً ، كما قال الله تعالى

---

(١) انظر (الدر المنثور) عند الكلام على قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في (مسنده) عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه: (١٥٣/٤).

(٣) في كتاب التعبير ، باب من كذب في حلمه / ٧٠٤٢/ (٤٢٧/١٢).

(٤) أي: لا يريدون أن يسمعهم أحد.

(٥) الرصاص المذاب.

مخبراً عن يعقوب على نبيِّنا وعليه الصَّلاة والسلام: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧].

وجاء في بيان معنى الغيبةِ، ما رواهُ مسلمٌ[١] وغيرهُ، عن أبي هريرةَ رضي الله تعالى عنهُ، أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أتدرونَ ما الغيبةُ»؟.

قالوا: الله ورسولهُ أعلمُ.

قال: «ذكركَ أخاكَ بما يكرَهُ».

قِيلَ: أفرأيتَ إن كان في أخي ما أقولُ؟.

قالَ: «إن كان فيه ما تقولُ فقدِ اغتبتهُ، وإنْ لم يكنْ فيهِ فقدْ بهتّه» أيْ: جئتَ بما هُوَ أعظمُ من الغيبَةِ وهوَ البُهتانُ والافتِرَاءُ.

وإنَّ قباحة الغيبةِ كقُبحِ من يأكُلُ لحم أخيهِ ميتاً، فكما لا تشتهي النَّفس فعل ذلك فيجبُ عليها أن تترُكَ الغِيبةَ، لأنَّ حقيقتها كذلِكَ؛ ولو كُشِفَ الحجاب عن المُغتاب لأخيه لرأى أنَّه يأكلُ لحمَهُ ميتاً، إلا أنَّ كثافةَ وظُلمةَ ذنوبِهِ حالتْ بينه وبينَ مشاهدةِ ذلك، ولذلك لمَّا ينكشفُ الحجابُ في البرزخِ يُعرضُ على المُغتابِ لحمُ الميِّتِ ويأكُلُه رغمَ أنفِهِ.

ولهذا جاء في (سُنَنِ) أبي داودَ[٢] عن أنَسِ بنِ مَالكٍ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لمَّا عُرِجَ بي مررتُ بقومٍ لهم أظفارٌ من نُحاسٍ، يخمشُونَ وجوههمْ

---

(١) في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة /٢٥٨٩/ (٥/٢٥٢٨).
(٢) في كتاب الأدب، باب في الغيبة /٤٨٧٨/ (٥/١٩٤).

وصدورهم ، فقلتُ: مَنْ هؤلاءِ يا جبريلُ؟.

قال: هؤلاءِ الّذين يأكلونَ لحوم النّاسِ ويقعونَ في أعراضهِم».

وأخرجَ ابنُ أبي حاتمٍ[1] عن السُّدِّي ، أنَّ سلمان الفارسيَّ رضي الله تعالى عنه كان مع رجلين في سفر يخدمهما ، وينالُ من طعامهما ـ وهذه عادةٌ في العرب وأقرَّها الإسلامُ ، وهي أن يُؤْكِلَ القومُ في سفرهم من يقومُ بشأنهم ، ولو كان ذلك على طريق المناوبة بينهم ـ وأنَّ سلمانَ رضي الله تعالى عنه نامَ يوماً ، فطلبَهُ صاحباه فلم يجداه ، فضربا الخباء وقالا: ما يريد سلمانُ شيئاً غير هذا ، أن يجيءَ إلى طعامٍ معدودٍ وخباءٍ مضروبٍ؛ فلمَّا جاء سلمانُ رضي الله تعالى عنه ، أرسلاهُ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم يطلبُ لهما إداماً ـ لأنَّه لم يهيِّيء طعاماً ـ فانطلق ، فأتاهُ فقال: يا رسولَ الله بعثني أصحابي لتُؤدمهُم إن كان عندك.

قال: «ما يصنعُ أصحابكَ بالأُدُمِ قد ائتدَموا»؟!!.

فرجعَ سلمانُ رضي الله تعالى عنه فخبَّرهما ، فانطلقا فأتيا رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالا: والذي بعثك بالحقِّ ما أصبنا طعاماً منذ نزلنا.

قال: «إنّكما قد ائتدمتُمَا سلمانَ[2] بقولكُمَا» فنزلتْ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: ١٢].

وأخرجَ الإمامُ أحمدُ في (مسندِهِ)[3] عن عبيدٍ مولى رسول الله

(١) انظر (الدر المنثور) عند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾.

(٢) أي: أكلتما من لحمه.

(٣) (٥/ ٤٣١).

صلى الله عليه وآله وسلم، أنَّ امرأتينِ صامتا، وأَنَّ رجُلاً قالَ: يا رسولَ الله إنَّ هَهنا امرأتينِ قد صامتا، وإنَّهُما قد كادتا أن تمُوتا من العطشِ، فأعرضَ عنه أو سكت، ثمَّ عاد ـ وأراه قال: بالهاجرةِ ـ قالَ: يا نبيَّ الله إنَّهما والله قد ماتتا أو كادتا أن تموتا.

قال: «ادعهُمَا»، قال: فجاءتَا.

قالَ: فجيءَ بقدَحٍ أو عُسٍّ[1]، فقالَ لإحداهمَا: «قيئي»، فقاءت قيحاً ـ أو دماً ـ صديداً ولحماً، حتَّى قاءت نصفَ القَدحِ، ثمَّ قالَ للأُخرى: «قيئي»، فقاءت من قيحٍ ودمٍ وصديدٍ ولحمٍ عبيطٍ[2] وغيرهِ، حتَّى ملأتِ القدحَ، ثمَّ قال: «إنَّ هاتينِ صامتا عمَّا أحلَّ الله، وأفطرَتا على ما حرَّمَ الله عزَّ وجل عليهما، جلست إحداهُما إلى الأُخرى، فجعلتا تأكُلانِ من لحومَ النَّاسِ».

وإنَّ إثمَ من يسمعُ الغيبةَ كإثْمِ من يحكِيْ الغيبة:

فقد جاء في (سننِ) أبي داوُدَ[3] عن جابرِ بن عبدِ الله وأبي طلحة ابن سهلٍ الأنصاريِّ رضي الله تعالى عنهمْ، أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما من امرئٍ يَخذلُ امرءاً مُسلماً في موضعٍ تُنْتهكُ فيه حرمتهُ، وَيُنْتقصُ فيه منْ عرضهِ؛ إلاَّ خذلهُ الله في موطنٍ يُحبُّ فيه نصرَتَهُ».

قولُهُ صلى الله عليه وآله وسلم: «ولا تنافسُوا» أي: ولا تنافسُوا بالمُزاحَمَةِ على أمُورِ الدُّنْيا.

---

(١) العسُّ: هو القدح الكبير.

(٢) اللحم العبيط هو الطري.

(٣) في كتاب الأدب، باب من رد عن مسلم غيبة / ٤٨٨٤/ (٥/١٩٧).

ومعنى المُنَافَسَةِ: مزاحمةُ نفسٍ لِنفسٍ على أمرٍ ما.

فالمُنافسةُ على أمورِ الدُّنْيَا منهيٌّ عنها، أمَّا في أُمورِ الآخِرَةِ وطاعةِ الله تعالى وعبادتِهِ، فقد قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

فإذا بلغكَ أنَّ فلاناً يصلِّي في الليل عشر ركعاتٍ، فزِد عليه بأن تُصلِّي أكثرَ منه.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ولا تباغضُوا» أي: لا يُبغِضْ أحدكم الآخَرَ، إلا في أمرٍ يُغْضِبُ الله تعالى.

قولُهُ صلى الله عليه وآله وسلم: «ولا تدابروا» أيْ: ولا تقاطعُوا بالهجرِ فوقَ ثلاثٍ لأمرٍ دُنيويٍّ.

فقد روى البخاريُّ ـ واللَّفظ له ـ ومسلمٌ[1] عن أبي أيُّوبَ الأنصاريِّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يحلُّ لرجلٍ أن يهجرَ أخاهُ فوقَ ثلاثِ ليالٍ، يلتقيانِ فَيُعرِضُ هذا ويعرضُ هذا، وخيرهما الذي يبدأُ بالسَّلام».

وأمَّا الهجرُ لأمرٍ دينيٍ حتَّى ينزجِرَ ويرتدِع عمَّا فعلَ فيحلُّ ولو فوْقَ ثلاثٍ، كما هجرَ عليْهِ الصَّلاةُ والسَّلام الذين تخلَّفوا عن تبُوْك خمسين ليلةً[2].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب الهجرة، وقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث» /٦٠٧٧/ (١٠/ ٤٩٢)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الهجر فوق ثلاثٍ بلا عذر شرعي /٢٥٦٠/ (٥/ ٢٥١١).

(٢) أخرج هذه الحادثة البخاري عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه في كتاب =

ولا يحلُّ هجرُ المؤمنِ لأمرٍ دينيٍ إلا إذا كان في هجرِهِ منفعةٌ ، بأنْ تعلمَ أنَّه في هجرك له سينزجِرُ عمَّا هُوَ فيهِ.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركمُ الله» أيْ: كما أمركُم الله بقولهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وشأنُ الأخِ أن لا يُريدَ لأخيهِ إلا الخيرَ ، فلا يظلمُهُ ولا يحقرُه ، ولا يكذبهُ؛ وإنَّ أخُوَّةَ الدِّينِ هي الأخوَّةُ الحقيقيَّةُ التي اعتمدها الشَّارعُ وحثَّ عليها ، وأمَّا أخوَّةُ الطِّين فلا عِبرَةَ لها إذا لم يكنْ هناكَ أخوَّةٌ في الدِّين ، وإذا فُقِدَتْ أخوَّةُ الدِّين بطلتْ أخُوَّةُ الطِّين ، فإذا كان هناكَ أخٌ لك في النَّسب ، وهو مؤمنٌ ، فإنَّ له حقوقاً عليكَ ، ولَكَ حقوقٌ عليه ، كالإرثِ والمدافعةِ والصِّلَةِ ، أمَّا إذا كفر وارتدَّ فقد خرج عَنْ أخوَّةِ الدِّين فبطلت أخوَّةُ الطِّين ، فلا توارثَ بينكُما ولا صِلةَ ولا غيرها.

جاء في الحديثِ الذي رواهُ البُخاريُّ في (صحيحهِ)[1] عَنْ أنسٍ رضي الله تعالى عنهُ ، عَنِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «انصُرْ أخاكَ[2] ظالِماً أو مظلوماً».

= المغازي ، باب حديث كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه /٤٤١٨/ (١١٣/٨) ، ومسلم في كتاب التوبة ، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه رضي الله تعالى عنهم /٢٧٦٩/ (٢٦٤٦/٥).

(١) في كتاب الإكراه ، باب يمين الرجل لصاحبه أنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه /٦٩٥٢/ (٣٢٣/١٢).

(٢) أي: المسلم.

قال رجل: يا رسول الله أنصره إن كان مظلوماً، أفرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره؟!!.

قال: «تحجزُهُ - أو تمنعهُ[1] - من الظُّلمِ، فإنَّ ذلك نصرُهُ».

أي: لمَّا منعتَ الظَّالم عن الظُّلم فقد نصرتَ قوَّتَه على نفسه، ونصرتَ إيمانَهُ على نفسه الأمَّارة بالسُّوء.

قولُه صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الله لا ينظرُ إلى صورِكم وأموالِكُم، ولكن ينظرُ إلى قلوبِكُم وأعمالِكُمْ» أيْ: أنَّ موضعَ نظرِ الله تعالى هو القلبُ وآثارهُ، وهوَ العملُ الصَّالحُ، وليس في هذا ما يدلُّ على أنَّ الدِّينَ في القلبِ فقط كما يدَّعِي بعضُ الزَّنادقَةِ، فإنَّ الإيمانَ ولاشكَّ موضِعُه القلبُ، ولكنَّ آثارَهُ ترشحُ وتظهَرُ على الجسمِ بالعملِ الصَّالح والقولِ الطَّيِّبِ.

وفي هذا يقولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «ألا وإنَّ في الجسَدِ مضغَةً، إذا صلحتْ صلحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدتْ فسدَ الجسدُ كلُّه؛ ألا وهي القلبُ»[2].

قولُه صلى الله عليه وآله وسلم: «ولاَ يحقرُهُ» أيْ: بالمقالِ أو الحالِ، أيْ: إنَّ من شأنِ المُسْلمِ أن لا يُهينَ أخاهُ بالكلامِ ولا يترفَّع عليه.

---

(١) الشك من الراوي.

(٢) أخرجه البخاري عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنهما في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه /٥٢/ (١/١٢٦)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشُّبهات /١٥٩٩/ (٣/١٦٤٧).

روى مسلمٌ في (صحيحه[1]) عن أبي هريرةَ رضي الله تعالى عنه، أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم قالَ: «إذا قالَ الرّجُلُ: هلكَ النّاسُ، فهوَ أهلكهم».

فمن نظرَ في نفسِه ورأىٰ الفضلَ لها على غيرِهِ، ورأى على النَّاسِ ذنوباً فقالَ: هلكَ الناسُ ـ أي: فسقَ النَّاسُ ـ إلا نَفْسَهُ، فهوَ أفسقهم وأرذلهم، لأنَّه زكَّى نفسه واحتقر الآخرين.

أمَّا إذا قال الإنسان: هلك النَّاسُ، ولا يريدُ استعلاءً عليهم، أو أنَّه ما فعلَ مثلهم، وإنَّما قال هذا تأسُّفاً عليهم لشدَّةِ ما يرى من المُنكراتِ، فهذا جائِزٌ كما قال الإمامُ مالكٌ[2] رضي الله تعالى عنهُ.

---

(١) في كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي من قول: هلك الناس /٢٦٢٣/ (٥/ ٢٥٥٠).

وقال الإمام النَّووي في (الأذكار) باب في ألفاظٍ يكره استعمالها: قلتُ: روي أهلكهم برفع الكاف وفتحها، والمشهور الرفع، ويؤيده أنه جاء في رواية رويناها في (حلية الأولياء) في ترجمة سفيان الثوري: «فهو من أهلكهم».

قال الإمام الحافظ أبو عبد الله الحميدي في (الجمع بين الصحيحين) في الرواية الأولى: قال بعض الرواة: لا أدري هو بالنصب أم بالرفع؟ قال الحميدي: والأشهر الرفع، أي: أشدهم هلاكاً، قال: وذلك إذا قال على سبيل الإزراء عليهم والاحتقار لهم، وتفضيل نفسه عليهم، لأنه لا يدري سر الله تعالى في خلقه.

وقال الخطابي: معناه لا يزال يعيب الناس ويذكر مساويهم ويقول: فسد الناس وهلكوا ونحو ذلك، فإذا فعل ذلك فهو أهلكهم أي: أسوأ حالاً فيما يلحقه من الإثم في عيبهم والوقيعة فيهم، وربما أداه ذلك إلى العجب بنفسه ورؤيته أن له فضلاً عليهم، وأنه خير منهم فيهلك. هذا كلام الخطابي فيما رويناه عنه في كتابه (معالم السنن). ا هـ.

(٢) قال الإمام النووي في (الأذكار): بابٌ في ألفاظ يكرهُ استعمالها ـ بعد أن ذكر سند الحديث عند أبي داود ـ: قال مالكٌ رحمه الله تعالى: إذا قال ذلك تحزناً لما =

وأمّا قولُهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «التَّقْوى ههُنَا» أيْ: أنَّ تقوى الأعمالِ مصدرُهَا القلبُ، فمتى امتلأَ القلبُ بالتَّقوى ظهرَ ذَلك على الجوارحِ بالأعمالِ.

وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ منبعَ التَّقوى كُلِّها إنَّما هو قلبُ سيِّدنا رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا قال: «ههنا» مُشيراً إلى صدره الشَّريفِ صلى الله عليه وآله وسلم.

هذا وإن جميعَ أنواعِ التَّقوى وفروعها إنَّما تتفرَّعُ وتُسْتمدُّ عن قلبِ سيِّدنا رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما قال عليه الصَّلاةُ والسَّلام: «أما والله إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له»[1].

وهكذا فقد جاء صلى الله عليه وآله وسلم يزكي الأخلاق، ويبين مصارف الأخلاق الحسنة، كما جاء صلى الله عليه وآله وسلم يهذِّبُ الأخلاقَ، ويميِّز حسنها من خبيثها، فقد يتخلَّقُ الإنسان بخلق يظنُّه حسناً وأنَّه على حقٍّ فيه، كأنْ يغتابَ غيرهُ، فهوَ يغتابُه وما يقولُ فيه إلا الحقَّ، فظاهِرُ الأمرِ أنَّه ما يقولُ فيهِ إلا الحقَّ، فهوَ على حقٍّ إذاً في غيبتهِ، لكنَّ الشَّارِعَ جاء يبيِّنُ أنَّ الغيبةَ خُلُقٌ مذمومٌ ونهى عنهَا؛ وإن كان الإنسانُ يغتابُ الآخر بحقٍّ

= يرى في الناس، قال: يعني من أمر دينهم، فلا أرى به بأساً، وإذا قال ذلك عجباً بنفسه وتصاغراً للناس فهو المكروه الذي يُنْهىٰ عنه.
قلتُ: فهذا تفسيرٌ بإسناد في نهايةٍ من الصحة، وهو أحسنُ ما قيل في معناه وأوجز، ولاسيما إذا كان عن الإمام مالكٍ رضي الله تعالى عنه. ا هـ.

(١) أخرجه مسلم عن عمر بن أبي سلمة رضي الله تعالى عنهما، في كتاب الصيام، باب بيان أنَّ القبلة في الصوم ليست محرَّمة على من لم تحرك شهوته /١١٠٨/ (٣/ ١١٣٥).

وصدقٍ؛ وذلك لأنَّ فيها ذكرَاً للآخرِ في غيبتهِ وهو يكرَهُ ذلِكَ.

وكذلك النَّميمةُ، وهِيَ: نقلُ الكلامِ الذي سمعهُ من شخصٍ إلى آخرَ، فالنَّمَّامُ ما ذكر إلا الحقَّ، لكنَّ نقلَ الكلامِ هذا أمْرٌ حرامٌ نهى عنهُ الشَّارع، لما يترتَّبُ عليه من مفاسِدَ وعداوَةٍ بين الطَّرفينِ.

وعلى المؤمن أن يَنُمَّ النَّميمةَ المحمودة، بأنْ ينقُلَ إلى فُلانٍ أنَّ فلاناً ذكر عنك كلاماً حسناً طيِّباً حتَّى يُلْقِيَ المحبَّةَ والمودَّةَ بينهُمَا.

وكذلك النُّصح للآخرينَ، فعلى المؤمنِ أن ينصحَ أخاهُ المؤمنَ إذا رأى منهُ أمراً مخالفاً للشَّرع، لكنْ بشرطِ أنْ يكونَ النُّصحُ بينهمَا في خفاءٍ عن النَّاسِ، أمَّا إذاَ راحَ يقرِّعه بين النَّاس ويوبِّخه على فعلهِ فقد ارتكبَ أمراً شنيعاً، بأن فضحَ أخاهُ، وخرجَ فعلهُ عن كونهِ نصيحةً، فإنْ كانَ ولابدَّ ناصحاً فسرَّاً، وإلاَّ فالنَّصيحَةُ بين الملأ فضيحَةٌ.

ويرحمُ الله تعالى القائلَ:

احـذر عـدوَّكَ مـرَّةً ... واحـذرَ صـديقـك ألـفَ مـرَّة
فلـربَّمـا انقلـبَ الصَّـديـقُ ... فكـان أعـرفَ بـالمضـرَّة

وقد بَيَّن ذلك صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «أَحْبِبْ حبيبكَ هَوْناً ما؛ عسى أن يكونَ بغيضكَ يوماً ما، وأبغضْ بغيضكَ هوناً ما؛ عسى أن يكون حبيبكَ يوماً ما»[1].

وهذا إذا لم تستحكمِ الصَّداقةُ والأخوَّةُ، أمَّا الصَّداقةُ المبنيَّة على تقوى الله تعالى فإنَّها لا تتقلَّبُ..

---

(١) أخرجه الترمذي، في كتاب البر والصلة، بابُ ما جاء في الاقتصاد في الحُب والبغض /١٩٩٨/ (٦/ ٢٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وإنَّ أعظمَ من جاءَ بالأخلاقِ الفاضلةِ ، وهذَّبها وأوصلها إلى كمالاتِهَا من الرُّسل ، هو سيِّدنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بحيث لم يبقَ بعد الأخلاقِ التي جاء بها ، لم يبقَ خُلُقٌ أحسنَ منها أبداً.

ولهذا قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «بعثتُ لأتمِّم مكارمَ الأخلاقِ»[١] أيْ: أنَّ الأخلاقَ التي جاء بها الرُّسل كلُّهم عليهم الصَّلاة والسَّلام كانتْ أخلاقاً كريمةً تامَّةً فاضلةً ، وإنَّما جاءَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم ليوصِلَ الكريمَ فيها إلى الأكرَمِ ، والفاضِلَ إلى الأفضلِ ، والتَّامَّ إلى الأتمِّ.

كما أنَّ شرعَهُ صلى الله عليه وآله وسلم بلغَ أوجَ الشَّرائعِ وأكملَهَا ، وإنْ كانتِ الشَّرائعُ كلُّها كاملةً متمَّمة ، قال الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

أيْ: لم يبقَ فوقَ هذا الكمالِ الشَّرعيِّ كمالٌ ، فجمعَ صلى الله عليه وآله وسلم محاسنَ الأخلاقِ التي تحلَّى بها الرُّسلُ والأنبياءُ كلُّهم ، وزاد عليهم بالخُلُقِ المحمَّديِّ الخاصِّ به صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا ما يُفهم من قوله تعالى: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠] أيْ: إنَّ هدْيَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاة والسَّلام الذي هداهُم الله إليه ، سواءٌ كان في الشَّرع أو في الخُلُقِ أو في النُّبوَّة ، كُلَّه مجموعٌ لك يا رسولَ الله ، وزادهم رسولُ الله صلى الله عليه

---

(١) تقدم تخريجه ص/٢١٢ .

وآله وسلم هدْياً وخلُقاً ، ومقَامَاً خاصَّاً لائقاً به صلى الله عليه وآله وسلم.

كما أنَّ الله تعالى أعطى رسولَهُ سيِّدنا محمَّداً صلى الله عليه وآله وسلم رسالاتِ جميعَ الأنبياءِ قبلَهُ ، فقد أرسلَ الله تعالى سيِّدنا مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى بني إسرائيلَ ، وأرسلَ سيِّدنا إسماعيلَ عليهِ الصَّلاة والسَّلام إلى العربِ ، أمَّا سيدنا محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم فقد أرسلهُ الله تعالى إلى بني إسرائيلَ والعربِ وإلى النَّاسِ كافَّةً ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

روى الشَّيخان[1] ـ واللَّفظ لمسلمٍ ـ عن جابرِ بن عبدِ الله الأنصاريِّ رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أُعطيتُ خمساً لم يُعطهنَّ أحدٌ قبلي: كان كُلُّ نبيٍّ يبعثُ إلى قومهِ خاصَّةً؛ وبعثتُ إلى كُلِّ أحمرَ وأسودَ ، وأُحِلَّت لي الغنائِمُ ولم تُحلَّ لأحدٍ قبلي ، وجُعلَتْ لي الأرضُ طيِّبَةً طهُوراً ومسجداً ؛ فأيُّمَا رجُلٍ أدركتْه الصَّلاةُ صلَّى حيثُ كان ، ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ بيْنَ يديْ مسيرَةِ شهْرٍ ، وأُعْطِيتُ الشَّفاعَةَ».

وجاء في (الصَّحيحين[2]) أيضاً ، عن أبي هريرة رضي الله تعالى

(١) أخرجه البخاري في كتاب التيمم ، بابُ قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» / ٣٣٥/ (١/ ٤٣٥) ، ومسلمٌ في أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة / ٥٢١/ (٢/ ٦٦٠).

(٢) أخرجه البخاري ـ واللفظ له ـ في كتاب المناقب ، باب: خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم / ٣٥٣٤/ (٦/ ٥٥٨) ، ومسلمٌ في كتاب الفضائل ، باب ذكر كونه صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النَّبيين / ٢٢٨٦/ (٥/ ٢٣١٥).

عنه ، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالَ: «إنَّ مَثَلي ومثل الأنبياءِ من قبلي ، كمثلِ رجلٍ بنى بيتاً فأحسنهُ وأجملَهُ ، إلا موضعَ لبنَةٍ من زاويَةٍ ، فجعلَ النَّاسُ يطوفُونَ به ، ويعجبُونَ له ، ويقولونَ: هلاّ وُضِعَتْ هذهِ اللَّبنَةُ».

قال: «فأنا اللَّبنةُ ، وأنا خاتِمُ النَّبيِّين».

فهُوَ صلَّى الله عليه وآله وسلم جمالُ الأنبياءِ وفصُّ خاتِمِهِمْ ، وما تمَّتِ النُّبوَّاتُ إلا به ، إذ هو قلبُ بيتِ النُّبوَّةِ وركنُهُ الأسعدُ.

فإنْ كانَ الأنبياءُ قبلَهُ صلى الله عليه وآله وسلم قد جاؤُوا بحسنِ الآدَابِ وحلوِ المنطقِ ، فلقد جمعَ الله تعالى لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم جميع ذلك ، وزادَه بالهدي المحمَّديِّ الخاصِّ صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن هذه المقارنة مثلاً: أنَّ سيِّدنا عيسى ابن مريم صلى الله على نبينا وعليه لقي خنزيراً بالطَّريقِ ، فقالَ لهُ: «انفُذْ بسلامٍ»[1].

فقيلَ لهُ: تقولُ هذا لخنزيرٍ؟.

فقال سيِّدنا عيسى على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام: «إنِّي أخافُ أن أعوِّدَ لساني النُّطق بالسُّوءِ»[2].

فالخُلُقُ العِيسَوِيُّ ينظرُ إلى الشَّيءِ من وجه المحاسنِ ، والعارفُ بالله تعالى من ينظر كذلك ، أي: إلى وجه المحاسِن من الشَّيءِ.

---

(١) أي: امض بأمانٍ.

(٢) ذكره الإمام مالك في (الموطأ) عن يحيى بن سعيد في كتاب الجامع ، باب ما يكره من الكلام.

جاء في الحديثِ المُتَّفقِ عليه[1] عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه تعالى عنهُ قال: كنَّا مع رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم في غارٍ فنزلت ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات: ١] وإنَّا لنتلقَّاهَا من فِيْهِ، إذ خرجت حيَّةٌ من جُحْرِها، فابتدرنَاها لنقتُلَها، فسبقَتْنَا فدخلتْ جُحْرَها.

فقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «وُقِيَتْ شرَّكُم كما وقيتم شرَّهَا».

وإنَّ هذا الخُلُقَ الذي أشار إليه سيِّدنا عيسى عليه الصَّلاة والسلام؛ قد انطوى في خُلُقه العظيم وهديه القويم صلى الله عليه وآله وسلم، فلم تنَلِ الحيَّةُ منهُم بأَذَىً ولم ينالُوْا منْهَا.

وهكذا كان صلى الله عليه وآله وسلم ليِّنَ الكلام مُتواضِعاً، وانظُرْ تفاصِيْلَ ذلِكَ في كِتابِ: (سيِّدنا محمَّدٌ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم، شمائِلُهُ الحميدةُ، خصالهُ المجيدةُ).

ولقد كان خُلُقُ سيِّدنا رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم القُرآنَ، كما جاء في الصَّحيح عن السَّيِّدة عائشةَ رضي الله تعالى عنها، أنَّها تحدَّثت عن خُلُقِه صلى الله عليه وآله وسلم فقالتْ: (كان خُلُقُهُ القرآنَ، يغضبُ لغضبِهِ ويرضى لرضاهُ)[2] أيْ: كان

---

(١) أخرجه البخاري ـ واللفظ له ـ في كتاب بدء الخلق، باب خمسٌ من الدواب فواسقُ يقتلن في الحرم/ ٣٣١٧/ (٦/ ٣٥٥)، ومسلمٌ في كتاب السلام، باب قتل الحيات وغيرها / ٢٢٣٤/ (٤/ ٢٢٧١).

(٢) هذا الحديث ورد في صحيح مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض /٧٤٦/ (٢/ ٨٣٥)، عن سعد بن هشام بلفظ: قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن خلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ =

يأتمِرُ بأوامِرِه ، وينتهي عن مناهيهِ.

فقد بلغ صلى الله عليه وآله وسلم أوج الأخلاقِ وأعلاها، وأتمَّهَا وأزكاها ، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

فَمِنْ أخلاقه العظيمة صلى الله عليه وآله وسلم: التَّواضعُ ، فلقدْ بلغَ عليهِ الصَّلاةُ والسلام أعلى درجةٍ ومنزلةٍ في التَّواضع بأنوَاعه ، كما أمرهُ الله تعالى بقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وخفضُ الجناحِ كنايةٌ عن شدَّةِ التَّواضع ، لأنَّ الطَّائرَ إذا أرادَ النُّزول طوى جناحيهِ وخفضَ بهِمَا.

فكان صلى الله عليه وآله وسلم متواضعاً في نفسه ، يُرقِّعُ ثوبَهُ ، ويخصفُ نعله بيده الشَّريفة صلى الله عليه وآله وسلم ، ويحلُبُ شاتَهُ ، ويسعى في خِدمة أهله ، وما يأنَفُ من هذا كُلِّه.

= قالت: ألستَ تقرأُ القرآنَ؟ قلتُ: بلى ، قالتْ: (فإن خلق نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم كان القرآن).

ورواه أبو داود في كتاب الصلاة ، بابٌ في صلاة الليل / ١٣٤٢/ (٢/ ٨٧).

وأحمد في (مسنده) (٦/ ٥٣) ، وأخرجه الطبراني في (الأوسط) عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: سألت عائشة رضي الله تعالى عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقالت: (كان خلقه القرآن ، يغضبُ لغضبه ، ويرضى لرضاه).

وقال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) في كتاب المناقب ، باب صفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، عند الكلام على قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ من خياركم أحسنكم أخلاقاً» (٦/ ٥٧٥) قال: وعند مسلم من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها (كان خلقه القرآن ، يغضب لغضبه ويرضى لرضاه). ا هـ.

روى البخاريُّ[1] عن الأسودِ[2] قال: سألتُ عائشةَ رضي الله تعالى عنها: ما كان النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم يصنعُ في أهله؟.

قالت: (كان في مهنةِ أهله، فإذا حضرت الصَّلاةُ قام إلى الصَّلاةِ).

وروى الإمامُ أحمد في (مسنده)[3] عن السَّيِّدة عائشةَ رضي الله تعالى عنها أنَّهَا سُئِلَتْ: ما كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يعملُ في بيته؟.

قالت: (كان يخيطُ ثوبَهُ، ويخصفُ نعله، ويعملُ ما يعملُ الرِّجالُ في بيوتهم).

ومن تواضعه مع المؤمنين أنَّه كان لا يُقابِلُ أحداً بما يكرهُ؛ ولو رأى ضُراً أو أذى منه.

روى الشَّيخان[4] ـ واللَّفظُ لمُسلمٍ ـ عن أبي حمزة أنسِ بن مالكٍ رضي الله تعالى عنه قال: (خدمتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم عشرَ سنينَ[5]، والله ما قال لي أُفّاً قَطُّ، ولا قال لي

---

(١) في كتاب الأدب، باب كيف يكون الرجل في أهله/٦٠٣٩/ (١٠/٤٦١).

(٢) الأسود بن يزيد بن قيس رضي الله تعالى عنه، من كبار التابعين.

(٣) (٦/١٢١).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل/٦٠٣٨/ (١٠/٤٥٦)، ومسلمٌ في كتاب الفضائل، بابٌ كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحسن النَّاس خُلُقاً/٢٣٠٩/٢٣١٠/ (٥/٢٣٢٧).

(٥) وفي رواية لمسلم في نفس الموضع: «تسع سنين»، قال الإمام النووي في شرحه على مسلم عند الكلام على هذا الحديث: أما قوله: «تسع سنين»، وفي أكثر الروايات «عشر سنين» فمعناه أنها تسع سنين وأشهر، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أقام بالمدينة عشر سنين تحديداً، لا تزيد ولا تنقص، وخدمه أنس رضي الله تعالى عنه في أثناء السنة الأولى، ففي رواية التسع، لم يحسب =

لشيءٍ: لم فعلتَ كذا وهلاّ فعلتَ كذا).

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقولُ: «آكلُ كما يأكُلُ العبدُ، وأجلِسُ كما يجلِسُ العَبدُ»[1].

أيْ: لا يجلسُ جلسةَ المُلوكِ المتكبِّرينَ، ولا يأكُلُ كما تأكُلُ الملوكُ بملاعِقَ من ذهَبٍ أو غير ذلك.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم لا يأنَفُ أن يركبَ الحمارَ العُريان ـ أيْ: بدُونِ أن يكون عليه بردعةٌ ـ[2].

كما جاء في الحديث[3] أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلام ركب حماراً عُريَاً إلى قُبَاءَ، وأبو هريرة رضي الله تعالى عنه معه.

قال: «يا أبا هريرة أأحملكَ»؟.

قال: ما شئتَ يا رسولَ الله، فقال: «اركبْ» فوثَبَ أبو هريرةَ رضي الله تعالى عنه ليركب فلم يقدر، فاستمسك برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوقعا جميعاً.

= الكسر، بل اعتبر السنين الكوامل، وفي رواية العشر حسبها سنة كاملة، وكلاهما صحيح. وفي هذا الحديث بيان كمال خلقه صلى الله عليه وآله وسلم، وحسن عشرته، وحلمه وصفحه. ا هـ.

(١) أخرجه ابن سعد في (الطبقات) (١/ ٣٨١)، وأبو يعلى في (مسنده) (مجمع الزوائد) (٩/ ١٩) وسنده حسن، وابن حبان في (صحيحه)، عن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها، انظر (الفتح الكبير).

(٢) البردعة: ما يوضع على الحمار أو البغل ليركب عليه، كالسرج للفرس.

(٣) ذكره المحب الطبري في مختصر السيرة، انظر (شرح المواهب اللدنية) للزرقاني، في الفصل الثاني: فيما أكرمه الله تعالى به من الأخلاق الزكية ﷺ.

ثمَّ ركبَ صلى الله عليه وآله وسلم ، ثمَّ قال: «يا أبا هريرة أأحمِلُكَ» ؟ .

قال: ما شئتَ يا رسولَ الله ، فقال: «اركَبْ» فلم يَقدرْ أبو هريرة رضي الله تعالى عنه على ذلك ، فتعلَّقَ برسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم فوقعا جميعاً.

فقال: «يا أبا هريرة أأحمِلُكَ» ؟ .

فقالَ: لا والذي بعثكَ بالحقِّ لأرميتُكَ[1] ثالثاً.

فكان لا يأنفُ صلَّى الله عليه وآله وسلم أن يُردِف وراءهُ أحداً ، وقد أردفَ وراءه زوجته السَّيِّدة صفيَّة رضي الله تعالى عنها[2] ، كما أردف بعض أصحابه أحياناً ، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يَعرِضُ على صاحب الدَّابَّةِ أن يركبَ هو في المقدِّمة ورسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلمَ وراءهُ.

روى أبو داودَ[3] عن قيسِ بنِ سعدِ بن عُبادةَ رضي الله تعالى عنهُما قال: زارنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم في منزلنا ، فقال: «السَّلام عليكم ورحمة الله» فردَّ سعدٌ ردًّاً خفيًّاً.

---

(١) أي: لا أرميك ثالثاً.

(٢) كما جاء في (صحيح) البخاري في كتاب الجهاد والسِّير ، بابُ: ما يقولُ إذا رجع من الغزو / ٣٠٨٥/ (٦/ ١٩٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كنا مع النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم مقفله من عسفان ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على راحلته ، وقد أردف صفية بنت حيي رضي الله تعالى عنها.....) الحديث.

(٣) في كتاب الأدب ، باب كم يسلم الرجل في الاستئذان / ٥١٨٥/ (٥/ ٣٧٢) ، وأخرجه الإمام أحمد في (مسنده): (٣/ ٤٢١).

قال قيسٌ: فقلتُ: ألا تأذنُ لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم؟.

فقال: ذره يُكْثِرْ علينا من السَّلامِ.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «السَّلام عليكم ورحمةُ الله» فردَّ سعد ردّاً خفيّاً.

ثمَّ قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «السَّلامُ عليكمْ ورحمةُ اللهِ» ثمَّ رجعَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم واتَّبعه سعدٌ، فقال: يا رسولَ الله، إنِّي كنتُ أسمعُ تسليمكَ، وأردُّ عليكَ ردّاً خفيّاً، لتكثر علينا من السَّلامِ.

قالَ: فانصرفَ معهُ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأمرَ له سعدٌ بغسلٍ فاغتسل، ثمَّ ناوله ملحفةً مصبوغةً بزعفرانٍ ـ أو ورسٍ ـ فاشتملَ بها، ثمَّ رفع رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يديه، وهو يقولُ: «اللَّهمَّ اجعل صلواتكَ ورحمتك على آل سعدِ بنِ عبادةَ».

قال: ثم أصابَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم من الطَّعام، فلمَّا أرادَ الانصِرافَ، قرَّبَ له سعدٌ حماراً قد وطَّأ عليه بقطيفةٍ، فركب رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال سعد: يا قيس، اصحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال قيسٌ: فقال لي رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اركبْ» فأبيتُ، ثمَّ قال: «إمَّا أن تركب وإمَّا أن تنصرف» قال: فانصرفتُ.

وفي رواية عند الإمام أحمد[1]: ثُمَّ أتيناه بحمارٍ ليركب، فقال: «صاحب الحمارِ أحقُّ بصدر حماره» فقلنا: يا رسول الله فالحمارُ لك.

وفي (سننِ) التِّرمذي[2] وغيره، عن أبي بريدة رضي الله تعالى عنه قال: بينما النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم يمشي، إذ جاءه رجلٌ[3] ومعه حمارٌ، فقال: يا رسول الله اركبْ؛ وتأخَّر الرَّجلُ.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لأنتَ أحقُّ بصدرِ دابَّتك؛ إلا أن تجعله لي»[4].

قال: قد جعلته لك، قال: فركِبَ.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يُكرِمُ أصحابه، ويمشي معهم وهم ركوبٌ، كما فعل عليه الصلاة والسلام لما بعثَ معاذاً رضي الله تعالى عنه إلى اليمنِ، ومشى معه رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومعاذٌ رضي الله تعالى عنه راكبٌ على راحلته.

روى الإمام أحمد[5] عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال: لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى اليمنِ، خرجَ معه رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يوصيه، ومعاذٌ رضي الله تعالى عنه راكبٌ، ورسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يمشي

---

(١) أخرجها في (مسنده): (٦/ ٦).

(٢) كما في كتاب الأدب، باب ما جاء أن الرجل أحق بصدر دابته / ٢٧٧٤/ (٨/ ١٧).

(٣) هو سيدنا معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه.

(٤) أي: صدر الدابة.

(٥) في (مسنده): (٥/ ٢٣٥).

تحت راحلته ، فلمَّا فرغ قال: «يا مُعاذُ ، إنَّكَ عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ، أو لعلَّك أن تمُرَّ بمسجدي هذا أو قبري».

فبكى معاذٌ رضي الله تعالى عنه جشعاً لِفِراقِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثمَّ التفت فأقبلَ بوجهه نحو المدينة فقال: «إنَّ أولى النَّاس بي المُتَّقُون مَنْ كانوا ، وحيثُ كانوا».

كما أردفَ عليه الصلاة والسلام مرَّةً معاذَ بن جبلٍ رضي الله تعالى عنه ، عندما بيَّن له حقَّ الله على عباده ، وحقَّ العباد على الله إذا عبدوهُ.

روى الشَّيخان[1] ـ واللفظ لمسلمٍ ـ عن معاذِ بن جبلٍ رضي الله تعالى عنه قال: كنتُ ردفَ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، ليسَ بيني وبينه إلا مؤخِرَةُ الرَّحلِ ، فقالَ: «يا معاذُ بنُ جبلٍ» ، قُلتُ: لبيك رسولَ الله وسعديك.

ثمَّ سار ساعةً ، ثمَّ قالَ: «يا معاذُ بنُ جبلٍ».

قلتُ: لبَّيكَ رسُولَ اللهِ وسعديْكَ.

ثمَّ سار ساعةً ، ثمَّ قال: «يا مُعاذُ بنُ جبلٍ».

قلتُ: لبَّيك رسُولَ اللهِ وسعديك.

قال: «هل تدري ما حقُّ الله على العِباد»؟.

قالَ: قلتُ: اللهُ ورسولُه أعلَمُ.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد ، باب اسم الفرس والحمار /٢٨٥٦/ (٦/٥٨) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة ، وَحَرُم على النار /٣٠/ (١/١٦٥).

قال: «فإنَّ حقَّ الله على العبادِ أنَّ يعبدوهُ ولا يُشرِكوا به شيئاً».

ثمَّ سارَ ساعةً، ثمَّ قال: «يا معاذُ بنُ جبلٍ»، قُلتُ: لبَّيكَ رسولَ اللهِ وسعدَيْكَ.

قالَ: «هل تدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك»؟.

قال: قلتُ: اللهُ ورسولهُ أعلمُ.

قال: «أن لا يُعذِّبهم».

وأردفَ أيضاً ابن عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهما، روى التِّرمذيُّ في (سننه[1]) عن ابنِ عباسٍ رضي الله تعالى عنهما قال: كنتُ خَلْفَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم يوماً، فقالَ: «يا غُلامُ، إنِّي أُعلِّمك كلماتٍ: احفظ اللهَ يحفظك، احفظ الله تجدهُ تُجَاهك، إذا سألتَ فاسأَل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنَّ الأمَّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيءٍ لم يضرُّوك إلا بشيءٍ قد كتبهُ الله عليك، رُفعتِ الأقلامُ وجفَّتِ الصُّحف».

ودخل عليه مرَّةً رجلٌ فأخذتْه الخشيَةُ والمهابَةُ، فقال لَهُ: «إنِّي لستُ بمَلِكٍ، إنَّما أنا ابنُ امرأةٍ تأكُلُ القديدَ» فقدَ روى ابنُ ماجه[2]، عن أبي مسعودِ البدريِّ رضي الله تعالى عنه قال: أتى النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم رجلٌ فكلَّمَه، فجعل تُرعد

---

(١) في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٦٠) /٢٥١٨/ (٨/ ٢٠٣).

(٢) في كتاب الأطعمة، باب القديد /٣٣١٢/ (٢/ ١١٠١).

فرائصهُ ، فقال له: «هوِّنْ عليكَ ، فإنِّي لست بملكٍ ، إنَّما أنا ابنُ امرأةٍ تأكُلُ القديدَ» .

ولقد ظهرت آثارُ تزكيته صلى الله عليه وآله وسلم للنُّفوسِ ، ظهرَت آثارُهَا في الصَّحابة الكِرَامِ رضي الله تعالى عنهم ، الذين كانُوا مَثَلاً صالحاً لمن بعدهم ، وإليك وقائع عن خُلُقِ سيِّدنا عمر رضي الله تعالى عنه وتواضعه:

فقد روي أنَّه لما قَدِمَ رضي الله تعالى عنه الشَّام ، عَرَضَت له مخاضة[1] ، فنزل عن بعيره ونزع خفَّيه ، فأخذهما بيده وأخذ بخطَامِ راحلته ، ثمَّ خاضَ المخاضة؛ فقال له أبو عبيدة بنُ الجراح رضي الله تعالى عنه: (لقد فعلتَ يا أمير المؤمنين فعلاً عظيماً عند أهل الأرض ، نزعت خفَّيك ، وقُدْتَ راحلتك ، وخُضْتَ المخاضة)[2] .

فصَكَّ عمرُ رضي الله تعالى عنه بيده في صدرِ أبي عبيدةَ رضي الله تعالى عنه ، ثم قال: (أوْهِ ـ يمدُّ بها صوْتَهُ ـ لو غيرُكَ يقولُهَا ، أنتُم كنتم أذلَّ النَّاسِ وأضلَّ النَّاسِ ؛ فأعزَّكُم الله بالإسلام ، فمهمَا تطْلُبوا العزَّةَ بغيرِهِ يُذِلَّكُمُ الله عزَّ وجلَّ)[3][4] .

ونادى مرَّةً رضي الله تعالى عنه: «الصَّلاةُ جامعةٌ»[5] ، فلمَّا اجتمعَ النَّاسُ وكثروا ، صعدَ المنبرَ فحمدَ الله وأثنى عليه بما هُوَ

---

(١) المخاضة: الموضع القليل الماء ، الذي يعبر فيه الناس النهر مشاةً وركباناً.
(٢) وقد كان هذا على مرأى من جيش المسلمين ، وجيش الروم.
(٣) أي: لا تظن أن العزة في المراكب العالية ، والمواكب الحافلة.
(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد ص/٢٠٧/ ، والحاكم في (مستدركه) (٣/ ٨٢).
(٥) أي: هلموا إلى المسجد.

أهله ، وصلَّى على نبيِّه صلَّى الله عليه وآله وسلم ، ثمَّ قال: (أيُّها النَّاسُ ، لقد رأيتُنِي أرعى على خالاتٍ لي من بني مخزوم ، فيقبضن لي القبضة من التَّمرِ أو الزَّبيب ، فأظلُّ يومي وأيَّ يومٍ)؟! .

ثمَّ نزل ، فقال له عبد الرحمن بن عوفٍ رضي الله تعالى عنه: (ما زدتَ على أن قمَّأتَ نفسك) ـ يعني: عبتَ ـ.

قال: (ويحكَ[1] يا بنَ عوفٍ ، إنِّي خلوتُ فحدَّثتني نفسي ، فقالت: أنت أمير المؤمنين ، فمن ذا أفضلُ منكَ؟ فأردتُ أن أُعرِّفها نفسها)[2][3].

ومن تواضعه رضي الله تعالى عنه: أنَّ نفراً قالوا لهُ: والله ما رأينَا رجلاً أقضَى بالقسط ، ولا أقولَ بالحقِّ ، ولا أشدَّ على المُنافقينَ مِنْكَ يا أميرَ المؤمنينَ ، فأنتَ خيرُ النَّاسِ بعد رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال عوفُ بنُ مالكٍ رضي الله تعالى عنه: (كذبتم والله ، لقد رأينا خيراً منه بعد النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم).

فقال: من هو يا عوفُ؟.

فقال: (أبو بكر رضي الله تعالى عنه).

فقال عمرُ رضي الله تعالى عنه: (صدقَ عوفٌ وكذبتم ، والله

---

(١) ويح: اسم فعل يدل على الترحم ، يقال: ويح فلان أي: يرحمه الله.

(٢) أي: أعرفها أنني ذلك الرجل في الجاهلية ، ولكن الله مَنَّ عليَّ بالإسلام وأكرمني ، فهذا من فضل الله تعالى عليَّ.

(٣) انظر (كنز العمال) عند الكلام على تواضعه رضي الله تعالى عنه.

لقد كان أبو بكرٍ أطيبَ من ريحِ المسكِ ، وأنا أضلُّ من بعيرِ أهلي)[١][٢] .

وروي عن ضبَّة بن مُحصنٍ العنزيِّ قال: كان علينا أبو موسى الأشعريُّ رضي الله تعالى عنه أميراً بالبصرةِ ، فكان إذا خطبنا حمد الله عزَّ وجلَّ وأثنى عليه ، وصلَّى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنشأ يدعو لعمرَ رضي الله تعالى عنه؛ قال: فغاظني ذلك منه ، فقُمتُ إليه فقلتُ له: أينَ أنتَ مِنْ صاحبِهِ[٣] ، تُفضِّلُه عليهِ؟ .

فصنع ذلك جُمعاً ، ثمَّ كتب إلى عمرَ رضي الله تعالى عنه يشكوني ، يقولُ: إن ضبَّة بن محصنٍ العنزيَّ يتعرَّض لي في خُطبتي .

فكتب إليه عمر رضي الله تعالى عنه أن أشخصهُ[٤] إليَّ ، قال: فأشخصني إليه ، فقدمتُ فضربتُ عليه البابَ ، فخرجَ إليَّ ، فقال: من أنتَ؟ . فقلتُ: أنَا ضبَّةُ .

فقال لي: لا مرحباً ولا أهلاً .

فقلتُ: أمَّا المرحب فمن الله عزَّ وجلَّ[٥] ، وأمَّا الأهل ، فلا أهل لي ولا مال ، فبماذا استحللت يا عمر إشخاصي من

---

(١) أي: هذا لمَّا كان عمرُ رضي الله تعالى عنه في الجاهلية ، وأبو بكر رضي الله تعالى عنه قد آمن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) رواه أبو نعيم في (فضائل الصحابة) قال ابن كثير: إسناده صحيح ، كما في (كنز العمال) عند الكلام على فضل الصديق رضي الله تعالى عنه.

(٣) يريد أبا بكر رضي الله تعالى عنه.

(٤) أي: ابعث به إليَّ.

(٥) والمرحب هو الأرض الواسعة.

مِصْري ، بلا ذنبٍ أذنبته ولا شيءٍ أتيته؟ .

فقال: ما الذي شجرَ بينكَ وبينَ عامليْ؟ .

قال: قلتُ: الآنَ أخبرُكَ به ، إنَّه كان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه ، وصلَّى على النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، ثمَّ أنشأ يدعو لك ، فغاظني ذلك منه فقمتُ إليه ، فقلتُ له: أين أنت من صاحبه تُفضِّله عليه ، فصنع ذلك جُمعاً ، ثمَّ كتب إليكَ يشكوني.

فاندفعَ عمرُ رضي الله تعالى عنه باكياً وهو يقول: أنت والله أوفقُ منه وأرشد ، فهل أنت غافرٌ لي ذنبي ؛ يغفرُ الله لك؟ .

قال: قلتُ: غفرَ الله لك يا أميرَ المؤمنين.

قال: ثمَّ اندفع باكياً وهو يقولُ: والله لليلةٌ من أبي بكرٍ ويومٌ ، خيرٌ من عمرَ وآلِ عمرَ ، فهل لك أن أحدِّثك بليلته ويومه؟ .

قلتُ: نعم.

قال: أمَّا اللَّيلة: فإنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم لمَّا أراد الخروجَ من مكَّةَ من المشركين خرج ليلاً ، فتبعهُ أبو بكرٍ رضي الله تعالى عنه ، فجعلَ يمشي مرَّةً أمامه ، ومرَّةً خلفه ، ومرَّةً عن يمينه ، ومرَّة عن يساره ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما هذا يا أبا بكر ، ما أعرِفُ هذا من أفعالك»؟ .

فقال: يا رسولَ الله أذكرُ الرَّصد فأكونُ أمامكَ ، وأذكرُ الطَّلَب فأكونُ خلفَك ، ومرَّةً عن يمينك ، ومرَّةً عن يسارِك لا آمنُ عليك.

قال: فمشى رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلته على أطرافِ أصابعه حتَّى حفيت ، فلمَّا رأى أبو بكرٍ رضي الله تعالى عنه أنَّهَا قد حفيتْ حملَهُ على عاتقه ، وجعل يشتدُّ به حتَّى أتى فم الغارِ

فأنزله ، ثمَّ قال: والذي بعثك بالحقِّ لا تدخله حتَّى أدخله ، فإنْ كان فيه شيءٌ نزل بي قبلك.

قال: فدخل فلم يرَ فيه شيئاً ، فحملَهُ فأدخله ، وكان في الغار خرقٌ فيه حيَّاتٌ وأفاع ، فألقمهُ أبو بكرٍ رضي الله تعالى عنه قدمَهُ مخافة أن يخرجَ منه شيءٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيؤذيه ، وَجَعَلْنَ يضربن أبا بكر رضي الله تعالى عنه في قدمه ، وجعلتْ دموعه تنحدرُ على خدَّيه من أَلِمَ ما يجد ، ورسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يقولُ له: «يا أبا بكر لا تحزن إنَّ الله معنا» ، فأنزلَ الله سكينته عليه ، والطُّمأنينة لأبي بكر رضي الله تعالى عنه . فهذه ليلته.

وأمَّا يومه: فلمَّا توفِّي رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم ارتدَّت العربُ ، فقال بعضهم: نُصَلِّي ولا نُزَكِّي ، فأتيتهُ لا آلُوهُ نُصحاً ، فقلتُ: يا خليفةَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم تألَّفِ النَّاسَ وارفقْ بهم.

فقال لي: أجبَّارٌ في الجاهلية خوَّار في الإسلام؟ فبماذا أتألَّفهم؟ قُبِضَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم وارتفع الوحي ، فوالله لو منعوني عِقالاً كانوا يعطونه رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم لقاتلتهم عليه.

قال: فقاتلنا عليه ، فكان والله رشيد الأمر . فهذا يومه.

ثمَّ كتب إلى أبي موسى رضي الله عنه يلومه[1].

---

(١) رواه البيهقي في (دلائل النبوة) (٢/ ٤٧٦).

وروى الإمامُ أحمدُ[1] وغيرهُ ، عن عبيدِ اللهِ بن عبَّاسٍ بن عبدِ المطَّلب أخي عبد الله رضي الله تعالى عنهم قال: كان للعبَّاسِ رضي الله تعالى عنه ميزابٌ على طريقِ عمرَ بن الخطَّاب رضي الله تعالى عنه ، فلبس عمرُ رضي الله تعالى عنه ثيابه يوم الجمعةِ ، وقد كان ذُبح للعبَّاسِ رضي الله تعالى عنه فرخانِ ، فلمَّا وافى الميزاب ، صُبَّ ماءٌ بدم الفرخين ، فأصَاب عمر رضي الله تعالى عنه وفيه دم الفرخين ، فأمر عمر رضي الله تعالى عنه بقلعه ، ثم رجع عمر رضي الله تعالى عنه فطرح ثيابه ، ولبس ثياباً غير ثيابه ، ثم جاء فصلَّى بالنَّاس.

فأتَّاه العبَّاس رضي الله تعالى عنه فقال: والله إنَّه للموضع الذي وضعه النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال عمرُ للعبَّاس رضي الله تعالى عنهما: وأنا أعزِمُ عليك لَمَا صعدت على ظهري حتَّى تضعه في الموضع الَّذي وضعه رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ففعل ذلك العبَّاس رضي الله تعالى عنه.

ومن ذلك أيضاً: موقفه رضي الله تعالى عنه مع التَّابعيِّ الجليلِ سيدنا أويسٍ القرني ، فقد روى مسلم في (صحيحه[2]) عن أُسَيْرِ بن جابرٍ رضي الله تعالى عنه قال: كان عمرُ بنُ الخطاب رضي الله تعالى عنه إذا أتى عليه أمدادُ أهل اليمنِ سألهم: أفيكم أُويسُ بن

---

(١) في (مسنده): (١/ ٢١٠).

(٢) في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، باب من فضائل أويسٍ القرني رضي الله تعالى عنه / ٢٥٤٢/ (٥/ ٢٤٩٥).

عامرٍ؟ حتى أتى على أويسٍ فقال: أنت أويسُ بن عامرٍ؟ قال: نعم، قال: من مُرادٍ، ثمَّ من قرنٍ؟، قال: نعم، قال: فكان بك برصٌ فبرأتَ منه إلا موضِعَ درهمٍ؟، قال: نعم، قال: لك والدَةٌ؟، قال: نعمْ.

قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقولُ: «يأتي عليكم أويسُ بن عامرٍ مع أمدادِ أهلِ اليمنِ، من مُرادٍ ثمَّ من قرنٍ، كان به برصٌ فبرأ منه إلا موضعَ درهَمٍ، له والدةٌ هو بها برٌّ، لو أقسم على الله لأبرَّهُ، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل»، فاستغفِرْ لي، فاستغفَرَ له.

فقال له عمر رضي الله تعالى عنه: أين تُريدُ؟.

قال: الكوفَةَ.

قال: ألا أكتبُ لك إلى عاملها[1]؟.

قال: أكونُ في غبراءِ النَّاسِ أحبُّ إليَّ[2].

قال: فلمَّا كان من العامِ المقبلِ، حجَّ رجلٌ من أشرافهم[3]، فوافقَ عمرَ رضي الله تعالى عنه، فسألَهُ عن أويسٍ، قال: تركته رثَّ البيتِ قليل المتاعِ.

قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم يقولُ: «يأتي عليكم أويسُ بنُ عامرٍ مع أمدادِ أهلِ اليمنِ، من مُرادٍ ثمَّ من قرنٍ، كان به برصٌ فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدةٌ هو بها برٌّ، لو

---

(١) أي: حتى يقوم بشأنك.

(٢) أي: لا أريد الشهرة والظهور.

(٣) أي: من أهل الكوفة.

أقسم على الله لأبـرَّهُ» ، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل.

فأتى أويساً فقال: استغْفِر لي.

قال: أنت أحدثُ عهداً بسفر صالحٍ[1] ، فاستغفر لي.

قال: استغفر لي.

قال: أنت أحدث عهداً بسفرٍ صالحٍ ، فاستغفر لي ، قال: لَقِيتَ عمر؟.

قال: نعم ، فاستغْفِرْ لي ، ففطِنَ له النَّاس ، فانطلق على وجهه[2].

قال أسيرٌ رضي الله تعالى عنه: وكسوته بُردةً ، فكان كلَّما رآهُ إنسانٌ قال: مِنْ أين لأوَيسٍ هذه البُردة؟.

وفي رواية عند الإمام أحمد[3] لمَّا أقبل أهل اليمن ، جعل عمرُ رضي الله تعالى عنه يستقري الرِّفاق ، فيقولُ: هل فيكم أحدٌ من قرنٍ؟ حتى أتى على قرنٍ ، فقال: من أنتم؟.

قالوا: قرنٌ ، فوقع زمامُ عمر رضي الله تعالى عنه ، أو زمامُ أويسٍ فناوله أحدهما الآخر ، فعرفه ، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: ما اسمكَ؟ ، قال: أنا أويسٌ.

فقالَ: هل لك والدةٌ؟ قال: نعم.

---

(١) أي: الحج.

(٢) أي: ترك الكوفة وساح في الأرض ، خوفاً أن تتوارد الناس عليه وتطلب منه الاستغفار ، فلربما يأتيه من لا يليق له الاستغفار ، وأويس رضي الله تعالى عنه من أهل الدعاء المجاب.

(٣) أخرجها في (مسنده): (١/٣٨).

قال: فهل كان بك من البياضِ شيءٌ؟.

قال: نعم، فدعوتُ الله عز وجل فأذهبه عنِّي، إلا موضع الدِّرهم من سرَّتي؛ لأذكرَ به ربِّي.

قال له عمر رضي الله تعالى عنه: استغفر لي.

قال: أنت أحقُّ أن تستغفر لي، أنت صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال عمر رضي الله تعالى عنه: إنِّي سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إنَّ خيرَ التَّابعين رجلٌ يقالُ له أويسٌ، وله والدةٌ، وكان به بياضٌ فدعا الله عز وجلَّ فأذهبه عنه، إلا موضع الدِّرهم في سرَّته»، فاسْتَغْفَرَ له، ثمَّ دخل في غمَارِ النَّاس، فلمْ يُدرَ أين وقعَ.

قال: فقدمَ الكوفَةَ. قال: وكنَّا نجتمع في حلقةٍ فنذكر الله، وكان يجلس معنا، فكان إذا ذكر هو وقع حديثه من قلوبنا موقعاً لا يقع حديث غيره.

وكان عمر رضي الله تعالى عنه قويَّ النُّور، شديداً في أمرِ الله تعالى، ولقد امتدحه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: «إيهاً يا بنَ الخطَّاب، والَّذي نفسي بيده ما لقيك الشَّيطانُ سالكاً فجّاً قطُّ؛ إلا سلك فجّاً غيرَ فجِّك»[1].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ـ واللفظ له ـ في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي رضي الله تعالى عنه /٣٦٨٣/ (٧/ ٤١)، ومسلمٌ في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله تعالى عنه /٢٣٩٦/ (٥/ ٢٣٩٥).

وكان من فراسته رضي الله تعالى عنه، وقوَّةِ نوره، أنَّه إذا حدَّثَهُ الرجلُ بحديث وكذب في كلامه، كان يقول له: «احبسْ هذه»[1].

ثمَّ يحدِّثه بالحديثِ، فيقولُ: «احبسِ هذه»، فيقولُ له[2]: كلُّ ما حدَّثتك به حقٌّ إلا ما أمرتني أن أحبِسَهُ[3].

وهذا لأنَّ الصِّدق له علامةٌ نورانيَّةٌ، تظهرُ لمن عمَّر قلبه بتقوى الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

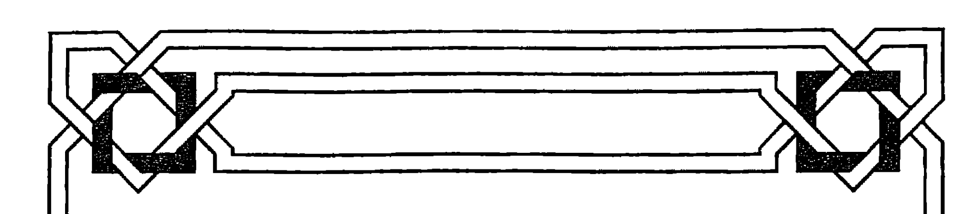
ونسألُ الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

(١) أي: لا تقل هذه الكلمة، فإنها ليست بصحيحةٍ.

(٢) أي: الرجل.

(٣) أخرجه ابن عساكر، كما في (كنز العمال)، في تتمة فضائل الفاروق رضي الله تعالى عنه.

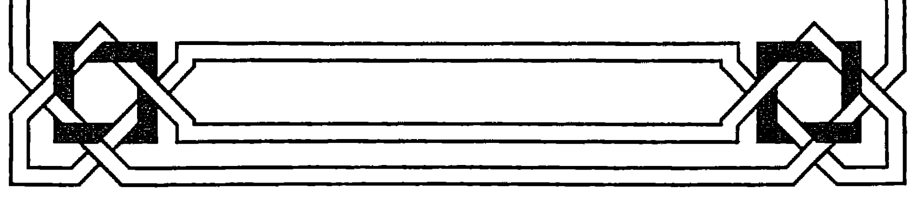


جملة محاضرات

حول قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾

[الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦]



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ .

تقدم بعض الكلام حول مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم ، والتي بيّنها سبحانه بقوله: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وذلك لأن الله تعالى أرسل رسوله سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إلى العالم وله معهم مواقف ، تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا والآخرة ، وسنأتي على تفصيل هذه المواقف فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وأما الآن فسنذكر شيئاً عن معاني قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ .

والتي تضمنت جملة من مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥] ويتضمن ذلك الموقف ثلاث مراتب.

وهي:

١ً ـ إنا أرسلناك شاهداً؛ أي: شاهداً لله تعالى بالوحدانية وأنه لا إلّه إلا الله.

٢ً ـ إناأرسلناك شاهداً؛ أي: شاهداً على أمتك وما يعملون.

٣ً ـ إنا أرسلناك شاهداً؛ أي: مزكياً تشهد بالعدالة والتزكية لمن اتبعك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وإليك تفصيل هذه المراتب الثلاثة وأدلتها من الكتاب والسنة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ﴾ أي: شاهداً بأنه لا إلّه إلا الله، وذلك لأنَّ سيدنا محمَّداً صلى الله عليه وآله وسلم هو أعظم المخلوقات شهادةً، وأبينهم شهادة، وأولهم شهادة بأنه لا إلّه إلا الله، وقد بين هذا سبحانه بقوله: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [البينة: ١ ـ ٣].

فلَقد بيّن سبحانه وتعالى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو البينة الكبرى، الدالة على وحدانية الله تعالى وقدرته.

وإنَّ من شأن البينة أن تكون ظاهرة في نفسها، ومظهرة للحق لغيرها.

وإن أقوى الشهادات الخَلْقية، وأقوى البينات الدالة على الله تعالى، وعلى قضايا الإيمان، إنما هي محمَّد رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم، ولهذا سماه الله تعالى البينة، وعلى البينات وقوتها تصح الشهادات.

فلما قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] أي بأنه لا إلّه إلا الله وأنك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذه الشهادة إنما هي بقولك يا رسول الله، وحالك وأخلاقك، وعلومك، وشمائلك، ومعجزاتك وسائر شؤونك، فكل هذا دليل شاهد؛ وبينة وبرهان قاطع؛ على أن الله تعالى حق وأن سيدنا محمداً هو رسول الله حقاً صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد خلق الله عوالم كثيرة تدل على وحدانيته وقدرته سبحانه وتعالى، كالسماوات والأرض والأفلاك، والأشجار والبحار وغيرها، إلّا أن أعظم هذه المخلوقات دلالة على الله تعالى، وأقواها شهادة، وأبْيَنَها حجة، إنما هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فَمَنْ نظر في علومه صلى الله عليه وآله وسلم عرف أنها ليست علوماً خَلْقِيَّة مكتسبة، وإنما هي علوم أفاضها الله تعالى عليه.

وَمَنْ نظر في معجزاته المتنوعة عرف أن هذا لا يُنال بالقدرة البشرية، وإنما هي أمْرٌ معجز خارق للعادة، وشاهد على أنه حقاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وَمَن نظر إلى أخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم وشمائله وخصاله؛ عرف أنها ليست كالأخلاق العادية للبشر، إنما هي أخلاق عالية عظيمة، تدل على صدق رسالته صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى أن الله تعالى هو الذي أمده وخصه بهذه الخصائص

والفضائل ، وأفاض عليه هذه العلوم والمعارف .

ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم إذا ظهر الأمر الخارق على يده ـ وهو المعجزة ـ كان يُردِفُها بالشهادة بأنه لا إلّه إلاّ الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وَمِنْ هذا ما رواه مسلم في (صحيحه)[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان مع أصحابه في مسير ـ أي : في بعض الغزوات ـ فنفدت أزواد القوم ـ أي : ولم يبق إلا الشيء القليل ـ حتى همّ الصحابة أن ينحروا حمائلهم ـ أي : جمالهم التي يحتاجونها للحمل عليها ـ فقال عمر رضي الله عنه : لو أمرت بما بقي في أزواد القوم فدعوت الله عليها يا رسول الله .

فجاء كلٌ بما بقي عنده من آثار ، فمنهم من جاء بتمرة واحدة ، ومنهم من جاء بنوى التمر ـ وكانوا يمصونها من شدة الجوع ـ ومنهم من جاء بشيء من الحنطة ، وهكذا ، ووضعت أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فدعا الله تعالى وبارك عليها ، وإذا بالبر والتمر زاد وكثر حتى ملأ القوم مزاودهم كلها ، فلما امتلأت مزاودهم كلها بالتمر والبر ، قال عليه الصلاة والسلام : «أشهد أن لا إلّه إلا الله وأني رسول الله ، لا يلقىٰ الله بهما عبد ـ أي : بالشهادتين ـ إلا دخل الجنة» أي : إما حالاً ، أو مآلاً إذا كان عنده كبائر وذنوب فلابد أن يتطهر منها .

فكان صلى الله عليه وآله وسلم هو الشاهد الأكبر من الخلق

---

(١) كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً /٢٧/ (١/ ١٦١).

على أنه لا إلّه إلاّ الله وأنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وإن دلائل صدقه صلى الله عليه وآله وسلم ظاهرة واضحة في أخلاقه وشمائله، وسيرته صلى الله عليه وآله وسلم، وصورته الخَلْقية لأن الخُلُق ملازم للخَلْقِ، فلما كان خلُقه عظيماً كان خَلْقه عظيماً.

فلقد كساه الله جل جلاله حُلل البهاء والجمال والكمال، حتى وصفه الصحابة فقالوا: (لم تر عين قبله ولا بعده مثله) صلى الله عليه وآله وسلم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يقول وراء كل صلاة: «اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أنك الرب وحدك لا شريك لك» وهذا من الشهادات القولية العلمية.

«اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك.

اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة ـ أي: عباد الله المؤمنين، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] ـ.

اللهم ربنا ورب كل شيء اجعلني مخلصاً لك وأهلي في كل ساعة من الدنيا والآخرة، يا ذا الجلال والإكرام، اسمع واستجب، الله نور السموات والأرض، الله الأكبر الأكبر، حسبي الله ونعم الوكيل» الحديث[١].

فكان صلى الله عليه وآله وسلم يكثر من الشهادة قولاً وعملاً،

---

(١) انظر (المسند) للإمام أحمد (٤/ ٣٦٩).

وحالاً وإخباراً، لأنه الشاهد الأكبر على أنه لا إله إلا الله، وعلى أنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٢ ـ قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥] أي: شاهداً على أمتك كلهم بما يعملون، وفي هذا يقول جل وعلا: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ . . .﴾ الآية [المزمل: ١٥ ـ ١٦].

فهو صلى الله عليه وآله وسلم يشهد على هذه الأمة بأعمالها من خير أو شر، يقول الله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٤١ ـ ٤٢].

والمعنى: كيف حال الكفار يوم القيامة، وحال العصاة المصرِّين؟! كيف حالهم يوم القيامة، يوم تشتد عليهم الأهوال والكربات، ويظهر أمرهم بين الخلائق كلها؟!!.

وفي ذلك اليوم يجيء الله من كل أمة بشهيد، وهو نبيها الذي أُرسل فيها، حتى يشهد على من أطاعه ومن عصاه ﴿وَجِئۡنَا بِكَ﴾ يا رسول الله ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾على هؤلاء أي: على أمتك ﴿شَهِيدٗا﴾ لأن رسالتك عامة فشهادتك عامة.

فيشهد صلى الله عليه وآله وسلم على المؤمنين بالإيمان، وعلى الكافرين بما عملوا.

﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [النساء: ٤٢] أي: لو يُدفن أحدهم ويسوى فوقه التراب، أو يكون هو والأرض سواء، أي: يكون تراباً من جنس الأرض كما قال

تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [عم: ٤٠].

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] أي: وحينذاك لا يتكلمون إلاّ بالحق والصدق، ويعترفون بأعمالهم.

وقد جاء في الحديث، عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لعبد الله بن مسعود: «اقرأ عليّ القرآن» فقال ابن مسعود رضي الله عنه: أقرأ عليك وعليك نزل؟! فقال: «اِقرأ فإني أحب أن أسمعه من غيري». فقرأ من أول سورة النساء حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ الآية [النساء: ٤١].

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «حسبك الآن» أي: كافي كافي.

فقال ابن مسعود رضي الله عنه: فالتفت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا عيناه تذرفان[١] ـ أي: تذرفان بالدموع لما هنالك من شدة الأهوال التي تعتري المخالفين، ولذلك بكى صلى الله عليه وآله وسلم تأثراً من شدة ذاك الموقف ـ.

وقد يقال: وكيف علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأعمال أمته من بعده؟.

فيقال لقد قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير باب: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ / ٤٥٨٢/ (٨/ ٢٥٠) ومسلم باب فضل استماع القرآن / ٨٠٠/ (٢/ ٨٧٧).

فقد أخبر سبحانه في الآية الكريمة أنه يرى أعمال العباد، ولا يخفى عليه منهم شيء سبحانه وتعالى، وأن هذه الأعمال تُعرض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عَرضاً خاصاً، وتعرض على المؤمنين وهم في البرزخ، وهذا قبل يوم القيامة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أما عرض الأعمال على المؤمنين، فقد بيّن صلى الله عليه وآله وسلم أن أعمال الإنسان تُعرض على أقاربه وعشيرته، كما في (مسند) الإمام أحمد، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأمْواتِ، فإنْ كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تُمتهم حتى تهديهم كما هديْتَنا»[1].

وجاء في(مسند الطيالسي)[2] أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم في قبورهم - أي: على المؤمنين منهم - فإن كان خيراً استبشروا، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم أَلْهِمْهُم أن يعملوا بطاعتك».

وجاء في حديث آخر أن الأعمال تُعرض على الآباء والأمهات كل يوم جمعة.

أما عرض الأعمال على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فهي تعرض عرضاً خاصاً عليه صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) (٣/ ١٦٥).
(٢) ص/ ٢٤٨/.

وهناك عرض الأعمال على رب العزة سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه يرى العمل حين يعمله العبد ، إلاّ أن للعرض عليه سبحانه حِكَماً وأسراراً ـ كما هو مفصل في كتاب (صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى ذي العزة والجلال) للشيخ الإمام سيدي الوالد رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا ببركاته ـ.

وَمِنْ هذا ما روى مسلم والترمذي ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «تعرض الأعمال[1] في كل يوم خميس واثنين ، فيغفر الله تعالى لكل امرىء ـ أي: مؤمن ـ لا يشرك بالله شيئاً؛ إلاّ من كان بينه وبين أخيه شحناء فيقول: اتركوا هذين حتى يصطلحا»[2] أي: لا ترفعوا لهم عملاً إلى الله تعالى حتى يصطلحا.

وهذا يدل على أن الشحناء والبغضاء وأمراض القلوب تحجب رفع العمل إلى رب العزة تبارك وتعالى.

ومن حِكَمِ رفع الأعمال إليه سبحانه وتعالى ليباهي بها الملائكة ، وَيُثني على صاحبها خيراً ، وليحفظها سبحانه في خزائنه الخاصة ، ولينميها ويضاعفها سبحانه وتعالى.

أما عرض الأعمال على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحكمته:

فقد روى البزار بالسند الجيد، عن ابن مسعود رضي الله عنه ،

---

(١) أي: على الله سبحانه وتعالى كما في رواية الطبراني.

(٢) (صحيح) مسلم كتاب البر والصلة، باب النهي عن الشحناء، ٢٥٦٥/ (٥/ ٢٥١٤) و(سنن) الترمذي كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في التهاجر /٢٠٢٤/ (٦/ ٢٢٦).

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «تُعْرض عَلَيَّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله، وما رأيت من شر استغفرت لكم»[1] أي: لأهل الإيمان. أما الكافر فإن الله لا يغفر لمن يشرك به.

كما أن الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم تُعْرض عليه صلى الله عليه وآله وسلم عرضاً خاصاً كما قال: «فإن صلاتكم معروضةٌ عليَّ»[2].

وقال سعيد بن المسيب رضي الله عنه: ما من يوم إلَّا تعرض على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمته غدوةً وعشياً، فيعرفهم بأسمائهم وأعمالهم ـ وفي رواية: بسيماهم وأعمالهم ـ فلذلك يشهد عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

فالأمة نفسها تعرض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما تعرض عليه أعمالها.

---

(١) ونص الحديث: «حياتي خير لكم: تُحدثون ويُحدثُ لكم، ووفاتي خير لكم تعرض عليَّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت لكم» كما في (طرح التثريب) (٣/ ٢٩٧)، وانظر (مجمع الزوائد) (٩/ ٢٤).

(٢) فقد روى الإمام أحمد في (مسنده) (٤/ ٨) وغيره، عن سيدنا أوس بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مِنْ أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة وفيه الصعقة؛ فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي» قالوا: يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أَرَمْت ـ يعني: بليت ـ فقال: «إن الله عز وجل حَرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء».

وقد يقال: كيف يُعرض الإنسان وهو في الدنيا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟.

فيقال: يجب أن تعلم أن وجودك في عالم الدنيا وجوداً جسمانياً كيانياً، ولكن لك وجودات أخرى ليست جسمانية، ومن جملة هذه الوجودات وجودك في عالم المثال، وإن وجودك في عالم المثال وجود حقيقي، وبهذا تعرض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتعرض أعمالك على الملأ الأعلى، وعلى أقاربك المؤمنين في البرزخ وهكذا....

وإليك ما يوضح مسألة تعدد الوجودات والاعتبارات، فالإنسان له وجود جسماني، وله وجود ذهني علمي، فمن ذلك لما تذكر فلاناً من الناس كنت قد رأيته، فإنَّ ذكرك له يدل على أن له وجوداً في ذهنك، وهذا هو الوجود الذهني أو العلمي، وهذا بالإضافة إلى الوجود الخارجي الجسماني.

وهناك الوجود الروحاني، وهناك الوجود المثالي، وهو وجود حقيقي ليس بوهمي، وإنّ أوسع العوالم الإلّهية إنما هو عالم المثال، وما من شيء يظهر في العالم الشهودي المادي إلا وقد سُبِقت له أمثلة متعددة في عالم المثال، ومن جملة ذلك رفع الأعمال إلى الله تعالى، فلها وجود مثالي عملي وليس جسمانياً، لأن العمل ليس بجسم وإنما هو أثر من آثاره، ولكن له وجوداً حقيقياً.

وإذا جادلت في هذا فيقال: أنت قبل أن تعمل العمل هل يقال: إن لك عملاً ؟؟.

نعم ليس لك عمل، ولما عملت هل صار لعملك وجود أم لا ؟

ولو قلت: لا. فما الفرق بين حالك قبل العمل وحالك بعد العمل؟ ولصار العامل وغير العامل سواء، وهذا ضرب من الجنون، فلما يقوم الإنسان بالعمل يقول الله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ أي: العمل، وإنَّ كن تعطي وجوداً، وليست الموجودات على حد سواء، فهناك الوجود الجسماني، وهناك الوجود العملي وهكذا . . .

فالأعمال لها وجود، وكلها آثار قول الله تعالى: «كن» وإنَّ كُنْ تُعطي كل موجود نوعاً من الوجود، وهو سبحانه وتعالى بكل خلق عليم، أي: بكل نوع من أنواع التخليق عليم، فهناك الخَلْق الجسماني، والروحاني والعملي، والله هو الخلاق، ويخلق ما يشاء، وهو بكل خلق عليم سبحانه وتعالى.

٣ ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ أي: شاهداً لمن اتَّبَعَكَ بالتزكية والعدالة، فتزكيهم وتعدِّلهم حتى تُقبل شهاداتهم على الأمم قبلهم، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] والمعنى: وكذلك جعلناكم؛ أي: يا أمة محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم المتبعين له، جعلناكم أمة عُدولاً خياراً، كما جعلنا قبلتكم ـ وهي الكعبة ـ جعلناها أفضل القبل والبقاع، وهي أوسط بلاد المعمورة.

فأنتم يا أمة محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم المتبعين له، أنتم أفضل الأمم كلها؛ لأنَّ الوسط ما جمع خير الطرفين.

ويقال: أوسطهم بمعنى: أعدلهم وأفضلهم، وفي الحديث: «خير الأمور أوساطها»[1] لأنّ الوسط يجمع خير الطرفين، ويترك شر الطرفين، وإليك توضيح ذلك:

هناك صفة الجبن وصفة التهور وهناك الشجاعة:

فالجبن هو: الإحجام في موضع الإقدام؛ وفي غير موضع الإقدام.

والتهور هو: الإقدام والجرأة في موضعها وفي غير موضعها.

أما الشجاعة فهي: الإقدام والجرأة في موضع الإقدام فقط.

فمن هذا ترى أن الشجاعة وسطاً بين الجبن والتهور، لأنها أخذت من الجبن الصفة الحسنة وهي الإمساك عند موضعه، وأخذت من التهور صفة الإقدام في مواضع الإقدام، فالشجاعة جمعت كمال الطرفين، وتركت شر الطرفين، فهي وسط بينهما.

فلما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: عدولاً خياراً جمعتم كمالات من قبلكم من الأمم، وتركتم لها ما فيها من النقائص ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: على الناس قبلكم، ولتكونوا شهداء على الناس في زمنكم ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] فجعلناكم خياراً عدولاً لتشهدوا على الأمم قبلكم، ويزكيكم ويشهد لكم بالعدالة والتزكية أفضل رسول وهو سيدنا محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد بيّن هذا صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الصحيح

---

(١) انظره في (كشف الخفا) للعلامة العجلوني.

والرواية للإمام أحمد وابن ماجه[1] عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل، ويجيء النبي ومعه الرجلان، والنبي ومعه الثلاثة ـ أي: من آمن به واتبعه ـ وأكثر من ذلك.

فيقال له ـ أي: لنبيّ كل أمة ـ: هل بلغتَ؟ فيقول: نعم. فَيُدْعىٰ قومه فيقال لهم: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا ـ وهم الذين كفروا به ـ فيقال له: مَنْ يشهد لك ـ لأنك تدّعي التبليغ، بينما الأمة الكافرة تنكر أنك بلغتها. والبينة على المدعي ـ فيقول كل نبي: يشهد لي محمَّد وأمته، فيدعىٰ محمد وأمته فيقال لهم: هل بلَّغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم. فيقال: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلّغوا فصدقناه» الحديث. فيقولون: أخبرنا رسولنا عن كتاب ربنا أنّ الرسل قد بلغوا ـ أي: فآمنا به وبما جاء به ـ.

فقد شهدت هذه الأمة أنَّ الرسل قد بلغوا أممهم، مع أنهم لم يَرْوهم أو يدركوا زمنهم، والشهادة لا تكون إلا لِمَنْ شَهِدَ مَنْ سيشهد عليه؟!.

نعم إنَّ إيمانهم وتصديقهم بخبر القرآن الكريم، الذي جاء به سيد الأنام صلى الله عليه وآله وسلم هو أقوى من رؤية العيان. لأن العيان يحتمل الخطأ في النظر والمنظور، ويتأثر بمزاج الإنسان وسلامته، أما هذا القرآن فقد حكم بصدقه العقل والذوق والفطرة والشرع، وعلى أنّه حقاً كلام الله تعالى، النازل على رسول الله

---

(١) انظر (المسند): (٣/ ٥٨) و(سنن) ابن ماجه / ٤٢٨٤/ (٢/ ١٤٣٢).

صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يحتمل غير ذلك.

فيشهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأمته المتبعة بالتزكية والعدالة، حتى تُقبل شهادتهم على الأمم قبلهم؛ وأن رسلهم قد بلغوا.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٨ ـ ٦٩].

فلما تجلى سبحانه لفصل القضاء وأَمْرِ الحساب، أشرقت أرض المحشر بنور ربها، فلما أشرقت بنور ربها هناك علمت نفس ما قدمت وأخرت، وظهرت ضمائر القلوب ودقائق الأمور، لأنَّ شأن النور أن يُظهر الأمور، وكلما قوي النور أظهر خفايا الأمور ودقائقها.

وإذا كانت أرض الحساب قد أشرقت لتجلي ربِّ العالمين عليها، فاعلم أنه إذا تجلى رب العزة أشرقت له الأماكن والبقاع كلها، فإذا تجلى على أرض القلب أشرق القلب بنور ربه.

ولذلك فإنَّ قلوب المؤمنين الكمل هي في الحقيقة مشارق أنوار رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ وهو كتاب الإحصاء، الذي أحصيت فيه جميع الأشياء، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ [النبأ: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ

﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩].

فالكتاب أحصى عليهم أعمالهم، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة كما أنهم وجدوا أعمالهم حاضرة؛ وآثارها الظلمانية موجودة عليهم فكيف ينكرونها؟! بل راحوا يَدْعُون على أنفسهم بالهلاك والموت: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: يا موتتنا أحضري، ولكن لا موت يخلصهم، ولا حياة نعيم لهم، ونسأل الله العافية.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً﴾ أي: لا يترك ﴿صَغِيرَةٗ﴾ وهي التبسم ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ وهي الضحك والقهقهة ﴿إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ اهـ.

وإنّ ما تكتبه الملائكة في الصحف إنما هو نسخة جزئية عن كتاب الإحصاء، لأن كتاب الإحصاء جامع عام للكل، وهو غير كتاب القضاء.

قوله تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: جيء بالنبيين ويسألهم رب العالمين هل بلغتم؟ فيقولون: نعم، وتنكر الأمم الكافرة ذلك، فيؤتى بالشهداء، وهم أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم المتبعيْن له، فيشهدون أن الأنبياء قد بلغوا أممهم، وزكاهم وعدلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقبلت شهادتهم فجرى الحكم أن الأنبياء قد بلغوا، وحينذاك ينفض الأمر إلى الحساب.

ومن هذا يتبين لك أنّ جميع الأمور موقوفة على شهادة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم، لأنَّ موقفه صلى الله عليه وآله

وسلم موقف الشاهد، كما أخبر تعالى بقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ وعلى محور شهادته تعتبر الشهادات.

وإن في قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ بياناً لفضل الأمة المحمدية المتبعة لرسولها صلى الله عليه وآله وسلم، وأنَّ لها الفضل على بقية الأمم، في كمالاتها، وإيمانها ومعارفها، حتىٰ إذا جاء يوم القيامة ظهر ذلك لجميع الخلائق، كما بيّن ذلك صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «أنا وأمتي ـ أي: المتبعة له ـ يوم القيامة على كوم ـ أي: مكان مرتفع ـ مشرفين على الخلائق، ما من أحدٍ من الناس إلا ودَّ أنه مِنّا، وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه عز وجل»[1] ولما كان منصب الشهادة على الأمم منصباً كبيراً، ومقاماً عظيماً؛ كان جديراً بكل مؤمن أن يسأل الله تعالى هذا المنصب والمقام.

ولذلك دعا به النجاشي وجماعته لما أسلموا، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣] أي آمنا بأنه لا إلَه إلا الله وأن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنَّ هذا القرآن كلام الله تبارك وتعالى ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: مع الشاهدين من أمة سيدنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وأتباعه، الذين يشهدون على الأمم قبلهم، وهذا لأن

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

هذه الأمة المتبعة الذين نالوا مقام الشهادة على الأمم قبلهم ، إنما زكاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وشهد لهم عند الله تعالى أنهم عدول خيار .

وما أشرف وأسعد من يشهد له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالعدالة ، والتقى ، والصلاح والزكاة ، وصلى الله على سيدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

أخبار النقل تُصحِّح أخطاء العقل وتُقوِّم اعوجاج الفكر

لقد أخبر سبحانه أنّ أهل الإيمان هم أهل العقل الصحيح ، لأنهم قوّموا عقولهم ، وصححوا أفكارهم بأدله القرآن الساطعة ، وبراهينه العقلية القاطعة ، وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد : ١٩] .

ووصف سبحانه أهل الإيمان الكامل بأنهم أولو الألباب ، قال عز وجل : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ثم بين وصفهم وشأنهم : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ ﴾ وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ [آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩٣] .

لأن العقل الصحيح ، والفكر السليم من الأهواء والأسواء يقتضي الإيمان والتسليم بما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، هذا وإنَّ خبر القرآن وما ثبت عن سيد الأنام صلى الله وآله

عليه وسلم أقوى من رؤيا العيان ، وذلك لأن نور البصر لا يرى الأشياء على حقيقتها كما يرى الإنسان القمر صغيراً ، وكذلك سائر النجوم ، ولكنها في حقيقتها قد تكون قدر الأرض أو أكبر منها ، كما أنك ترى نور الكهرباء مستمراً متواصل لا انقطاع فيه ، ولكنه في الحقيقة ذبذبات متوالية ، ولكن لسرعتها لا يدرك البصر تواليها ويحسبها مستمرة ، كما لو نظرت إلى ماء ينسكب من إبريق لظننته قضيباً وهكذا.

فنور البصر يحتاج إلى نور آخر يُصحح له أخطاءه ، ويبين له الحقائق ، وما هذا إلاَّ بنور العقل.

فبالعقل اهتدى الإنسان إلى معرفة هذه الأمور التي لم يستطع نور البصر إدراك حقيقتها.

إلا أن العقل يتعامل مع الأمور المحسوسة ، سواء بالعيان أو بالسماع ، أو باللمس ، أو بالشم أو بالذوق ، ولكنه لا يدرك ما غاب عن هذه الحواس ، فالعقل وحده لا يكفي للتوصل إلى قضايا الإيمان وما أخبر عنه القرآن.

ولذلك وصف سبحانه هذا القرآن بأنه نور وهدى ، وبصائر للناس ، تستنير به العقول والأفكار ويبصِّرها ، ولذلك فإن أهل العقل الصحيح يتقبلون قضايا الإيمان بالتسليم ، والسمع والطاعة ، لأنهم أدركوا أنّ هناك نوراً أقوى من نور عقولهم ، بل هو نور لعقولهم وأفكارهم وأرواحهم وأشباحهم ، ألا وهو القرآن الكريم ومن نزل عليه صلى الله عليه وآله وسلم ، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾[المائدة: ١٥] أما

النور فهو رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي قال الله تعالى في وصفه: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦] ـ كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى ـ وأما الكتاب المبين فهو القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، وجاء فيه بيان كل شيء.

ومن جملة ذلك أنّ هذه الأمة المتبعة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تقف يوم القيامة موقف الشهادة على الأمم قبلها ، وأن رُسُلَهم قد بلّغتهم ، فيقال لهم: وما علمكم بذلك؟ ـ أي: ولم تدركوا بعقولكم أو بأبصاركم أن الرسل قد بلغوا أممهم ـ.

فيقولون: أخبرنا رسولنا عن ربنا تبارك وتعالى في كتابه أنَّ الرسل قد بلغت أممهم ـ أي: وإن خبر القرآن أقوى وأقطع من رؤيا العيان ـ كما تقدم بيانه ، فلا يصحح نظريات العقل إلاّ أخبار النقل عن الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

فالأصل والميزان والمصحح لنظريات العقل هو: ما ورد عن الله تبارك وتعالى بواسطة رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين.

* * *

من مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم

الدعوة إلى الله تعالى

قال تعالى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٦].

فلقد أرسل الله تعالى الرسل صلوات الله عليهم دعاةً يدعون الناس إلى الله تعالى.

كما أخبر الله تعالى عن سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ [نوح: ٥] وإن أعظم الرسل دعوة إلى الله تعالى، وأعمهم وأوضحهم بياناً ودعوة إلى الله سبحانه، إنما هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤٦].

وهذا موقف عظيم له صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم، ويجب على العالم أن يقابلوا هذا الموقف بالاستجابة لدعوته صلى الله عليه وآله وسلم.

عموم دعوته صلى الله عليه وآله وسلم:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا

﴿وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦] أي: بمشيئته وتيسيره الخاص سبحانه وتعالى.

أما أنه صلى الله عليه وآله وسلم الداعي العام لجميع الأنام، فقد دعى الإنس والجن، وفي هذا يقول الله تعالى إخباراً عن الجن: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣١] أي: وهو سيدنا محمد صلى الله وآله عليه وسلم.

فلقد دعا الجن إلى الله تعالى، ووفدوا إليه صلى الله عليه وآله وسلم، وذهب مرات إليهم، وجمعهم، وأرشدهم، وعلمهم، وسألوه فأجابهم وبين لهم الحلال والحرام[١].

ومما ورد في صفاته ومقاماته صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه الداعي المطلق إلى الله تعالى، ما ورد في (سنن) الدارمي وغيره[٢] أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «أُتِيَ ـ أي: أتاه ملكان ـ فقيل له: لِتنم عينك، ولتسمع أذنك، وليعقل قلبك، قال: فنامت

---

(١) قال الإمام السيوطي في (الدر المنثور): أخرج ابن أبي شيبة وابن منيع، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم والبيهقي معاً في (الدلائل). عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (هبطوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة) الحديث.

(٢) انظره في (السنن) (١/٧) وانظر (صحيح) البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم / ٧٢٨١/ (١٣/٢٤٩).

عيناي ـ أي: ولم ينم قلبه صلى الله عليه وآله وسلم ـ وسمعت أذناي، وعقل قلبي.

قال: فقيل لي ـ أي: فقال ملك للآخر ـ: مثاله ـ أي: في أمته ـ سيد بنى داراً، فصنع مأدبة، وأرسل داعياً ـ يدعو إلى الدار والمأدبة ـ فمن أجاب الداعي رضي عنه السيد، ودخل الدار، وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة، وسخط عليه السيد.

قال: فالله السيد، والدار الإسلام، والمأدبة الجنة، والداعي محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم».

وإن الإسلام هو دار السلام على الحقيقة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: ٢٠٨] أي: في الإسلام.

وضوح دعوته صلى الله عليه وآله وسلم وطريقها:

قال الله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨].

والمعنى: قل لهم يا رسول الله، قل لجميع خلق الله: إنسهم وجنهم: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ أي: طريقي ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: على طريقة واضحة مستنيرة، لاخفاء فيها ولا التباس، وعلى شريعة ظاهرة النور والحق، وإن نور هذه الشريعة مُبصِّر للأرواح والعقول، بل مُبصر للأعين أيضاً.

وقد بين هذا صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث «لقد تركتكم

على مثل البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك»[1] أي: تركتكم على شرعة وشريعة عملية ، وملة اعتقادية مثل البيضاء ، لا خفاء ولا التباس ولا ظلام فيها ، بل كلها نور وهدى وبيان.

وروى ابن ماجه في (سننه)[2] عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً ونحن نذكر الفقر ونتخوفه ـ أي: يتخوفون من عواقبه ـ فقال عليه الصلاة والسلام: «آلفقر تخافون»؟ أي: تخافون الفقر وأنتم مؤمنون ، وأنتم على الله متوكلون؟!! «والذي نفسي بيده لتصبَّن عليكم الدنيا صباً» أي: تفتح عليكم الدنيا ، وهذا ما حصل عند الفتوحات الإسلامية ، وكثرة غنائم المسلمين «حتى لا يُزيغ قلبَ أحدكم إزاغة إلا هيه»[3].

وفي هذا تحذير للذين يأتون مِنْ بعد الصحابة أنهم سيفتنون في أموال الدنيا. وليحذر المؤمن من أن يطغيه المال مهما تكاثرت عليه الدنيا.

ثم بين عليه الصلاة والسلام فقال: «وأيم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء».

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: (صدق والله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، لقد تركنا على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء).

---

(١) رواه ابن ماجه في (سننه) في المقدمة حديث رقم /٥ و٤٣/ ، والحاكم (١/٩٦)، والإمام أحمد في (المسند): (٤/١٢٦).

(٢) في المقدمة حديث رقم /٥/ .

(٣) الضمير يرجع إلى الدنيا ، والهاء في آخره للسكت ، أي: لا يميل قلب أحدكم إلا الدنيا.

ومعنى: «على مثل البيضاء» أي: على ملة مثل الأرض البيضاء التي لا يعكر لونها الليل، وإنما هي بيضاء في الليل والنهار.

أو المراد على قلوب بيضاء، فلا تعكروها وتغيروها بحطام الدنيا.

وجوه دعوته صلى الله عليه وآله وسلم وإلى ما دعا:

لقد دعا صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإيمان بالله تعالى، وإلى الإيمان برسل الله، وأنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ودعا إلى جميع ما أمر الله به سبحانه وتعالى.

وفي هذا يقول الله سبحانه: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨].

والمعنى: وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم بالأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة، فَلِمَ لا تستجيبون لدعوته صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ﴾ أي: والحال قد أخذ الله ميثاقكم ـ أي: في عالم الذر قبل هذا العالم ـ أخذ ميثاقكم على أنه سيرسل إليكم رسلاً تؤمنون بهم، وبما يدعونكم إليه، فيجب عليكم وفاءً بالعهد والميثاق، وتصديقاً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وإيماناً به: أن تستجيبوا دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

ويشير بهذا سبحانه إلى العهد والميثاق الأول، وهو الميثاق يوم قال لهم الله عز وجل: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ﴾ أي: أنت ربنا.

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقد بين هذا صلى الله عليه وآله وسلم، كما جاء في (زوائد مسند) أحمد وغيره[١]، عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال في هذه الآية: إن الله تعالى جمع أرواح بني آدم ـ أي: للعهد والميثاق ـ وَصَوَّرهم ـ أي: جعل كل روح على صورة جسدها، وأخذ صور الذرات الحقيقية وألبسها الأرواح الإنسانية ـ فاستنطقهم وكلمهم، وأخذ عليهم العهد والميثاق، وهذا هو قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ فقال لهم: فإني أُشهد عليكم السماوات السبع، والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم عليه السلام، أن تؤمنوا بي ولا تكفرون، واعلموا أنه لا إلّه غيري، ولا رب لكم غيري، وإني سأرسل إليكم رسلاً يذكرونكم عهدي وميثاقي، وَأُنزل عليكم كتباً.

قالوا: شهدنا على ذلك ـ وأقروا بذلك ـ وهذا هو قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ﴾ أي: وقد أخذ الله ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾ أي: يوم عالم الذر على أنه لا إلّه إلا الله، وأنه سيرسل الرسل ويذكرونكم بهذا العهد، وقد جاءكم هذا الرسول الكريم، وذكركم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مؤمنين بالله وخبر الله، فالله يقول ذلك، وإن كنتم مؤمنين برسول الله، فيجب عليكم أن تصدقوه بما دعاكم إليه من عند الله تبارك وتعالى.

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره: رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه، ورواه ابن أبي حاتم، وابن جرير وابن مردويه في تفاسيرهم.

ولقد استجاب العقلاء لدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وآمنوا بالله تعالى ، لأنهم تفكروا وتأملوا فيما دعا إليه صلى الله عليه وآله وسلم ، فرأوه حقاً معقولاً ، فآمنوا واستسلموا لدعوته صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد ذكر سبحانه وتعالى موقف العقلاء مع دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإيمان بالله ، وأنّه لا إلّه إلا الله ، وأنه سبحانه حقاً واجب الوجود:

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠] وهم أهل العقول الصحيحة ، الذين وصلوا إلى لباب الأمور ، وتفهموا الحكمة منها ، والسر في وجودها ـ فما هي صفة أولي الألباب ـ قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: ما في السماوات من نجوم وكواكب ، والنظام الفلكي الذي أقامها الله تعالى فيه ، والمواقع التي أوقعها الله تعالى فيها ، وكذلك الأرض وما فيها من عوالم ، وماذا يقول أولو الألباب بعد التفكر: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١] أي: ما خلقت هذا عبثاً ولهواً ، بل كله بالحق والحكمة ، والإحكام والإبداع ، وكل شيء يا رب خلقته فكملته وتممته ، وأبدعته ، وأتقنته: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل: ٨٨].

وما دام كل هذا الخلق بالحق والحقيقة ، والحكمة والعدل ، فلا بد له من حقيقة يرجع إليها ، وهي الآخرة ، التي تظهر فيها حكمة أحكامه سبحانه وتعالى ، وحكمة شرائعه ، وحسن عواقب

مَنْ مشى عليها ، وسوء عواقب من خالفها .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١].

قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٢] وإنّ أظلم الظلم هو إنكار وجود رب العالمين ، أو الإشراك به سبحانه؛ كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

وإن أعدل العدل قول: لا إلّه إلا الله إيماناً بها ، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله سبحانه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل: ٤٤] أي: بلا إلّه إلا الله ـ أي: لأنها أصل العدل وعنها يتفرع كل عدل ـ.

قوله سبحانه: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وهذا المنادي هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي دعا إلى الإيمان بالله سبحانه ، لأنه الرب والخالق والممد لجميع الخلق سبحانه.

قوله تعالى: ﴿ يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ ﴾ أي: خالقكم ومربيكم ، ورازقكم وممدكم ، وهو حق واجب الوجود سبحانه وتعالى. وإذا كان كل تصديق وإيجاد يحتاج إلى دليل وبرهان حتى تُصدِّق به وتثبته ، فاعلم أنه ما من دليل ولا برهان تُثبت به وجود شيء إلا وذلك الدليل والبرهان يُثبت لك وجود الله تعالى ، وإذا

أنت أثبت الشيء الفلاني بدليل أو أكثر ، فإن جميع الأدلة النقلية والعقلية والسمعية والبصرية ، كلها أدلة على أنه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد نبه الله تعالى العقلاء إلى أنّ الإيمان بوجود الله أمر مُبرم معقول ، وهو أمر بديهي ضروري ، لا يحتاج إلى توقف أو إلى نظر ، قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥] أي: أنهم كانوا عدماً فصار لهم وجود ، فمَنِ الذي نقلهم من العدم إلى الوجود؟ العدم من نفسه لا يُعطي وجوداً ، فهل العدم أوجدهم ؟ أم أنهم خلقوا أنفسهم ؟ ، وَكِلا الأمرين لا يُتصور؛ فلا بد إذاً من خالق ، كما لابد للمصنوع من صانع ، وهذا هو الله تعالى رب العالمين.

ثم بين سبحانه وتعالى موقف العقلاء مع دعوته صلى الله عليه وآله وسلم فقال مُخبراً عنهم: ﴿ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣] أي: بما فيهم المقربين ، لأنهم لم يقابَلوا بهم في سياق الآيات ، وفي هذا يسأل المؤمنون العقلاء ربهم حسن العاقبة، بعد أن سألوا المغفرة، وتوفنا حين تتوفانا مع الأبرار ، بما فيهم المقربين لأنهم لم يقابلوا بهم.

وفي هذا طلب لحسن العاقبة بعد طلب المغفرة وتكفير الذنوب والسيئات.

وإن الأبرار لهم البِرّ والإحسان في كل العوالم ، لأنهم تحققوا بالبر ، وهو الإيمان بشعبه قال تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٩٤] أي:

ما وعدتنا به على ألسنة رسلك ، وأعظمهم وأجمعهم رسالةً هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي جاء بما وَعَدت به الرسل كلهم عن رب العالمين.

وإن لله وُعُوداً مع خلقه ، وله عهود معهم ، وهو سبحانه وتعالى لا يخلف ميعاده ، ومن جملة ذلك : أنه وعد من استغفره أن يغفر له قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] فنحن نستغفرك فاغفر لنا يا ربنا ، وأنت يا رب وعدت من دعاك أن تجيبه فقلت : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦١] ، ونحن ندعوك فاستجب لنا ، وأنت يا رب لا تُخلف وعدك ، ولكن اجعلنا أهلاً لهذا الوفاء؛ بأن نكون مستغفرين لك حقاً ، سائلين لك صدقاً ، داعين لك ونحن موقنون بالإجابة ، حتى نتحقق بوفاء وعدك ـ آمين.

ومن جملة ما وعد الله به عباده قوله : ﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [القتال : ٧] أي : إن تنصروا دين الله ، وأول ما يشمل هذا أن ينصر الإنسان دين الله على نفسه ، بأن يلتزم دين الله تعالى ؛ فينصره الله تعالى بأن يلهمه رشده ، وينصره على أعدائه مِنَ الجن والإنس.

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران : ١٩٤]. فطلبوا سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٥].

عموم دعوته صلى الله عليه وآله وسلم:

لقد كانت دعوته صلى الله عليه وآله وسلم عامة لجميع الإنس والجن، فقد دعاهم إلى الله تعالى، وإلى الإيمان بما جاء عن الله تعالى، وقد قال سبحانه مخبراً عن الجن: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ وهذا لما سمعوا القرآن من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، رجعوا إلى قومهم وقالوا من جملة ما قالوا لقومهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١] أي: وهو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وضوح دعوته وطريقه الذي دعا إليه صلى الله عليه وآله وسلم:

قال سبحانه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فالطريقة التي دعا إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي طريقة واضحة، فهي لا التباس فيها ولا غموض، ولا ظلماء ولا عمياء، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء»(١).

ولما مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه في طريقه على بعض يهود بني قريظة، قَدَّم له أحدهم صحيفة فيها شيء من التوراة، فأخذها عمر لينظر فيها، ولما رآها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «ما هذا يا عمر»؟.

---

(١) رواه ابن ماجه في (سننه) المقدمة حديث رقم/ ٥ و٤٣/، والحاكم في (المستدرك) (١/ ٩٦) والإمام أحمد في (المسند) (٤/ ١٢٦).

قال: صحيفة أعطاني إياها بعض يهود بني قريظة لما مررت عليهم ـ أي: ومكتوب فيها شيء من التوراة ـ.

فتغير وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، واشتد غضبه وقال: «أمتهوكون فيها؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية، والذي نفسي بيده لو أنَّ موسى حياً لما وسعه إلا أن يتبعني، والذي نفسي بيده لو أنَّ موسى أصبح فيكم واتبعتموه وتركتموني لضللتم، أنتم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين».

فقال عمر رضي الله عنه: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً[1].

فلقد بيَّن صلى الله عليه وآله وسلم أنه جاء بنور واضح ساطع فقال: «لقد جئتكم بها بيضاء نقية» أي: وفيها الغاية والنهاية، ولا حاجة لكم إلى هَدْيٍ غيري من آيات التوراة وغيرها.

فاعتبر أيها المؤمن في هذا البيان المحمدي، إذ لو أن موسى عليه السلام ظهر الآن بشريعته وتوراته واتبعه الناس لكانوا عند الله من الضالين.

ولو أنَّ موسى عليه السلام كان حياً بالحياة الدنيوية لترك شريعته وتوراته واتبع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ إنه لا هدي ولا رشاد، ولا سداد ولا نور بعد ظهوره صلى الله عليه وآله وسلم؛ إلا من هديه وإرشاده ونوره صلى الله عليه وآله وسلم.

وسيظهر ذلك جلياً واقعياً لمَّا ينزل عيسى عليه السلام آخر

---

(١) انظر (المسند) للإمام أحمد (٣/ ٤٧٠ و٤/ ٢٦٥) و(سنن) الدارمي المقدمة ص/ ١١٥.

الزمن ، ويعمل بشريعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويدعو إلى اتباعه صلى الله عليه وآله وسلم.

وإنّ من جملة ما فَضَّل الله به عيسى ابن مريم عليه السلام ، أنه نال شرف وفضل صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فعيسى عليه السلام نبي من جملة الأنبياء ، ورسول من جملة الرسل ، صحابي من كبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنَّه لم يَمُتْ بَعْدُ ، بل رفعه الله تعالى إليه جسماً وروحاً ، وهو في السماء الثانية ، حَيّاً بالحياة الدنيوية ، وقد اجتمع به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الإسراء والمعراج ، فنال مقام الصحبة ، وسوف يكون له في المحشر مقامان: مقام مع الأنبياء والرسل ، ومقام مع خاصة أتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لو كان موسى حياً لما وسعه إلا أَنْ يتبعني» أي: ولو كان إبراهيم حياً لما وسعه إلا أن يتبعه كذلك ، وكذا سائر الأنبياء والرسل ، لأنَّ شريعته هي الصالحة لكل زمان ، ومصلحة لكل قوم ، وهديه صلى الله عليه وآله وسلم هو الهدي العام ، إذ جَمَع الله تعالى له هَدْيَ مَنْ قبله من الرسل ، وزاده بالهدي المحمدي الخاص الذي لم ينله مَنْ قَبْله ، ولا حاجة بعد هديه وكتابه وشريعته صلى الله عليه وآله وسلم إلى هدي آخر ، أو كتاب آخر ، وقد قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥١] أي: ففي كتابه الغاية والكفاية، في جميع الأمور الاعتقادية والعملية ، والقولية والأخلاقية والأدبية ، وفيه سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

مبادىء دعوته صلى الله عليه وآله وسلم وإلى ما دعا إليه صلى الله عليه وآله وسلم:

بيَّن ذلك الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ ﴾ [الحديد: ٧ ـ ٩].

قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ ﴾ أي: لتؤمنوا وتصدقوا بربكم، وهذا أمر معقول مقبول عند أهل العقول، إذ لو نظر كل إنسان في نفسه وتفكر لأيقن أنه مخلوق مربوب، ولابد مِنْ خالق يُربيه ويمده، وهو الله تعالى الذي قال: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

وَمَنْ زعم أنَّ أمر الخلائق إنما هو تحولات وتنقلات، وتطورات من ذاتها وبطبيعتها، فيقال له في أبسط رد عليه: انظر إلى امرأة ورجل تزوجها، فترى أولادها جاؤوا مختلفين في الصورة والهيئة، ومنهم الذكر ومنهم الأنثى، وهم مختلفون أيضاً في التفكير والطباع، كل هذا التباين والاختلاف مع أن ماء الرجل واحد، وأرض التربة واحد؛ وهو رحم المرأة، فمن أين جاء هذا الاختلاف؟! ولو كان الأمر بطبعه لجاء الكل على نمط واحد، وطبيعة واحدة، وصفات واحدة، إذاً لابد للطبيعة من طابع، كما لابد للتطور من مُطوِّر، ولابد للحركة من محرك، ولابد للمصنوع من صانع، ولابد للمخلوقات من خالق وهو الله تعالى الذي قال:

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣ ـ ١٤].

ولو قلت: إن الأصل في الطبيعة معروف، ولكن قد تشذ شذوذات عن الطبيعة، ويحصل الاختلاف والتباين في الأشياء، والنواميس والنظم الكونية.

فيقال: لمّا شذ هذا الأمر عن الطبيعة ما يَشُذُّ عنها إلا لتغلبه عليها بالقوة، وله طبيعة أخرى، وكذلك إنْ حصلت شذوذات أخرى وتغلبت على الشذوذ الأولى، وقد يتعدد الأمر مما يعني أن هناك تضارب الطبائع، وقد تصير الغالبة يوماً ما مغلوبة، وهذا يدلك على أنَّهم كلهم مغلوبون، والقادر والغالب هو الله تعالى.

فالطبعة خَلْقٌ من خلق الله، خَلَقها وَطَبعها كما يشاء سبحانه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ أي: الذي تتربون في خَلْقِهِ، وتحت سمائه، وفوق أرضه، وهو الذي يمدكم ويغذوكم، ويتصرف بكم كيف يشاء؛ بمقتضى علمه وحكمته سبحانه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨] أي: وقد أخذ الله ميثاقكم في عالم قبل هذا العالم، وهو الميثاق الأول الذي أخذه الله على عباده في عالم الذر، ولا تقوم الساعة حتى يُولد كل من أُخذ عليه الميثاق، فمن أدرك الميثاق الآخر بأن آمن بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ووفى به: نفعه الميثاق الأول. ومَنْ لم يف بالميثاق الآخر لم ينفعه الميثاق الأول.

ومن لم يدرك الميثاق الآخر؛ بأن مات وهو صغير؛ لم يدرك

أوامر الشريعة ، ومات قبل سن التكليف ، فقد مات على الميثاق الأول ـ أي: على الفطرة المؤمنة ـ وهذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كمثل البهيمة تُنْتِجُ البهيمة ، هل ترى فيها جدعاء»[1].

فلقد فطر الله العباد على معرفته والإيمان به ، وجاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يُذكر بهذا الميثاق ، وهذا قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ [الحديد: ٨] أي: وقد أخذ الله ميثاقكم على توحيده والإيمان به ، ومعرفته سبحانه؛ يوم قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكركم بهذا الميثاق ، ويجدد العهد والميثاق معكم؛ بأن تبايعوه وتُسلِّموا له ما جاء به.

وكل من آمن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واستسلم له فقد بايع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن بايع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد بايع الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨] أي: إن كنتم عقلاء من أهل التصديق بما ينبغي التصديق به ، فمن باب أولى يجب أن تؤمنوا وتُصدقوا بما جاءكم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) رواه الإمام البخاري عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، في كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه /١٣٥٨/ (٣/٢١٩) ، ومسلم في كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة /٢٦٥٨/ (١٦/٢٠٧) والإمام أحمد في (المسند) (٢/ ٢٣٣).

وأهل التصديق هم أهل العقل والنظر ، الذين يتفكرون وينظرون في الأمر؛ فإن قامت الأدلة والبراهين على إثباته صدقوا واستسلموا.

وإنَّ العاقلَ يُثبت وجود النهار بمجرد أَنْ يرى أضواء النهار ، وأنوار الشمس الساطعة؛ الممتدة في الآفاق ، وإنْ لَمْ تر عينه عين الشمس.

فمن صدق بوجود النهار فهو بوجود الشمس أشد تصديقاً ، وإن لم يرها ، حتى وإنْ كانت محتجبة بالسحب والغيوم. ومن زعم أنّ النهار موجود ولكن الشمس غير موجودة؛ لأنها محتجبة عنه ولم ير عينها ، فقد طرق باباً في الجنون.

فلما قال الله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم من أهل التصديق بما يجب التصديق به؛ فيجب أن تكونوا أقوى تصديقاً وإيماناً بالله وبرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه مَا مِنْ دليل يُستدل به إلاّ ويدلك على وجود الله تعالى ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وما مِنْ برهان يقوم على إثبات شيء إلاّ ويبرهن على وجود الله وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن زعم أنّه لا يرى ذات الحق جل وعلا ، وهو لا يصدق بوجوده حتى يراه.

فيقال له: أنت كالذي أثبت وجود النهار وأنكر وجود الشمس لأنها مخفية عنه بالسحب والغيوم. وإنَّ الإنسان محجوب بنفسه وحسه عن رؤية الحق تعالى في هذا العالم الدنيوي ، إلاّ أنّ آثار أسمائه سبحانه ظاهرة جلية في نفسك ؛ وفي الآفاق من حولك.

فإنْ كنت مؤمناً بوجود الشمس فيجب أن يكون إيمانك بخالق الشمس أقوى ، وقد بَيَّنَ سبحانه في موقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين دعا الناس إلى الله ، واستجاب لدعوته من استجاب من أهل العقل والفطانة قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أهل العقول والحكمة والفطانة ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم بَيَّنَ سبحانه موقفهم بعد التفكر والنظر أن قالوا: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١] أي: إنَّ هذا عالم خُلقَ بانتظام وإحكام يدل على أنك يا الله حق واجب الوجود ، وقد تنزهت وتعاليت أنْ تَخلق ذلك عبثاً ولهواً ، ولابد من رجوعٍ إليك لتثيب المحسن وتعاقب المسيء ﴿ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ .

ثم ذكر سبحانه قولهم: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣] وهذا هو المنادي الذي قال فيه سبحانه: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤٦] وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي نادى العالم كله للإيمان بالله ، إذ مهما يكن عندك من يقينيات ثابتة بالأدلة فإنّ وجود الله أقوى ثبوتاً وتحقيقاً وتَعَيُّناً ، ومهما يكن عندك من أمور صَدَّقْتَ بها لقوة الصدق فيها فإن أدلة وجود الله أعظم وأصدق. ولذلك فإن كلمة الإيمان إذا أطلقت فإنها تنصرف إلى الإيمان بالله وبرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فإن كنت تصدق بوجود نفسك فيجب أن يكون إيمانك وتصديقك بوجود الله أقوى من إيمانك بوجود نفسك وهكذا. . . لأن المخلوقات كلها آثار تدل على المؤثر ، ومتى

أثبت وجود الآثار فيجب أن تكون بوجود المؤثر أشد إثباتاً وتصديقاً.

وحين تمر على بناية تراها بعينك، ولا ترتاب في وجودها، بل أنت على يقين بوجودها، فأنت من باب أولى وأجدر أشد يقيناً وتصديقاً بوجود الباني الذي بناها؛ وإن لم تره عينك، بل تُثْبت أن هناك بنَّاءً بنى البناية دون أن تسأل أحداً هل أن هذه البناية قامت بنفسها أم أن أحداً بناها؟! بل ولا تجري بينك وبين نفسك محاكمة عقلية لإثبات وجود مَنْ بنى البناية.

وإلى هذا المعنى أشار سبحانه بقوله: ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] والمعنى: أفي وجود الله شك؟!!! خالق السماوات والأرض، وهكذا كما تقول لمن ارتاب وشك في وجود من بنى البناية: أفي وجود الباني شك؟ فقد بنى البناية.

فانظر أيها الإنسان إلى هذا البناء الكبير مِنْ حولك، بما فيه مِنْ سماء وأرض، وكواكب وغير ذلك فَمَنِ الذي بناها؟!!.

قال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

ولقد نبه سبحانه العقلاء إلى أنَّ الإيمان بوجود الله تعالى أمر مبرم معقول، لا يحتاج إلى توقف ونظر فقال: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

فلقد كانوا عَدَماً ثم انتقلوا إلى الوجود، فهل العدم أوجدهم وخلقهم؟ أم أنهم خلقوا أنفسهم؟! وكلاهما لا يُتصور، فالذي أوجدهم هو واجب الوجود سبحانه وتعالى، وهو خالق غير

مخلوق ، خلق الإنسان ، وخلق السماوات والأرض وما بينهما .

فإن كنت تُثْبت وجود السماوات والأرض وما بينهما؛ فيجب أن يكون إثباتك وتصديقك بوجود خالق السماوات والأرض أقوى وأعظم .

ولذلك كان من تلقين الله تعالى الحجة لموسى عليه السلام في مناظرته لفرعون : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء : ٢٣ ـ ٢٤] أي : إن كنتم من أهل التصديق واليقين بوجود شيء مُسلَّم بوجوده ، وقامت الأدلة والبراهين على وجوده ، فيجب أن يكون تصديقكم وإيمانكم بوجود الله خالق السماوات والأرض أقوى وأقطع ؛ طالما أنكم موقنون بوجود السماوات والأرض .

وقد قال سبحانه : ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات : ٢٧] فهو الذي بنى السماء والأرض، وهو الذي صنع السماوات والأرض ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل : ٨٨] وهو الذي خلق الإنسان وسواه ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس : ٧] .

وجوب الاستجابة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

لقد دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العباد إلى الله تعالى ، أي: إلى الإيمان بالله تعالى ، وأن الله تعالى حق واجب الوجود ، ودعا إلى الإيمان باليوم الآخر ، وإلى الإيمان بجميع قضايا الإيمان التي بيَّنها صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد أخبر سبحانه عن موقف العقلاء من دعوته صلى الله عليه

وآله وسلم ، وأن موقفهم كان موقف الاستجابة لدعوته صلى الله عليه وآله وسلم. وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وقد بين سبحانه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جاء يدعوَ إلى الإيمان بالله تعالى ، وأنّ في هذه الدعوة الحياة الأبدية التي ينالها من استجاب لدعوته صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن استجاب لدعوة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد حيي حياة الأبد ، ومن لم يستجب لدعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مات ميتة الأبد.

وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فجاء صلى الله عليه وآله وسلم يدعو إلى الحياة الأبدية التي تتضمن الحياة السعيدة الطيبة في الدنيا ، والحياة السعيدة الطيبة في الآخرة ، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧].

ومن هنا يفهم الإنسان ضرورة الاستجابة لدعوة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه جاء بالحياة الطيبة الأبدية ، ولا غنى للإنسان عما فيه حياته ، فيجب عليه إذاً عقلاً وذوقاً وفطرةً أنْ يستجيب لدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وإن الإنسان إذا اشتد عليه الجوع أو العطش ، ثم دعاه إنسان إلى الطعام والشراب ، فتراه يستجيب لدعوته حتى يدفع عنه

الموت ، ولحاجته القوية إلى الطعام والشراب ليحافظ على حياته الجسمية ، فمن استجاب إلى الطعام والشراب حيي جسمه ، ومن استجاب إلى دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حَيِيَ قلبه وروحه وجسمه حياة الأبد.

ومِنْ هنا يفهم الإنسان حاجته إلى الاستجابة لدعوة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنه يحتاج إليها أشد من حاجته إلى من دعاه إلى الطعام والشراب وهو محتاج إليهما ، لأنه إذا لم يشرب الماء أو يأكل الطعام مات جسمه ميتة مؤقتة ، أما إذا لم يستجب لدعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مات قلبه وروحه وتبعه جسمه ميتة الأبد.

ولهذا قال سبحانه وتعالى في الكفار الذين فقدوا هذه الحياة ، لما أعرضوا عن دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النحل: ٢٠ ـ ٢١] أي: إنهم على الحقيقة أموات ، ولو كانوا أحياءً بالصورة والجسم.

أما أهل الإيمان الكامل فهم أحياء غير أموات ، وإنْ مات جسمهم بمفارقة الروح للبدن صورة ، ولكنهم يتمتعون بالحياة الروحية القوية إلى أن يدخلوا الجنة ويحيون حياة الأبد.

وإن الله تعالى خلق الإنسان من أجل أن يَعرف ربه ويؤمن به ، ويعبده ويتقرب إليه ، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وأول العبادة وأصلها أن يعرف الإنسان ربه ويؤمن به ، ولذلك

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: ليعرفونِ، فإذا عرفوا الله ربهم خالقهم ورازقهم، وجب عليهم أن يعبدوه، لأنهم عباده، وإذا ترك الإنسان ما خلقه الله من أجله؛ فإنه لا يبقى إنساناً كاملاً حقيقياً، لأنه مَنْ وُجِدَ لشيء وذهب عنه ذلك الشيء فَقَدَ حقيقة ذلك الشيء، وبقي له الاسم والصورة فقط.

كما أنَّ السيارة وُجِدَت وأُعدت لأن تسير، وإذا طرأ عليها ما جعلها عاجزة عن السير صارت سيارة بالاسم والصورة، ولكنها على الحقيقة كتلة حديد، فهي والصخرة سواء، لأنها فَقَدت ما وُجدت من أجله وهو السير.

ومن اشترى فرساً ثم تبين له أنه لا يكرّ ولا يفرّ، ولا يصلح للمسابقة والجري، فإنه اشترى فرساً بالاسم والصورة، ولكنه بغل في الحقيقة، لأنه فقد ما وُجد من أجله وهو الكَرُّ والفرّ.

وكذلك فإنّ الإنسان إذا فَقَدَ ما خُلق من أجله؛ وهو عبادة الله تعالى: انسلخ عن إنسانيته الحقيقية، وبقي إنساناً بالاسم والصورة، وصار مع البهائم في الحقيقة.

ولذلك وصف الله تعالى الكفار فقال سبحانه: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

أما الإنسان الحقيقي الكامل، فهو الإنسان الإيماني الرباني، كما قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾ [آل عمران: ٧٩] إيماناً بالله تعالى وتقرباً إليه.

وهذا الإنسان الكامل هو اللائق أن يدخل جنة الله تعالى، وأن

يحل ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥].

منهج دعوته صلى الله عليه وآله وسلم:

لقد دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العباد بالمنهج الذي بينه الله تعالى له، فقال سبحانه: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥] وبهذا انقسم الناس في الدعوة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: وهم أهل الفطرة السليمة والعقل الراجح الصحيح، لم ينحرفوا بشبهات ضالة غيَّرت عقيدتهم، ولم ينحرفوا بشهوات زائفة أفسدتهم؛ فوقعوا في المحرمات، فهم على الحقيقة أهل حكمة، فمتى عُرِضَت عليهم الحكمة وأنوار النبوة والرسالة ظهرت لهم حالاً، وأبصروها بقلوبهم، وعرفوا حقيقتها؛ فآمنوا بالله وبرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهناك قسم من الناس تغيرت فطرتهم من حيث الأعمال، ومالوا إلى اتباع الأهواء والشهوات والفسوق، وبهذا يحتاج إلى وعظ وتذكير، بأن يُذكر بعواقب ما يفعل. وإنّ عاقبة الفسق هلاك في الدنيا والآخرة، وإن عاقبة أهل الإيمان الفلاح في الدنيا والآخرة، فإذا وُعِظَ أحدهم وذكر بأنواع الوعظ والتذكير لان قلبه، وسرى روح الإيمان إليه، فأذعن وآمن وتاب إلى الله سبحانه.

وهناك قسم من الناس تغيرت فطرتهم وعقيدتهم، فهم يحتاجون إلى الحجج والبراهين حتى ترتفع الشبهات الضالة من قلوبهم، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

ولذلك دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس على حسبهم ، فدعا أهل الحكمة بعرض الحكمة عليهم ، ودعا أهل المخالفات العملية بالوعظ والتذكير ، ودعا أهل الشبهات والانحرافات الاعتقادية بالحجة والبرهان.

فَمِنْ جملة من دعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعرض الحكمة واستجابوا لها ، ما جاء في حديث ضمام بن ثعلبة من بني تغلبَ كما ورد في (الصحيحين) وغيرهما[1] عن أنس رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد جاء رجل أعرابي ، على جملٍ له ، فأناخه في المسجد ـ أي: في ساحة المسجد من الخارج ، ثم عقله عند باب المسجد ـ ثم دخل وقال: أيكم محمَّد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

فقلنا له: هذا الرجل الأبيض المتكىء ، وكان صلى الله عليه وآله وسلم كثيراً ما يتكىء في مجلسه لتواضعه صلى الله عليه وآله وسلم . وفي رواية قلنا: هذا الأمغر المرتَفِقُ ـ والأمغر: أي: هو شديد البياض المشرب بحمرة ، غاية في الحسن والجمال والبهاء صلى الله عليه وآله وسلم ، والمرتفق: المتكىء ـ.

فقال الرجل: ابْنَ عبد المطلب ـ أي: يا بن عبد المطلب ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم له: «قد أجبتك».

---

(١) البخاري كتاب العلم ، باب ما جاء في العلم /٦٣/ (١/١٤٨) ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب السؤال عن أركان الإسلام /١٢/ (١/١٢٤) وانظر لزاماً السيرة النبوية لابن هشام (٤/٥٧٤).

فقال: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة ، فلا تجد عليَّ في نفسك.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «سل عما بدا لك».

فقال الرجل: فمن خلق السماء؟ قال: «الله».

قال: فمن خلق الأرض؟ قال: «الله».

قال: فمن نصب الجبال ؟ قال: «الله».

قال: فمن جعل فيها المنافع ـ أي: جعل في الجبال المعادن وغير ذلك من المنافع ـ قال: «الله».

قال: أسألك بالذي خلق السماء ، وخلق الأرض ، ونصب الجبال ، وجعل فيها المنافع آلله أرسلك؟.

قال: «اللهم نعم».

قال: أسألك بالذي خلق السماء ، وخلق الأرض ، ونصب الجبال وجعل فيها ما جعل ، آلله أمرك أن نُصلي الصلوات الخمس في كل يوم وليلة؟ ـ وإنَّما سأل عن هذا لأنه صلى الله عليه وآله وسلم أرسل إليهم من يدعوهم إلى الله ، فجاء هذا يستكشف الأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

قال: «اللهم نعم».

قال: أسألك بالذي خلق السماء ، وخلق الأرض ، ونصب الجبال وجعل فيها ما جعل ، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة ؟.

قال: «اللهم نعم».

قال: أسألك بربك وبرب من قبلك ـ كما في رواية ـ آلله أمرك أن تأخذ الصدقة من أغنيائنا فتردها على فقرائنا؟.

قال: «اللهم نعم».

وفي رواية لمسلم: آلله أمرك أن نحج البيت إن استطعنا إليه سَبيلاً؟.

قال: «اللهم نعم».

فقال الرجل: آمنت بما جئتَ به، وأنا رسول مَنْ ورائي من قومي.

فلما رجع إلى قومه قال لهم: يا قومي بئست اللات والعزىٰ.

فقال له بعض المشركين: لا تقل هذا يا ضِمَام، لا يصيبوك بجذام أو برص أو جنون.

فقال: يا قوم لا يضراني ولا ينفعاني.

يا قوم: إن الله تعالى أرسل إلينا رسولاً، وجاءنا بكتاب من عند الله لأجل أن نتبعه، ونترك ما عليه آباؤنا ـ أي: من عبادة الأصنام ـ وهكذا نصحهم ووعظهم؛ فآمنوا. وما أمسى عليهم المساء إلا والصلوات تقام في بيوتهم.

وهذا من جملة أساليب عرض الحكمة، فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم، كثيراً ما يعرض الحكمة، فيتراءى نورها لأهل القلوب الصافية فيؤمنون ويسلمون ويستسلمون.

ومن جملة من دخل في دين الله تعالى كما دعاه رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم، وقد ظهر له نور الحكمة: عدي بن حاتم رضي الله عنه[1].

قال عدي بن حاتم رضي الله عنه ـ لما سأله بعض التابعين أن يحدثهم حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ: لما بلغني ظهور النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبلغني ما جاء به من الأخلاق الحسنة، والآداب الفاضلة، قلت: أذهب إلى هذا الرجل، فإنْ كان صادقاً أتَّبعه، وإن كان كاذباً لا يضرني ـ وكان عدي على دين النصرانية ـ فجئت إليه وعنده سلمان وبلال وصهيب. فدخلت.

فقال لي حين دخلت: «يا عدي أسلم تسلم».

قلت: يا محمد إنني على دين.

قال: «أنا أعلم بدينك منك».

قلت: أنت أعلم بديني مني؟!!!.

قال: «نعم. ألست على دين الركوسية» ـ وهي النصرانية ومنها شيء من الصابئة ـ.

قلت: بلى.

قال: «ألست أنت تأكل مرباع قومك»؟ ـ أي: تأخذ من قومك ربع أموالهم ـ.

قلت: بلى.

---

(١) خبره في (السيرة) لابن هشام: (٤/٥٧٩) وما بعدها، وفي (طبقات) ابن سعد (٢/٨٦)، والسيرة الشامية (٦/٥٧٧).

قال: «هذا لا يحل لك في دينك ، أليس كذلك»؟ .

قلت: نعم يا رسول الله .

قال: «هذا يحل لك» ؟ . قلت: لا يحل لي .

قال: «هذا يحل لك» ؟ قلت: لا يحل لي .

فلما قالها لي ثلاث مرات تواضعت وتخاذلت في نفسي .

فقال لي صلى الله عليه وآله وسلم: «أسلم تسلم» .

فقلت: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأنك رسول الله .

ثم بَيَّنَ له صلى الله عليه وآله وسلم أمور دينه .

قال: ما الإسلام ـ يريد الإسلام الاعتقادي بمعنى الإيمان ـ.

قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» .

قال: آمنت وأسلمت يا رسول الله .

ثم بقيت جالساً. فدخل رجل وشكا إليه صلى الله عليه وآله وسلم الفاقة ـ أي: القلة ـ ثم دخل رجل فشكا إليه إيذاء المشركين له .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أعلم أنه كان يمنعك عن الدخول في ديني أنك كنت تقول ـ أي: في نفسك ـ: إنَّ هذا الرجل أتباعه ضعفاء ، يا عدي بن حاتم لئن طالت بك حياة والله ليُتِمَّنَّ الله هذا الأمر ـ أي: لابد أن ينتشر هذا الدين في المشارق والمغارب ـ ولئن طالت بك حياة لترين الظعينة ـ أي: المرأة ـ تخرج من الحيرة هل تعلم الحيرة»؟ قلت: لم أرها ، ولكن أُخبرت

عنها «تأتي بيت الله الحرام لا تخاف أحداً إلا الله» ـأي: ينتشر الدين والأمان، ويرتفع خوف المسلمين من أعدائهم ـ.

«ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى بن هرمز».

قلت: كسرى بن هرمز؟؟!!! قال: «كسرى بن هرمز».

«ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج بملئ كفه من ذهبٍ أو فضةٍ يطلب من يقبله منه، فلا يجد أحداً يقبله منه.

وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان، فليقولن له: ألم أبعث فيك رسولاً فبلغك؟ ـ أي: فماذا كان موقفك مع رسالة وشريعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ. ألم أعطك وأوسع عليك؟ فينظر العبد أيمن منه فلا يرى إلا ما قَدَّم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أمامه فلا يرى إلا النار، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة».

قال عدي: والله رأيت الظعينة تخرج من الحيرة تأتي بيت الله الحرام لا تخاف إلا الله، وكنت من الذين فتحوا كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما أخبر به أبو القاسم صلى الله عليه وآله وسلم، يخرج من أكفه ذهباً لا يجد أحداً يقبلها منه، وقد وقع نمط من هذا في عهد خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، ولكنه سيحصل على وجه شامل زمن عيسى ابن مريم عليه السلام قبل الساعة.

وهكذا ترى أن عدياً رضي الله عنه أسلم واستسلم؛ لما بدا نور

الحق ، وظهرت له أنوار حكمة دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن جملة هذا ما ورد عن عمرو بن مرة الجهني رضي الله عنه[1].

قال عمرو بن مرة: كنا في الجاهلية ـ أي: قبل أن يدخل في الإسلام ـ فخرجت أنا وجماعة من قومي إلى مكة حجاجاً ـ عملاً بآثار شريعة إسماعيل عليه السلام ـ فلما انتهينا إلى مكة رأيت في النوم نوراً يسطع من جبال مكة ، وسمعت صوتاً من داخل النور يقول: انقشعت الظلماء ، وسطع الضياء ، وَبُعِثَ خاتم الأنبياء.

وهذا لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جاء بنور من عند الله قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ [التغابن: ٨].

وورد في التوراة ـ بعد التعريب ـ «تجلى الله من طور سيناء ـ أي: ظهر نور الله من سيناء. إشارة إلى رسالة موسى عليه السلام ـ وأشرق من ساعير ـ إشارة إلى رسالة عيسى عليه السلام ـ واستعلن من جبال فاران» ـ أي: جبال مكة ـ.

أي: ظهر نور الله مُستعلناً كما تُسْتعلن الشمس في كبد السماء وقت الظهيرة ، وهذا لأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أعظم مظهر نوراني رباني ، وأعظم مجلىٰ إلٓهي تَجَلَّىٰ فيه نور الله ، فأشرق على العالمين كلهم.

قال عمرو: ثم انكشف لي نور حتى رأيت المدائن والحيرة ،

---

(١) خبره في (مجمع الزوائد) (٨/ ٢٤٤).

وسمعت صوتاً من داخل النور يقول: ظهر الإسلام، وَكُسِرَتِ الأصنام، وَوُصِلَتِ الأرحام.

قال عمرو: فانتبهت وأنا فزع، فقصصت الرؤيا على قومي. ثم حج ورجع إلى بلده.

قال: فما مضت مدة إلا وجاء أن هناك رسول قد بُعِثَ، واسمه أحمد، فعملت جهدي وهاجرت إليه، وأخبرته بما رأيته في المنام.

فقال لي: «صدقت يا عمرو، أنا رسول الله إلى العباد كافة، وأنا أدعوك إلى الإسلام، وحقن الدماء، وصلة الأرحام، وتعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتترك عبادة الأوثان، وتصلي الصلوات الخمس» وبَيَّن له أوامر الإسلام.

قال عمرو: فقلت أشهد أن لا إلّه إلا الله وأنك رسول الله. ثم قال: يا رسول الله ابعثني إلى قومي لعل الله يمن عليهم بي، كما منَّ عليَّ بك ـ أي: كما منَّ علي بالإيمان بسببك، لعل الله يمن على قومي بسببي وببركاتك وإذنك لي في ذلك ـ.

فقد طلب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يأذن له بدعوة قومه، وما راح يدعوهم من تلقاء نفسه، لأن الصلة بالإذن والأمر لها تأثيرها ومددها.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اذهب إليهم فادعهم كما دعوتك، ولكن عليك بالرفق ـ أي: اللين ـ والقول السديد، ولا تكن متكبراً، ولا فظاً ولا حسوداً».

قال: فأتيت قومي فقلت: يا معشر جهينة! جئتكم من عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أدعوكم بما دعاني إليه من

الإسلام ، وحقن الدماء ، وصلة الأرحام ، وعبادة الله وحده ، وأن تتركوا الأوثان ، وأن تصلوا الصلوات الخمس ، وتصوموا رمضان ، وتحجوا البيت إن استطعتم إليه سبيلاً ، وتؤدوا الزكاة.

فأجابه بعض قومه ، وقال رجل منهم ـ وكان معجباً بنفسه ـ: يا عمرو أمرَّ الله عيشك.

قال: لِمَ ؟!!!

قال: جئتَ تُفَرِّق جمعنا ، وتفرق آلهتنا؟.

فقال عمرو: الكاذب مني ومنك أمرَّ الله عيشه ، وأبكم لسانه وأكمه إنسانه ـ أي: بصره ـ.

فقال عمرو: فما مضت على هذا الرجل مدة إلا وسقط فوهه ـ أي: هرم بسرعة وما عاد يستطيع الكلام ـ وعمي بصره ، وما عاد يطعم الطعام ولا يجد لذته.

ثم ذهب عمرو بقومه الذين أسلموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرحب بهم ، وأكرمهم ، وأوصاهم بما أوصاهم.

ومما جاء عنه صلى الله عليه وآله وسلم في عرض الحكمة ، وظهور نور الحكمة للقلوب والاستسلام لها.

ما جاء في وفد الأزد لما وفدوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم[1] :

كما روى أبو نعيم في (معرفة الصحابة) وغيره ، بالسند عن أبي سليمان الداراني رضي الله عنه ، قال بسنده المتصل إلى

---

(١) كما في حاشية العلامة الزرقاني على (المواهب اللدنية) (٤/٦٣).

سويد بن الحارث رضي الله عنه قال:

كنت سابع ستة ـ أي: أنه مع ستة من أصحابه وهو سابعهم ـ وفدنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فدخلنا عليه ـ وكان قد أرسل إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من يدعوهم إلى الله، وعقلوا أوامر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، واستسلموا إليها، ثم جاؤوا يستتبعون أمرها من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويستزيدون من العلم والمعرفة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

قال: فلما دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأعجبه ما فينا من السمت والزي ـ أي: من الهدوء والسكينة وحسن المنظر من اللباس ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أنتم».

فقالوا: نحن مؤمنون.

فقال: «إنّ لكل قول حقيقة». وفي رواية: «إنّ لكل حق حقيقة فما حقيقة قولكم وإيمانكم»؟.

أي: لكل أمر حق حقيقة، أما الباطل فلا حقيقة له، ولما كان الإيمان حق وحقيقة، فمن ادعاه وجب أن يتحقق به، وأن تظهر حقيقة الإيمان عليه، وإلاّ فهو كاذب في دعواه، كمن ادعى أنه ريّان وهو في الحقيقة عطشان وظمآن، ولو أنه كان قد شرب الماء وارتوى به لظهر أثر ذلك عليه، وتحقق بالري، وكذلك أمر الإيمان فليس هو مجرد دعوى وكلام، وإنما هو حقائق يتحقق بها المؤمن، وفيها دلائل تدل على صدقه وإيمانه، ولذلك قَبَّحَ

سبحانه من قالوا: آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم كما هو شأن المنافقين.

فقالوا: يا رسول الله أَمَرَتْنا رسلكَ ـ أي: الذين أرسلتهم إلينا ـ بعشر، ونحن تخلقنا بخمس خصال منذ كنا في الجاهلية، وإن شئت بقينا عليها، وإن كرهت ذلك تركنا.

فنحن تخلقنا بخمس عشرة خصلة وهي:

إننا نؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، ونؤمن بالبعث بعد الموت ـ أي: بالآخرة ـ وأمرتنا رسلك أن نشهد أن لا إلّه إلا الله وأنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ونقيم الصلاة، ونؤتي الزكاة، ونصوم رمضان، ونحج البيت إن استطعنا إليه سبيلاً.

وأما الخصال التي تخلقنا فيها منذ كنا في الجاهلية فهي: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والصدق في مواطن اللقاء، ـ وهي: الحرب مع العدو ـ والرضا بمُرِّ القضاء، وترك شماته الأعداء.

وقد عرضوا هذه الخصال على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن وافقهم عليها بقوا عليها؛ وإلا تركوها.

فقال لهم صلى الله عليه وآله وسلم: «حكماء فقهاء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء» أي: شهد لهم صلى الله عليه وآله وسلم بالمقامات العالية.

ثم قال لهم: «وأنا أزيدكم خمساً فيكمل لكم عشرون خصلة» وفي هذا ترقية لمقاماتهم.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا فيما أنتم غداً عنه زائلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون؛ وعليه تعرضون، وارغبوا فيما أنتم عليه تَقْدُمون؛ وما أنتم فيه تخلدون».

أي: لتكن رغباتكم متوجهة إلى الآخرة وما تَقْدُمون عليه يوم القيامة، وفيما تخلدون فيه وهو الجنة، وجوار ربِّ العالمين.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ولا تنافسوا» أي: ولا تزاحموا في أمرٍ غداً عنه زائلون ـ أي: ولا تتزاحموا على أمور الدنيا الفانية ـ وينبغي على المؤمن أن يصرف همته وعقله وعمله إلى الباقية.

والباقيات هي كما أخبر عنها سبحانه بأنها هي الأقوال والأعمال الصالحات: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦] وأما الفانيات فهي: كل ما سوى الصالحات المقربة إلى الله سبحانه.

وقد يظن الإنسان أمور الدنيا الفانية خير له من تلك الصالحات.

فيقال له: لقد قال سبحانه: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾.

فمن رأى في الفانيات خيراً موهوماً ومزعوماً، فالباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً، وخيرٌ أملاً ـ أي: خيرُ ما تؤمل منه الخير والسعادة إنما هو الباقيات الصالحات ـ.

أما ما يُؤمِّلُه الإنسان من أمور الدنيا الفانيات، فأمله خائب وموهوم، وإنّ الباقيات الصالحات هي خير ما يُرَدُّ على المؤمن يوم

القيامة ، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦].

أي: إنّ خير ما يُرَدُّ عليك وتنال سعادته إنما هي الباقيات الصالحات، أما الفانيات المنقضية في الدنيا فلا يُرَدُّ خير عليك منها ، ولا أمل ولا رجاء لك فيها في الآخرة ، وفي هذا قال عليه الصلاة والسلام: «استكثروا من الباقيات الصالحات».

قالوا: وما هن يا رسول الله.

قال: «سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلّه إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله»(١).

فهي من الباقيات الصالحات القولية ، وهي باقية مع قائلها إلى أبد الآبدين ، ولها نورها ووزنها.

كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «كلمتان: خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»(٢).

وهكذا فينبغي على المؤمن أن لا ينافس غيره ويزاحمه على أمور الدنيا ، بل عليه أن يصرف حب التنافس إلى أمور الآخرة الباقية ، كما قال الله سبحانه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾

---

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند): (٣/ ٧٥) وأبو يعلى (١٣٨٤) وابن حبان / ٨٣٣/ (٢/ ١٠٢) والحاكم وصححه (١/ ٥١٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في كتاب الدعوات ، باب فضل التسبيح (٦٤٠٦) (١١/ ٢٠٦) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٤) (٥/ ٢٥٩٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

[المطففين: ٢٦] أي: على المقامات العالية، والدرجات العلى المقربة إلى رب العالمين، لأنَّ نهاية النهايات، وغاية الغايات عند أهل العقول الصحيحة، والفطر السليمة، إنما هو التقرب إلى رب العالمين، لأنَّ فيه كل خير وسعادة، وهو الذي يتنافس عليه أهل الحكمة، وأولو الألباب، كما أخبر عنهم سبحانه بقوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧] أي: أيهم أقرب إلى الله سبحانه.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تُعرضون» أي: أعدوا العدة ليوم الرجوع إلى الله رب العالمين، كما قال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] أي: خذوا حذركم من ذلك اليوم، وتعاطوا الوقايات لذلك اليوم، ولا يقي من شر ذلك اليوم إلّا تقوى الله؛ كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١ ـ ٧٢].

فأهل التقوى من الله تعالى هم أهل الوقاية والنجاة من سخط الله وعذابه.

وإن جهنم لتقول للمؤمن حين يجوز الصراط، الذي هو جسر داخل جهنم تقول له: «جُزْ يامؤمن فإن نورك يطفىء ناري»[1].

كما أن التقوى هي لباس الإنسان يوم القيامة، الذي يُعرض به

---

(١) الحديث رواه الطبراني عن يعلى بن مُنْيَة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «تقول النار للمؤمنين يوم القيامة: جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي» كما في (مجمع الزوائد) (١٠/ ٣٦٠).

على رب العالمين ، ومن أراد أن يُحسن لباسه ، وأن يُعرض على الله في زي الجمال والكمال ، فعليه بلباس التقوى في الدنيا ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف : ٢٦].

وأما الكافر فيعرض بقبائحه وعوراته ، وَيُفتضح بين الخلائق وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: «يا رُبَّ كاسية ـ أي: يا رب نفسٍ كاسية ـ في الدنيا عاريةٍ في الآخرة»[١].

وروى ابن منده في التوحيد[٢] عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ينادي الله تعالى يوم القيامة ـ حين يجمع الأولين والآخرين ـ فيقول لهم: يا عبادي إنني أنا الله لا إلَه إلا أنا أرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين ، وأسرع الحاسبين ، أحضروا حجتكم ، وَيَسِّروا جوابكم ، فإنكم مسؤولون ومحاسبون».

ثم يقول سبحانه وتعالى: «يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب» فيصفون صفوفاً ـ أي: كل مع صفته: فالأتقياء مع الأتقياء ، والأولياء مع الأولياء وهكذا. . وهذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف : ٤٨].

---

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في مواضع من الصحيح أولها في كتاب العلم ، باب العلم والعظة بالليل ، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: استيقظ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذات ليلة فقال: «سبحان الله ماذا أُنزل الليلة من الفتن ، وماذا فُتح من الخزائن ، أيقظوا صواحبات الحُجرِ ، فرب كاسيةٍ في الدنيا عاريةٍ في الآخرة» /١١٥/ (١/ ٢١٠).

(٢) كما في (الدر المنثور) للسيوطي (٤/ ٢٢٦).

اللهم اجعلنا في صف أتباع سيدنا محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم بجاهه عندك ـ آمين.

ومن جملة الذين آمنوا به صلى الله عليه وآله وسلم بواسطة عرض الحكمة: النجاشي ملك الحبشة وجماعته، واسمه أصحمة رضي الله عنه[1].

وهذا لما أرسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبا موسى الأشعري، وجعفر بن أبي طالب، وما يقرب من ثمانين صحابياً إلى الحبشة، ولما دخلوا الحبشة سمع كفار قريش ذلك، فأرسلوا من قِبلهم رجلين لأجل أن يتَّصلا بملك الحبشة، حتى لا يمكِّن هؤلاء الصحابة من دخول أرضه.

فلما دخلا عليه سجدا له ـ على عادة الملوك وقتذاك ـ فسلم عليهم، وقالا له: قد دخل بأرضك أناس تركوا ديننا، وسبوا آلهتنا. وذكروا من أمرهم.

فأمر النجاشي بهم، فجاء عدة من الصحابة ومعهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم.

فقال لهم جعفر رضي الله عنه: أنا خطيبكم اليوم ـ أي: اتركوا الكلام لي ـ ولما دخلوا على الملك لم يسجدوا له. فقال لهم في ذلك.

فقال جعفر رضي الله عنه: أيها الملك إنّ الله تعالى أرسل إلينا رسولاً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فنهانا أن نسجد لأحدٍ غير الله

---

(١) انظر الخبر في سيرة ابن هشام (٢/٣٢١) وما بعدها.

تعالى ، أيها الملك : إنا قوم كنا في جاهلية نعبد الأوثان والأصنام ، وننتهك الحرمات ، ونئد البنات ، ونقع في الفواحش ، ولا نصدق في الحديث ، ونخون الأمانة ، ونقطع الرحم ، ونسيء إلى الجوار ـ وذكر من قبائح الجاهلية ما ذكر ـ فأرسل الله فينا رسولاً نعرفه بنسبه وحسبه ، وصدقه وأمانته ، وعفته وحصانته ، فأمرنا أن نعبد الله وحده ، ونترك ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان والأصنام ، ونهانا عن الفواحش ، وأمرنا بصلة الرحم ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وحفظ العهد ـ وذكر له من محاسن دين الله تعالى ـ.

فقال له الملك : وهل معك شيء من القرآن الذي نزل عليه ؟.

قال : نعم.

قال : اقرأ علينا ـ وكان حوله القسوس والرهبان ، والمجلس مكتظ بأكابرهم ـ.

فقرأ جعفر رضي الله عنه من أول سورة مريم : ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ . . . ﴾ الآيات.

فلما سمع النجاشي وَمَنْ حوله هذا القرآن جعلوا يبكون ، حتى اخضلت لحاهم من شدة البكاء.

ثم قال النجاشي : والله ما هذا والذي جاء به عيسى ابن مريم إلا من مِشكاةٍ واحدة ـ أي : من عند رب العالمين ـ ثم قال : أشهد أنّ هذا الرسول رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مرحباً بكم ، وبمن جئتم من عنده. أشهد أن لا إلٓه إلا الله ، وأن محمداً

رسول الله ، وإنّه الذي بشّر به عيسى ابن مريم ، ولولا ما أنا فيه من الملك وما تحملته من أمور الناس ـ أي: في سياسة الرعية ـ لأتيته حتى أحمل نعليه.

وفي رواية للطبراني: حتى أقبل نعليه ، وفي هذا نزل قوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٢ ـ ٨٣].

وإن ما وَدّه وتمناه النجاشي من أن يكون خادماً لنعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو أمنية كل مؤمن عالم بخصائص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفضائله ، لأن هذا مقتضى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعرفة بمقاماته وخصائصه صلى الله عليه وآله وسلم ، ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحرصون كل الحرص على التبرك بآثار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وبكل شيء مَسّه جسده الشريف صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا أراد أن يُتحف صحابياً ويدخل السرور عليه كان يُعطيه ما يتمنى ، وإن غاية أمانيهم أن يتبركوا بآثار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن هذا ما ورد في (صحيح) البخاري ومسلم ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا بقدح فيه ماء ، فغسل يديه ووجهه ومج فيه صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال ـ لأبي موسى الأشعري

وبلال رضي الله عنهما ـ: «أن اشربا منه، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما» ففعلا ذلك فنادتهما أم سلمة رضي الله عنها ـ زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ من وراء الستر: أفضلا لأمكما مما في إنائكما ـ أي: اتركا شيئاً من الماء حتى أتبرك به ـ فأفضلا منه طائفة رضي الله عنهما[1].

ومن جملة من دعاهم صلى الله عليه وآله وسلم بعرض الحكمة: الملوك والأكاسرة، وقياصرة الروم، الذين كانوا في عصره صلى الله عليه وآله وسلم، فمنهم من ظهرت له أنوار الحكمة؛ وعرف الحق فاعترف وآمن، ومنهم من عرف الحق ولم يعترف به فلم يؤمن، لأن حبَّ الدنيا والزعامة وحب الظهور والكبرياء حال بينه وبين الإذعان للحق.

ومن ذلك دعوته صلى الله عليه وآله وسلم هرقل عظيم الروم إلى الإسلام.

فقد ورد[2] أنه صلى الله عليه وآله وسلم أمر بكتابٍ يُكتب إلى هرقل عظيم الروم يدعوه فيه إلى الإسلام، وقد حمل هذا الكتاب دحية بن خليفة رضي الله عنه، وكان من أحسن الناس سمتاً وأجملهم صورة.

---

(١) (صحيح) البخاري كتاب المغازي، باب غزوة الطائف (٤٣٢٨) (٨/٤٦) و(صحيح) مسلم كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة /٢٤٩٧/ (٥/٢٤٧٠).

(٢) الخبر في (صحيح) البخاري كتاب بدء الوحي /٧/ (١/٣١) و(صحيح) مسلم كتاب الجهاد والسِّير باب كتب النبي ﷺ /١٥٧٣/ (٤/١٨٥٩) وانظر القصة في السيرة الشامية: (١٢/٣٤٧).

والتقى دحية رضي الله عنه مع هرقل في حمص ، وكان فتح الكتاب في بصرى الشام. ولما وصل الكتاب إلى هرقل أراد أن يتعرف إلى أوصاف هذا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن يبحث عن سيرته وشمائله ، وهل هي تنبىء وتصدق أنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فسأل عن أقرب الناس نسباً به من العرب الذي هم في الشام وقتئذ. فجيء بأبي سفيان بن حرب ومعه جماعته من عرب الحجاز ـ وكان أبو سفيان وقتئذ مشركاً ، لأن هذا الأمر جرى وقت صلح الحديبية؛ وقد آمن يوم فتح مكة ـ.

فأجلسهم هرقل أمامه ، وقال لهم: إني سائلٌ هذا ـ يعني أبا سفيان ـ عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيّ ، فإن كذبني فكذبوه. وأجلس أبا سفيان أمامه ، وطائفة العرب وراء أبي سفيان ، حتى إذا ظهر الكذب على أبي سفيان عرف هرقل ذلك من وجوه من خلفه. فراح أبو سفيان يتكلم بالصدق والواقع.

فقال هرقل للترجمان: قل لهذا: كيف نسب هذا الرجل فيكم.

فقال أبو سفيان: إنه فينا ذو نسب ـ أي: لا أشرف من نسبه صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

فقال: هل كان من آبائه من مَلِك؟.

قال: لا.

فقال: لو كان من آبائه من مَلِكٍ لقلت: هو رجل يطلب ملك أبيه ، وتقول هو ذو نسب ، كذلك الرسل تبعث في أنساب قومها.

فقال: هل يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟.

قال: بل ضعفاؤهم.

قال: هم أتباع الرسل.

قال: يزيدون أم ينقصون؟.

قال: يزيدون.

قال: كذلك أمر الإيمان حتى يتم.

قال: هل يرتد أحدٌ منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ ـ أي: هل هناك من آمن برسول الله حق الإيمان ثم استحسن ديناً آخر عدا الإسلام ـ؟.

قال: لا.

فقال هرقل: وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب ـ أي: إذا تذوق القلب حلاوة الإيمان فإنه لا يرتد أبداً ـ.

قال: هل يَغدِرُ.

قال: لا، ونحن معه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها ـ مشيراً إلى صلح الحديبية الذي كان بينهما ـ.

قال: بم يأمركم؟.

قال: يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً، ونترك ما عليه آباؤنا من عبادة الأصنام، ويأمرنا بالصلاة والصدقة ـ أي: الزكاة ـ والصلة ـ أي: صلة الأرحام ـ والعفاف ـ أي: العفاف النفسي عن الزنا وما يتبعه ـ.

قال هرقل: فإن كان ما تقول حقاً فإنه نَبيٌّ، وقد علمت أنه سيخرج ـ أي: نبي آخر الزمن، وهذا باعتبار ما قرأ في الكتب

السابقة كالإنجيل والتوراة ـ ولكن لم أظنه منكم ـ أي: معشر العرب ـ ولو أني أعلم أني أخلص إليه ـ أي: أصل إليه بسلام ـ لتجشمت لقاءه ـ أي: لسعيت إليه على الأقدام ـ ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ـ أي: لكنت خادماً له ، ولآخذن غسالة قدميه وأتبرك وأتشرف بها ، وأغسل بها وجهي ورأسي ـ صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم أمر هرقل أن يُحضر كتاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مجلس حافل ، بعدما تبين له صدق هذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فجيء بالكتاب وأمر هرقل الترجمان أن يقرأ فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمَّدٍ عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلامٌ على من اتبع الهدى أما بعد ؛ فإني أدعوك بدعاية الإسلام ـ وفي رواية : «أدعوك بداعية الإسلام» ـ أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنّ عليك إثمَ الأريسيين ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ أي: نتساوى فيها كلنا ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾» [آل عمران: ٦٤].

ولقد كانت كتبه صلى الله عليه وآله وسلم مفتتحة ومصدرة بـبسم الله الرحمن الرحيم ، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «كل أمرٍ ذي بال ـ أي: ذي شأن واهتمام ـ لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر»[1] أي: مقطوع البركة.

---

(١) ذكره عبد القادر الرهاوي في الأربعين عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وروي أنَّ عثمان بن عفان رضي الله عنه ، سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم: عن بسم الله الرحمن الرحيم فقال له: «هو اسم من أسماء الله تعالى ، وما بينه وبين اسم الله الأكبر ـ أي: الأعظم ـ إلا كما بين سواد العينين وبياضهما في القرب»[1].

«ولما نزل بسم الله الرحمن الرحيم إلى عالم الأرض ماجت البحار ، واضطربت السحب في المشرق والمغرب ، وتأثرت المخلوقات بـ بسم الله الرحمن الرحيم[2]».

وكان من جملة الحاضرين وزراء هرقل ، ومن جملتهم ابن أخ له ، وله شوكة ، فلما سمع قوله: «من محمَّد عبد الله ورسوله إلى هرقل» غضب غضباً شديداً وقال لعمه: لا تقرأ الكتاب ، قال: لِمَ ، قال: لقد ذكر اسمه قبل اسمك. فقال: يا هذا وليس من العقل أن لا أقرأ الكتاب ، فإنَّ هذا الذي ينزل عليه الناموس الأكبر ـ أي: جبريل عليه السلام ـ حُقَّ له أن يقدم اسمه على اسمي.

وفي رواية: «من محمَّد عبد الله ورسوله إلى قيصر صاحب الروم» فقال ابن أخيه: انظر إنه لم يقل ملك الروم ـ أي: لم يعظمك ـ.

قال هرقل: صدق صدق يا بن أخي ، إني صاحب الروم ، ولكن مالكي ومالكهم هو الله سبحانه[3].

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) (١/٨) إلى ابن أبي حاتم ، والحاكم في (المستدرك) (١/٥٥٢) وصححه ووافقه الذهبي ، والبيهقي في (شعب الإيمان) وغيرهم.

(٢) عزاه في (الدر المنثور) (١/٩) إلى سيدنا جابر رضي الله عنه موقوفاً عليه بمعناه ، ومن المعلوم أن له حكم المرفوع لأنه لا مجال للرأي فيه.

(٣) انظر (شرح المواهب) (٣/٣٣٩) وقد عزاه إلى (فتح الباري) (٨/٢٢٠).

أما هرقل فهو عظيم الروم ، لأنه مُعظَّم عندهم ، وكان يتصدى بالجواب المقحم على كل مَنِ اعترض على كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه أدرك صدق رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنه صاحب الحكمة ، وكل كلمة من كتابه دلّت على معانٍ ، وليس هناك مجازفة في الكلام ، إلا أنّ حب الرئاسة والمملكة منعه من الدخول في الإسلام.

وأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم في الكتاب: «من محمَّد عبد الله ورسوله» فقد ذكر من صفاته صلى الله عليه وآله وسلم أنه عبد الله ، وأنه رسول الله بالرسالة العامة لجميع الأنام ، وقد نال صلى الله عليه وآله وسلم أعلى مقامٍ في العبادة والعبودية والعبدية لله تعالى ، وانفرد بذلك.

فهو صلى الله عليه وآله وسلم فرد في عبوديته لله تعالى ، وقد ذكره سبحانه بهذا المقام في أعلى المناصب والمواقف ، ومن جملة ذلك:

موقف التحدي بالقرآن: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

وفي موقف تنزيل الكتاب: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١].

وفي موقف الإسراء قال سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١].

وكذلك في المعراج قال عز وجل: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

قوله في أوله: «إلى هرقل عظيم الروم» ـ أي: المعظم عندهم ـ «أما بعد: سلام على من اتبع الهدى» ولم يقل سلام عليك، فإذا تبع الهدى دخل في السلام «فإني أدعوك بدعاية الإسلام» وفي رواية: «إني أدعوك بداعية الإسلام» أي: بالكلمة الداعية إلى الإسلام وهي «لا إلّه إلا الله محمّد رسول الله» صلى الله عليه وآله وسلم «أسلم تسلم» أي: في الدنيا وفي الآخرة، وفي هذه إشارة إلى هرقل أنه سيعرف الحق ويعلنه، ولكنه قد يخاف على نفسه من القتل، فكان قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أسلم تسلم» أماناً له من ذلك.

قوله: «يؤتك الله أجرك مرتين» لأنه إنْ أسلم أسلم معه قومه من الروم وكان ذلك في صحيفته، وإنْ أعرض عن الإسلام كان إثم قومه في صحيفته أيضاً.

وهذا كما ورد في الحديث: «من سن في الإسلام سُنة حَسَنة: فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده ـ أي: إلى يوم القيامة ـ من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة: فعليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده ـ أي: إلى يوم القيامة ـ من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1].

---

(١) عزاه في (الفتح الكبير) إلى (مسند) الإمام أحمد (٤/ ٣٦١) و(صحيح) مسلم كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة / ٢٦٧٣/ (٥/ ٢٥٨٥)، والترمذي والنسائي وابن ماجه عن سيدنا جرير رضي الله عنه، وهو في (المعجم الكبير) للطبراني (٢/ ٣٢٩) بلفظ: «من سن في الإسلام سنة صالحة: كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده إلى يوم القيامة؛ لا ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة: كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده إلى يوم القيامة؛ لا ينقص من أوزارهم شيء».

ولهذا قال له: «وإنْ توليت فإنَّ عليك إثم الأريسيين» أي: أتباعك، فإنّ إثمهم في عنقك وفي عنقهم.

قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: نتساوى فيها وهي: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: فكيف اتخذتم عيسى رباً وهو من البشر ويأكل كما تأكلون، ويشرب كما تشربون ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] أي: اشهدوا أيها الكفار من أهل الكتاب بأنا مسلمون، واشهدوا على أنفسكم بأنكم كافرون، حتى إذا جاء يوم القيامة وحشروا إلى الله تعالى؛ ووقفوا للحساب؛ فيأتي الكافر ويشهد للمسلم بأنّه مسلم، ويشهد على نفسه بأنه كافر.

وهذا لأنه لابد لكل مَنْ شاهد إسلام المؤمن وإيمانه لابُد له أن يشهد له يوم القيامة بذلك، ولذلك فإن الشهداء يوم القيامة على أنواع: فهناك شهادة الأحجار والأشجار، والحيوانات، والأرض، والإنسان، وغيرهم.

ومن ذلك شهادة الأرض التي احتضنت أجسام الأموات كلهم.

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي: الأموات التي حملتهم، فكما ولا بد للأرحام أن تدفع ما فيها، فكذلك الأرض تدفع ما فيها وذلك يوم القيامة كما أخبر سبحانه وتعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤ ـ ٥] أي: أنها أصغت إلى أمر ربها وأجابت؛ وحق لها أن تجيب أمر ربها لَمَّا أمرها بأنْ تلقي وتطرح ما فيها.

وإن الأرض تُخرج ما فيها من معادن وزخارف قبل يوم القيامة ، ثم إنها تُخرج أثقالها يوم القيامة ، وهي ما حملته من أتربة الأجساد فيها ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤ ـ ٥] أي: أوحى لها أن أخرِجي أثقالك ، وأوحى لها أن تكلمي بما جرى عليك.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي وغيره(١) ، أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ يوماً قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ فقال: «أتدرون ما أخبارها».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «هو أن تشهد على كل عبد وأمة ـ أي: ذكر وأنثى ـ بما عمل على ظهرها ، وتقول: عمل يوم كذا: كذا وكذا ، فهذه أخبارها» الحديث.

ولما قُرِىء كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مجلس هرقل ارتفعت الأصوات ، وأراد هرقل أن يحمل جماعته على الإسلام ، فقام وأخذ كتاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ووضعه فوق رأسه ، ثم قبله ، ثم دعا بقطعة من حرير ولفه فيها ، ثم أمر بسفط: ـ أي: صندوق ثمين ـ ووضع الكتاب فيه ، ورفعه إلى مكان محترم ، وأمر بجماعة العرب أن يخرجوا من المجلس ،

---

(١) الترمذي كتاب صفة القيامة ، باب الأرض تحدث أخبارها / ٢٤٣١/ (٧/ ١٤٤) ، وهو في (مسند) الإمام أحمد: (٢/ ٣٧٤) وعزاه في (الدر المنثور) (٦/ ٣٨٠) إلى عبد بن حميد ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه.

وأمر رجلاً أن يُكرم ويضيف دحية بن خليفة حامل كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليه[١].

ثم لما كان الغد أمر بدحية فجاءه ، فأدخله هرقل غرفة واسعة ، فإذا فيها ثلاثمائة وثلاث عشرة صورة ؛ من صور الرسل صلوات الله عليهم أجمعين.

وقال لدحية: انظر أين صاحبكم ـ أي: صورة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

قال دحية: فتتبعتها حتى رأيتها ، فرأيته صلى الله عليه وآله وسلم في صورة كأنه يتكلم وينطق ، قال: فقلت هي هذه.

فضحك هرقل وقال: نعم[٢].

واعلم أن الصور إنما هي صور رسمها الروم ، على موجب الصفات التي وصف الله تعالى بها رسله في الكتب السماوية السابقة ، ولقد وصف الله تعالى النبي صلى الله عليه وآله وسلم مفصلاً في التوراة ، ومنها في الإنجيل ، وعلى موجب تلك الصفات رسموا هذه الصور رسماً دقيقاً.

ويقال: إن هذه الصور نزلت مع آدم عليه السلام من الجنة ، وتوارثها الأنبياء ، إلى أن وصلت إلى دانيال عليه السلام ـ وهو من أنبياء بني إسرائيل ـ ثم توارثها الملوك.

ثم إن هرقل دعا جماعته ، وأمر بغلق الأبواب ، وقام خطيباً فيهم فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد إلى آخر

---

(١) شرح المواهب (٣/ ٣٣٩).

(٢) عزاه في شرح المواهب (٣/ ٣٣٩) إلى أبي نعيم وغيره.

الأبد ـ أي: في الدنيا والآخرة ـ وأن يَثْبُتَ لكم ملككم ، فتبايعوا هذا النبي ـ أي: على الإسلام والإيمان ـ.

قال: فحاصوا حَيْصَة حُمرِ الوحش للأبواب ـ حباً في الرئاسة والزعامة ـ فلما رأى هرقل نَفْرتهم خاف على نفسه أن يقتلوه فقال: رُدُّوهم عليَّ ، وقال لهم: أردت أن أختبر شدتكم على دينكم ، وقد رأيت منكم الذي أحببت. فسجدوا له ورضوا عنه.

وقد اعترف أن هذا رسول الله حقاً ، لكن لم يُعلن ذلك خوفاً على نفسه ومُلكه.

وفي السنة التاسعة للهجرة يوم تبوك ، كتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى هرقل كتاباً آخر يدعوه فيه إلى الإسلام ، وقال لمن معه: «مَنْ يحمل هذا الكتاب إلى هرقل وله الجنة»؟ لأنه كان بين المسلمين والروم قتال وحرب.

فقال دحية: أنا يا رسول الله.

فقال: «وإن لم يقبل» ـ أي: الإسلام ـ قال: وإن لم يقبل. وهذا كما ورد في زوائد (المسند) وغيره[1].

فلما أتى هرقل قرأه ، فإذا فيه دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له إلى الإسلام، وإلا عليه أن يدفع الجزية وإلا فالحرب.

وعرض هرقل هذا الأمر إلى جماعته ، وقال لهم: إن هذا الرجل يدعونا إلى الإسلام ، أو إلى دفع الجزية ، أو إلى الحرب ،

---

(١) عزاه في (مجمع الزوائد) (٨/٢٣٦) إلى أبي يعلى ، وعزاه في السيرة الشامية (١٢/٣٥٣) إلى أبي نعيم وابن عساكر.

وإنكم تعلمون صدق هذا الرجل ـ من خلال العلامات والأدلة ، وما ثبت وَنُقِلَ إليكم في التوراة والإنجيل ـ فتعالوا نبايعه على الإسلام . فنفروا أيضاً ، وتكبروا وتجبروا ، فتراجع هرقل عن ذلك ، وكتب كتاباً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأرسله مع رجل يدعى التنوخي. وقال له: اذهب إلى هذا النبي ، فادفع إليه الكتاب ، فإذا قرأه فانظر واحفظ عليه هل يذكر كتابه السابق ، وهل يذكر النهار ، وانظر في ظهره هل ترى شيئاً.

فلما جاء التنوخي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له: «مرحباً يا أخا تنوخ ، ألا تدخل في الإسلام ، فإني أدعوك إلى الملة الحنيفية الإسلامية».

فقال: أنا رسول قومي ، وأنا على دينهم ـ أي: أنه لا يخالف قومه ـ.

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أما صاحبكم ـ أي: هرقل ـ فكنت أرسلت إليه كتاباً فحفظه وأمسكه ـ أي: احترمه وعظمه ـ فإنه لم يزل له بأس على الناس ما ذام الناس في خير» أي: لا يزال ملكه ثابتاً ما دام في العيش خير.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وكنت كتبت كتاباً إلى كسرى بن هرمز فمزقه. مزقه الله ومزق ملكه» ـ وكان الأمر كذلك ـ فلما سمع التنوخي ذلك حفظه ، وتذكر قول هرقل هل يذكر كتابه السابق قال: فكتبتها عندي.

ثم كان من جملة كلام هرقل في كتابه إلى رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم أن قال: أنت تدعوني إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض ، فأين النار؟.

فَقَال صلى الله عليه وآله وسلم: «سبحان الله أين الليل إذا جاء النهار» أي: أنّ الجنة في أعلى عليين ، وأنّ النار في أسفل سافلين.

ولما سمع التّنوخي ذكر النهار كتبها عنده.

ثم قال التنوخي: أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً أن يضيفني عنده فذهبت معه ، فلما بعدت ناداني رسول الله ، «تعال يا أخا تنوخ» فجئت إليه فحل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رداءه ، وكشف ظهره وقال: «يا أخا تنوخ امض من هنا لِمَا أمرت» أي: مُر من وراء ظهري ، وانظر إلى ظهري.

قال: فمررت وراء ظهره فرأيت خاتم النبوة عند كتفه الأيسر صلى الله عليه وآله وسلم.

قال التَّنُوْخي: فكتبت ذلك عندي ، ولما رجع إلىٰ هرقل أخبره بذلك.

اللهم صلِّ على سيدنا محمَّد الذي ما استغاثك به جائع إلا شبع ، ولا ظمآن إلا روي ، ولا مريض إلا شُفي ، ولا مبتلىً إلا عوفي ، وإنّنا يا ربنا ظمآء جياع نستغيثك ، ونستمطر رحمتك الواسعة ، من خزائن جودك فأغثنا يا رحمن ، يا من إذا نظر بعين حلمه وعفوه لم يظهر في جنب كبرياء حلمه وعظمة عفوه ذنب. اغفر لنا وارحمنا ، وتب علينا ، وتجاوز عنا يا كريم ـ اللهم آمين.

* * *

من مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم
أنه السراج المنير
صلى الله عليه وآله وسلم

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦].

فلقد وصفه سبحانه بأنه سراج، بمعنى أنه له ضياؤه ونوره الظاهر، كما وصفه سبحانه في آية أخرى بالنور، قال جلَّ وعلا: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥].

ذهب أكثر السلف إلى أنّ المراد بالنور في هذه الآية هو سيدنا محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن شأن النور أن يضيء، وأن يكون ظاهراً في نفسه ومظهراً لغيره، ولذلك فإنَّ مَنْ نَظَر إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى أمر نبوته ظاهراً، وعلامات صدقه ظاهرة بينة، في وجهه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم، وفي كلامه وأخلاقه، وسائر شمائله، فهو نور ظاهر بَيِّنٌ، كما أن نوره يسطع على العالم فينور العقول والقلوب، والأرواح والأشباح، وينور العوالم كلها صلى الله عليه وآله وسلم؛ وفي هذا قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه:

أولُ ما قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة انجفل الناس إليه ـ أي: أسرعوا إليه ـ فكنت فيمن جاءه ، فلما نظرت إلى وجهه وتبينته ـ أي: تأملته ـ عرفت أنّ وجهه ليس بوجه كذاب ـ أي: أنّ وجهه له نور ظاهر ، وضياء باهر ، وجمال قاهر ، يدل على صدقه ونبوته ورسالته صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

فكان أول ما سمعته منه: «يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصِلوا الأرحام ، وصلّوا في الليل والناس نيام: تدخلوا الجنة بسلام»[1].

ولقد أجمع صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على وصفهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حيث قوة نورانية وجهه بالشمس أو القمر ليلة البدر ، ولو أنّهم رأوا ما هو أعظم من الشمس أو القمر نوراً من المحسوسات لوصفوا به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

جاء في الترمذي و(المسند) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما رأيت أحسن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كأن الشمس تجري في وجهه»[2] صلى الله عليه وآله وسلم.

وتقول الرُّبَيّعُ بنت معوذ الصحابية رضي الله عنها ، حين قال لها بعض التابعين: صفي لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ،

---

(١) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة ، باب أفشوا السلام... /٢٤٨٧/ (٧/ ١٨٢).

(٢) (سنن) الترمذي كتاب المناقب ، باب سرعة مشي النبي صلى الله عليه وآله وسلم / ٣٦٥٠/ (٩/ ٢٦١) (المسند) (٢/ ٣٥٠ و٣٨٠).

فقالت: «ماذا أقول يا بني؟!!! إذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قلت: الشمس طالعة»[١].

وليس هذا من باب المبالغات والتشبيهات، وإنما هو من باب الحق والحقيقة، لأنّ الصحابي إذا وصف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما ليس فيه؛ فقد افترى علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[٢].

وقد وصفه هند بن أبي هالة رضي الله عنه، لما سأله الحسن بن علي رضي الله عنهم عن حِلْيَةِ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ وكان وَصّافاً ـ فقال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخماً مفخماً، يتلألأُ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر»[٣].

ولما قيل للبراء بن عازب رضي الله عنه: هل كان وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثل السيف؟ ـ أي: في لمعانه ـ قال: «لا بل مثل القمر»[٤].

وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا تكلم رئي النور يخرج من بين ثناياه.

---

(١) كما في (سنن) الدارمي المقدمة (١/٣١)، والتابعي هو أبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر رضي الله عنهم.

(٢) قال الحافظ المندري: رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وقد روي عن غير واحد من الصحابة في الصحاح والسنن والمسانيد وغيرهما حتى بلغ مبلغ التواتر اهـ الترهيب (١/ ١٤٥).

(٣) كما في شمائل الترمذي بشرح الإمام الباجوري ص/ ٢٣/.

(٤) كما في (سنن) الترمذي كتاب المناقب، باب ١٧ / ٣٦٤٠/ (٩/ ٢٥٤).

فهو صلى الله عليه وآله وسلم سراج ظاهر نوره في نفسه وذاته وجسمه ووجهه، وخُلُقه، وكلامه، وشرعه، وهكذا...

وقد يقال: لِم لمْ تُؤمن كفار قريش وقد رأوا هذا النور؟!!!

فيقال: لقد رأوا الآيات العجيبة وأنكروا، ولقد رأوا انشقاق القمر وأنكروا، وجحدوا بعدما عرفوا الحق ورأوه، ثم إنهم لا يريدون أن ينظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نظر إنصاف وتبصر وتعقل، ويحاولون أن يحجبوا أبصارهم عن ذلك. قال تعالى ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

فكانوا يمنعون قلوبهم أن تنجذب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويحاولون أن تبقى في حيّز كفرها وضلالها، كمن أعرض عن نور الشمس وأنكر وجودها.

ومن ذلك محاولتهم أن لا يسمعوا القرآن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى لا تتأثر قلوبهم، وتنجذب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيؤمنوا، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: لبعضهم ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] أي: أكثروا من اللغو حتى لا تسمعوا القرآن.

أما مَن نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نظر إنصاف وتبصر؛ فإنه يرى ذلك النور أقوىٰ من نور الشمس، ويعرف صدق رسول الله، ويؤمن به صلى الله عليه وآله وسلم.

فَمِنْ ذلك قول عبد الله بن سلام رضي الله عنه: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة انجفل الناس إليه، وكنت فيهم، فلما نظرت إلى وجه سيدنا محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم

عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ـ أي: بل هو وجه رسول الله الصادق الأمين صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

ثم لا يلزم من الكافر أنه إذا رأى هذا النور أن يؤمن ، قال عزّ وجل: ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٦] بل يجحدون ويعرضون ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣] أي: إنهم يعتقدون صدقك يا رسول الله ، لكنهم يجحدون ذلك بعد علمٍ منهم.

كما أنه سراج منير ـ أي: منور للغير ـ فهو ينور القلوب بحقائق الإيمان ، وينور العقول بالحجة والبرهان ، وينور الأرواح بالعلوم والعرفان ، وينور الأشباح والأجسام بأنوار العبادات والطاعات.

ولا غرابة في هذا فإن الله تعالى وصفه بذلك ، والله تعالى إنما يقول الحق ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء: ١٠٥] ولهذا يجب على الإنسان أن يعرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وأما من حدَّ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حداً في عقله ، بحيث إذا سمع أوصاف وخصائص لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوق ما حده في عقله راح ينكرها ، فيقال له: أنت ما عرفتَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الرباني؛ وإنما عرفتَ رسول الله العقلاني ، الذي اخترعه عقلك وحَدَّ له حدوداً ، وليس هذا من الإيمان في شيء.

فلما ذكر سبحانه من خصائصه ومواقفه أنه السراج المنير ، يجب على الإنسان أن يكون موقفه معه موقف المستنير بأنواره.

أما أنَّه صلى الله عليه وآله وسلم ينور القلوب بحقائق الإيمان ، فإن حقيقة الإيمان في القلب نور من رب العالمين ، وإنَّ الذي أوصل هذا النور إلى القلوب هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي هذا قال في الحديث : «إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل»[1] .

فما على الإنسان إلاّ أن يتعرض بقلبه لذلك النور حتى يصيبه ذلك النور ، ويهتدي به إلى الله تعالى ، وإنّ موضع إمدادات هذا النور وإشعاعاته على القلوب إنما هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي هذا قال سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنها : مكتوب في التوراة بعض صفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفيها : «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر. ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إلّه إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً»[2] .

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في (المسند): (٢/١٧٦ و١٩٧) والترمذي في (السنن) كتاب الإيمان ، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة / ٢٦٤٤/(٧/٢٩٨) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير ، باب ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾/٤٨٣٨/ (٨/ ٥٨٥).

ولقد جعله الله تعالى واسطة في إيصال الهدى والنور والإيمان إلى القلوب ، حتى إنه صلى الله عليه وآله وسلم قال يوماً لأصحابه[1] : «ألَمْ أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ ألم أجدكم عالة فأغناكم الله بي ؟ ألم أجدكم أشتاتاً فألف الله بينكم بي» .

وإن الذي ألف بين قلوبهم على وجه الحقيقة والاستقلال هو الله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٢ ـ ٦٣].

أما أنه صلى الله عليه وآله وسلم جاء سراجاً منيراً ينور العقول بالبرهان والحجة ، فلقد جاء بالبينات والبراهين القاطعة ، التي تنقاد إليها عقول العقلاء الذين جردوا عقولهم عن هوى النفس وشهواتها. وأما من جعل هوى نفسه مسيطراً على عقله ، وصرف تفكيره في إرضاء هوى نفسه ، فقد حجب عقله عن التعقل والتفكر بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، من براهين ومغيِّبات وَمُبَصِّرَات للعقول والأفكار.

وإنّ من جاءه شيء موافق لهوى نفسه فصدقه وعمل به ، وإذا كان مخالفاً لهوى نفسه أنكره وجحده ، فإن هذا شأن من كان عقله أسيراً لهوى نفسه. وأما من أطلق عقله من أسر الشهوات والأهواء، فيتبع سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لا محالة.

---

(١) كان هذا بعد غزوة حنين حيث كلم صلى الله عليه وآله وسلم الأنصار ، انظر الخبر في سيرة ابن هشام (٤/٤٩٩) و(مسند) الإمام أحمد (٤/٤٢) و(صحيح) البخاري كتاب المغازي ، باب غزوة الطائف / ٤٣٣٠/ (٨/٤٧) و(صحيح) مسلم كتاب الزكاة ، باب إعطاء المؤلفة / ١٠٦١/ (٢/١٠٩٣).

قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨].

ولهذا بيَّن صلى الله عليه وآله وسلم أنَّ شرعه الذي جاء به إنما هو شرع نيِّر ظاهر، معقول محكم، لا التباس فيه ولا غموض، فقد جاء في الحديث الحسن، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لقد تركتكم على مثل البيضاء ـ أي: الشمس ـ ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك»[1].

أي: تركتكم على شريعة نيرة واضحة، لا يميل عنها إلى غيرها إلا هالك متبع هواه.

وجاء في (سنن) ابن ماجه[2]، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علينا ونحن في الصفة، وكنا نتخوف من الفقر. فقال: «آلفقر تخافون؟ والله لتصبَّنَّ عليكم الدنيا صباً، حتى لا يزيغ قلب أحدكم إلا هيه، وأيم الذي نفسي بيده لقد تركتم على مثل البيضاء ـ الشمس ـ ليلها كنهارها سواء» أي: ليس فيها أمر خفي مظلم كالليل، بل كلها ظاهرة واضحة كالنهار.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: صدق الله ورسوله لقد تركنا على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء.

وجاء في (المسند) أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، مرَّ في طريقه على بعض اليهود، فكتب عنهم شيئاً من كتبهم ـ أي: أملوا

---

(١) تقدم تخريجه ص/ ٢٩١.

(٢) المقدمة حديث رقم/ ٥ و٤٣/ وهو في (المسند) (٤/ ١٢٦).

عليه شيئاً من التوراة ـ وَقَصْدُه أن يـزداد علماً واطلاعاً ، وجاء بذلك إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، فعرض ذلك عليه ، فغضب صلى الله عليه وآله وسلم واشتد غضبه وقال: «لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، ليلها ونهارها سواء» أي: إنّ ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الكفاية والغاية ، ولا حاجة لشيء غيره.

وفي رواية: لما عرض ذلك على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر المنادي فنادى: الصلاة جامعة ، ثم صعد المنبر وقال: «يا أيها الناس إني قد أُوْتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لي اختصاراً ، لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، فلا تهوّكوا فيها ، ولا يغرنكم المتهوكون»[1] تَهوّكوا: أي: تضطربوا.

وأما أنه صلى الله عليه وآله وسلم جاء سراجاً منيراً ، ينور الأشباح والأجسام والمحسوسات ، فلقد نَوّر الأشباح بنور الطاعات والعبادات ، ولهذا وصف الله تعالى أتباع النبي عليه الصلاة والسلام؛ وأولهم الصحابة رضوان الله عليهم فقال جلّ وعلا: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] والسيما هي: نور العبادة والطاعة.

فجاء عليه الصلاة والسلام يُنور الوجوه والأشباح بنور الطاعات التي بَيّنَها وشرعها.

فلقد نور صلى الله عليه وآله وسلم القلب بالإيمان ، والجسم بالعمل الصالح ، والعقل بالبرهان والحكمة.

ولما نزل قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ

---

(١) تقدم تخريجه ص/٢٩٩/.

﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] وقد نزلت هذه الآية في وفد نجران ـ وهم من النصارى ـ لما جاؤوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وهم يجادلون في قضية عيسى عليه السلام، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُبين لهم أنَّ عيسى رسول الله وعبده، وهم يجادلون ويعارضون الحق بعدما تبين لهم، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٦١].

فأمره الله تعالى أن يدعوهم للمباهلة، وهي أن يجتمع الطرفان، ويبتهل كل منهما إلى الله على أن يَنصر الله المحق ويُهلك المبطل، ولما كان موعد ذلك، جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ودعا علياً وفاطمة والحسن والحسين رضي الله تعالى عنهم، ولما جمعهم قال: «اللهم هؤلاء أهلي»(١). ولما أقبل صلى الله عليه وآله وسلم ومعه أهله(٢) ونظرت إليهم وفد نجران قال لهم رئيسهم: يا قومي والله لقد علمتم صدق الرجل ـ أي: لكن عاندتم ـ والله يا قومي لئن باهلتموه ليهلككم الله، والله يا قومي إني لأرى وجوهاً لو سألت ربها أن يزيل الجبل لزال من مكانه، يا قومي لا تباهلوه ووادعوه ـ أي: صالحوه على الجزية ـ وكان الأمر كذلك.

وقال الله تعالى في وصف الشمس الفلكية: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا

---

(١) الحديث في (صحيح) مسلم كتاب الفضائل، باب من فضائل سيدنا علي رضي الله عنه /٢٤٠٤/ (٥/٢٤٠٢)، و(سنن) الترمذي كتاب المناقب، باب أنا دار الحكمة /٣٧٢٦/ (٩/٣٠٨).

(٢) كما في شرح المواهب للحافظ الزرقاني (٤/٤٣) معزواً لابن أبي شيبة وأبي نعيم.

وَهَّاجًا﴾ [عم: ١٣] وإن حاجة الإنسان إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشد من حاجته إلى تلك الشمس، التي يتوقف عليها نظام حياته، لكنه يستغني عنها في الليل، ولكن لا غنى له عن النور سواء في الليل أو النهار.

كما أن النجوم في السماء ما نجمت وظهرت إلاَّ بانعكاس أنوار الشمس عليها، كذلك فإن أتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نَجْمٌ فيه نور سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتباعه بأنهم نجوم، ولكن النجوم تختلف عن بعضها بقوة نورها.

روى البيهقي[1] وغيره: «إن أصحابي بمنزلة النجوم، فأيما أخذتم به اهتديتم».

وجاء في الحديث: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم».

كما أن العلماء العاملين نجوم يُهتدى بهم في ظلمات الضلال جاء في (المسند)[2]: «إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء، يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أَوْشَكَ أن تضل الهداة» الحديث، وفي الحديث[3]: «وإن العلماء

---

(١) ينظر في (كشف الخفا) (١/ ١٤٧) للإمام العجلوني.

(٢) (٣/ ١٥٧) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٣) الذي رواه أبو داود في (سننه) كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم /٣٦٤١/ (٤/ ٥٧) والترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة /٢٦٨٣/ (٧/ ٣٢٥) وابن ماجه (المقدمة) حديث رقم (٢٢٣) إلى قوله ﷺ: «أخذ بحظ وافر»، والبيهقي واللفظ له كما في (الترغيب) في الترغيب في الرحلة في طلب العلم حديث رقم /١٤٩/.

ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً؛ وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر ، وموت العالم مصيبة لا تجبر ، وثلمة لا تسد ـ أي: فجوة ـ وموت العالم نجم طُمِسَ».

وجاء في (الصحيحين) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة»[1] وما شمس هذه الأقمار والنجوم إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله جل وعلا فيه: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦].

* * *

---

(١) البخاري كتاب أحاديث الأنبياء ، باب خلق آدم وذريته / ٣٣٢٧/ (٦/ ٣٦٢) مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب أول زمرة تدخل الجنة على صفة القمر ليلة البدر / ٢٨٣٤/ (٥/ ٢٧٠٣) ، والإمام أحمد في (المسند) (٢/ ٢٥٣).

موقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع العالم
أَنَّهُ رحمة للعالمين

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فلقد أرسله الله تعالى رحمة للعالمين، في كل العالمين، على مختلف أنواعهم وأصنافهم، فَعَمَّت رحمته صلى الله عليه وآله وسلم جميع العوالم، في كل العوالم، بوجوه من أنواع الرحمة.

وهناك رحمة خاصة بالمؤمنين، كما أخبر عنه سبحانه وتعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

أما الرحمة العامة التي عمت كل العوالم؛ فإنّها تظهر وتنجلي في مواقفه عليه الصلاة والسلام، وفي شريعته، وأوامره التي أمر بها، كما تظهر في معاملاته، وفي مواقفه مع الكفار والمشركين، ومع المنافقين، ومع المذنبين المرتكبين، ومع المؤمنين الصادقين.

كما ظهرت هذه الرحمة في مواقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع

الصبيان والعيال ، وفي مواقفه مع الحيوانات والبهائم.

وكما ظهرت رحمته صلى الله عليه وآله وسلم بالعوالم في عالم الدنيا فإنها ستظهر في العوالم البرزخية الأخروية ، حتى في عالم الجنة؛ فهو رحمة للعالمين في جميع العالمين.

وإليك بيان ذلك:

إن الشرع الذي جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما فيه من أوامر ومناهي وحدود ، فإن في ذلك رحمة للعالمين ، فمن هذا: أن ما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم من العقوبات والحدود والتعزير والقصاص فإنّ ظاهره عذاب؛ ولكن باطنه رحمة ، فما الحد إلا حد للفاحشة ، وإيقاف للفحش أن يستشري في البلاد ، وينتشر بين العباد ، فإن قطع يد السارق مثلاً ظاهره أمر كبير؛ لكن حقيقته رحمة للسارق ولأهل الأرض كلهم. فَيُمْنَع السارق من الاستمرار في ظلمه وبغيه ، ويتأدب غيره من أن يجرأ على مثل هذا الأمر ـ وهذا رحمة.

وكذلك رجم الزاني فيه تطهير له ، وتطهير للمجتمع من التدنس بمثل هذا الأمر.

وَمَثَل هذا كمثل عضو فسد في الجسد ، فأعيا الأطباء شفاؤه ، وأجمعوا على بتره لئلا يستشري الفساد والضرر إلى سائر البدن. فإن بتر هذا العضو بحسب الظاهر أمر مؤلم ، لكن حقيقة ذلك رحمة لهذا الإنسان ، ومنع للداء أن يمتد إلى سائر بدنه فيهلكه. وكذلك حدود الله في أرضه من عقوبة وتعزير وقصاص؛ فإن ظاهرها العقاب وحقيقتها الرحمة ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَآ

﴿... أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ولهذا يجب أن تعلم أن جميع ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أوامر ومناهي كلها رحمة خاصة وعامة.

أ ـ رحمته صلى الله عليه وآله وسلم بالكفار:

فلقد كان يرحم الكفار أكثر من رحمتهم بأنفسهم، ومن هذا: ما ورد في يوم أحد، لما كُسِرت رباعيته عليه الصلاة والسلام، وشج وجهه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم، وسال الدم منه، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ادع الله عليهم ـ أي: بالهلاك ـ..

فقال: «إني لم أبعث لعاناً؛ إنما بعثت رحمة»[1] ـ أي: حتى للكفار ـ وظهرت رحمته بهم بأن دعا لهم بالهداية للإيمان، ولم يدع عليهم بالهلاك الشامل.

وإنّ حقيقة قتاله صلى الله عليه وآله وسلم الكفار ومحاربته لهم إخراج لعناد الكفر من رؤوسهم لعلهم أن يدخلوا في الإسلام.

وأما قتله للكفار المعاندين وأمره بذلك؛ فهذا رحمة بهم، حتى يوقف حد كفرهم، فإنّ الكافر إذا طال عمره زاد كفره فزاد عذابه في الآخرة.

ومن هذا أيضاً موقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع الكفار والمشركين يوم الطائف، وقد قابلوه شر مقابلة، وأمروا صبيانهم أن يرموه بالحجارة، فرجع صلى الله عليه وآله وسلم وقد اعتراه

---

(١) الحديث في (صحيح) مسلم كتاب البر والصلة، باب النهي عن.... /٢٥٩٩/ (٥/٢٥٣٣).

الأذى والهَمُّ ، فجلس ودعا الله تعالى وقال : «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقله حيلتي ، وهواني على الناس ، رب المستضعفين ، أنت أرحم الراحمين ، إلى من تكلني؟ إلى عدوٍ يتجهمني ، أم إلى قريب ملكته أمري ، إن لم يكن منك غضب عليَّ فلا أبالي ، غير أنَّ عافيتك أوسع لي.

أعوذ بنور وجهك الذي أضاءت له السماوات والأرض ، وأشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة : أنْ ينزل بي سخطك ، أو يحلّ عليَّ غضبك ، ولك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك»[1].

فأظلته سحابة ، قال كما في (الصحيحين)[2] : «فرفعت رأسي فإذا سحابة قد أظلتني ، فنظرت فيها فإذا فيها جبريل عليه السلام ، فقال لي : يا محمَّد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إن ربك سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئت».

قال : «فجاء ملك الجبال وَسَلَّم عليَّ ، وقال : يا محمَّد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إن الله بعثني إليك لتأمرني بما شئت ـ كما في رواية الطبراني ـ فإن شئت أطبقت عليهم الأخشبين» ـ جبلي مكة ـ.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «بل أرجو أن يُخرج

---

(١) رواه الطبراني ، انظر (مجمع الزوائد) (٦/ ٣٥).

(٢) البخاري كتاب بدء الخلق ، باب إذا قال أحدكم آمين / ٣٢٣١/ (٦/ ٣١٢) ، ومسلم كتاب الجهاد ، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أذى المشركين / ١٧٩٥/ (٤/ ١٨٩٢).

الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً».

ومن هذا الحديث يفهم: أن الذين قُتلوا في غزوات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الكفار؛ لو أنهم عاشوا لما نَسلوا إلاّ كفاراً إلى يوم القيامة، ولو أنّ في أصلابهم أو ذريتهم مُسلماً واحداً لما قتله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوْ أمر بقتله.

٢ً ـ أما رحمته بالمنافقين:

فلما نزل قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ [التوبة: ٨٠].

فقال عليه الصلاة والسلام ـ كما جاء في عدة روايات ـ: «لأزيدن على السبعين»[١]. أي: إنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يفهم من الآية المنع عن الاستغفار، وإنما فهم أنَّه لو زاد لربما غفر الله لهم، فعمل بموجب الرحمة، وأنه رحمة للعالمين.

كما أن الآية لم تدل على منعه للاستغفار لهم، وإنما جاء المنع عن الاستغفار للمشركين، ولم ينزل بعد نهي عن الاستغفار للمنافقين.

فلما نزل قوله سبحانه وتعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ [المنافقون: ٦] أمسك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الاستغفار للمنافقين لأن الآية نزلت فيهم.

أي: لما بيّن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن استغفارَه للمنافقين لا يفيدهم شيئاً، وفهم رسول الله صلى الله عليه

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) (٣/ ٢٦٤) إلى ابن جرير، وابن أبي حاتم.

وآله وسلم من الآية المنع عن الاستغفار لهم ، أمسك عن ذلك . في حين أنه قبل أن ينزل النهي عن ذلك كان صلى الله عليه وآله وسلم يعمل بموجب المقام الذي أقامه الله فيه ، وهو قوله عز وجل : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧].

ومن هذا أيضاً[1] أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان في أول الأمر يُصلي على بعض المنافقين بموجب أنه رحمة للعالمين ، ومن الرحمة أن يرحمهم. فلما مات عبد الله بن أبي بن سلول ـ وهذا من كبار المنافقين ـ قال ابن عمر رضي الله عنهما : لما مات ابن سلول جاء ابنه ـ وهو مؤمن ـ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسأله أن يُعطيه قميصه يكفن فيه أباه ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باعتبار أنه رحمة للعالمين ، ثم طلب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يُصلي على أبيه ـ ولم ينزل النهي عن ذلك بعد ـ فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي عليه ، فأخذ عمر رضي الله عنه بثوب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي : أن عمر لا يريد من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يصلي على رأس المنافقين ـ.

فقال : «إليك عني يا عمر» وصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وقد عمل هذا صلى الله عليه وآله وسلم بمقتضى أنَّه رحمة للعالمين ، وليس هناك نهي عن ذلك ـ ثم نزل قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ

---

(١) (صحيح) البخاري كتاب التفسير ، باب استغفر لهم أو لا تستغفر لهم / ٤٦٧٠ و٤٦٧١/ (٨/ ٣٣٣) و(صحيح) مسلم كتاب صفات المنافقين وأحكامهم / ٢٧٧٤/ (٥/ ٢٦٦٨).

﴿وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤].

فلما نزلت الآية امتنع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الصلاة على المنافقين.

٣ ـ موقفه صلى الله عليه وآله وسلم بالرحمة مع أهل الكبائر:

فكان إذا ارتكب مسلم كبيرة تستوجب حَدّاً، وثبت ارتكابه لها بنصاب الشهادة، كزنا أو شرب خمر، أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بإقامة الحد عليه، مع الاحتفاظ بالشفقة والرحمة على هذا المحدود.

فلما جيء ببعض المرتكبين وحُدَّ، وقام بعض الصحابة يتكلم فيه قال عليه الصلاة والسلام: «لا تقولوا هكذا، لا تُعينوا عليه الشيطان»[(١)]، وعند أبي داود قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ولكن قولوا: اللهم اغفر له اللهم ارحمه»[(٢)].

وجيء ببعضهم وقد تكرر منه شرب الخمر، وكلما شرب كان يحد، فقال بعض الصحابة: اللهم العنه؛ ما أكثر ما يُؤتىٰ به.

فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تلعنوه، فوالله ما علمت أنه يُحبُّ الله ورسوله»[(٣)] صلى الله عليه وآله وسلم.

ولما رُجم ماعز بن مالك الأسلمي بسبب الزنا، قال عليه

---

(١) البخاري كتاب الحدود، باب الضرب بالجريد والنعال /٦٧٧٧/ (٦٦/١٢) وأبو داود كتاب الحدود، باب الحد في الخمر /٤٤٧٧/ (٦٢٠/٤).

(٢) كتاب الحدود، باب الحد في الخمر /٤٤٧٨/ (٦٢١/٤).

(٣) رواه البخاري في كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر، حديث /٦٧٨٠/ (٧٥/١٢).

الصلاة والسلام: «اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها ـ الذنوب والكبائر ـ فمن ألمَّ بشيء منها فليستتر بستر الله ، وليتب إلى الله ، فإنه من يُبدِ لنا صفحته نُقم عليه كتاب الله»[1] أي: من يُعلن بذلك ويثبت عليه بموجب الشهادة يقام عليه الحد الشرعي.

٤ ـ موقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع الصبيان بالرحمة:

كان صلى الله عليه وآله وسلم إذا مر بالصبيان سلم عليهم ـ إن كانوا مُمَيِّزين ـ وكان يمسح خَدَّي أحدهم مسحاً ، ملاطفاً ومؤانساً لهم.

قال جابر بن سمرة رضي الله عنه: (صليت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأولى ـ الظهر ـ ثم خرج إلى أهله ، فاستقبله وُلدان ـ صبيان ـ المدينة ، فجعل يمسح خدي أحدهم واحداً بعد واحد. قال: فجئت فمسح خديَّ ، فوجدت ليده برداً وريحاً طيباً ، كأنما أخرجها من جؤنة عطار)[2].

وهذا من الطيب المحمدي الذي هو فوق كل طيب.

وروى الطبراني في (الكبير والأوسط) عن أم عاصم امرأة عتبة بن فرقد السلمي رضي الله عنه قالت: (كنا عند عتبة أربع نسوة ـ أي: زوجات له ـ فما منا امرأة إلا وهي تجتهد في الطيب؛ لتكون أطيب من صاحبتها ، وما يمس عتبة الطيب ، إلاّ أن يمسّ دهناً

---

(١) رواه الحاكم في (المستدرك) (٤/ ٢٤٤ و٣٨٣) ، والبيهقي في (السنن الكبرى) (٨/ ٣٣٠) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) (صحيح) مسلم: كتابِ الفضائل ، باب طيب ريحه صلى الله عليه وآله وسلم /٢٣٢٩/ (٥/ ٢٣٣٨).

يمسح لحيته ، ولهو أطيَب ريحاً منا ، وكان إذا خرج إلى الناس قالوا: ما شممنا ريحاً أطيب من ريح عتبة.

فقلت له يوماً: إنا لنجتهد في الطيب ولأنت أطيب ريحاً منا ، فَمِمَّ ـ أي: من أيّ سبب ذلك ـ؟!!.

فقال عتبة: أخذني الشرى ـ وهو مرض في الجلد يورث حكة ـ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأتيته فشكوت ذلك إليه صلى الله عليه وآله وسلم ، فأمرني أن أتجرد ، فتجردت عن ثوبي وقعدت بين يديه ، وألقيت ثوبي على فرجي ـ يعني: أنه ستر عورته كلها ـ فنفث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في يده ، ثم مسح ظهري وبطني بيده ، فعبق ـ لازمه ولزق له ـ بي هذا الطيب من يومئذ)[1].

٥ ـ موقفه صلى الله عليه وآله وسلم مع زوجاته الطاهرات ، وقراباته صلى الله عليه وآله وسلم:

فكانوا إذا جلسن عنده آنسهن وألان لهن المقال.

ومن هذا ما ورد في (الصحيحين)[2] عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعنده نسوة يتحدثن

---

(١) قال الهيثمي في (مجمع الزوائد): (٨/ ٢٨٣) رجال الأوسط رجال الصحيح غير أم عاصم فإني لم أعرفها.

(٢) البخاري في كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده / ٣٢٩٤/ (٦/ ٣٢٩) وكتاب الفضائل ، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه / ٦٣٨٣/ (٧/ ٤١) وكتاب الأدب ، باب التبسم والضحك ، / ٦٠٨٥/ (١٠/ ٥٠٣) ومسلم كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عمر رضي الله عنه / ٢٣٩٦/ (٥/ ٢٣٩٤).

معه ـ أي: من قراباته وأرحامه ـ فجعلن يرفعن أصواتهن ، فاستأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فلما استأذن سيدنا عمر رضي الله عنه ابتدرن الحجاب ـ أي: اختبأن وراء الحجاب ، لأن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أجنبي عنهن ـ وخفضن أصواتهن.

فدخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فجعل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يضحك.

فقال عمر رضي الله عنه: مِمَّ تضحك يا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أضحك الله سنك؟.

قال: «من هؤلاء النسوة اللاتي كن عندي ، لما سمعن صوتك خفضن أصواتهن ، وابتدرن الحجاب».

فقال عمر رضي الله عنه ـ من وراء حجاب ـ: أتهبنني يا عدوات أنفسهن ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟!!!.

فقلن له: أنت أغلظ وأفظ[1].

فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إيه يا عمر إيه يا عمر ـ أي: زد يا عمر في جوابهن ـ والذي نفسي بيده ما رآك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً آخر».

---

(١) وليس المراد أنه صلى الله عليه وآله وسلم فظ وعمر رضي الله عنه أفظ ، بل المراد أن فيك الفظاظة والغلظة الشديدة ، وأفعل التفضيل هذا على غير بابه

وفي هذا دلالة قاطعة على مشروعية الحجاب ، وأنه لا يجوز لامرأة أن تختلط مع رجل أجنبي عنها ، ولو كان الأمر جائزاً لما ابتدرت النسوة بالحجاب لما استأذن عمر رضي الله عنه.

ولم تكن النساء تختلط مع الرجال إلا قبل نزول آية الحجاب ، وقد يجلسن عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الطعام وَيُنظر إلى بعض الزوجات الطاهرات دون حجاب.

فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين يحتجبن ، ثم أنزل الله تعالى قوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم النساء أن يحتجبن ، ولم يُسمح لهن باختلاط الرجال.

وإنّ من راح يتأول الحجاب على هواه. فيقال له: إنه لما نزل الأمر بالحجاب وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]. ماذا فهم الصحابة من الآية ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بينهم؟!!.

لقد فهم الصحابة من الآية الأمر بالحجاب ، وأقرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك، ولهذا قال عَبِيْدة السَّلْماني[1] :

---

(١) التابعي الكبير عبيدة بن عمرو الفقيه ، أحد الأعلام ، توفي سنة / ٧٢/ رحمه الله ورضي عنه.

لما نزلت هذه الآية خرجت نساء الأنصار وعليهن الجلابيب السود ، كأنهن الغربان.

فكان لا يُرى من المرأة شيئاً إلاّ موضع عينها اليسرى ـ وهذا ما فعلته النسوة عندما استأذن عمر رضي الله عنه ـ.

أما ما ورد من نظر رجل إلى امرأة في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكان قبل نزول آيات الحجاب والأمر به.

٦ً ـ موقفه صلى الله عليه وآله وسلم بالرحمة مع الحيوانات والبهائم:

فلقد أوصى صلى الله عليه وآله وسلم بالحيوان ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة ، فاركبوها صالحة ، وكلوها صالحة»[١].

وَبَيّن صلى الله عليه وآله وسلم أن الرحمة بالحيوان فيها أجر كبير عند الله تعالى ، وأنّ تعذيب الحيوان فيه عقاب وعذاب عند الله تعالى ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «دخلت امرأة النار في هرة حَبَسَتْها ، فلم تُطعمها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»[٢].

وكما يَعْلَمُ بعض المسلمين أن نتف ريش الهرة حرام ، فليعلم

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الجهاد ، باب ما يكره من الخيل /٢٥٤٨/ (٣/٤٩) عن سهل بن الحنظلية رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في كتاب المساقاة ، باب فضل سقي الماء /٢٣٦٥/ (٥/٤١) ومسلم كتاب البر والصلة ، باب تحريم تعذيب الهرة /٢٦١٨/ (٥/٢٥٤٨) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

أن نتف ريش المسلم أشد حرمة عند الله تعالى ، لأن المسلم أكرم عند الله من الحيوان، وما الغيبة والنميمة والسب والشتم للمسلم إلا كنتف ريشه. فمن كان يتورع بإيمانه عن نتف ريش الهرة ؛ فأولى به أن يتورع عن أذى المسلمين.

ودخلت هرة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأمال لها الإناء وسقاها ، رحمة منه وشفقة صلى الله عليه وآله وسلم أبداً[1].

وبيَّن صلى الله عليه وآله وسلم «أن رجلاً عَطِشَ فنزل بئراً فشرب ، فلما خرج رأى كلباً يلهث من العطش فقال: هذا بلغ منه العطش كما بلغ مني ، فنزل وملأ خفه ماء وسقى الكلب؛ فشكر الله له فغفر له».

أي: إنّ هذا الرجل عمل هذا خالصاً لوجه الله ، مريداً بذلك التوبة إلى الله.

فقال الصحابة رضوان الله عليهم: يا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وإن لنا في البهائم أجراً؟!!.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «في كل كبدٍ رطبة أجر»[2].

وما من رحمة تنزل على أهل الدنيا ، وعلى أهل الآخرة ، وأهل الجنة ، إلا بواسطة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنه

---

(١) عزاه في (نصب الراية) (١/ ١٣٣) إلى الدارقطني في (السنن)، وإلى الطحاوي في (شرح معاني الآثار) وانظر كشف الخفاء (١/ ١٩٧)، والتلخيص الحبير (١/ ٤٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب المساقاة ، باب فضل سقي الماء / ٢٣٦٣/ (٥/ ٤٠) ومسلم كتاب السلام ، باب فضل البهائم المحترمة / ٢٢٤٤/ (٤/ ٢٢٧٦).

رحمة للعالمين في جميع العالمين.

ولقد قال عليه الصلاة والسلام، كما في الحديث الذي رواه الإمام أحمد[1] بالسند الحسن وغيره: «أُتيت مقاليد الدنيا - أي: مفاتيح الخزائن الأرضية أتاني جبريل -عليه السلام - على فرس أبلق» أي: جاء بها جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

كما أن أهل الجنة لا ينالون نعيماً ولا رحمة إلا بواسطة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا مقتضى مقام الوسيلة.

كما أخبر أنه أوتي مفاتيح الجنة: روى الدارمي والترمذي والبيهقي[2]، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أول الناس خروجاً إذا بُعثوا - من قبورهم - وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وأنا قائدهم إذا وفدوا، وأنا شافعهم إذا حُبِسوا - أي: في الموقف - ولواء الحمد يومئذ بيدي ولا فخر، ومفاتيح الجنة يومئذ بيدي ولا فخر، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر».

وإنّ مقام الوسيلة الذي أعطاه الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، إنما هو مقام فَرْد لا يقوم به إلا هو صلى الله عليه وآله وسلم، وقد سُمي هذا المقام بالوسيلة، والوسيلة هي: الوساطة.

---

(١) (المسند) (٣/ ٣٢٨).

(٢) (سنن) الدارمي المقدمة ص/٢٦/ (سنن) الترمذي كتاب المناقب، باب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أول من يُبعث / ٣٦١٤/ (٩/ ٢٣٧) (دلائل النبوة) (٥/ ٤٨٤).

فمقام الوسيلة هو أعلى مقام في الجنة ، وكل خير يصل إلى أهل الجنة من نعيم ومعرفة وتجلٍّ؛ إنما بواسطة صاحب الوسيلة صلى الله عليه وآله وسلم. ومن هنا ورد أنّ مقام الوسيلة له إشرافات على جميع غرف أهل الجنة.

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما أنا قاسم والله يعطي»[1].

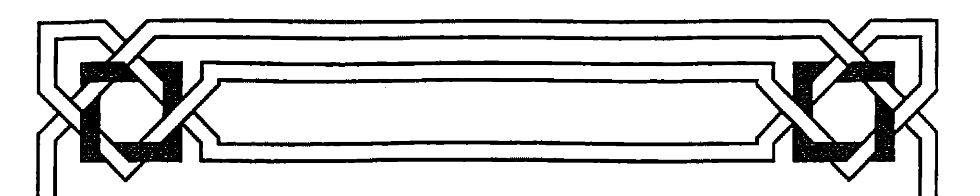
وقد سمى نفسه صلى الله عليه وآله وسلم بنبي الرحمة: كما ورد في سنن الترمذي والنسائي وأحمد[2] عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه ، أن ضريراً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسأله رد بصره.

فقال له: «قم فتوضأ وصل ركعتين ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبي الرحمة ، يا محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى؛ اللهم فشفعه فيَّ» ثلاثاً ـ فرد الله إليه بصره.

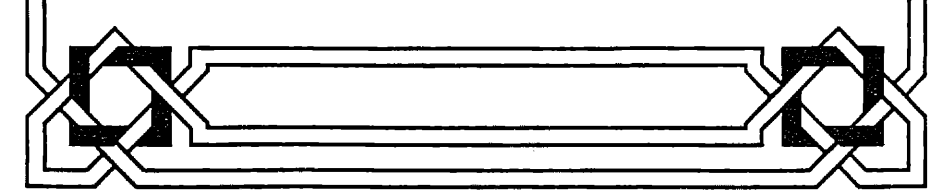
* * *

(١) رواه البخاري في كتاب العلم ، باب من يرد الله به خيراً /٧١/ (١/ ١٦٤) ومسلم كتاب الزكاة ، باب النهي عن المسألة /١٠٣٧/ (٢/ ١٠٧٤).

(٢) الترمذي كتاب الدعوات ، باب من أدعية الإجابة /٣٥٧٣/ (٩/ ٢١٧) (المسند) (٤/ ١٣٨) وينظر لزماً (مجمع الزوائد) (٢/ ٢٧٩) ففيه قصة حول الحديث الشريف.



من مواقفه
صلى الله عليه وآله وسلم
أنه صلى الله عليه وآله وسلم
إمام الأئمة وهادي كل أمة



فلقد أعطى الله تعالى إبراهيم الخليل عليه السلام مقام الإمامة وأعطى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم مقام إمام الأئمة ، وإن جميع الرسل أئمة لأممهم ، إلا أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو إمام الأئمة ، وهادي كل أمة.

قال الله تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ ﴾ الآية [البقرة: ١٢٤] والمعنى إنَّ الله تعالى اختبر إبراهيم عليه السلام ، وكلفه بأوامر وهي ثلاثون أمراً ، أمره الله سبحانه وتعالى أن يتحقق بها ، وهي المذكورة في سورة التوبة: ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١١٢].

وعشرة في سورة المؤمنون ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ١٠] ، وعشرة في سورة الأحزاب: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥] وكان

موقف الخليل عليه السلام مع هذه الأوامر والخصال أَنْ أتمها ، وتَحقَّقَ بها ، قال عز وجل: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

أي: لما جَمَعْتَ يا إبراهيم عليه السلام هذه الصفات والمقامات والكمالات؛ فحق لك أن تكون إماماً ، لأن شأن الإمام الحق أن يحوي على كمالات أمة ، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] أي: في كمالاته وخصاله ، ومعارفه وعلومه ، وعباداته. وهكذا سائر الرسل صلوات الله عليهم أئمة لأممهم ، وأما سيدنا محمد صَّلى الله عليه وآله وسلم فهو إمام الأئمة كلهم. وهذا كما بيَّن الله تعالى في أخذه الميثاق على الأنبياء والرسل كلهم ، أنْ إذا أدركوا هذا الرسول الكريم أن يتبعوه وينصروه ، وأن يأخذوا العهد على أممهم بذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي: عهدي وميثاقي ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

فأخذ الله العهد على جميع الأنبياء والرسل أن يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن يتبعوه إن هم أدركوا زمنه ، وأن ينصروه ، وأن يأخذوا العهد على أممهم بذلك أيضاً.

وفي هذا قال سيدنا علي رضي الله عنه[١]: (لم يبعث الله نبياً إلا أخذ الله عليه العهد أن إذا أدرك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) كما في الدر المنثور (٢/ ٤٧).

أن يؤمن به وينصره ، وأخذ العهد على كل نبي أن يأخذ العهد على قومه أن يؤمنوا برسول الله وينصروه).

ومن أجل هذا الميثاق قال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً لما وسعه إلا أن يتبعني»[1] أي: لو كان في عالم الدنيا لما وسعه إلا اتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإلا فهو في البرزخ عليه الصلاة والسلام.

وجاء في (المسند) وغيره[2]، عنه عليه الصلاة والسلام: «لو كان موسى حياً بين أظهركم واتبعتموه وتركتموني لضللتم، أنتم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين» أي: متى وجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فالإمامة له، والأسوة به صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا لأن الواجب المحتم على سيدنا موسى عليه السلام ـ وعلى كل نبي وكل أمة ـ إنْ أدركوا زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يتبعوه. ولهذا فإنّ سيدنا عيسى عليه السلام لما ينزل في آخر الزمن ، فإنّه يأتي مُتَّبِعاً لشرع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويعمل بالقرآن الكريم وسنة خير الأنام عليه الصلاة والسلام.

وذلك لأن العهد المأخوذ عليه وعلى كل نبي ؛ إنْ هو أدرك زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ أن يترك ما عنده ويتبع ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (٣/ ٣٨٧) وانظر (مجمع الزوائد) (١/ ١٧٣) و(٨/ ٢٦٢).

(٢) الحديث في (المسند) (٤/ ٢٦٥) ورواه الطبراني كما في (مجمع الزوائد) (١/ ١٧٣) عن سيدنا عبد الله بن ثابت رضي الله عنه.

ولما كان صلى الله عليه وآله وسلم إمام الأئمة ، فإنّه لما اجتمع بهم ليلة الإسراء في بيت المقدس ، كما ورد في (صحيح) مسلم[1] وغيره ، تقدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصَلّىٰ بهم إماماً ، وذلك بأمر من الله تعالى بواسطة جبريل عليه السلام ، وإنّ الملائكة لا تعمل أمراً إلا بإذن الله وأمره ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ [مريم: ٦٤] ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

كما وأنه صلى الله عليه وآله وسلم إمام الأئمة في جميع العوالم صلى الله عليه وآله وسلم.

روى الترمذي وأحمد[2] وغيرهما ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين ، وخطيبهم ، وصاحب شفاعتهم غير فخر» أي: أنه يفتح لهم باب الشفاعة.

فهو إمامُهم وأمامَهم في كل البرازخ ، حتى عند دخول الجنة ، وهو الذي يخطب فيهم ويحاضرهم ، وعنه يأخذون ، ومنه يستمدون ويستفيضون.

وجاء في صحيح ابن حبان[3] أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن لكل نبي يوم القيامة منبراً من نور ، وإني لعلى أطولهم وأنورهم ، فيجيء منادٍ ـ أي: بعد ما تمضي مدة وتنقضي أمور وأمور ـ فيقول ـ أي: عن أمر الله تعالى ـ: أين النبي الأمِّي؟ ثم

---

(١) كتاب الإيمان ، باب ذكر المسيح ابن مريم عليه السلام / ١٧٢/ (١/ ٣٣٨).

(٢) (المسند) (٥/ ١٣٧ ـ ١٣٨) (سنن) الترمذي كتاب المناقب، باب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين (٩/ ٢٣٩).

(٣) (الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان) / ٦٤٤٦/ (٨/ ١٣٧).

يعود الثانية فيقول: أين النبي الأمي العربي»؟ قال: فينزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن المنبر، حتى يأتي باب الجنة فيقرع ـ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ باب الجنة.

وفي حديث (سنن) الدارمي[1]: «فآخذ بحلقتها فيقول ـ الخازن ـ مَنْ؟ فأقول: محمد» وفي رواية: «أحمد» صلى الله عليه وآله وسلم أبداً أبداً أبداً.

قال كما في رواية مسلم[2]: «بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك» فيفتح له صلى الله عليه وآله وسلم، فتصير أبواب الجنة مفتحة للداخلين ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [ص: ٥٠] وقد فتحها فاتح الجود الإلهي على هذا الوجود صلى الله عليه وآله وسلم.

قال: «فيدخلها صلى الله عليه وآله وسلم فيتجلى له الرب تبارك وتعالى، ولا يتجلى لنبيٍّ قبله» أي: تجلياً خاصاً جامعاً «فيخر لله ساجداً».

هذا كما ورد في أحاديث الشفاعة[3]: «فإذا رأيته وقفت له ساجداً» فيحمده بمحامد لم يحمده بها أحد ممن كان قبله، ولا يحمده بها أحد ممن كان بعده، فيقال له: «يا محمَّد ارفع رأسك، وتكلم تُسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع».

أما مقامه صلى الله عليه وآله وسلم هادٍ لكل أمة: قال الله

---

(١) (١/ ٢٧ ـ ٢٨).

(٢) في كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «أنا أول الناس يشفع في الجنة» /١٩٧/ (١/ ٣٨٥).

(٣) ينظر كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها) لفضيلة الشيخ الإمام رحمه الله تعالى ورضي عنه.

تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] أي: أنت منذر ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ لأنّ هديك هو الهدي الجامع الشامل، الصالح لجميع الأمم، وإنّ الهدي المحمدي قد اشتمل على هَدْي جميع الأنبياء والمرسلين، ولذلك فإنَّ الهدي المحمدي صالح ومُسْعِدٌ لكل أمة، وأنت ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

فإذا كان موقفه صلى الله عليه وآله وسلم إمام الأئمة، وهاد كل أمة، فماذا يجب أن يكون موقف العالم مع هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم؟! يجب أن يكون موقفهم معه موقف المقتدي، وأن يُحسنوا الاقتداء به صلى الله عليه وآله وسلم، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قدوة حسنة جامعة ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

فمن كان ممن يرجو الله، والثواب والعقبى عند الله تعالى فعليه أن يتأسى ـ أي: يقتدي ـ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا بيَّن الله تعالى، ماذا يجب على العبد أن يكون موقفه مع هذا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

وهذا نداء من رب العالمين للذين آمنوا، وفيه التنبيه والتأييه ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: لا تتقدِموا على الله ولا على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ومعنى التقدم على الله: أي: التقدم على كتاب الله؛ والتقدم على رسول الله هو: التقدم على شرعه وحديثه.

ولقد قال بعض المحققين: المراد لا تقدموا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وإنما قدم سبحانه ذكر اسمه جَلَّ وعلا حتى يَقرن ذكر رسوله بذكره؛ رَفعاً لشأنه، وعلواً لذكره صلى الله عليه وآله وسلم، وتحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، وقوله في الحديث القدسي: «لا أذكر إلا ذكرت معي»[1].

وفيه معنى التبريك على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً، لأنه لا يُتصور التقدم بين يدي الله تعالى.

والمعنى: لا تتقدموا على رسول الله بقولٍ ولا عمل ولا رأي ولا عقيده ولا فهم، بل كونوا متبعين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإنَّ مَنْ فعل ذلك فقد بلغت به الوقاحة والقباحة كأنه تقدم في المشي أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، متهاوناً متجرئاً عليه صلى الله عليه وآله وسلم.

فلقد أمر سبحانه بالاقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جميع الأقوال والأعمال والحركات، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم الإمام الأكبر، والقدوة العظمى لجميع الأمم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: واتقوا الله أن تتقدموا بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: بعمل أو قول أو خُلُق أو فهم ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: بأقوالكم، عليم بأعمالكم وقلوبكم.

* * *

---

(١) رواه أبو يعلى انظر (مجمع الزوائد) (٨/ ٣٥٤) وقال الهيثمي: إسناده حسن، عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

نماذج من مواقف الصحابة رضي الله عنهم في الاتباع الكامل لسيدنا رسول الله صلى الله وآله وسلم والاقتداء المطلق به صلى الله عليه وآله وسلم أبداً أبداً أبداً

جاء في (الصحيحين)[1] عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (توضأت يوماً في بيتي ، ثم قلت: لأكونن في هذا اليوم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: أنه سيجعل طيلة يومه مصاحباً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

فخرجت إلىٰ المسجد ، فسألت عنه صلى الله عليه وآله وسلم فقيل لي: إنَّه توجه ها هنا ـ أي: إلى جانب بئر أريس ـ فتتبعت أثره ، حتى رأيته دخل بئر أريس ـ وهو بستان فيه بئر ـ.

قال: فانتظرت حتى توضأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ،

---

(١) البخاري كتاب فضائل الصحابة ، باب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لو كنت متخذاً خليلاً» / ٣٦٧٤/ (٧/ ٢١) مسلم كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عثمان رضي الله عنه / ٢٤٠٣/ (٥/ ٢٤٠٠).

ثم جاء وجلس على حافة البئر ودلى رجليه ، وكشف عن ساقيه صلى الله عليه وآله وسلم ـ والساق هو: ما تحت الركبة ـ.

قال: فجئت فسلمت عليه ، فردَّ عليَّ السلام ، ثم قلت: لأجعلن نفسي بواباً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فجلست وراء الباب ـ والباب مِنْ عسيب النخل ـ

فجاء رجل فقلت: لعله أخي ـ لأنه ترك أخاه يتوضأ وقال له: اِلحقني حتى نقضي اليوم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقلت: إن يرد الله خيراً بأخي يأتِ به في هذا الوقت. فقلت: مَنْ؟ قال: أبو بكر رضي الله عنه.

فقلت: على رسلك حتى أستأذن لك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فجئت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: يا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أبو بكر في الباب أتأذن له؟.

قال: «اِئذن له وبشره بالجنة» فجئت فقلت: قد أذن لك رسول الله وبشرك بالجنة.

فدخل أبو بكر رضي الله عنه ، وسلم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم جلس إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كما جلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودلى رجليه ، وكشف عن ساقيه ـ بلا سؤال أو استفهام عن ذلك ، بل اتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لأن الله يقول: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] أي: اتباعاً مطلقاً. وهذا ما فهمه الصحابة من الاتباع ، وهم يعلمون أن

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أُوتي الحكمة ، فأفعاله كلها مسددة محكمة ، وهو صاحب النبوة الجامعة ، فأفعاله وحركاته إنما هي بوحي من الله؛ وهي تدل على أمور فيها غاية الحكمة ـ.

ثم طُرق الباب ، فقلت: إن يرد الله خيراً بأخي يأتِ به. فقلت: مَنْ؟ قال: عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قلت: على رسلك حتى أستأذن لك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقلت: يا رسول الله عمر بن الخطاب في الباب أتاذن له؟.

قال: «اِئذن له وبشره بالجنة» فأخبرته بذلك.

فدخل عمر رضي الله عنه ، وسلم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم جلس إلى جانب أبي بكر ، ودلى رجْليه وكشف عن ساقيه ـ كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دون استفسار أو اعتراض ـ.

قال أبو موسى رضي الله عنه: ثم طرق الباب فقلت: مَنْ؟.

قال: عثمان بن عفان رضي الله عنه.

فقلت: على رسلك يا عثمان حتى أستأذن لك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فاستأذنت له فقال: «اِئذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه».

قال: فأخبرته بذلك. فقال: (اللهم صبراً).

فدخل عثمان رضي الله عنه ، وسلم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وقد امتلأ القُفُّ ـ أي: الجانب الذي جلس فيه

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ فجلس عثمان تجاههم ـ أي: أمامهم ، أي: أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ ودلى رجليه وكشف عن ساقيه) الحديث.

قال سعيد بن المسيب رضي الله عنه ـ وهو من خيار التابعين ـ: فتأولناها أنها قبورهم. ـ أي: إنّ التابعين فهموا ـ وهذا فهم الصحابة أيضاً ـ أنّ هذا العمل ، وهو أنه صلى الله عليه وآله وسلم جلس ودلى رجليه ، ثم أبو بكر وكذلك عمر ، ومن ثَمَّ عثمان ، أن الوفيات ستكون على هذا الترتيب.

وَكَانت قبورهم أيضاً على هذا الترتيب ، إذ إن قبر الصديق إلى جانب قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقبر عمر إلى جانب قبر أبي بكر ، أما قبر عثمان فأمامه في البقيع ، وهذا من باب أفعاله صلى الله عليه وآله وسلم الإنبائية ، فقد يتكلم مخبراً عن أمور وأمور ، وقد يفعل فعلاً ينبىء عن أمر.

وهكذا أفعاله صلى الله عليه وآله وسلم في غاية الحكمة ، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] فحكمته صلى الله عليه وآله وسلم ظاهرة في: أفعاله وأقواله ، وآدابه وأخلاقه ، وسائر شؤوناته صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن هذا تفهم أيها العاقل ما كان يبذله الصحابة من جهود لمتابعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ فيما عرفوا حكمته أم لم يعرفوا ، وهذا واجب كل مؤمن مع إمام الأئمة صلى الله عليه وآله وسلم.

ولما أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سيّدنا عثمان

يوم الحديبية إلى مكة ، بعد أن شاع عند أهل مكة أنّ الرسول جاء لمحاربتهم ، فأرسله يقول لهم: إنه جاء للعمرة ، وليس للحرب ، وأمره أن يُبَشِّر المستضعفين في مكة بالقوة والنصر القريب ، فلما دخل عثمان مكة ، وبلّغ كفار قريش ذلك ، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم ما جاء لمحاربتهم بل للعمرة. قالوا له: ما نأذن له ، ولكن في العام القادم نأذن له. وأنت يا عثمان نأذن لك أنْ تطوف حول الكعبة ، فتعال طف.

فقال عثمان رضي الله عنه: ما أنا بطائف حول الكعبة حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قالوا: نراك خالفت عادتنا يا عثمان! وهي عادة في الجاهلية في لبس الثياب الطويلة على الأرض.

فقال: هكذا يفعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كما يفعل نفعل.

وهنا قال بعض الصحابة ـ وهم في الحديبية ـ: هنيئاً لعثمان دخل بيت الله الحرام الآن ، وهو يطوف حول الكعبة.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أظنه يطوف بالبيت ونحن محصورون» أي: لا يطوف هو حتى نطوف معاً[1] وكان الأمر كذلك.

ثم شاع أن عثمان رضي الله عنه قد قتل ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن ينفي هذا الخبر ، فلما بايعه الصحابة ـ وهي

---

(١) انظر الخبر في (دلائل النبوة) للبيهقي (١٣٣/٤) وفي السيرة الشامية (٧٨/٥).

البيعة على الموت ، المعروفة ببيعة الرضوان تحت الشجرة ـ فأراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يُشرك عثمان بن عفان رضي الله عنه بهذا الفضل والأجر ، ويشيرَ إلى أنه لم يُقتل ، رفع يديه صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «هذه عن عثمان» ووضعها على يمينه.

فقال الصحابة: فكانت شمال ـ أي: يسار ـ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خير لهم من أيمانهم التي مدوها مبايعين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده اليسرى مُقام عثمان رضي الله عنه.

ويجدر بنا في هذه المناسبة ، أن نذكر شيئاً حول تفسير أوائل سورة الحجرات ، التي ذكر الله تعالى فيها مجامع الأدب مع الله تعالى ، ومع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومع المؤمنين كافة.



بعض الكلام
حول تفسير أوائل سورة الحجرات

لقد ذكر سبحانه وتعالى في هذه السورة أصول مجامع الآداب مع الله سبحانه وتعالى، ومع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وآداب المؤمنين مع بعضهم فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1] [الحجرات: ١].

---

(١) كان من جملة أسباب نزول هذه الآية كما في (الدر المنثور) (٦/ ٨٤) ما ورد في الحديث، أن قوماً ذبحوا قبل صلاة عيد النحر ـ استحساناً منهم لذلك حتى يستقبلوا العيد ولا أمر يشغلهم ـ فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأنكر عليهم وقال: «إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي ثم ننحر، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل أن يُصلي فإنما هو طعام لأهله؛ ليس من النسك في شيء» أي: لا تعتبر ذبيحته أضحية شرعاً، ونزل قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.
وقال بعض السلف رضي الله عنهم: وكان من جملة أسباب النزول لهذه الآية: أن قوماً قالوا: لو نزلت فينا كذا وكذا لكان كذا وكذا.. ومرادهم لو أنزل الله فينا آيات فيها أحكام استحسنوها لكان أصلح وأحكم على ظنهم، فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: لأنكم لستم أعلم بالمصالح والمنافع من الله ورسوله، وإنّ الذي خلقكم أعلم بكم وبمصالحكم، وبما فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ الآية [الملك: ١٤].
كما أن خالقهم هو الحاكم عليهم والمتصرف بهم ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فما عليهم إلا اتباع ما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

إن هذه السورة مدنية ، وإن غالب السور المدنية نزلت بالأحكام العملية والأدبية ، أما الأمور الاعتقادية فإنّ غالبها نزل في مكة .

وقد افتتح سبحانه وتعالى هذه السورة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ . . .﴾ .

معنى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ إنَّ أصل الفعل الثلاثي المؤلف من القاف والدال والميم له ثلاثة معانٍ:

يقال: قَدِم من سفره يقدَم قدوماً ، على وزن فَعِل يَفْعَلُ.

ويقال: قَدَمَ يقدُمُ قُدْماً. كقولك: فعلاً ، والمعنى: يتقدم كقوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨] أي: يتقدمهم.

ويقال: قَدَم يقدُم قِدَماً ـ أي: مضى عليه زمان طويل ـ.

أما الفعل في قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ فقد جاء مُثَقَّل الوسط ، وهو من باب فعَّل[(١)] ، وأصله قدَّم ، وقد يأتي متعدياً كما هو الأصل في الثلاثي الذي زيد فيه حرف ، والمراد منه التعدية.

فإما أنَّ المراد: لا تُقدموا أي: لا تُقدموا شيئاً ، سواء كان أمراً أو قولاً أو رأياً ﴿بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ والمعنى: كونوا متبعين لا مبتدعين ، وقد حذف المفعول به ـ وهو ما يعرف بحذف المعمول لأجل العموم ـ لأنه لو ذَكَرَ شيئاً لربما توهم أنه هو المقصود فقط ، كما لو قيل: لا تقدموا قولاً ، فقد يُفهم عندئذٍ

---

(١) لأن الثلاثي المزيد بحرف واحد يكون على ثلاثة أبواب: أفعل ـ فعَّل ـ فاعل.

جواز التقدم بعمل أو أمر ، لكن حذف المعمول[1] ليدل على النهي عن التقدم بأيّ شيء كان.

أو ﴿ لَا تُقَدِّمُوا ﴾لا تقدموا فعل لازم غير متعدٍ ، والمعنى: لا تتقدموا ، كما يقال: قدِّم يا فلان ، أي: تقدم أنت يا فلان ، ومنه مُقدمة الجيش أي: متقدمة الجيش[2].

ويقال: مقدمة العلم ، وهي: ذكر تعريف العلم وثمرته وفضله ، أمّا مقدمة الكتاب فهي البسملة والحمدلة ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والمقدمة هنا هي: الكلام المتقدم بين يدي العلم الذي تبحث فيه.

قوله تعالى: ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ هل هذا التعبير من باب المجاز أم الحقيقة؟ أي: يَدَان حقيقتان أم مجاز، فإنْ أريدَ يَديِ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإنّ هذا من باب الحقيقة، وقد يقال: كيف المراد من الآية رسول الله وقد ذكر سبحانه وتعالى اسمه؟!!.

فاعلم أنَّ المقصود من الآية ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي لا تقدموا بين يدي رسول الله ، ولكنه سبحانه قدم اسمه ليرفع ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تشريفاً وتعظيماً ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ وكما جاء في الحديث القدسي: «لا أذكر إلا ذكرت معي»[3].

---

(١) قد يحذف معمول العامل لتعميمه كما هو معروف في البلاغة.

(٢) وكان الجيش يسمى بالخميس ، كما قالت اليهود في غزوة خيبر: «محمَّد والخميس» أي: جاءكم محمَّد والخميس معه. والجيش الخميس هو الجيش المخمس الأطراف كالطير ، فهناك: المقدمة والمؤخرة والميمنة والميسرة والقلب ، وقيادة الجيش يكون موقعها في قلبه ـ وسطه ـ.

(٣) وقد تقدم تخريجه ص/ ٣٦٧/ .

ونظير ذلك قولك: سرني زيد وحسن أخلاقه ، أي: سرني حسن أخلاق زيد.

فما هو المراد من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾؟ أي: لا تقدموا أمراً من الأمور ، وعليكم باتباعه صلى الله عليه وآله وسلم.

وَمَثَلُ مَنْ فعل شيئاً لم يفعله صلى الله عليه وآله وسلم فقد بلغت به الوقاحة ؛ وكأنه تجرأ على المشي أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وإنَّ المشي أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بجرأة أمر مشين مذموم؛ إلاَّ إذَا أمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كالخادم والأجير. وفي هذا غاية التنفير من الابتداع ، وغاية الإغراء والإلزام بالاتباع.

وإذا كان المراد بقوله تعالى: ﴿ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﴾ أي: ما جاء في كتاب الله ﴿ وَرَسُولِهِ ﴾ ما جاء في أحاديثه ، فإن هذا يكون من باب المجاز والاستعارة ، لأن الله تعالى منزه عن الجوارح ، وهذه الاستعارة تمثيلية ، أي: شُبِّه من يتقدم بأمر لم يشرعه الله في كتابه كأنه بلغ في الوقاحة بالتجرىء على الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ هذا الأمر بالتقوى فيه معنى التهديد ، وتأكيد التحذير والنهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد جاء النهي ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وسطاً بين أمرين فيهما غاية التأكيد السابق واللاحق ، فقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا ﴾: يا: للتنبيه ﴿ يَا أَيُّهَا ﴾ للتأييه ـ التنبيه

أيضاً ـ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾أي: إنَّ إيمانكم يُوجب عليكم أنْ لا تتقدموا بين يدي الله ورسوله.

أما التحذيرات اللاحقة ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ توَقُّوا غضب الله وسخطه، فلا تتقدموا بأمر لم يشرعه الله ورسوله، ثم حذر سبحانه ونبَّه على تقواه سبحانه أمام الناس، أو في الخفاء ـ أي: في الجهر والسر ـ والظاهر والباطن فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي: سميع لأقوالكم، سواء كانت سراً أو جهراً، عليم بأفعالكم وقلوبكم.

واعلم أن الأسماء الإلٓهية في نهاية الآية تأتي وفيها المناسبة لما ذُكِرَ في الآية، فلم يقل هنا: إن الله غفور رحيم، ولو كانت كذلك لما بقي من التأكيد السابق والتحذير اللاحق معنىً أو فائدة. فافهم.

واعلم أن الله تعالى قد يُخاطب عباده ويناديهم بصيغ مختلفة من الخطابات، بحسب المناسبة، وبحسب الأمر الإلٓهي، فإذا كان الأمر يتعلق بإرشادات عامة للعباد؛ فقد يأتي الخطاب بقوله: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [الأعراف: ٢٦] من آدم عليه السلام إلىٰ يوم الدين ولا تقبل النسخ كقوله: ﴿ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ وهو سَتْر العورة عند الصلاة.

وقال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [يس: ٦٠] أي: تشريع عام لجميع بني آدم.

وقد يأتي الخطاب بصيغة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ وكثيراً ما نزلت في مكة، لأن النداء إلى مختلف أصناف الناس. وقد نزلت آيات قرآنية فيها الخطاب بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ نزلت في المدينة كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ من سورة البقرة. وسورة البقرة مدنية النزول.

وإذا كان الخطاب في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ لجميع أصناف الناس؛ فإنّ المراد من الناس وهم الذين يؤنسون أي: يُرون كقوله: ﴿ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا ﴾ [طه: ١٠] أي: رأيت ناراً.

وقد يُراد من الناس: ما يُرون ويؤنس بهم، وهم المؤمنون، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ﴾ أي: للكفار ﴿ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ ﴾[1] [البقرة: ١٣] لأن الكفار يؤنس بهم ـ بمعنى: أنهم يُرون ـ ولا أُنس عندهم لأنهم متصفون بالوحشية والبهيمية كما قال تعالى: ﴿ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾ [الفرقان: ٤٤].

وقد يكون الخطاب للناس أو المؤمنين، فيكون الأمر متعلقاً بأحكام تشريعية خاصة كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ . . . ﴾ [الحجرات: ١].

أما أداة النداء (يا) فتكون للبعيد حِسّاً أو معنىً كما قيل:

وللمنادى النائي أو كالنائي يا وأي وآ كــذا أيــا ثُــمَّ هيــا

والمراد: بمَنْ كالنائي: البعيد حساً.

فالله تعالى ينادي عباده بـ(يا) نظراً لعلو مقام الربوبية عن مستوى العبودية.

والعبد ينادي ربه بقوله: يا رب إذا نظر في نفسه وذنوبه، ورأى نفسه بعيداً عن حضرة ربه، أما إذا استشعر قرب ربه منه كما هو حال الأنبياء أو المؤمنين فيقول: رب، كما جاء ذلك في كثير

---

(١) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [البقرة: ١٤٣] والمراد بالناس هنا المؤمنون، دل عليه قوله: ﴿لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ وهذه الرحمة الخاصة لا تكون إلا للمؤمنين ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

من الآيات ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ [طه: ٢٥] وغيرها.

وبعدما بَيَّنَ سبحانه وأشار إلى الأدب مع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بوجوب اتباعه، أمر بالأدب الاجتماعي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية [الحجرات: ٢].

وقد أعاد سبحانه افتتاح هذه الآية بصيغة الخطاب والتأييه والتنبيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ولم يعطف على ما قبلها بقوله: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ﴾ وذلك ليدل على أهمية هذا الأمر، وبيان أن هذا الأمر مقصود بذاته، وليس تبعاً، كما أن هذا مقتضى الإيمان: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ يجب أن تكون أصواتكم دون صوت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكما أنكم مأمورون بالمتابعة له؛ فيجب أن تكون أصواتكم تابعة له، ومنخفضة عن صوته صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد يقال: لِمَ ذكر في هذه الآية كلمة النبي، وذكر في الآية الأولى كلمة الرسول ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ صلى الله عليه وآله وسلم؟؟.

وذلك لأن كلمة ﴿ٱلنَّبِيِّ﴾ تدل على أمرين من حيث الاشتقاق اللغوي: فكلمة النبي مشتقة من النبُوة وهي المكان المرتفع، ومن النبأ، نَبيءٌ وهو على وزن فعيل يستوي فيه الفاعل والمفعول، فهو نَبِيٌّ أيْ: مُخبَرٌ مِنَ الحق ومُخْبِرٌ عن الحق: ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣] مُخْبَرٌ.

﴿۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم﴾ [آل عمران: ١٥] ﴿۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ﴾ [الحجر: ٤٩] مُخبِر.

وليست القاعدة التي تنص على أنه يجب أن يكون المراد من كلمة واحدة معنىً واحداً؛ ليست هذه القاعدة مسلمة على إطلاقها ، لأنه لا يجوز لنا أن نتحكم في آيات الله ، بل الآيات تتحكم بنا في مفاهيمها.

فلما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرتفعاً عن غيره بالرتبة والمقام والفضل ، فلا يصح ولا يجوز أن تُرفع الأصوات فوق صوته صلى الله عليه وآله وسلم. فافهم هنا سر ومناسبة الإتيان بكلمة ﴿ ٱلنَّبِيِّ﴾ في قوله تعالى : ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ .

أما في الآية الأولى: ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فذكر كلمة ﴿ وَرَسُولِهِۦ﴾ ليبين أنه رسول الله ، وأن تشريعه من الله ، فكيف يصح أن تتقدموا بين يديه؟! .

وإن التقدم عليه تقدم على مُرسله وهو الله تعالى .

فلما أمر بوجوب اتباع شرعه صلى الله عليه وآله وسلم وصفه بالرسالة ﴿ وَرَسُولِهِۦ﴾ ، ولما أمر بالأدب معه وصفه بالنبي ، لأنه أرفع مستوى وأعظم قدراً.

ولما نهى سبحانه عن رفع الصوت فوق صوت النبي ، فمن باب أولى(١) يُفهم النهي عن رفع الرأي فوق رأيه صلى الله عليه وآله

---

(١) وهذا ما يعرف بالاستدلال الأولويّ ، وهذا أقوى أنواع الأدلة ، وهي البرهان الحملي والبرهان الشرطي ، لأن الأدلة القياسية المنطقية تكون قوتها على حسب صحة المقدمات ، أما الدليل الأولوي فيؤخذ من نص العبارة ، كقوله تعالى في الوالدين: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] فإذا نهى عن التأفف فيهما فمن باب أولى نهى عن سبهما أو ضربهما.

وسلم ، أو رفع الفهم أو العقل فوق فهمه وعقله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد كره العلماء ـ فهماً من هذه الآية ـ أن ترفع الأصوات في مجلس حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لأن حديثه صفته ، والوصف لا يفارق الموصوف ، وكأنه صلى الله عليه وآله وسلم حاضر في مجلس حديثه ، فينبغي التأدب وعدم رفع الصوت.

كما نصّ العلماء على وجوب الأدب في مسجده صلى الله عليه وآله وسلم ، وعدم رفع الأصوات فيه ، لأن حرمته ميتاً كحرمته حياً صلى الله عليه وآله وسلم.

ولما ولي الخلافة سيدنا عمر رضي الله عنه ، سمع مَرَّة شابين يرفعان أصواتهما فحَصَبهما ـ ألقى عليهما الحصى ـ وهما يرفعان أصواتهما في المسجد النبوي الشريف.

فقال لهما: مِنْ أيْن أنتما؟ أما تدريان أين أنتما؟!! ومراده أنتما جالسان في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقالا: من الطائف.

فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً[1].

وقد أمر الله تعالى بِغَضِّ الصوت كلياً مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي حضرته فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ ، وأما فيما بين المؤمنين فقد جاء الأمر بالغض من

---

(١) أي: إنهما من مكان بعيد ، وقد يجهلون بعض الأحكام والآداب.

الصوت، قال تعالى مخبراً عن وصية لقمان لابنه: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩].

ولما نزلت هذه الآية قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله والله لا أكلمك إلا كأخي السرار[1] ـ أي: سراً وهمساً خفياً ـ.

وجعل عمر رضي الله عنه إذا أراد أن يكلم رسول الله يخفض صوته حتى يستفهمه ـ أي: يقول له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ارفع قليلاً يا عمر ـ.

وكان أبو بكر رضي الله عنه يُعلم الوفود كيفية مخاطبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأدب معه.

وكان ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه[2] جهوري الصوت خِلْقَةً، فلما نزلت هذه الآية خاف والتزم بيته وقال: أنا من أهل النار ـ أي: لقد حبط عملي ـ.

فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأرسل إليه رجلاً من الصحابة وقال له: «قل له: أنت لست منهم، أنت من أهل الجنة».

فقال أنس رضي الله عنه: فكنا نرى أنه رجل من أهل الجنة يمشي على الأرض[3].

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) (٦/ ٨٤) إلى البزار وابن عدي والحاكم وابن مردويه.

(٢) خبره في (صحيح) البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام /٣٦١٣/ (٦/ ٦٢٠) وفي (صحيح) مسلم، كتاب الإيمان، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله /١١٩/ (١/ ٢٧٠).

(٣) وقد استشهد ثابت رضي الله عنه في وقعة اليمامة، عندما حارب المسلمون جيش مسيلمة الكذاب، الذي ادعى النبوة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله =

ويستثنى من هذا النهي في الآية الكريمة: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] يستثنى رفع الصوت إن هو أمر بذلك صلى الله عليه وآله وسلم ومن ذلك:

لما أمر العباس رضي الله عنه[1] يوم حنين، أمره أن ينادي في الذين وَلّوا الأدبار، وجعل العباس يرفع صوته وينادي: يا أصحاب السَمُرَة ـ الشجرة. وهم المؤمنون الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند الشجرة ـ.

كما كان الصحابة رضي الله عنهم يتناشدون في المعارك وينادي بعضهم بعضاً يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، والتي فيها قوله جل وعلا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وذلك تثبيتاً لأنفسهم، وتحريضاً لهم على الجهاد والإقدام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ والمعنى: لا يكن قولكم معه كقولكم مع آحاد الناس ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ

= وسلم، فلبس كفنه وأقدم يقاتل حتى قتل شهيداً، رضي الله عنه وعنا به. انظر (الدر المنثور) (٦/ ٨٥) ففيه أخبار عجيبة عنه رضي الله عنه.

(١) كان العباس رضي الله عنه جهوري الصوت؛ حتى إنه لما كان في الجاهلية وغارت عليهم مرة بعض القبائل نادى في أهل مكة يا صباحاه؛ مستنفراً قومه فدوت مكة كلها حتى إنه بعض الحوامل من النساء وضعن حملهن من شدة الصوت.

وكان إذا صاح في الغنم قعدت.

وقيل لابنه عبد الله رضي الله عنهما: ما بال أغنامه لا تقعد إذا صاح فيها؟ فقال: لأنها تعودت صوته.

﴿بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾[1] [النور: ٦٣] بل يجب أن يكون كلامكم ومقالكم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصيغة الاحترام والتعظيم، وهذا يقتضي منكم أن لا تنادوه باسمه كما ينادي بعضكم بعضاً، بل يجب أن يكون ذلك بصفات التكريم والتعظيم، كقولكم: يا رسول الله، يا نبي الله، كما ينبغي أن يكون بلفظ السيادة: يا سيدي يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وأما كيفية كلامكم معه صلى الله عليه وآله وسلم؛ فيجب أن يكون بصوت منخفض عن صوته صلى الله عليه وآله وسلم، ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ والمعنى: لا ترفعوا أصواتكم، لأنكم إذا رفعتم أصواتكم فوق صوته صلى الله عليه وآله وسلم؛ أو جهرتم له بالقول كما يجهر بعضكم لبعض؛ فإن ذلك سيحبط أعمالكم وطاعاتكم من صلاة وزكاة وحج، ولكي تحافظوا على ثواب أعمالكم وعباداتكم؛ فالزموا جانب الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما أمركم الله تعالى.

وهذه الآية تدل على أن الذنب إذا عَظُمَ فإنه يُحبط بعض الأعمال، وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: «من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله»[2] أي: عمله في ذلك اليوم.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] فإن الصدقة يَحْبُط ثوابها إذا مَنَّ صاحبها على مَنْ تَصَدَّق عليه.

---

(١) أي: لئلا تحبط أعمالكم.

(٢) الحديث رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب في ترك العصر /٥٥٣/ (٣١/٢).

وأما الشرك فإنه يُحبط العمل كله كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الآية [الزمر: ٦٥].

وَمِنْ هنا يفهم العاقل أنّ إساءة الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أعظم الجرائم، حتى إنه سبحانه يُحبط أعمال من أساء الأدب معه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

ثم حَرَّض سبحانه على التزام الأدب بحضرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفي مجلسه، وذلك بخفض الصوت عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: ولو كان كلام الصحابة مع بعضهم بعضاً يجب أن يكون بصوت منخفض ـ فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ احتراماً وتعظيماً لجنابه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

وقوله تعالى: ﴿عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ لأن عنديته صلى الله عليه وآله وسلم لها أسرارها وأنوارها، فينبغي مراعاة آدابها وأحكامها.

وقد عرف الصحابة رضي الله عنهم، وعاينوا أسرار هذه العندية وأنوارها، فقال بعضهم[1]: (نكون عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحدثنا عن الجنة والنار كأنا رأي عين) لأن مجلسه صلى الله عليه وآله وسلم مجلس شهود، تنجلي فيه القلوب، وتصفو فيه السرائر، فيظهر للجالسين من الأسرار

---

(١) هو سيدنا حنظلة الأسيِّدي رضي الله عنه، والخبر في صحيح مسلم في كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر / ٢٧٥٠/ (٥/ ٢٦٣١).

والمعارف ما لا يظهر لهم خارج مجلسه صلى الله عليه وآله وسلم ، وما ذلك إلا بأنواره صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن شأن النور أن يُظهر خفايا الأمور ، ولا ريب في هذا ، فقد وصف الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالنور والسراج المنير:

فقال عزَّ وجل: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦].

وقد أشار إلى هذا صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر: لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم»[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ[2] أَكْثَرُهُمْ لَا

---

(١) كما في (صحيح) الإمام مسلم / ٢٧٥٠/ (٥/ ٢٦٣٢).

(٢) وهي حجرات نسائه التسع رضي الله عنهن ، إذ كان عدد الحجرات تسعاً ، ولكل منهن حجرة تحتجر فيها ، وقد كانت هذه الحجرات من عسيب النخل ، كانت سقوف بعضها من المسوح ـ الجلود ـ.
وقال الحسن البصري رضي الله عنه: كنت أدخل الحجرات على عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه فأمد يدي فتصل إلى السقف.
وقال سعيد بن المسيب رضي الله عنه: فلما أرادوا أن يضموها إلى المسجد ورفعوها حزنت ، ووددت أنهم لو تركوها كما كانت ، حتى يأتي المسلمون فيما بعد ويروا ويعرفوا كيف كان عيش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. أي: في زهده وتواضعه صلى الله عليه وآله وسلم ، مع أن الجبال راودته أن تكون له ذهباً فأبى. وقد أوتي مفاتيح خزائن الأرض.

يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجرات: ٤ ـ ٥].

وكان سبب نزول هذه الآية ، أنَّ قوماً من الأعراب ، وعلى رأسهم الأقرع بن حابس ، وفَدوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وسألوا عنه صلى الله عليه وآله وسلم ، فقيل لهم: إنه في أحد حجرات نسائه صلى الله عليه وآله وسلم ، فجعل الأقرع بن حابس ينادي من وراء جدران الحجرات: يا محمَّد أُخرج إلينا. فلم يُجبه صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم نادى الأقرع: يا محمَّد أُخرج إلينا فإنّ حمدنا زين وذمنا شين[1]. فنزلت الآيات وفيها عتابهم وتوبيخهم ، وفيها تعليم الأدب مع جناب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ويفهم من قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أن الآداب الشرعية جاءت وفق العقل الصحيح ، وَمَنْ خالف شيئاً منها أو استحسن غيرها فقد سلك ضرباً من الجنون؛ ودخل تحت قوله تعالى: ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾.

وبعد أن وبخهم سبحانه وتعالى وعاتبهم على إساءة أدبهم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فتح لهم باب التوبة والاعتذار إنْ هم تابوا من فعلهم هذا فقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

ثم بيَّن سبحانه جملة من آداب المؤمنين مع بعضهم بعضاً، وبيَّن

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (٣/٤٨٨) وانظر (الدر المنثور) (٦/٨٦).

سبحانه ما يترتب على ذلك من أحكام وآثار، فأمر سبحانه المؤمنين بالتثبت والتحقق في نقل الأخبار، لئلا تقع بينهم المفاسد والفتن فقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾[1] [الحجرات: ٦].

---

(١) كان سبب نزول هذه الآية كما في (الدر المنثور) معزواً إلى الإمام أحمد، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن منده وابن مردويه بالسند الجيد. أن رجلاً يقال له الحارث ابن ضرار الخزاعي، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأسلم على يديه، وحسن إسلامه، وأمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالصلاة والزكاة. ثم استأذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يرجع إلى قومه ويبلغهم الإسلام، وقال: (يا رسول الله أذهب إلى أهلي فأدعوهم إلى الإسلام، ثم ترسل إليَّ رسولاً من قبلك بيّان كذا ـ في موعد معين ـ حتى يأخذ الزكاة التي سأجمعها من قومي).
ومضى الرجل إلى قومه، ودعاهم إلى الإسلام فأجابوه، ثم جمع منهم الزكاة.
ولما حضر الموعد الذي حدده مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جعل ينتظر رسول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أرسل إليه الوليد بن عقبة بن أبي نعيم، وبينما كان الوليد في طريقه إليهم وقع في نفسه الخوف منهم ـ لأمور كانت بينهم قبل الإسلام ـ في حين أن الحارث استأخر وصول الرجل في الموعد المعين، فخرج مع سادات قومه، يريدون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وظن أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد غضب عليهم، أو أن أمراً قد حصل، وقال لقومه: (إن الرسول لا يُخلف وعده، فأنا أخشى أن أكون قد سخط عليَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) ولذلك خرج مع سادات قومه ومعهم أموال الزكاة، قاصدين المدينة، وهنا لما رآهم الوليد كذلك ظن أنهم يريدون قتله، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال له: يا رسول الله إني أتيتهم فخرجوا يقتلوني ـ يريدون قتلي ـ.
فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعض الصحابة أن يقفوا مترصدين للحارث؛ فلما أقبل الحارث وجماعته إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التقوا بالبعث، فقال لهم الحارث: إلى مَنْ بُعثتم؟ قالوا: إليك، قال: ولِمَ؟، قالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث إليك الوليد فزعم أنك منعته =

الفسق في اللغة: خروج الشيء من الشيء على وجه الفساد، ويقال عن هوام الأرض المؤذية فواسق لأنها تخرج من جحورها للأذى.

ويقال عن فلان: بأنه فَسَق وهو فاسق، إذا خرج عن الطاعة بارتكابه ذنباً، ثم جرى الاصطلاح على إطلاق الفاسق على مرتكب الكبائر.

وعلى هذا فإنَّ الوليد رضي الله عنه فسق بارتكابه ذنباً وليس بارتكاب الكبائر، وإنَّما كان ذنبه أنه ظن أنّ القوم خرجوا يريدون قتله لأمور كانت بينهم أيام الجاهلية، ولما تبين غير ذلك تاب إلى الله، وندم على فعله، لأن الصحابة رضي الله عنهم كلهم عدول ثقات بشهادة الله تعالى لهم، وشهادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لهم[1].

وإن وقع من أحدهم ذنب فقد تاب منه وأناب إلى الله تعالى.

وفي هذه الآية تنبيه للإنسان أن لا يلتفت إلى الأخبار الواهية، وأن لا يأخذ بسوء الظنون.

ثم إنه سبحانه وتعالى لفت العقول إلى معرفة مقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفضله، وأنه وإن كان بينهم لكنه صلى الله

الزكاة وأردت قتله؟! قال: لا والذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالحق مارأيته ولا رآني. وهنا ظهرت قضية الوليد الذي ظن أنهم يريدون قتله فنزل قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ [الحجرات: ٦].

(١) انظر مقدمة (الإصابة في تمييز الصحابة) للحافظ ابن حجر، وانظر كتاب الشيخ الإمام (حول تفسير سورة الكوثر) العلامة السادسة الدالة على محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟؟!!

عليه وآله وسلم ليس كآحادهم أو ساداتهم بل رسول الله ، وشرف الرسول على شرف مرسله ، فقال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ وهم يعرفون أنه رسول الله ، لكن المراد اعرفوا مقامه صلى الله عليه وآله وسلم وفضله ، وعلو شأنه ، ورفعته عليكم؛ حتى تتأدبوا معه كما علمكم الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧].

أي: عليكم بطاعته صلى الله عليه وآله وسلم، والعمل بأوامره، ولا تُمْلُوا إرادتكم وأهواءكم عليه ، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم أعلم بمصالحكم ومنافعكم ، ولو وافقكم على آرائكم لأصابكم العنت؛ وهو الحرج والمشقة ، ولرجع الأمر عليكم بالخسران.

وإنما قد تعرضون الآراء عليه ، وقد يُوافق عليها وقد لا يوافق حسب ما تقتضيه مصالحكم.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: جعل الإيمان بأنواعه محبوباً عندكم ، وجعل أنواره منصبغة في قلوبكم قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨] فعلامة الإيمان أن يُحب المؤمن الأعمال الصالحة ، ويكره المعاصي والذنوب ، ومن كان كذلك فهو على هدى ورشاد من الله تعالى ، كما قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧] وما هذا إلا بفضله ونعمته عليهم قال تعالى: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ عليهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٨] عليم بحال واستعداد كل إنسان ، فألهمه ذلك على مقتضى حكمته سبحانه ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢].

وهنا قد يقال: لِمَ نَهىٰ الله تعالى عن التقدم بأمر أو رأي أو قول بين يدي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم؟؟!!.

فيقال: لأن ما جاء عن الله ورسوله ـ وهو الكتاب والسنة ـ بلغ الغاية والنهاية في بيان مصالح العباد ومنافعهم، والتحذير من مضارهم ومفاسدهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] أقوم الأخلاق، وأقوم المعاملات، وأقوم النظم في سعادة الأبد.

وقد قال الله تعالى في مدح كتابه، ووصفه بأنه أتى على ذكر كل شيء: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] والتفريط في الشيء هو: التقصير فيه، فبيّن سبحانه أنه ما ترك شيئاً فيه مصلحة للإنسان إلا وبينه في كتابه، وما ترك شيئاً فيه مفسدة له إلا وحذر منها، كما أنه أتى بذكر جميع العلوم والمعارف، وأتى بذكر جميع العوالم.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك»[١].

وروى مسلم في (صحيحه)[٢] عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا خطب احمر وجهه، وارتفع صوته، واشتد غضبه، كأنه منذر جيش ـ أي: كأنه يُخوف أصحابه من جيش سيغير عليهم ـ.

---

(١) تقديم تخريجه ص / ٢٩١/.

(٢) في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة / ٨٦٧/ (٢/ ٩٢٣).

ثم يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمَّد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة».

ثم يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أولى بكل مؤمن ومؤمنة ـ أي: أحق بنفعهم وخيرهم ـ مَنْ ترك مالاً فلأهله ، ومن ترك دَيْناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ» من مات وعليه دين أو ترك عيالاً فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يؤدي ديْنَهُ ، ويتكفل عياله. ومن هنا يفهم العاقل حرص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على مصالح العباد ، ومنافعهم الدنيوية والأخروية ، فلا حاجة لهم أن يأتوا بشيء أو رأي أو نظام؛ زعماً منهم أن في هذا مصلحة لهم.

وقال عليه الصلاة والسلام: «إنما أخشى عليكم شهوات الغي[1] في بطونكم وفروجكم ، ومضلات الهوى» الحديث[2].

ومعنىٰ مضلات الهوى: اتباع الأهواء الباطلة الموصلة إلى الضلال.

وجاء في (سنن) أبي داود[3] ، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة: وجلت

---

(١) وهو الإفراط في تعاطي الشهوات مما يؤدي إلى ارتكاب الحرام. ومن شهوة البطون أكل الربا ، ومن شهوة الفرج الزنا.

(٢) رواه الإمام أحمد في (مسنده) (٤/٤٢٣) والطبراني في معاجمه الثلاثة والبزار ، انظر مجمع الزوائد (١/١٨٨) عن سيدنا أبي برزة رضي الله عنه.

(٣) في كتاب السنة ، باب لزوم السنة /٤٦٠٧/ (٥/١٣) والترمذي في (سننه) ، في كتاب العلم ، باب ما جاء في الأخذ في السنة /٢٦٧٨/ (٧/٣١٩).

منها القلوب، وذرفت منها العيون. فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مُوَدِّع فأوصنا.

فقال: «أوصيكم بتقوى الله عز وجل، والسمع والطاعة ـ أي لأميركم ـ وإنْ تأمر عليكم عبد حبشي، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين مِنْ بعدي؛ عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإنّ كل بدعة ضلالة».

فحذر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مُحدثات الأمور، وهي: أنْ يُحدث المرء في دينه أمراً ليس منه؛ كعمل أو رأي أو حكم؛ وذلك ليماشي أهل الزمان على أفعالهم.

وفي هذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تكونوا إمَّعة، تقولون: إن أحسن الناس أحْسَنَّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطِّنوا أنفسكم؛ إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا»[1] وهذا يكون باتباعكم لشرع الله وليس لأهواء الناس.

تنبيه:

لا تطلق البدعة في الشرع إلاَّ على الأمور المحدثة الضالة، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وكل بدعة ضلالة» والبدعة: ابتداع أمر ليس له أصل من الدين[2]، وفي هذا يقول عليه الصلاة

---

(١) رواه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو /٢٠٠٨/ (٦/ ٢١٥).

(٢) والبدعة من الابتداع كالرفعة من الارتفاع، والإبداع: خلق الشي لا عن مثال كقولك: أبدع الله الخلق، وأبدعت الشيء وابتدعته إذا أحدثته، وفلان بدعٌ في هذا الأمر أي: هو أول من فعله، فيكون اسم فاعل بمعنى مبتدع، ومنه قوله =

والسلام: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ»[1] أي: مردود.

وهذا هو معنى البدعة: «ما ليس منه» ولم يقل: من أحدث في أمرنا هذا أمراً فهو رد.

فقوله: «ما ليس منه» أي: ليس له أصل من الدين، أما ما كان له أصل من الدين يرجع إليه فهو من الدين، وليس من البدعة في شيء. ومن هذا: ما فعله سيدنا عمر رضي الله عنه مِنْ جمع الناس على صلاة التراويح في المساجد.

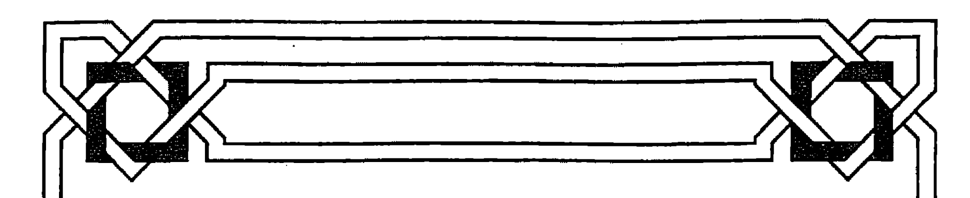
وما سَنَّهُ سيدنا عثمان رضي الله عنه من الأذان الأول لصلاة الجمعة، إذ إن الأذان لصلاة الجمعة كان فور صعود الإمام المنبر، وفور دخول وقت الظهر، وإنما سنَّ سيدنا عثمان رضي الله عنه الأذان الأول قبل دخول وقت الصلاة، حتى يُسرع الناس إلى المسجد، استعداداً للصلاة فور دخول وقتها.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

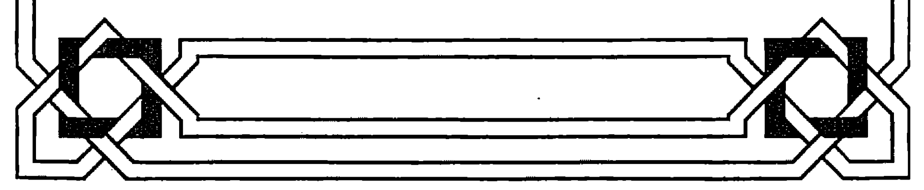
* * *

= تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: ما أنا أول من جاء بالوحي والرسالة من عند الله، بل أرسل الله قبلي رسلاً مبشرين ومنذرين، وأما قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: أبدعهما لا عن مثال سابق؛ وفيه معنى التعجب.

(1) رواه البخاري في كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور /٢٦٩٧/ (٣٠١/٥) ومسلم في كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور /١٧١٨/ (١٧٩٨/٤) وأبو داود في كتاب السنة، باب لزوم السنة، /٤٦٠٦/ (١٢/٥) عن السيدة عائشة رضي الله عنها.



جملة محاضرات حول موقفه صلى الله عليه وآله وسلم في هدي العالم مراتبه ـ مقاصده ـ أنواعه



لقد أرسل الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إلى العالم ، وله معهم مواقف متعددة ، تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا وفي الآخرة ، ومن هذه المواقف يعلم العاقل وجوه الحاجة إلى بِعثَةِ النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

ومن جملة هذه المواقف ، أنه جاء إلى العالم هادياً لهم. فهو هادٍ لكل أمة ، وهو إمام الأئمة صلى الله عليه وآله وسلم .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٢ ـ ٥٣] .

وإنّ هذا الموقف المحمدي مع العالم ، يتطلب من الإنسان أن يهتدي بهديه صلى الله عليه وآله وسلم .

واعلم أن الله تعالى لما جمعَ ذُريةِ آدم عليه السلام في عالم الذَّر ، وأخذ منهم العهد ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ الآية ، وفي هذا يقول سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ الآية [الأعراف : ١٧٢] .

فقد استخرج الله ذُرية آدم من ظهر آدم عليه السلام أمْثال الذَّر ، ولبّسهم الأرواح ، واستنطقهم ، وأخذ منهم العهد والميثاق ، وقال : اعلموا أنه لا إله غيري ، ولا ربَّ سواي ، وسأرسل إليكم رسلاً يُذكرونكم بهذا الميثاق والعهد ، وأُنزل عليكم كتباً .

وقال لهم كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد وغيره[1]: «فإني أشهد عليكم السماوات السبع، والأرضين السبع، وأُشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا: إنَّا كنَّا عن هذا غافلين».

وقد شهدوا كلهم أن لا إلَه إلا الله، وأعطوا العهد والميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم أخذ سبحانه عليهم العهد والميثاق أنه سيرسل فيهم رسلاً يُذكرونهم ذاك العهد والميثاق الأول، فمن وفَّىٰ بالميثاق الآخر؛ واتبع الرسل عليهم السلام: نفعه الميثاق الأول، ومن نقض وكفر بعد إيمانه بالميثاق الأول: لم ينفعه الميثاق الأول ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٦].

واعلم أنه سبحانه لما أهبط آدم وحواء إلى عالم الأرض خاطبهم وذريتهم ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ ـ ٣٩].

فلما أهبط الله سبحانه البشرية إلى عالم الأرض، تعهدهم بالهدي لما فيه صلاح دنياهم وآخرتهم، وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم.

ولقد جاءت الرسل صلوات الله عليهم بالحُجج والأدلة والبراهين على أن الله حق، وأنه لا إلَه إلا الله، وأن دينه حق، وأن الآخرة حق وهكذا.

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) (١٤٣/٢) إلى عبد بن حميد، وعبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في (الأسماء والصفات)، وغيرهم.

ولهذا قال سبحانه عن الكفار لما أنكروا الرسالات الإلٰهية: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦] أي: هؤلاء الرسل بشر مثلنا فكيف يهدوننا؟! وزعموا أن الملائكة يجب أن تنزل عليهم وتهديهم، لكن الله تعالى ردَّ عليهم -ومن جملتهم بعض كفار قريش-: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: الهدي المحمدي النازل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] أي: بل يجب أن يكون مَلَكاً على زعمهم، لكن الله تعالى ردَّ عليهم بقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا﴾ أي: لو جعلنا الرسول البشري مَلَكاً ﴿لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

والمعنى: لو أرسلنا إلى البشر من جنس الملائكة فلا يرونهم، لأن الملائكة لا تُرى للطافتهم إلا إذا تمثَّل المَلَك، وإذا تمثل بصورة رجل لقالوا: هذا رجل مثلنا، ولا يصدقون أنه ملك، ولعاد عليهم إشكالهم، ولو بقي مَلَكاً لَمَا رأوه ولَمَا سمعوه، فما هي الفائدة منه عندئذٍ؟!!.

واعلم أن الملائكة تحيط بالإنسان ولا يراها، كالكرام الكاتبين والحفظة وغيرهم، وهو لا يراهم إلا إذا تَمَثَّلوا.

وعلى هذا فإن الحكمة تقتضي أن يكون الرسول إلى البشر بشراً، لكن مستواه فوق مستوى البشر، وذلك حتى تراه الناس ويسمعون كلامه، ويقتدون بأفعاله، ويهتدون بهديه، فَيُصَلُّون كما صلّىٰ، ويحجون كما حج، ويصومون كما صام، ويسيرون على سيرته وعاداته، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى

ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤ ـ ٩٥] أي: يجب أن يكون الرسول إلى الملائكة ملكاً، والرسول إلى البشر بشراً، لكن مستواه فوق عادات البشر المألوفة، بل خصَّصه الله تعالى بالخصائص العالية والمناقب السامية.

والشاهد في الآية قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ أي: الهدي النازل من عند الله تعالى على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ [البقرة: ٣٨] أي: هدىً يُنزله الله على رسله.

وإنّ الهدى هو ضد الضلال، وإنَّ الذي ضلَّ في طريقه يحتاج إلى هاد يمشي أمامه، فيمشي عندئذٍ على بَيِّنَةٍ ونور.

فلقد جاءت رسل الله بهدي من عند الله تعالى، يُعرِّفون الإنسان ما يجب عليه وما يجب له؛ من حقوق وواجبات تجاه الله وتجاه عباد الله تعالى، وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم، كما روى أحمد والترمذي[1]: «إن الله تعالى خلق الخلق في ظُلمة ـ أي: في ظلمة الدنيا والهوى ـ ثم ألقى عليه من نوره ـ أي: ببعثته الرسل وإنزال الهدى عليهم ـ فمن أصابه من ذلك النور ـ بأن تعرض له واستجاب لدعوة الرسل، وعمل بهديهم ـ اهتدى إلى الله، ومن أخطأه ضل» بأن أعرض وتعامى عن رسالة الرسل وهديهم.

---

(١) المسند (٢/١٩٧)، السنن، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة /٢٦٤٤/ (٧/٢٩٧).

وإن أعظم الرسل نوراً ، وأجمعهم هدياً ، الذي جمع الله تعالى له هدي الأنبياء كلهم ، وزاده بالهدي المحمدي ، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ كان كل رسول يأتي بهدي خاص لقومه ، أما سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد جاء هادياً لجميع الأمم والأقوام ، على مختلف طبقاتهم إلى يوم الدين ، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] أي: أنت هادٍ يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لكل قوم.

أما هدي الله تعالى النازل على رسل الله فهو هدي البيان مع البرهان ، وهو بيان ما فيه صلاح الناس وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، وبيان ما يوصلهم إلى الله تعالى ، وهذا الهدي هو حجة الله على خلقه ، فمتى أرسل سبحانه رسولاً إلى قوم قامت الحجة عليهم ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ الآية [النساء: ١٦٥] فمن كفر بعد ذلك فلا عُذر ولا حجة له عند الله تعالى ، لأن الحجة قامت عليه من الله تعالى ، قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥] ، وهذا من عدل الله وحكمته أنه لا يعذب كافراً في جهنم حتى يقيم عليه الحجة ، ببعثة الرسل ، والهدي النازل عليهم ، ومن بلغته الدعوة قامت عليه الحجة ؛ وما له عذر عند الله تعالى.

وأما أهل الفترات ـ وهي: قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأهل الشَّواهق والأماكن المنقطعة الذين ما بلغتهم دعوة رسلهم ، فهؤلاء ناجون لأنّ الله تعالى قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥].

لكنَّ الله سبحانه أرسل سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم

للعالمين كلهم ، وعمَّت دعوته المشارق والمغارب ، وتذاع رسالته وهو القرآن العظيم ، تراه يذاع ويشاع في المشارق والمغارب ، وهذا حجة الله تعالى على خلقه ، لأنَّ الله تعالى قال لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أي: أكبر شاهد يشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي: وقل لهم يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ أي: لأنذركم به يا معشر من كان في زمني ﴿وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: وأنذر به من بلغه هذا القرآن ممن يأتون بعده صلى الله عليه وآله وسلم إلى يوم الدين.

وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «من بلغه القرآن فكأنما شافهته»[١] أي: كأني رأيته وبلَّغته القرآن الكريم.

وقد بيَّن الله تعالى أنه لا يُعذب الكفار ظلماً بل بحق: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ ما جاءت به الرسل ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ نتعقل ما جاءت به الرسل ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨ ـ ١١].

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن مردويه ، وأبي نعيم ، والخطيب ، عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

فاعترف الكفار أنّ الرسل جاءت بالهدي والبيان، والحجة والبرهان؛ ولكنهم أعرضوا وكفروا، ولذلك ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لأنهم كفروا بعد علم وبيان وتبيان.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ يوماً أي: زمناً كبيراً ولو يوماً من أيام الدنيا. فقال لهم الخزنة وهم القائمون على تعذيب الكفار في جهنم: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْۗ﴾ أي: ادعوا أنتم لأنفسكم، أما نحن الملائكة فلا ندعو إلا لمن أمرنا الله أن ندعو له ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٤٩ ـ ٥٠].

وروى الترمذي وغيره[١]، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يُلقى على أهل النار الجوع، حتى إنه يعدل ما بهم من العذاب ـ أي: إنَّ شدة الجوع تعادل ما بهم من عذاب النار ـ فيستغيثون، فيقدم لهم طعام من ضريع: لا يُسمن ولا يغني من جوع، فيأكلون فلا يشبعون، فيستغيثون، فيقدم لهم طعام ذو غُصة، فتعتريهم الغُصة، فيتذكرون أنهم لما كانوا في الدنيا إذا اعترتهم الغُصة يشربون الماء فتزول، فيستغيثون بالماء، فيُقدم لهم الماء الحميم الحار، فلما يشربون يُصْهر به

---

(١) السنن كتاب صفة جهنم، باب ما جاء في صفة طعام أهل النار (٢٥٨٩) (٧/ ٢٥٥)، والبيهقي في (البعث والنشور) (٦٠٠).

ما في بطونهم والجلود ـ أي: تُصهر جلودهم لما يقرب إليهم، وتصهر به أمعاؤهم لما يشربون ـ ثم ينادون في خزنة جهنم: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ الآية، فبعد ألف سنة تجيبهم خزنة جهنم: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ أي: بالبراهين، والأدلة العقلية، والمعجزات الحسية المشهودة، الدالة على صدق الرسل وصدق ما جاؤوا به ﴿قَالُواْ بَلَىٰۚ﴾ [غافر: ٤٩] فلما يئسوا من دعاء الخزنة قالوا لبعضهم: ندعوا ربنا ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾» وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: جاءهم الجواب من الحق بعدما انقضى عُمُر الدنيا مرتين: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ الآيات [المؤمنون: ١٠٦ ـ ١٠٧]. ولما يئسوا راحوا يدعون بالويل والثبور والهلاك.

واعلم أنّ الله تعالى رَبٌّ حكمٌ عدلٌ رحيمٌ، لا يظلم أحداً ولذلك قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥] وَمَن مات صغيراً فهو على العهد الأول ممن شهد ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الإسراء: ١٧٢] وهذا حكم أهل الشواهق.

واعلم أن الله تعالى جَمَع لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم جَمِيع مراتب الهدي الذي جاءت به الرسل قبله، وزاد عليه بالهدي المحمدي الخاص به صلى الله عليه وآله وسلم، فما عندهم هو عنده، وأما ما هو عنده فليس عندهم، يدل على هذا ما قال سبحانه بعدما ذكر جملة من الرسل صلوات الله عليهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ أي: كل نبي أنزل الله عليه هدياً خاصاً به ولقومه ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩] ولم يقل بهم اقتده،

ولـم يأمـر الله تعالى رسول الله صلى الله عليـه وآله وسلـم أن يقتدي بأحد من الرسل قبله ، بل أمره بقوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ أي: وهديهم هو من عند الله ، أي: بهداهم كلهم النازل عليهم من الله ، وأنزل عليك هديـاً محمدياً فاعمل بهذا الهـدي الجامع ، الذي نَزَّله الله عليك ، وانطوى فيه هدي جميع الرسل صلوات الله عليهم ، ولهذا اقتضت الحكمة الإلٰهية أن تكون رسالته صلى الله عليه وآله وسلم عامـة لجميع البشريـة ، وباقية إلى يوم الدين ، فهو صلى الله عليه وآله وسلم صاحب الهدي العام إلى جميع الأنام.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ما هو هذا الصراط المستقيم؟ ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣] أي: طريق الله. أي: فمن أراد الوصول إلى الله سلك طريق الله ، أي: صراطه الذي مَنْ مشى عليه وصل إلى الله ، وهو صراط سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي جاء يهدي الناس إليه ، وإن الهادي للقوم يمشي أمامهم ، فهو صلى الله عليه وآله وسلم الهادي إلى الصراط المستقيم ، وهو الإمام الذي يمشي وراءه كل من اتبعه على هذا الصراط المستقيم ، حتى إنه لما يتمثل هذا الصراط المستقيم صراطاً موصلاً إلى الجنة في الآخرة ، فإنَّ أول من يمشي عليه هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم «فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته»(١).

---

(١) رواه البخاري واللفظ له في كتاب الصلاة ، باب فضل السجود /٨٠٦/ (٢/٢٩٢) ومسلم في كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية /١٨٢/ (١/٣٥٢).

فمن أراد أن يصل إلى الله تعالى كما أمره الله تعالى؛ فعليه أن يتبع سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم. ولا يصح السلوك على الصراط المستقيم إلا بالتمسك بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: في الأعمال والأقوال والأخلاق والآداب.

وروى الترمذي وأحمد[1] وغيرهما، عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهذا في معنى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾: «إن الله تعالى ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى كنفي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور، وداع يدعو على رأس الصراط، وداع يدعو من فوقه، ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس: ٢٥].

فالأبواب التي على كنفي الصراط حدود الله، لا يقع أحد في حدود الله حتى يَكشف ستر الله، والذي يدعو من فوقه واعظ الله عز وجل».

فأما الصراط فهو الإسلام، وأما الداعي على رأس الصراط فهو كتاب الله تعالى ـ أي: وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الحامل للقرآن ـ فهو ينادي: أيها الناس ادخلوا الصراط ولا تعوجوا ـ أي: إلى المحرمات ـ وإلا فيصعب وصولكم، كمن مشى على طريق وهو فيه يتشعب كل حين فأنى له الوصول؟!!!

ولقد بين صلى الله عليه وآله وسلم أنّ من سلك صراطه

---

(١) (المسند) (٤/ ١٨٣) واللفظ له، و(السنن) كتاب الأمثال، باب ما جاء في مثل الله لعباده/ ٢٨٦٣/ (٨/ ٧١).

المستقيم فقد نال سعادة الدنيا والآخرة ، فقد روى أحمد[1] وغيره ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى فيما رأى النائم ـ أي: حدثهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رأى ، وإن رؤيا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حكم اليقظة ـ قال: «أتاه ملكان ـ وهما جبريل وميكائيل ـ فقام أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه. فقال أحدهما للآخر: ما مَثَلُ هذا النبي في أمته؟ فقال الآخر: مثله كمثل قوم سَفْر ، انتهوا إلى رأس مفازة ـ صحراء ـ فنفذ طعامهم وشرابهم ، فما يستطيعون المضي ولا الرجوع ، فبينما هم كذلك ـ في حالة حَيْرة وهلاك ـ خرج عليهم رجل من بطن الوادي ، عليه حلة حَبِرَة ـ رجل جليل القدر ـ فقال لهم: أرأيتم إن أخبرتكم أنّ هَهنا رياضاً مُعشبة ، وحياضاً رواء ، أتتبعونني؟ قالوا: نعم.

فمشى أمامهم واتبعوه ، فأوصلهم إلى حدائق وبساتين وأنهار ، فتركهم حتى أكلوا وشربوا وسمنوا ، ثم قال لهم: يا قوم ألم أُلفِكُم على الحال التي كنتم عليها ، ألم أصدقكم فيما قلتُ لكم؟ قالوا: صدقت. قال: فإن وراء هذه الحياض حياضاً أروى منها ، ورياضاً أعشب منها ، فاتبعوني إذاً على ذلك. فقال قسم: نتبعك لأنك صدقتنا ، وقال قسم: بل نقيم هَهنا».

وهذا مثال لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مصالح الدنيا ومصالح الآخرة ، وسعادة الدنيا والآخرة. فأهل الإيمان أخذوا بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من سعادة

---

(١) (المسند) (١/ ٢٦٧).

الدنيا والآخرة ، وهناك من أخذ بأمور الدنيا وترك الآخرة.

واعلم أنّ هذا الصراط المحمدي إنما هو صراط مستقيم ، فهو مستقيم في عقيدته الإيمانية المشار إليها بقوله: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١ ـ ٢] وهذا هو صراط العقيدة الإيمانية، الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومعنى ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾: أي: إنه سبحانه لا شَبيه له ولا مثيل ، فالعقيدة الإيمانية مُنزهة عن التمثل والتعطيل ، ولما طلب الكفار من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا: صف لنا ربك؟ نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أي: لم يكن أحد كفواً أو نظيراً أو شبيهاً له. فهو أحد لا شبيه ولا نظير له ، ولا أحد قبله ، وإذا كان الواحد العددي لا أحد قبله في الرتبة سابق عليه ؛ فكيف بالواحد الحقيقي؟!.

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ أي: المصمود إليه ، وهو المقصود في الحاجات، والعالَمُ كله صامد أي: قاصد محتاج إلى ربه في أمورهم كلها: الدنيوية والجسمانية، والسماوية والأرضية والفلكية وهكذا...

واعلم أنه أول ما يُسأل عنه الميت في قبره: «ما كنت تقول في هذا الرجل الذي بُعِث فيكم؟ فأما العبد المؤمن أو الموقن فيقول: هو محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، جاءنا بالبينات

والهدى فأجبنا واتبعنا، هو محمد، هو محمد، هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم»[1].

فقد جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالبينات المنوِّرة للعقل، وجاء بالهدي، وعلى هذا قال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢] أي: مستقيم في عقيدته وسيرته وأخلاقه، وعاداته وأحكامه. فمن مشى وراء النبي صلى الله عليه وآله وسلم مشى على الصراط المستقيم، وانتهى إلى رب العالمين. وهذا هو قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن اتبعه، أي: حَقِّقنا به إيماناً وعملاً، وقولاً وخُلُقاً، وأدباً وحالاً.

واعلم أن للهدي مراتبَ قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ﴾ [مريم: ٧٦] ولذلك أمرنا الله تعالى أن نقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وهكذا. أي: زدنا هدىً فوق هدى، ويشمل هذا التثبيت على ما أنت عليه من الهدى، ودوام زيادته.

* * *

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال /١٣٣٨/ (٣/٢٠٥) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه /٢٨٧٠/ (٥/٢٧٢٤).

حول هدي النبي ﷺ للعالمين

وهذا يتطلب البحث في:

- أنواع الهدي الإلّهي للعالم.
- أنواع الهداية التي جاء ذكرها في القرآن الكريم.
- مراتب الهداية.
- وجوه هديه صلى الله عليه وآله وسلم، وأسلوبه وطريقته في ذلك صلى الله عليه واله وسلم.

أنواع الهدي الإلّهي للعالمين

اعلم أن الله تعالى هدى جميع الخلق إلى ما فيه بقاء حياتهم وصلاح وجودهم، ويشمل هذا الهدي الإنسان والحيوان، وجميع المخلوقات من الجن والملائكة وغيرهم. وهذا هو الهدي الذي أقامه الله تعالى حجة على وجوده ووحدانيته سبحانه، ولقد أعطى ذلك البرهان والحجة لموسى عليه السلام لما أرسله إلى فرعون فسأله: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩ ـ ٥٠].

والمعنى: ربنا هو الذي أعطى كل شيء مخلوق كمال شكله

الصوري ، ثم هداه إلى ما فيه مصلحة وجوده وبقاءِ نوعه ونسله.

وراح فرعون يفكر في هذا الجواب أصحيح واقعي أم لا؟ فرأى أن الإنسان مثلاً خلقه الله تعالى في أكمل صورة ، وأكمل اعتدال ، وأحسن قوام ، ولا شيء يعيبه أو ينقصه في خَلْقه ، ولا يحتاج إلى شيء يزيد عليه في صورة خَلْقه. ثم نظر في البهائم والطيور وسائر الحيوانات فرأى أنَّ كل نوع قد أخذ حد كماله في خَلْقه ، ثم رأى أن كل مخلوق قد هُدِيَ إلى البحث عن غذائه وشرابه ، وما فيه بقاء حياته وتناسله ، فترى أن النملة مع صغر حجمها تبحث عن غذائها ، وعندها علم في تقنين غذائها والاحتفاظ بمؤنتها السنوية، بعيداً عن رطوبات الأرض وماء المطر لئلا يَفْسُد غذاؤها ، كما أنها تقسم الحبة نصفين حتى لا تنبت إن أصابها ماء المطر ، وإن أصابها شيء من الرطوبة أخرجتها في يوم مشمس وعرضتها للشمس والهواء ، ثم أعادتها وهكذا ، فقد هدى الله النملة إلى ما فيه مصلحة وجودها وبقاء حياتها ، وهدى سائر المخلوقات كذلك.

كما أن للنملة نظاماً في معيشتها وقيادتها وقعودها كما أخبر سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨] فقد خافت على النمل أن تُحطمهم أقدام جنود سليمان عليه السلام ، ولهم العذر في ذلك لأن الجيش كبير ، وهم يمشون وينظرون أمامهم ولا يشعرون بما تصيبه أقدامهم ، فالتمست العذر لهم إن هم فعلوا ذلك ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ [النمل: ١٩].

وَتَدَبَّرْ وتأمل أيضاً في النحلة ونظامها ، وصنعها للعسل ، وبناء بيوتها على أشكال معينة ، وهكذا هداها الله تعالى إلى جميع ذلك

كما هدى سائر الخلائق ، وهذا شأن الرب الحكيم أن يخلق الخلق ويهديه لما فيه مصلحة وجوده وبقائه ، وهذا هو الهدي العام الذي أشار إليه أيضاً سبحانه بقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أي: خلق كل شيء ، وسوّى خلقه وكمَّله ، وهدى ذلك الشيء لما فيه بقاؤه ووجوده ونسْله.

وهناك **هَدْيٌ للمكلفين** ، وهو هَدْيُ البيان مع الدليل والبرهان ، وبه تقوم حجة الله تعالى على العقلاء والمكلفين ، وهذا الهدي فيه سعادة العالم في الدنيا والآخرة ، وفيه يقول سبحانه منذ أهبط البشرية إلى عالم الأرض: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ آدم وذريته ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ تعاليم وإرشادات من الله تعالى ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] وفي سورة طه ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في الآخرة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي: تذكيري وهديي ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: معيشة ضيقة بائسة في الدنيا ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ الآية [طه: ١٢٣ ـ ١٢٤].

وقد تكفل سبحانه لعباده أن يبين لهم ما فيه صلاحهم وسعادتهم في الدنيا وفي الآخرة ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾.

ولقد أنزل الله تعالى هذا الهدي على رسله ، وأمر الرسل أن يهدوا الناس ويبينوا لهم ، وبذلك قامت الحجة عليهم ، حتى إذا جاؤوا يوم القيامة فلا يُعذب سبحانه الكافرين إلا بحق ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ الآية [النساء: ١٦٥] ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾ [إبراهيم: ٤] أي: يبين لهم البيان التام مع البرهان.

وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧] أي: بيّنا لهم طريق الحق من طريق الضلال، وطريق السعادة من طريق الشقاء، على لسان رسولهم صالح عليه السلام، إلا أنهم أعرضوا وكفروا وتعاموا، واستحبوا العمى على الهدى، فَطُبع على قلوبهم بسبب كفرهم وإعراضهم. كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ مالوا عن سماع الحق وقبوله ﴿ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ ﴾ الآية [الصف: ٥]. وقال سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا﴾ أي: لما ﴿ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وهذا من عادته سبحانه أن يرسل الرسل، ويلقنهم الحجة والبرهان، والأدلة القاطعة، ومنها آيات تكوينية، ومنها براهين تدوينية، وهي الآيات النازلة على الرسل، حتى أشهدوهم الحق عياناً وقلوباً، فَمَنْ كان من أهل الإنصاف آمن لأن الحق ظهر له، ومن كان من أهل العناد أعرض، فَذُكِّر فأعرض وذكر فأعرض وعاند، فضرب الله الكفر على قلبه: ﴿ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ ﴾ [النساء: ١٥٥] أي: بسبب كفرهم. لأن من عادة رب العالمين أنّ من جحد نعمته سلبه إياها، فهؤلاء ظهر لهم الحق وعاينوه وشهدوه لكنهم جحدوا، وهذه نعمة ردّها وأصر على ردّها فسلبه الله إياها، وضرب الكفر على قلبه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦].

واعلم أن أعظم هاد جاء للعالم، وأهدى هادٍ جاء للعالمين

كلهم ، الذي جمع الله له جميع أنواع هَدْي مَنْ قبله وزاده هدياً فوق هَدْي مَنْ قبله ، إنما هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي قال تعالى له: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] أي: هاد لكل قوم.

وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠] وهُدَاهم مِنَ الله منزل عليهم ، وجمع له هدي مَنْ قبله وزاده هدياً مُحمدياً فوق هديهم صلى الله عليه وآله وسلم ، ولذلك كان حقاً عليهم إن أدركوه أن يتبعوه ، وأخذ عليهم سبحانه العهد على ذلك: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ﴾ الآية [آل عمران: ٨١].

فأمر الله تعالى جميع الأنبياء والرسل أن يؤمنوا برسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن يعينوه وينصروه ، وأممهم كذلك إن هم أدركوه ، ولذلك صلَّى بهم إماماً ليلة الإسراء والمعراج ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا كان يوم القيامة كنت أنا إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم ولا فخر»[(١)] وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً واتبعتموه وتركتموني لضللتم ، أنتم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين»[(٢)] وقال: «لو كان موسى حياً لما وسعه إلا أن يتبعني»[(٢)].

---

(١) رواه الترمذي في (سننه) كتاب المناقب /٣٦١٧/ (٩/ ٢٣٨).

(٢) تقدم تخريجه ص /٢٩٩/ .

ولما ينزل عيسى ابن مريم عليهما السلام آخر الزمن ينزل حَكَماً مُقسطاً ، يعمل بشرع سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ولو ظهر جميع الرسل لما وسعهم إلا أن يتبعوا سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه صاحب الهدي العام لجميع الأنام ، وعنده ما ليس عندهم صلى الله عليه وآله وسلم.

واعلم أن قضايا الإيمان ليست تسليمية؛ بأن تتقبلها عن إغماضٍ دون تفكر وتدبر ، وليست قضايا الإيمان قضايا عاطفية ، كما لو ألحَّ عليك إنسان ورجاك أن تتقبل أمراً فقبلته عطفاً منك؛ وإنما قضايا الإيمان التي جاء بها سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إنما هي قضايا إيمانية عقلية قطعية ، لها أدلتها وبراهينها ، ولذلك قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٤] وذلك حتى يكون المؤمن على يقين وبينة مما جاءه به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا ما ستُبْصر بيانه في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ الآية [البقرة: ١٨٥].

وقال تعالى في هدي البيان: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢ ـ ٣].

أمشاج يعني: أخلاط فيها القوى المتشاكسة المُتنافرة ، والبهيمية الحيوانية، والعلوية الملكوتية، وذلك حتى نَخْتَبِرَه ونكلفه. فلقد أعطيناه عقلاً ، وجعلنا لعقله أبواباً كالسمع والبصر ، ثم كلفناه واختبرناه بالتكاليف الشرعية ، ومَنْ وُلِدَ أصمَّاً أعمى فلا تكليف عليه. ونسأل الله العافية.

ثم أرسل سبحانه الرسل، وبينوا طريق الحق والسعادة، وطريق الضلال والشقاوة: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ والنتيجة بعد ذلك: ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾ شكر نعمة الله عليه فآمن بسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ أعظم نعم الله على العالم: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤] ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ كفر نعمة الله تعالى، وكفر برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وكذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨ ـ ١٠] أي: بيَّنا له طريق الحق من طريق الضلال؛ وذلك بواسطة الرسل، وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبهذا الهدي قامت حجة الله تعالى على خلقه، ولا عذر للكافر عند ربه.

ولقد بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جميع الأمور التي فيها مصالح البشر، وبيّن لهم ما يضرهم، حتى لما كان يوم حجة الوداع قام خطيباً وقال في آخر ما قال: «أيها الناس إنكم مسؤولون عني ـ أي: سيسألكم ربكم عني: هل بلغتكم وهديتكم؟ ـ فما أنتم قائلون»؟.

فقالوا: نشهد يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنك قد بلَّغت وأديت ونصحت.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد»[1].

---

(١) رواه الإمام مسلم، وهو من حديث سيدنا جابر رضي الله عنهما الطويل في صفة =

ولما خطب في الأنصار بعد غزوة حنين قال: «يا معشر الأنصار أَلَمْ أجدكم ضُلالاً فهداكم الله بي»؟[1] قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ. أي: المِنَّة والفضل لله ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم علينا.

وهكذا بلَّغ سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم رسالة ربه على أكمل الوجوه، وهدى ونصح الناس، ولم يترك شيئاً إلا بيَّنه، وأمر الصحابة بالتبليغ فقال: «بلغوا عني ولو آية»[2] أي: بلغوا عني ما تسمعون من كلامي، فمن يحفظ فليبلغ ولو آية من كتاب الله تعالى، ودعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمن يبلغ بعده بقوله: «نضَّر الله امرءاً ـ اللهم جَمِّل ونَضِّر وجه امرئٍ ـ سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه، فرُبَّ مُبلَّغ أوعى من سامع»[3].

وذلك لأنَّ الهديَ كله مجموع في كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد بيَّن صلى الله عليه وآله وسلم فضل هذا العلم الذي جاء به

= حجة سيدنا رسول الله صلى الله عليه، في كتاب الحج /١٢١٨/ (٣/ ١٢٧٠).

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف /٤٣٣٠/ (٨/ ٤٧) ومسلم كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام /١٠٦١/ (٢/ ١٠٩٤).

(٢) رواه الإمام أحمد في (المسند) (٢/ ١٥٩ و٢٠٢ و٢١٤) والبخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل /٣٤٦١/ (٦/ ٤٩٦) والترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل /٢٦٧١/ (٧/ ٣١٤) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٣) رواه الإمام أحمد في (المسند) (١/ ٤٣٧) والترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع /٢٦٥٩/ (٧/ ٣٠٦) وابن حبان في (صحيحه) انظر (الإحسان) /٦٦/ (١/ ١٤٣) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

صلى الله عليه وآله وسلم ، ففي الحديث الذي رواه ابن ماجه[1] أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خرج يوماً إلى المسجد ، فإذا هناك مجلسان: قوم جلسوا يدعون الله تعالى ويسألونه ، وقوم جلسوا يتفقهون في الدين. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «كلٌّ على خير ، هؤلاء يقرؤون القرآن ويدعون الله تعالى ؛ فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وهؤلاء يتعلمون ويُعَلِّمون ، وإنما بعثت معلماً» فجلس معهم. إشارة لقوله تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

واعلم أنَّ مِمَّا يُقربك إلى الله تعالى حضورك مجالس العلم ، فقد روى الطبراني مرفوعاً: «ما انْتَعَلَ عبد قط ولا تَخَفَّفَ ـ أي: لبس نعلاً أو خُفاً ـ ولا لبس ثوباً في طلب علم: إلا غفر الله له ذنوبه حيث يخطو عتبة بابه»[2].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إن الرجل ليخرج من بيته وعليه من الذنوب أمثال جبال تهامة ـ مكة وما حولها ـ فيجلس في مجلس علم فيسمع العلم؛ فيخاف من الله ويتوب ، فلا يرجع إلى منزله إلا ولا ذنب عليه).

النوع الثالث من أنواع الهدي الإلَهي: هَدْيُ التوفيق للإيمان ، ومراتب الإيمان ، ومقامات القرب إلى رب العالمين.

وقد ذكّر الله تعالى عباده بهذا الهدي حتى يشكروه على هذه النعمة بأن وفقهم للإيمان: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ

---

(١) في المقدمة باب فضل العلماء /٢٢٩/ (١/٨٣) عن سيدنا عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما.

(٢) مجمع الزوائد (١/١٣٢) عن سيدنا علي رضي الله عنه.

إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧]. وهذا لما جاء جماعة من الأعراب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليؤمنوا على يديه، فسألوا عنه فلم يجدوه في المسجد، فذهبوا إلى حجراته صلى الله عليه وآله وسلم، وصاروا ينادونه بأصوات مرتفعة: اخرج إلينا يا محمد، جئناك من شقة بعيدة، وصاروا يَمْتَنُّوْنَ. فنزلت الآيات تؤدبهم وتعنفهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٤ ـ ٥].

ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واجتمع بهم، صاروا يمنون عليه بأنهم جاؤوا من مكان بعيد ليسلموا؛ وهكذا فنزل قوله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧] أي: إن كنتم صادقين في إيمانكم في قلوبكم فالمنة لله ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم عليكم. فلما مَنُّوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ﴾ فقد امتنوا على الله تعالى، فجاء الجواب: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ ﴾ أي: بل الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم يمن عليكم أن هداكم للإيمان.

وعلى المؤمن الذي آمن بقلبه أن يعتبر في هذه الآية، إذ إنها بشارة من الله تعالى إلى أنه موضع مِنَّةِ الله تعالى، بأنْ مَنَّ عليه مِنّةً كبرى عظيمة لا تعد ولا تحد، وهي نعمة الإيمان بالله تعالى، ولولا أن الإيمان نعمة كبرى وفضل عظيم لما قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ وبسبب الإيمان صار قلب المؤمن مرآة تنعكس فيه أنوار رب العالمين، ولولا أن نور الله أشرق في قلب

المؤمن لما آمن ، فليستبشر المؤمن بأن هذا الإيمان نور من الله انجلى في قلبه ، كما قال تعالى: ﴿ ۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: مثل نور الله في قلب عبده المؤمن ﴿ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ [النور: ٣٥] وهو نور الإيمان النازل من عند الله تعالى على قلب المؤمن ، فأشرق قلبه بنور الإيمان فقال: لا إلَه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر: ٢٢] ولما قرأ النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية على الصحابة قالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: وما معنى ذلك؟.

قال: «نور يُقذف ـ أي: يقذفه الله ـ في القلب فينشرح وينفسح».

قالوا: وما أمارة ذلك؟ ـ أي: وما علامة ذلك النور ـ؟.

قال: «الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»[1] وهذه حقيقة يتحقق بها من انفسح قلبه ، وانشرح لنور الإيمان الذي ألقاه الله تعالى في قلبه.

وإن قلب المؤمن صَدفٌ لمعرفة الله تعالى؛ أعظم من صدف الجواهر ، وصار آنية من آنية الحق ، تتنزل عليه المعارف والأسرار كما في الحديث: «إن لله آنية من أهل الأرض».

قالوا: وما آنية ربنا يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟.

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) (٥/ ٣٢٥) إلى عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن قتادة رضي الله عنه.

قال: «آنية ربكم قلوب عباده الصالحين»[1] اللهم اجعلنا منهم.

وإنما تعد الآنية ليملأها الإنسان على استعدادها، فهناك آنية للحلاوة، وآنية للفواكه، وآنية للماء؛ وهكذا، ومن فعل غير ذلك فقد ناقض الحكمة.

إذا عرفت هذا، وإذا عرفت أن قلوب الصالحين هي آنية رب العالمين، فاعلم أن الله تعالى قد أعدها ليملأها بأسراره وأنواره سبحانه، فما عليك إلا أن تُفرغ قلبك عما سوى الله تعالى، وتنظف قلبك من الأغيار؛ حتى يملأها الله مما عنده من أسراره وأنواره ومعرفته سبحانه.

كما أن لله المِنَّة عليك أيها المؤمن، لأن الإيمان الذي في قلبك يجعلك مُحِبّاً ومحبوباً ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ الآية [المائدة: ٥٤]. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٥] فما أشرف المؤمن وأكرمه على الله تعالى؟!!.

وإن قلب المؤمن موضع نظر الله تعالى: «إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم؛ ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[2].

وإن قلب المؤمن مهبط خشية الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [تبارك: ١٢].

﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: وقد غاب عن أبصارهم، ولكن

---

(١) عزاه في (الفتح الكبير) إلى الطبراني.

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله /٢٥٦٤/ (٥/ ٢٥١٤).

قلوبهم شاهدته فهم يخشونه ، أو أنهم يخشون الله بالغيب عن الناس في سرهم وخلواتهم كما يخشونه مع الناس أيضاً ؛ فهم يخشونه في السر والعلن ، وهذا شأن المؤمن.

ولقد نبه إلى هذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «ثلاث كفارات ، وثلاث درجات ، وثلاث منجيات ، وثلاث مهلكات:

أما الكفارات: فإسباغ الوضوء في السبرات ـ شدة البرد ـ والجلوس في المساجد بعد الصلوات ـ وفي رواية: «انتظار الصلاة بعد الصلاة ، وعلى قدر جلوسك يكفر عنك من ذنوبك ـ ونقل الأقدام إلى الجماعات.

وأما الدرجات: فإطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة في الليل والناس نيام.

وأما المنجيات: فالعدل في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، وخشية الله في السر والعلانية.

وأما المهلكات: فهوى مُتَّبَع ، ودنيا مُؤْثرة ، وإعجاب المرء بنفسه»[1].

ولما كان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجلسون معه صلى الله عليه وآله وسلم ، ويرون من الصفاء والنقاء والارتقاء

---

(١) رواه البزار والطبراني في (الأوسط) ببعضه ، (مجمع الزوائد) (١/ ٩١) عن سيدنا أنس رضي الله عنه ، وانظر (الترغيب) (١/ ٣٦٢) لزاماً.

الروحي ما لا يرونه في بيوتهم ، خافوا على حالهم أن يكون هذا من النفاق.

فقد روى أهل الصحاح والرواية للبزار[1] ، عن أنس رضي الله عنه قال: قال أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نكون عندك على حال ، وإذا خرجنا من عندك صِرْنا على غير حال.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «كيف أنتم وربكم» أي: في خلواتكم؟.

قالوا: ربنا الله في السر والعلانية ـ أي: نحن على مراقبة وخشية الله تعالى ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس ذلك النفاق» الحديث.

وإن المؤمن قد أكرمه الله تعالى بالإيمان حتى يُعده لدخول دار كرامته وضيافته ، وحظيرة قُدْسه ، وأن يَحِلَّ ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥].

وفي الصحاح (وسنن) الترمذي[2] ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً ـ أي: من النار ودخولاً الجنة ، وهو أعصى أهل

---

(١) مجمع الزوائد (١/ ٣٤).

(٢) البخاري كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار / ٦٥٧١/ (١١/ ٤١٨) مسلم كتاب الإيمان باب آخر أهل النار خروجاً / ١٨٦/ (١/ ٣٦٤) الترمذي كتاب صفة جهنم باب / ١٠/ ٢٥٩٨/ (٧/ ٢٦١).

الإيمان وأفسقهم ، وليس عنده إلا ذرة إيمان واحدة ـ رجل يخرج منها زحفاً ، فيقال له: انطلق فادخل الجنة. فيذهب ليدخل فيجد الناس قد أخذوا منازلهم ، فيرجع فيقول: يا رب قد أخذ الناس منازلهم !! فيقول الله تعالى: أتذكر الزمان الذي كنت فيه ـ أي: الدنيا التي كنت فيها ـ فيقول: نعم رب أذكر ، فيقول الله تعالى: تمنَّ فيتمنى ، فيقول الله: تمنَّ تمنَّ. حتى إذا انقضت به الأماني ، ذكَّره الله تعالى: تمنَّ كذا وكذا ، فيقول الله تعالى له: لك ذلك كله وعشرة أضعاف الدنيا. فيقول العبد: أتسخر بي وأنت الملك»؟ فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى بدت نواجذه ـ أي: من قول هذا الرجل ـ.

فلقد أعطاه الله تعالى قدر الدنيا وعشر أمثالها مقابل هذه الذرة الإيمانية التي عنده؛ والتي أخرجته من النار من حد الكفر ، فما بالك بمن عنده ذرتين وأكثر ، وما بالك بمن إيمانه أمثال الجبال ، وما بالك بإيمان سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟!!.

فافهم الإيمان ، وافهم قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحجرات: ١٧] وفي الحديث الذي رواه الترمذي وأحمد[١]: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر إلى جنانه وأزواجه وخدمه وسرره ونعيمه مسيرة ألفي عام؛ يرى أقصاها كما يرى أدناها».

---

(١) (السنن) كتاب صفة الجنة ، باب ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى /٢٥٥٦/ (٧/ ٢٣١) وكتاب التفسير ، ومن سورة القيامة /٣٣٢٧/ (٩/ ٩٧) ، (المسند) (٢/ ١٣) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

قالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأعلاهم منزلة؟.

قال: «من ينظر إلى وجه ربه غُدْوَةً وعشياً» ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣].

* * *

أنواع الهدي الإلٓهي للعالم

أولاً: **الهدي العام لجميع المخلوقات** المشار إليه بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] وقوله تعالى ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢ ـ ٣].

وهو سبحانه خلق كل شيء وأعطاه صورة خلقه اللائقة به، ثم هدى هذا الشيء لما فيه مصلحة وجوده، واستمرار بقائه.

ثانياً: هَدْيُ البيان والدلالة لما فيه سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، وهذا الهدي قائم على الحجة والبرهان إلى ما يهديه إليه، وهو بواسطة الرسل عليهم السلام، وهم حجة الله على المكلفين، وإنّ الله تعالى قد أوجب هذا الهدي على نفسه وحتمه على نفسه فقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [الليل: ١٢ ـ ١٣].

وإنَّ الهدي الذي جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو أفضل الهدي وأجمعه كما تقدم بيانه، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] أي: هاد لكل قوم.

وهذا الهدي المحمدي قائم على الحجة والبرهان القاطع، وهي البينات العقلية؛ والبينات الحسية المشهودة، ولذلك كان

جواب المؤمن لَمَّا يُسأل في قبره عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «نبيي محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه» الحديث[١].

واعلم أن الهدي المحمدي وهو القرآن الكريم والأحاديث الشريفة التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إنما نشرها بين الصحابة رضوان الله عليهم؛ وأمرهم أن يبلغوها عنه، وقد بلغها الصحابة رضي الله عنهم، ونشروا القرآن وبلغوه، كما نشروا حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبلغوه لِمَنْ بَعْدَهُم، وهكذا حتى وصل إلى جميع العالم، وبهذا قامت حجة الله على جميع العالمين المكلفين، وهذا لأنه صلى الله عليه وآله وسلم جاء هادياً للعالمين كلهم.

وإنّ العلماء العاملين الذي نشروا دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبلَّغوا أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم إنّ لهم عند الله لأجراً كبيراً، ومن ذلك ما رواه الترمذي[٢]، أنه ذُكِرَ للنبي صلى الله عليه وسلم رجلان: عالم وعابد. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» ثم بيَّن صلى الله عليه وآله وسلم فضل العالم الذي يبلغ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض؛ حتى النملة في جُحرها وحتى الحوت؛ ليصلون على مُعلِّم الناس الخير».

---

(١) رواه الطبراني في (الأوسط) بالسند الحسن عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، انظر مجمع الزوائد (٣/ ٥٢).

(٢) في كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة /٢٦٨٦/ (٧/ ٣٢٧) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه.

وفي الحديث: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض ، حتى الحيتان في جوف الماء ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورَّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»(١).

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢] وهو هدي البيان والدلالة ، وهو حجة الله على المكلفين ، ولا عذر لهم يوم القيامة عند ربهم ، ولا حجة لهم على الله تعالى.

وإنّ جهل المؤمن في بعض أمور دينه لا يُعْذر عليه يوم القيامة ، طالما أنه كان في زمنه علماء ودعاة صادقون؛ بلّغوا ونشروا دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ثالثاً: هدي التوفيق وهو أنه سبحانه وفّق المؤمن للإيمان بربه ، بعد أن بيّن له وأرشده إلى ما فيه صلاحه في الدنيا؛ وسعادته في الآخرة؛ بياناً مصحوباً بالأدلة والبراهين. وقد أشار سبحانه إلى هدي التوفيق بقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ أي: وفقكم للإيمان فآمنتم إيماناً من قلوبكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] أي: صادقين بإيمانكم من قلوبكم.

وهذا هو هدي التوفيق للإيمان ، وهو منة الله الكبرى ، ونعمته العظمى سبحانه على المؤمن ، وقد أمره سبحانه أن يسأله ويدعوه

---

(١) رواه أبو داود في كتاب العلم ، باب الحث على طلب العلم / ٣٦٤١/ (٤/ ٥٧) ، والترمذي في كتاب العلم ، باب فضل الفقه على العبادة / ٢٦٨٣/ (٧/ ٣٢٥) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه.

به في كل صلاة ، التي يطالَبُ فيها العبد أن يقرأ سورة الفاتحة التي تسمى: سورة المسألة ، لأن فيها تعليم العبد كيف يسأل ربه ويدعوه ، فأولاً الحمد والثناء والتمجيد ، ثم الدعاء بقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: وفقنا للصراط المستقيم ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: صراط سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن مشى عليه من أصحابه وَمَنْ بعدهم مِمَّنْ أنعمت عليهم ووفقتهم لذلك يا رب.

وإذا قلت: إني على هدىً وأنا مؤمن فما معنى: ﴿ٱهْدِنَا﴾ ؟!.

فيقال: إن الله تعالى لما هداك للإيمان ، ووفقك للإيمان ، وصرت مؤمناً ، فلا يَعني أنك استغنيت عن ربك سبحانه ، ولا يعني أنك ملكت الهداية والإيمان على نفسك ، ولا يعني أنك صرت في أمان من الزَّيغ والضلال ، بل أنت مُحتاج في كل لحظة أن يَهديك الله للإيمان ، وأن يُثَبِّتَهُ عليك. وإذا التبس عليك فَهْم ذلك فيقال: إنَّك لَمّا تقول: اللهم أطعمني اللهم اسقني. ثم سخَّر لك غذاءً وشراباً بأن أطعمك فأكلت وشربت ، ثم إذا صار المساء قلت: اللهم أطعمنا اللهم اسقنا؛ وهكذا فأنت بحاجة أن يطعمك الله تعالى ويسقيك على الدوام ، وهكذا أنت محتاج إليه أن يُمدك بالماء والهواء والغذاء في كل لحظة.

وكذلك فأنت محتاج إلى هديه في كل لحظة ، فيحفظك من الزيغ والشبهات ، والضَّلالات والوساوس. أنت محتاج إلى هذا أشد من حاجتك إلى الطعام والشراب ، لأن حاجتك إلى الطعام والشراب ليست حاجة مُستمرة في كل لحظة ، بل ربما تكفيك الأكلة يوماً كاملاً. وإن حاجتك للهداية والإيمان وحفظه عليك أنْ

لا تضل ولا تزيغ؛ أنت بحاجة إلى هذا في كل لحظة ، ومِنْ هنا تعلم أنّ حاجتك إلى هدي الله لك أقوى من حاجتك إلى أن يمدك بالطعام والشراب ، وهذا يقتضي منك أن تقول دائماً: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فافهم.

ومن ناحية أخرى: فاعلم أن الهدى على مراتب ودرجات ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًىۗ﴾ [مريم: ٧٦].

فلما تقول: ﴿ ٱهْدِنَا﴾ أي: زدنا هدى فوق هدى ، ولا يكون هذا إلاّ بأن يُثبتك على الهدى ويزيدك هدى. ومن لم يزدد إيمانه فهو في نقص ، لأن الإيمان لا يقف على حد كما قال تعالى: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧].

ومن ناحية أخرى لما تقول: ﴿ ٱهْدِنَا﴾ فإنّ هذا يشمل الهدي في العقيدة الإيمانية ، والهدي في العمل ، والهدي في الأقوال ، والهدي في الأخلاق والآداب وهكذا..

فقد تكون على هدى في عقيدتك ، وقد تكون على ضلال في أقوالك مثلاً[1] ، وقد تكون ممن يتكلم كلاماً لا يرضاه الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

فسل الله تعالى أن يهديك الهدي العام ، في أقوالك وأفعالك

---

(١) وفي الحديث: «من تعظَّم في نفسه أو اختال في مشيته: لقي الله وهو عليه غضبان» رواه الإمام أحمد (٢/١١٨) والطبراني في (الكبير) انظر (المجمع) (١/٩٨) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/ ٦٠) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
وهذا الحال لا يرضاه الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.
فسل الله تعالى أن تكون على هدىً في أحوالك وهذا بقولك: ﴿ ٱهْدِنَا﴾.

وإيمانك وأخلاقك، ولاحظ هذا في قولك: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ وعلى هذا فلا غنى للمؤمن عن هداية الله له في سائر أحواله وحركاته وسكناته وأقواله وآدابه.

وقد علَّمنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا كله، فَمِنْ هذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم اهدني لصالح الأعمال والأخلاق إنه لا يهدي لصالحها ولا يصرف سيئها إلا أنت»[1] الحديث.

وقال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لسيدنا الحسين ابن سيدنا علي رضي الله عنهم أجمعين. إذ علمه دعاءً يدعو به، تعليم مُحب لمحبوبه ـ إذ إنَّ الحسن والحسين رضي الله عنهما ريحانتا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما جاء ذلك في الحديث[2] ـ قال له: «قل: اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت»[3] والمراد بالهدى هنا أن يزيده الله هدى فوق هدى وهكذا...

---

(١) رواه الطبراني بالثقات من حديث عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، (مجمع الزوائد) (١٠/ ١٧٣).

(٢) الذي رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب الحسن والحسين / ٣٧٥٢/ (٧/ ٩٥) عن سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

(٣) الحديث رواه الإمام أحمد في (المسند) (١/ ٢٠٠) وهو عند أبي داود في كتاب الصلاة، باب القنوت في الوتر / ١٤٢٥/ (٢/ ١٣٣) والترمذي في كتاب الصلاة باب ما جاء في القنوت في الوتر / ٤٦٤/ (٢/ ١٨٤) وهكذا عند النسائي وابن ماجه ونص الحديث: «اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يُقْضىٰ عليك، وإنه لا يذل من واليت، تباركت ربنا وتعاليت».

وإن في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] بياناً وإعلاناً أن أمر الإيمان أمر كبير، وَمَنْ وفقه الله للإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم فقد نال فضلاً كبيراً من الله تعالى. ولله المنة الكبرى عليه.

فما مقدار هذه النعمة؟ وما الذي جُعل لها؟ وهي نعمة الإيمان. جُعِلَ لها هذا الفضل الكبير والمنة الكبرى.

فاعلم: أن الله تعالى قال في بيان فضل نعمة الإيمان: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الحجرات: ٧ ـ ٨].

فإنَّ حب المؤمن للإيمان فضل كبير من الله عليه، ونعمة عظمى من الله عليه، وعلى المؤمن أن يفرح بهذا فرحاً أيما فرح، فقد قال الله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

والمراد بفضل الله هنا الإيمان، والمعنى: بفضل الله عليكم يا مؤمنون أن تفضل عليكم بنعمة الإيمان، وبرحمته بكم وهي أن بعث فيكم سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ـ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨] وهو الرحمة المهداة للعالم ـ فبذلك فليفرحوا.

ومن جملة رحمة الله تعالى القرآن الكريم، الذي أنزله على رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولولا سيدنا

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما فهمت القرآن ، بل ولما وصل إليك.

وينبغي أن يكون فرحكم أيها المؤمنون بفضل الله عليكم أنْ وفقكم للإيمان ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٨] وكذلك فرحكم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن الكريم الذي جاء به ، ينبغي أن يكون فرحكم بذلك لا يعادله فرح ولا يساويه ، لأنّ الإنسان يفرح إذا حصل على خير ، فهو يظن أن في المال خيراً ويرجو منه الخير ، فتراه يفرح لما يربح شيئاً من المال ، ويزداد فرحه كلما زاد ربحه من المال ؛ رجاء خيره من المأكل والملبس والمسكن.

ولكن المال قد يُفضي إلى خير ، وقد يعود بالشر على صاحبه إن أسرف على نفسه في مأكله مثلاً وأضر نفسه ، وعلى هذا فالخير المتأتي من المال غير مضمون ، كما أن هذا الخير إن حصل فهو محدود مقيد ، سيتركه الإنسان ويمضي.

أما الخير الدائم المستمر الباقي ، تنتفع منه كلما ازددت منه؛ فهو الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم[١] فيجب عليك أن تفرح بالإيمان أكثر من فرحك بالمال ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

---

(١) ويطلق الخير ويراد به الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ الآية [الأنفال: ٧٠]. وفي الحديث: «فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال حبة ـ ذرة ـ من خير» الحديث ، أخرجه الإمام مسلم في الصحيح ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب خروج الدجال / ٢٩٤٠/ (٥/ ٢٧٧٣).

ولقد نبه الله تعالى المؤمن أن يشكره على نعمة الإيمان التي أنعم الله بها عليه، وذلك بقوله: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾، وإنّ النعمة تتطلب من المؤمن أن يشكر مَنْ أنعم بها عليه، ومنْ شكر الله على نعمه زاده الله منها: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] فلقد علمنا دعاء شكرها، وبين لنا نتيجة شكرها فقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ والمراد منه الإنسان المؤمن بدليل الآية بعدها ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥] فكانت نتيجة هذا الدعاء، ونتيجة حال هذا المؤمن الشاكر لرب العالمين على نعمة الإيمان ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ وهو زمن نضوج العقل بكماله ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ وفقني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ وهي نعمة الإيمان، التي قال الله تعالى فيها: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية، وقال فيها: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ فكما أنعمت عليَّ ووفقتني للإيمان؛ وفقني أن أعمل صالحاً ترضاه، أي: عملاً خالصاً لوجهك، وَفْقَ ما شرعت على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا ما يرضاه الله تعالى، وهذا العمل الصالح يُرفَعُ إلى الله، وإذا عُرِض عليه سبحانه رضيه سبحانه بدليل قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] ويحسن بالمؤمن أن يدعو بهذا الدعاء وراء كل صلاة.

وإذا قلت: ماذا يُعطي الإيمان من مكرمات حتى صار مِنَّةً وفضلاً كبيراً من الله على المؤمن؟!!.

فاعلم أنك ما آمنت بالله تعالى إلا لمَّا أنزل الله تعالى على قلبك نوراً من عنده، وأشرق له قلبك فآمنت، كما قال سبحانه: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: في قلب عبده المؤمن ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ الآية [النور: ٣٥].

ولما أعطاك سبحانه الإيمان فقد تمسكت بالعروة الوثقى، وصار بينك وبين الله صلةٌ محكمة قوية، وهي العروة الوثقى التي طرفها بيد الله وطرف بيدك ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦] والعروة الوثقى هي: «لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

كما أن الله سبحانه لَمَّا أعطاك الإيمان صار قلبك مزرعة لحبه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وما أشرف وأعظم قلبك الذي زُرع فيه حب الله، ولما أحببته أحبك، ولما أحبك حَبَّبك إلى أحبابه جل وعلا، ورفع من شأنك وذكرك في الملأ الأعلى، وهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] أي: حباً ثابتاً في قلوب الخلائق كلها، فهو سبحانه يحبهم، ويلقي محبتهم في أهل السماوات وأهل الأرض، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء»، فتسمع ذلك القلوب والأرواح،

ولا تنكر هذا ، لأن هذا يمر على قلبك وتنساه كما تنسى ما تراه في منامك البارحة وقبلها ، وَصَدَقَ خَبَر من لا ينسى صلى الله عليه وآله وسلم: «ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، ثم توضع له البغضاء في الأرض» ثم قرأ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] الحديث[1].

وإنَّ من أحبه الله وحببه إلى أحبابه فقد ضمن له سعادة الأبد ، وحاشاه سبحانه أن يسلبه صالح ما أعطاه من إيمان وغيره.

ولما آمنْتَ برب العالمين شَرَّفك بعبادته ، وطالبك بها حتى يُصبغك بالصبغة الإيمانية النورانية: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨] أي: الزموا صبغة الله تعالى ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ أي: ونحن أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم العابدون لله حق عبادته. اللهم اجعلنا منهم.

وهذه الصبغة الإيمانية النورانية الربانية تنصبغ بها الحواس والمدارك ، والقلب والروح ، ويظهر ذلك جلياً في الآخرة ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٦]. ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢].

وإن الأعضاء السبعة التي تشرَّفت بالسجود لله تعالى قد صار لها

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة /٣٢٠٩/ (٦/٣٠٣) ومسلم ـ واللفظ له إلى ثم قرأ ـ في كتاب البر والصلة والآداب ، باب إذا أحب الله عبداً /٢٦٣٧/ (٥/٢٥٥٦) وانظر الفتح (١٠/ ٤٦٢) لزاماً.

حصانة ونورٌ خاصٌ بها يوم القيامة ، حتى لو ارتكب المؤمن المصلي ذنوباً؛ ومات ولم يتُب منها ولم يتطهَّر منها في برازخ الآخرة ؛ ولم تنله شفاعة الشافعين ؛ وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم دخل جهنم ليُطَهَّر من تلك الذنوب لكثرتها ، فإنّ النار لا تأتي على الأعضاء التي سجد لله عليها ، وإن الملائكة لتعرفه بذلك ، وفي الحديث: «وإن الله تعالى حرَّم على النار أن تأكل مواضع السجود من بني آدم» الحديث[1] .

وذلك لأنها مصبوغة بنور الله ، ولا تأتي النار على قلب المؤمن لأن فيه الإيمان بالله تعالى ، أما الكافر فإن النار تَطَّلِعُ على فؤاده ﴿ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ الآية [الهمزة: ٧] .

وَلَمَّا شرفك الله سبحانه بالإيجاد ، وبعبادته والصلاة والسجود له ، فقد شرَّفك أيضاً بالتقرب إليه ، كما في الحديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»[2] وقال تعالى: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [الأعلى: ١٩] .

ولما وفقك سبحانه للإيمان فقد شرفك بذكره ، وحين تذكره يذكرك ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ الآية [البقرة: ١٥٢] وإذا كان ذكرك لله شرف عظيم؛ فإن ذكره لك سبحانه أعظم وأكبر ، ولا مناسبة بين ذكرك له وذكره لك ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٥] .

---

(١) هذا طرف من حديث طويل رواه البخاري في كتاب الأذان ، باب فضل السجود /٨٠٦/ (٢/ ٢٩٢) ، ومسلم في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية /١٨٢/ (١/ ٣٥٠).

(٢) رواه مسلم في كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود /٤٨٢/ (٢/ ٦٣٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه» الحديث(١).

ثم إنه سبحانه شرفك وتفضل عليك بسبب إيمانك ، أنه سيتجلى عليك بالرؤية والمكالمة، وشرفك بجواره في دار كرامته ، مع دوام تحياته وتسليماته ، وتبريكاته ورضوانه. وتحيات ملائكته عليهم السلام المتواصلة. فما أعظم نعمة الإيمان ؟!!! ولله المنة كل المنة؛ وكذلك لرسوله صلى الله عليه واله وسلم على المؤمن أن وفقه للإيمان ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحجرات: ١٧] لأن للإيمان آثاراً وفضائلَ ومكرماتٍ لا تُحصى.

ومن ذلك: أن المؤمن يدخل جوار ربه ، ويكون في دار ضيافته وكرامته كما قال تعالى: ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ ﴾ [البينة: ٨] ذكر العندية قبل ذكر الدار ، لأن الجار قبل الدار ـ وهذا كلام له اعتبار في الدنيا وفي الآخرة فافهم ـ وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ [التحريم: ١١] فسألت الجار قبل الدار. ولا أشرف ولا أعظم من جوار رب العالمين ، فاشكر الله على نعمة الإيمان التي أعَدَّتْك لذلك ، وأَنْزَلَتْكَ ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٥].

---

(١) متفق عليه ، رواه البخاري في كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ /٧٤٠٥/ (١٣/ ٣٨٤) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر اللهِ تعالى /٢٦٧٥/ (٥/ ٢٥٨٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وإنَّ التسليمات الإلّهية ، والهدايا والتحف ، والتبريكات تتوارد عليك من حضرة الله تعالى باستمرار ، وعلى الدوام ، كما قال سبحانه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤] أي: سلام من الله عليهم ، وقال: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] أي: سلام يتوارد على أهل الجنة من الله تعالى. وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤] أي: إن الملائكة تقول لهم: سلام عليكم بما صبرتم ـ أي: في الدنيا على أوامر الله كالصلاة[1] وغيرها ـ وقد جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «إن للمؤمن في الجنة خيمة من دُرَّة ـ أي: لؤلؤة ـ مجوفة ، طولها ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهل ـ صور ـ ومال ، لها أربعة آلاف مِصراع ـ باب ـ من ذهب ، على كل باب ملائكة من عند الله يأتونه بالهدايا من عند الرحمن ، كل هدية لا تشبه الهدية الثانية ، لا يدخلون عليه إلا بإذن»[2] أي: بإذن من الحُجَّاب.

وقد جاء بيان هذا عن أبي أمامة رضي الله عنه ـ ومثل هذا له حكم المرفوع إذ لا مجال للرأي فيه ـ قال: «إنَّ للمؤمن قصراً في الجنة، وعلى باب قصره سماطان من الحُجّاب والخدم، فيأتي المَلَك من رب العالمين فيقول للحاجب الأول: استأذن لي من السيد الجالس في صدر القصر حتى أحييه ـ وأقدم له هدية الرحمن ـ فيقول الحاجب الأول: اصبر ، فيسأل الحاجب الأول الحاجب

---

(١) قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ الآية [طه: ١٣٢]. وقال سبحانه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ الآية [مريم: ٦٥].

(٢) عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن أبي حاتم.

الثاني أن يستأذن له ، وهكذا للثالث والرابع حتى ينتهي الاستئذان لصاحب القصر فيقول: ائذنوا له. ويأتي الخبر واحداً بعد واحد ، فيدخل الملك وَيُحَيِّي المؤمن ويسلم عليه ، ويقدم له هدية من رب العالمين[1]». وهذا قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ أي: بعد الاستئذان من الحجَّاب ويقولون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم . . .﴾ الآية [الرعد: ٢٤].

كما أن الله تعالى شرفك أيها المؤمن بمكالمته ورؤيته في الجنة ، ففي الحديث: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأخذوا منازلهم في قصورهم ، أرسل الله إليهم الملائكة ويقولون لهم: إن ربكم يستزيركم ـ أي: يطلب منكم أن تزوروه ـ لتنظروا إليه وينظر إليكم ، وتكلموه ويكلمكم ، وتحيوه ويحييكم ، وليزيدكم من فضله، فيذهبون إلى عالم الكثيب، ويأخذ كل منهم ناحية مجلسه ، ويتجلى عليه رب العزة ، وما من أحد إلا ويحاضره الله محاضرة ـ أي: يكلِّمه مكالمة ـ ويقولون: اللهم أنت السلام ومنك السلام ولك حق الإجلال والإكرام ، ويحييهم سبحانه ويقول: أنا السلام ومني السلام، ولي حق الإجلال والإكرام، فرحاً بعبادي الذين حفظوا وصيتي ، ورعوا عهدي ، وحفظوني بالغيب ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ الآية [ق: ٣٣] ثم يقول سبحانه: سلوني يا عبادي ، فيسألونه، فيقول: سلوني. حتى إذا انتهت بهم الأماني فتح لهم باباً: لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» الحديث[2].

بعد هذا كله أليس حقاً لله عليك أن يذكِّرك بنعمته عليك أن

---

(١) انظر (الدر المنثور) (٤/ ٥٨).

(٢) انظره في (الترغيب) للمنذري (٤/ ٤٥٩).

وفقك للإيمان، ويمتن به عليك؟!! ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ الآية [الحجرات: ١٧]، ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ الآية [يونس: ٥٨].

أما التجلي بالرؤيا فقد ورد في الحديث: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى: يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك. فيقول: أتريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: يا ربنا ألم تُبيض وجوهنا؟ ألم تُدخلنا الجنة؟ ألم تنجنا من النار؟ فَيُكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى»(١) ثم قرأ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦] الحديث.

وفي الحديث: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تبارك وتعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته فيهم»(٢) فيحيونه ويحييهم، فتبقى بركاته وأنواره في ديارهم. وهذا قوله: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٨] اللهم اجعلنا منهم.

* * *

---

(١) رواه الإمام مسلم في (صحيحه)، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين ربهم سبحانه وتعالى في الآخرة /١٨١/(١/٣٤٩) والترمذي كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى /٢٥٥٥/ (٧/ ٢٣٠) عن سيدنا صهيب رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن ماجه في السنن، المقدمة رقم /١٨٤/ وعزاه في الدر المنثور (٥/ ٢٦٦) إلى البزار، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

حول هدي النبي ﷺ للعالمين

بيان فضل الإيمان وأنه أعظم النعم الإلٓهية على العبد

تقدم الكلام على مراتب الإيمان وأنواعه ، ومنه الهدي العام لجميع الأنام والمخلوقات ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] أي: هداه لما فيه مصلحة وجوده وبقاء نسله ونوعه.

وهناك **هدي البيان** ، وقد حَتَّمَهُ سبحانه وأوجبه على نفسه ، وهو بواسطة الرسل عليهم السلام؛ وإنزال الكتب عليهم ، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل: ١٢] وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ [النحل: ٩] أي: وعلى الله بيان السبيل القصد ـ الوسط ـ الجامع لكل خير ، والبعيد عن كل شر.

وإنّ أعظم الرسل هدياً وبياناً وتبياناً ، هو صاحب الرسالة العامة لجميع الأنام ، إلى آخر الزمان ، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤] والبرهان المراد من الآية هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فلقد هدى وبيَّن صلى الله عليه وآله وسلم ، وأقام الحجة

والبرهان على العالمين ، وأمر الصحابة أن يبلغوا عنه؛ وكذا مَنْ بعدهم إلى يوم الدين.

وهناك **هدي التوفيق** ، وهو أن يهدي الله العبد؛ بمعنى: أَنْ يوفقه للسير على الصراط المستقيم ـ شرع الله تعالى ـ وهذا الهدي مرتب على هدي البيان والبرهان ، وهو الذي امتن الله به على عباده المؤمنين: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] وهو هدي التوفيق الإلَهي للإيمان.

وقد أمر سبحانه عباده أن يسألوه دوماً هَدْي التوفيق للإيمان ، وأنزل ذلك في أعظم سورة في القرآن ، وتُسمَّى سورة الشفاء وسورة الدعاء ، لأن الله تعالى علَّمنا فيها كيف ندعوه ونسأله ، ففيها الحمد أولا ، ثم الثناء ، ثم التمجيد ، ثم الاعتراف له بأنه الإلَه الحق المعبود ، ثم سؤاله سبحانه هداية التوفيق: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: وفقنا للسير على الصراط المستقيم ، وهو صراط سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي هو صراط ربِّ العالمين الذي قال فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣] أي: الموصل إلى الله تعالى.

واعلم أنَّك محتاج إلى هدي الله في كل لحظة ، كما أنك محتاج إلى إمداده وتغذيته سبحانه في كل لحظة ، ولذلك أمرنا أن نقول دائماً: ﴿ٱهْدِنَا ٱهْدِنَا﴾ في الصلاة وقراءة الفاتحة كما تقدم بيانه.

كما أنَّ نعمة الإيمان الذي وفقك الله إليه إنَّما هي أعظم النعم

الإلَهية عليك ، فاشكر الله على هذه النعمة ، حتى يزيدك إيماناً فوق إيمان ، وهدى فوق هدى ، واعرف فضل الله عليك بنعمة الإيمان ، وإذا أردت أن تعرف قَدْر عظمة نعمة الإيمان فيجب أن تفهم الأمور الآتية ـ وقد تقدم بيان بعضها ـ:

أولاً: يجب عليك أن تَتَدَبّر في وجه الامتنان الذي امتن الله به عليك أيها المؤمن في قوله: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧] وتدبر في مقدار هذه النعمة حتى تعرف أنَّ لله حقاً عليك ومنة عليك.

واعلم أنه سبحانه لما هدى قلبك للإيمان جعل قلبك مُشرقاً بأنواره ، وجعل قلبك بيت أسراره ومعرفته ، فصار قلبك مشرقاً مضيئاً مملوءاً بنور رب العالمين ، كما قال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ الآية [الأنعام: ١٢٥] ، وقال سبحانه: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٢٢].

ولما سمى سبحانه المساجد بأنها بيوت الله ـ أي: بيوت عبادة الله ـ ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ [النور: ٣٦] فقد ذكر قبلها بيوتاً أعظم منها وأشرف، وهي قلوب المؤمنين بالله تعالى ، فقال: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [النور: ٣٥] أي: مثل نور الله في قلب المؤمن ، فذكر أوّلاً بيت قلبك الذي فيه نور الله ، ثم ذكر بيته الذي هو بيت عبادته والصلاة له سبحانه ، وإذا لم يعمر بيت قلبك بالإيمان لا يعمر المسجد بالصلاة والعبادة.

فأبشر أيها المؤمن أنَّ قلبك أكرم عند الله من المسجد ، وأنه

مشرق بنور الله تعالى. إذاً أليس لله عليك حق أن يمتن عليك بهذه النعمة فيقول: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧].

واعلم أنَّ الله تعالى لما هداك للإيمان فقد أكرمك بإكرام أهل الإيمان، ونلت الخير من كل جانب، ونلت الثناء والدعاء من كل مؤمن، وقد أخبر سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧ ـ ٩] فقد نلت الفوز العظيم بإيمانك.

وقد ذكر سبحانه هذه الآيات في سورة المؤمن، لأنه سبحانه ذكر فيها كرامة أهل الإيمان، وبيان فضائل المؤمن لمن يتدبر، ومن جملة هذا الفضل والكرم، أنَّ حملة العرش وهم أهل الشرف والفضل الكبير، وهم أشراف ورؤساء الملائكة، ومَنْ حَوْلَ العرش من الملأ الأعلى ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: يعبدون الله تعالى بالقول والفعل ـ وهو الإيمان العملي ـ ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فهم يستغفرون للمؤمنين لأنهم مؤمنون مثلهم، وبينهم ولاء ووفاء، فما أشرفك يا مؤمن، فأنت على وجه الأرض وحملة العرش يستغفرون لك! ويقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ لأنَّ هناك عالم الأعراف

بين الجنـة والنـار فدعوا لهم بدخول الجنة ﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ . . .﴾ الآية [غافر: ٧ ـ ٨].

وقد وعد الله المؤمنين بالجنة بقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ . . .﴾ الآية [التوبة: ٧٢].

﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ أي: أكرمهم يا رب بدخول الجنة، وأكرمهم أيضاً بأن تُلحق بهم آباءهم وأزواجهم وذرياتهم؛ وإن كانوا في الإيمان والصلاح ليسوا مثلهم، ولكن إكراماً لهم، وحتى يَتِمَّ لهم سرورهم ونعيمهم أدخل معهم ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ أي: ولو صلاحاً إجمالياً ﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [غافر: ٨].

فقد دعوا الله لك، ودعوا لأبويك وأزواجك وذريتك من بعدك؛ أن يكونوا معك في الجنة، كل هذا بسبب إيمانك، أليس لله حقٌّ عليك أن يمتن عليك بنعمة الإيمان؟!

ولقد جاء في الحديث: «أن الرجل المؤمن يدخل الجنة ـ المؤمن الكامل ـ فإذا دخلها قال: أين أبي أين أهلي؟ فيقولون له: إنهم لم يعملوا مثلك، فيقول: أنا كنت أعمل في الدنيا لي ولهم، فيلحقهم الله تعالى بدرجته» الحديث[1].

---

(١) رواه الطبراني وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٦/ ١١٩) ونص رواية الطبراني كما في (مجمع الزوائد) (٧/ ١١٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك! فيقول: يا رب قد عملت لي ولهم. فيؤمر بإلحاقهم» وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ الآية [الطور: ٢١].

﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ أي: واجعل بينهم وبين السيئات وقاية ، فلا يقعون في الذنوب بعد أن تابوا منها ، واحفظهم أيضاً من المعاصي والذنوب ، ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ أي: المساوىء في الآخرة ، بأن لا يروا سوءاً ولا مكروهاً بل نعيماً وسروراً.

كما أنه بسبب إيمانك فإنَّ الله تعالى يرفع أقوالك الطيبة ، وأعمالك الصالحة إليه ، حتى تشفع لك عند الله ، وحتى تُسجل في ديوان أهل الإيمان ، وحتى يُعلن هذا في الملأ الأعلى ، ويثنى عليك في الملأ الأعلى ، وفي هذا يقول تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠].

والكلم الطيب: هو الذي خرج عن قلب طيب ، ولا يطيب القلب إلا بالكلمة الطيبة ، التي هي مصدر كل طيب ، التي قال الله تعالى فيها: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٤] وهي كلمة: «لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم» وهي كلمة الإيمان والشهادة ، وهي بمنزلة الشجرة الطيبة التي استوت في الأرض ، كما استوت كلمة الإيمان في القلب ، وصارت تثمر كلاماً طيباً ، وأعمالاً صالحة ، تصعد إلى الله تعالى.

والعمل الصالح هو: العمل الخالص لوجه الله تعالى، والموافق لما شرعه الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم. فلابد للصلاح من أمرين: أن يكون مشروعاً ، ومُخْلَصاً فيه لله تعالى.

فما أشرف المؤمن وما أكرمه على الله تعالى ، حتى رفع أعماله وأقواله الطيبة إليه؟! فاعرف فضل الله عليك بالإيمان.

أما رفع الأعمال وصعود الأقوال: فهناك الرفع اليومي ـ في كل يوم وفي كل ليلة ـ فقد روى مسلم[1] ، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: خطيباً ـ بخمس كلمات فقال: «إن الله تعالى لا ينام ولا ينبغي له أن ينام» أي: لا يصح له ذلك واقعاً ولا عقلاً ولا ذوقاً ولا... «يخفض القسط ويرفعه» أي: يخفض بالقسط، ويرفع بالقسط ، فيتصرف في شؤون العباد بالعدل والقسط «يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

فَيُرفع عمل الليل قبل الفجر ، وَيُرفع عمل النهار بعد العصر ، بواسطة ملائكة الله تعالى. فأصْلِحْ أيها المؤمن العمل مع الله ، وأحكم الصلة بينك وبينه ، بأن تجعل أعمالك تصعد إلى الله ليلاً ونهاراً ، ولا تقطع ذلك ولا تتقاعس عن طاعة الله ليلاً ولا نهاراً.

وهناك الرفع الفوري للأعمال الصالحة: فقد روى الإمام أحمد والترمذي ، أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يُصلي قبل الظهر بعد الزوال ـ أي: قبل فريضة الظهر وهي سنة الظهر القبلية ـ كان يصلي أربع ركعات ، ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: «إنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء ، فأحب أن يصعد لي فيها عمل صالح» الحديث[2].

---

(١) في صحيحه كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «إن الله لا ينام» /١٧٩/ (١/٩٤٦).

(٢) المسند (٣/٤١١) ، والسنن كتاب الصلاة ، باب ما جاء في الصلاة عند الزوال /٤٧٨/ (٢/١٩٩) عن سيدنا عبد الله بن السائب رضي الله عنه.

وهذه الساعة ساعة إجابة ينظر فيها سبحانه إلى عباده المؤمنين نظر الرضا والرحمة ، كما روى البزار[1] عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، أنها سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أراك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تستحب هذه الركعات قبل الظهر ـ أي: بعد الزوال ـ فقال: «إنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء ، وينظر الله عز وجل بالرحمة إلى خلقه، وهي صلاة كان يحافظ عليها آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى» صلوات الله عليهم.

وإذا علمت هذا أيها المؤمن فكن ممن ينظر الله إليهم نظر رحمة ورضا في ذلك الوقت ، ولا تعمل عملاً يحجبك عن الله تعالى ، فقد روى أحمد في (مسنده)[2] وغيره: «إن لله تبارك وتعالى عباداً لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم».

قيل: من أولئك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟.

قال: «مُتَبرٍّ من والديه راغب عنهما ، ومُتَبرٍّ مِنْ ولده ، ورجل أنعم عليه قوم فكفر نعمتهم وتبرأ منهم».

فلا تنسَ إحسان من أحسن إليك ، وَأرْعِ الذمة والعهد مع خلق الله تعالى.

ومن الرفع الفوري ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما: بينما نحن نصلي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ قال رجل

---

(١) (مجمع الزوائد) (٢/ ٢١٩).

(٢) (٣/ ٤٤٠) عن سيدنا معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه.

من القوم: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: لما فرغ من الصلاة ـ: «مَن القائل كلمة كذا وكذا» ؟.

فقال رجل من القوم: أنا يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال: «عجبت لها، فُتِحَت لها أبواب السماء» وعند النسائي «لقد رأيت اثني عشر ملكاً يبتدرونها أيهم يرفعها» أي: إلى الله تعالى. قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: فما تركتهن منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ذلك[1].

ولا تنكر هذا فإنّ للكلام معانيَ، وهناك من يحملها، فكما تَحمل المحسوسات في يدك، فكذلك تحمل المعنويات والمعلومات في عقلك ـ فافهم ـ وهذا ما حملته الملائكة ورفعته إلى رب العالمين.

وهناك عرض للأعمال على رب العالمين في كل يوم اثنين وخميس: فقد روى مسلم في (صحيحه)[2] عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «تُعرض الأعمال ـ أي: على الله عز وجل ـ في كل يوم خميس واثنين، فيغفر الله تعالى في ذلك اليوم لكل امرىء لا يشرك

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة /٦٠١/ (٢/ ٧٢٥) والترمذي في كتاب الدعوات، باب /١٣٧/ في دعاء أم سلمة رضي الله عنها /٣٥٨٦/ (٩/ ١٢٣) والنسائي في الصلاة، باب الدعاء بين التكبيرة والقراءة (٢/ ١٣٢).

(٢) في كتاب البر والصلة، باب النهي عن الشحناء والتهاجر /٢٥٦٥/ /٣٦/ (٥/ ٢٥١٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

بالله شيئاً؛ إلا امرءاً كانت بينه وبين أخيه شحناء ـ أي: بغضاء وحقد ـ فيقال ـ أي: فيقول الله تعالى للملائكة ـ: اتركوا هذين حتى يصطلحا» أي: لا ترفعوا لهما عملاً إلى الله تعالى.

وفي الحديث الذي رواه الحكيم الترمذي[١] عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «تعرض الأعمال في يوم الاثنين والخميس على الله تعالى، وتعرض على الأنبياء؛ وعلى الآباء والأمهات يوم الجمعة، فيفرحون بحسناتهم، ويزدادون بياضاً وإشراقاً في وجوههم؛ فاتقوا الله ولا تؤذوا موتاكم» أي: بعمل السوء الذي يُعرض عليهم فيحزنون له.

وروى أحمد في (مسنده)[٢] عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم إني أعوذ بك من قول لا يُسمع، وعمل لا يُرفع، وقلب لا يخشع، وعلم لا ينفع».

وقد بَيَّنَ صلى الله عليه وآله وسلم أن هناك أموراً تحجب العمل عن الرفع، فقد روى ابن حبان في (صحيحه) عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ثلاثة لا ترتفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً: رجل أَمَّ قوماً وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصارمان»[٣] أي: لا ترفع صلاتهم مع أهل الكمال، وإنْ كان قد سقط الفرض عنهم.

---

(١) في الأصل السابع والستين ص /٢١٣/.

(٢) (٣/١٩٢) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٣) هذا لفظ ابن ماجه في (سننه) كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب مَنْ أم قوماً وهم له كارهون /٩٧١/ (١/٣١١) ولفظ ابن حبان في الصحيح، (الإحسان) /١٧٥٤/ (٣/١٢٦) «ثلاثة لا يقبل الله لهم صلاة....».

وإذا قيل: ما هي الفائدة من رفع العمل إلى الله تعالى؟.

فاعلم أن الله تعالى لما ذكر: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] ذكر ذلك للمؤمنين على طريق البشارة والمنة، والنعمة والفضل عليهم. وإذا عرف المؤمن فوائد ذلك الرفع وحكمته ازدادت هِمَّتُهُ، وقوي نشاطه للعمل الصالح، والكلم الطيب.

ومن حكمة ذلك: أنَّ هذه الأعمال والأقوال الطيبة ترتفع وتجتمع عند عرش الرحمن تبارك وتعالى، وتشفع بصاحبها عند الله الآن وغداً، وكم من بلايا ورزايا رُفعت عنك ودفعت بسبب شفاعة أقوالك وأعمالك الصالحة؟!!.

وفي هذا روى ابن ماجه في (سننه) والحاكم في (المستدرك) عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن مما تذكرون من جلال الله تعالى التسبيح والتهليل والتحميد ـ أفردتها أو جمعتها ـ ينعطفن ـ أي: يجتمعن ـ حول العرش، لهن دويٌّ كدويّ النحل، يُذكِّرْن ـ أي: يشفعن ـ بصاحبهن، أما يحب أحدكم أن يكون له ـ أو «لا يزال له» ـ من يذكر به»[1] أي: يشفع به.

ومن الحكمة في رفع الأعمال والأقوال إلى الله تعالى: هي أن يَذْكُرَك الله تعالى في الملأ الأعلى، وَيَذْكُرك الملأ الأعلى بالمدح والثناء «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله

---

(١) ابن ماجه كتاب الأدب، باب فضل التسبيح /٣٨٠٩/(٢/١٢٥٢) (المستدرك) كتاب الدعاء (١/٥٠٠).

تعالى ويتدارسونه بينهم: إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده» الحديث[1].

ومن ذلك حتى يباهي الله تعالى ملائكته، ففي الحديث الذي رواه ابن ماجه[2]، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: صلينا المغرب مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلما فرغ من صلاته رجع مَنْ رجع، وعقَّب من عقَّب ـ أي: جلس عقب الصلاة ـ فبينما نحن كذلك، خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسرعاً فقال: «أبشروا! هذا ربكم قد فتح باباً من أبواب السماء يباهي بكم الملائكة يقول: انظروا إلى عبادي، قضوا فريضة وهم ينتظرون أخرى».

وقد سمع ذلك صلى الله عليه وآله وسلم ورآه وَحَدَّث به، لأنه القائل: «إني أرى ما لا ترون وأسمع مالا تسمعون»[3].

كما وترفع الأعمال والأقوال إلى رب العزة حتى يعلم الملائكة بما عليه هذا المؤمن، وأقواله وأعماله ـ يصيرون على علم بذلك ـ فلما يقولون له في سؤال القبر: «ما كنت تقول في هذا الرجل؟

---

(١) هذا طرف من حديث طويل رواه الإمام مسلم في الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر /٢٦٩٩/ (٥/ ٢٦٠٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه وهو في (المسند) (٢/ ٢٥٢).

(٢) كتاب المساجد والجماعات، باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة /٨٠١/ (١/ ٢٦٢).

(٣) هذا طرف من حديث طويل رواه الإمام أحمد في (المسند) (٥/ ١٧٣) والترمذي في (السنن) كتاب الزهد، باب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لو تعلمون ما أعلم» /٢٣١٣/ (٧/ ٧٤) عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه.

فيقول: هو محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، جاءنا بالهدى والبينات؛ فأجبنا وآمنا واتبعنا ـ كما في رواية ـ فيقولون له: نم صالحاً قد علمنا إن كنت لموقناً به» ـ أي: نحن على علم أنك مؤمن متبع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وقد علموا بذلك من خلال رفع أعمالك وأقوالك إلى الله تعالى[1].

ومن جملة حِكَم رفع الأعمال والأقوال إلى الله تعالى: حتى تُسجل تسجيلاً لا يُمَحىٰ ولا يبدل، في الديوان الأكبر، وهو ديوان أعمال البر والتقى، ومتى سجل الله لمؤمن عملاً في ذاك الديوان فلا يبطل ذلك العمل أبداً، ولا يزيغ قلب ذاك العامل أبداً بل يموت على كمال الإيمان.

نسألك اللهم ذلك من فضلك العظيم، بجاه صاحب الخُلُق العظيم صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٨ ـ ٢١] من الملأ الأعلى، فينظرون ماذا يتطلب هذا العمل أو القول من ثواب وأجر، لأنَّ الأعمال ما بين كفارات ودرجات، فكم يُكَفِّر هذا العمل من سيئات؟ وكم يرفع من درجات؟ ويجري البحث بينهم.

---

(١) الحديث في البخاري ومسلم وغيرهما، انظر الفتح كتاب العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس /٨٦/ (١/ ١٨٢) وشرح مسلم، كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صلاة الكسوف /٩٠٥/ (٢/ ٩٦٥).

كما بَيَّنَ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث اختصام الملأ الأعلى ، ويرفعون الأمر إلى الله تعالى فيحكم بينهم بالحق ، ولا معقب لحكمه سبحانه وتعالى[1] .

ومن أعظم الكفارات والدرجات ما جاء في الحديث: «**الكفارات**: نقل الأقدام إلى الجماعات ـ وفي رواية: «الجمعات» ـ والجلوس في المجالس بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات. **والدرجات**: إطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة في الليل والناس نيام».

ثم قال: «يا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ سل ـ لأنَّ التجلي تجلي إجابة ـ قلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون ، وأسألك حبك ، وحب من يحبك ، وحب عمل يقربني إلى حبك» الحديث[2] .

وكل هذا الفضل مُرتب على الإيمان الذي امتن الله به عليك: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحجرات: ١٧] لأنَّ الإيمان له فوائد ومنافع لا تعد ولا تحصى ، فاشكروا نعمة الله عليكم.

ومن جملة ذلك الفضل العظيم ، مرافقة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأنبياء والصالحين: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ

---

(١) حديث اختصام الملأ الأعلى ذكره فضيلة الشيخ الإمام برواياته في كتابه الممتع «صعود الأقوال ورفع الأعمال».

(٢) كما في (سنن) الترمذي ، كتاب التفسير ، باب ومن سورة ص / ٣٢٣٣/ (٨/ ٣٦٥).

﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٩ ـ ٧٠].

وإن مرافقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومَعِيَّتَهُ هي موضع حرص أهل الإيمان وَهَمِّهِم، كما قال ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه ـ أحد خدام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وقد قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «سلني أعطك» ـ مكافأة له ـ قال: أسألك مرافقتك في الجنة.

قال: «أَوْ غير ذلك يا ربيعة»؟.

قال: هو ذاك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود»(١).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لبعض الصحابة: «يا أبا فاطمة إن أردت أن تلقاني فأكثر السجود»(٢) أي: من الصلاة لله تعالى.

وهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لما قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «سل تعط، سل تعط» راح يدعو فيقول: اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتد، ونعيماً لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، ومرافقة نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في أعلى الجنة جنة الخلد(٣).

---

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه /٤٨٩/ (٢/٦٣٨) وهو في (المسند) للإمام أحمد (٤/٥٩) وينظر (مجمع الزوائد) (٢/٢٤٩).

(٢) رواه الإمام أحمد في (المسند) (٣/٤٢٨).

(٣) كما في (مسند) الإمام أحمد (١/٤٠٠/٤٤٥).

معرفة الأشياء بربها وتسبيحها له

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الآية [الشورى: ٥٢]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ الآية [الفتح: ٢٨]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

إن البحث في موقف الهدي المحمدي عليه الصلاة والسلام يقوم على ثلاثة أمور وهي: مراتب وأنواع الهدي، ثم بيان الذي جاء يهدي إليه صلى الله عليه وآله وسلم، ثم منهج هديه صلى الله عليه وآله وسلم.

أما مراتب الهدي فهناك الهدي العام لجميع المخلوقات، المشار إليه بقوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] أي: أعطاه صورة خلقه اللائقة به، ثم هداه إلى معرفة خالقه وبارئه سبحانه، ثم هداه إلى ما فيه مصلحة بقائه ووجوده. وفيه يقول سبحانه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١ ـ ٣].

وهناك هدي البيان القائم على الحجة والبرهان: وهو هدي الله تعالى لعباده إلى ما فيه مصالحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وهذا بواسطة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأعظمهم وأجمعهم هدياً سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وفي هذا الهدي يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [الليل: ١٢ ـ ١٣]

وقد أوجب على نفسه سبحانه هدي الناس ، وبيان ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وهناك هدي التوفيق: وهو أن يوفق الله العبد للإيمان فيؤمن ، وهذا الهدي على مراتب ، ولذلك أمر الله عباده أن يسألوه دوماً ذلك: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ وامتن عليهم سبحانه بهذا الهدي: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧].

واعلم أنه بمقتضى الهدي العام لجميع الخلائق ، فقد فطر الله سبحانه جميع المخلوقات على معرفته سبحانه ، ولقد فطر الله تعالى الإنسان على معرفته سبحانه؛ يوم جمع ذرية سيدنا آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام على هيئة الذر ، وأشهدهم على أنفسهم: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ثم لما جاؤوا إلى هذا العالم نسوا ذلك ، فجاءت الرسل تُذكرهم ، فهناك من تذكر ، وهناك من جحد فقامت عليهم الحجة ، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٠٦] أي: يقال لهم: أكفرتم بعد أن آمنتم في عالم الذر ، وكفرتم بعد أن بيَّنت لكم الرسل؟!!.

فكل شيء مفطور على الدين والإيمان ، ثم تبدلت بعض الفِطَرِ بعارضٍ من عوارض الدنيا.

ولقد هدى الله تعالى الطير والوحش ، والشمس والقمر والنجوم ، والجبال ، والشجر ، والدواب؛ إلى معرفة خالقها وبارئها ، وهداها أيضاً لما فيه بقاؤها واستمرار وجودها.

وقد يقال: أنى للجماد والحيوان والبهائم أن تعرف ربها ؟!.

فيقال: تأمل في القرآن الكريم، وانظر في الوقائع التي جرت، وأقرنها بما أخبر الله تعالى، تَرَ أنّ الأمر حق برهاناً وعياناً، ومن هذا ما قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ [النور: ٤١] أي: كل من الطير وممن في السماوات والأرض قد علم صلاته لله وتسبيحه لله؛ قد علم ذلك بهدي وتعليم من الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ ﴾ أي: سجدوا لله وهم أهل الإيمان ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ ﴾ ـ أي: كفروا وما سجدوا ـ الآية [الحج: ١٨].

وإذا كنت لا تسمع تسبيح الأحجار والأشجار والتراب؛ فلا يعني أنها لا تسبح؛ فاعلم أنَّ تسبيحهم ليس كتسبيحك. فعالم الإنسان له أحكامه وخصائصه، وعالم الجماد له أحكامه وخصائصه، وكذلك كل عالم.

وإذا كنت لا تسمع فيجب عليك أَنْ تُصَدِّق مَنْ سَمِع، فقد أخبر الله سبحانه أنه سخر الجبال لداود عليه السلام يسبحن معه بالعشي والإشراق: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ [ص: ١٨] فكانت الجبال تُسَبِّح مع داود عليه السلام، ويسمع ذلك كل من كان في مجلسه.

ولقد سمع أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم تسبيح الحصى ، وتسبيح الطعام ، والماء ، في حضرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد روى الطبراني والبيهقي ، أنه صلى الله عليه وآله وسلم أخذ سبع حصيات في كفه الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم فسبحت ، ثم أعطاها لأبي بكر رضي الله عنه فسبحت في كفه ، ثم في كف عمر رضي الله عنه ، ويسمع ذلك من حضر من الصحابة[1] .

واعلم أنَّ الحصى تُسَبِّح على الدوام ، ويسمع ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد كشف ذلك للصحابة رضوان الله عليهم فسمعوا ذلك؛ بأنواره صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد روى البخاري في (صحيحه)[2] ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم).

وفي رواية النسائي وغيره ، وأصله في البخاري ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (كنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلم نجد ماءاً ، فأمر صلى الله عليه وآله وسلم فأتي بماء في إناء صغير ـ والصحابة في عطش وحاجة للماء ـ فوضع كفه صلى الله عليه وآله وسلم في الإناء الصغير؛ فجعل الماء ينبع من بين أصابعه. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «حَيَّ على الطهور المبارك ، والبركة من الله تعالى» أي: أقبلوا على الطهور المبارك.

---

(١) (مجمع الزوائد) (٨/ ٢٩٩) ، (دلائل النبوة) (٦/ ٦٤).

(٢) كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام / ٣٥٧٩/ (٦/ ٥٨٧).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: (فجعلنا نشرب ونملأ ، وكنا نسمع صوت الماء وتسبيحه عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم).

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤] أي: لا تسمعون تسبيحهم ، وقد تسمعون ولكن لا تفقهون ، كما هو في صوت الطير وغيره.

ولقد عَلَّم الله تعالى سليمان عليه السلام منطق الطير وفهم لغة النمل: ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ ﴾ الآية [النمل: ١٨].

وإنّ النمل هو من جملة الأمم التي تسبح الله تعالى ، كما روى البخاري ، عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قرصت نملة نبياً من الأنبياء ، فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه: أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله»![1].

وهذه النحلة: فلقد فطرها الله تعالى على معرفته ، وعلمها طرق جمع غذائها وصنع العسل ، وذلل لها الصعوبات في ذلك ﴿ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ﴾ الطرق التي هداك إليها ﴿ ذُلُلًا ﴾ [النمل: ٦٩] أي: مذللة لك.

وكذلك الجبال تسبح وتعرف خالقها: فقد صعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرة أُحُداً ومعه الصديق وعمر وعثمان رضي الله عنهم فاشتد طرب أحد وفرح فاهتز.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم له: «اثبت أُحُد فإنّما عليك نبي

---

(١) (الفتح): كتاب الجهاد ، باب /٢٠١٩/ (٦/ ١٥٤) (المسند) (٢/ ٤٠٣).

وصديق وشهيدان»[1] فسكن. فلقد عرف أُحُدٌ ربه وأن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا الجذع الذي كان يخطب مستنداً إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحَنَّ لفراقه لما تركه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المنبر[2]، فهو يعرف الله، ويعرف أن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا حديث متواتر.

وجاء في صحيح ابن خزيمة[3]، عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يسمع صوته ـ أي: المؤذن ـ شجر، ولا مدرٌ، ولا حجر، ولا جن، ولا إنس إلا شهد له» فلها شهادة ومنطق لائق بها ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] ونُطْق الجلد واليد والرجل تختلف عن نطق اللسان، ولكل أحكامه وخصائصه.

وإنَّ ربَّ الأشياء لهو قادر على أن يُنطق ذات الأشياء، وسينكشف لك هذا جلياً في عالم الآخرة. وما عليك إلا أن تُصَدِّق من سمع وأخبر بذلك صلى الله عليه وآله وسلم، على أنه مِنَ الحكمة والرحمة بك أنَّكَ لا تسمع ذلك الآن، لضعف قوتك ونشأتك عن قبول وتحمل ذلك في الدنيا. وقد يُعطي الله تعالى

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً» / ٣٦٧٥/ (٧/ ٢٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب الجمعة، باب الخطبة على المنبر /٩١٨/ (٢/ ٣٩٧) وانظر في السيرة الشامية (١٠/ ١١٣).

(٣) (١/ ٢٠٣).

بعض أوليائه قوة لتحمل ذلك ، ويكشف له عن تسبيح بعض الأشياء فيسمعها.

وروى الترمذي والدارمي ، عن سيدنا علي كرم الله وجهه قال: (كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة ، فخرجنا في بعض نواحيها ، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)(١) وقد سمع ذلك سيدنا علي رضي الله عنه.

وإنّ في قصة الهدهد مع نبي الله سليمان عليه السلام لعبرةً وفوائدَ ، وأدلة على علم هذا الطائر بربه ومعرفته وتوحيده ، فلقد قال لسليمان عليه السلام: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مما تؤتاه الملوك ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: وهذا أمر عجيب ، فهي ملكة ولها جنودها ومملكتها وتفعل ذلك؟! فأين العقل السليم والتفكير الصحيح؟! ثم قال الهدهد: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾ [النمل: ٢٣ ـ ٢٦].

ولقد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يسمع تسبيح الأشياء ، وأوتي العلم بمنطق الطير ، ويسمع تسبيح السماوات والأرض. فما عليك إلا التصديق .

---

(١) الترمذي كتاب المناقب ، باب الشجر والحجر يسلمان على النبي ﷺ / ٣٦٣٠/ (٩/ ٢٤٧)، والدارمي في (سننه)، المقدمة ص /١٢/ ، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٦٢٠) وصححه ووافقه الذهبي.

وهناك هدي البيان الذي جاءت به الرسل على نبينا وعليهم الصلاة والسلام: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾ [النساء : ١٦٥] وقد أمدهم الله تعالى بالبينات الحسية ، والبراهين العقلية على صدق ما جاؤوا به وهدوا إليه ، وهذا الهدي هو حجة الله على عباده كما تقدم.

وأما هدي التوفيق فهو أن يوفقك الله تعالى للإيمان برب العالمين ، وأن تعمل بموجب ما هداك إليه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا هو أعظم نعمة لله عليك ، ولا غنى لك عنه ولا لحظة ، ولذلك فأنت مطالب دائماً أن تقول: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ وهو صراط سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأتباعه الذين مشوا عليه.

وسل الله دوماً كما علمك: الثبات على الهدى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا ﴾ الآية [آل عمران: ٨] ، ولا غنى لك عن تثبيت الله لك على الهداية ، وأن يزيدك هدياً فوق هدى ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ ﴾ الآية [مريم: ٧٦].

وقد ذكَّر الله تعالى عباده المؤمنين بهذه النعمة والفضل ، الذي تفضل به عليهم وهو أن أنعم عليهم ووفقهم للإيمان: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧] أي: في إيمانكم.

ولما تقول: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي: بالإيمان. مما يدلك على أن الإيمان أعظم نعمة لله على عبده ، وأنا يا رب أسألك أن تنعم عَلَيَّ كما أنعمت عليهم ،

وهذا السؤال من باب الاستجداء والاستعطاء.

ولاحظ في ذلك معنى دعائك وكأنك تقول: يا رب أنْعِمْ عَلَيَّ بكمال الإيمان كما أنعمت على الذين وفقتهم للسلوك على هذا الطريق المحمدي صلى الله عليه وآله وسلم، وحاشاك وأنت الكريم أن تُنعم بالإيمان على أمم وأمم وتحرمني فضلك؛ فأنت أجل وأكرم.

وكفى بالمؤمن شرفاً وتكريماً أن جعل الله تعالى قلبه صدفاً لأنوار الإيمان به: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الآية [الزمر: ٢٢].

وقد بين هذا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض»(١) الحديث. فقلب المؤمن وعاء يملؤه الله بنوره.

ولقد شرفك الله تعالى أيها المؤمن بعبادته، وبزيارته، وبالوفادة عليه، وبمناجاته وبذكره وبحبه وبقربه، وهذا كله ما نلته إلا بالإيمان.

روى الطبراني بإسنادين أحدهما جيد، عن سلمان رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من توضأ في بيته فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد فهو زائر الله، وحقٌّ على المزور أن يكرم الزائر»(٢) وإذا كان زائر الكرام لا يُضام فما بالك برب الكرام وأكرم الأكرمين؟!.

---

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند) (٢/ ١٧٧) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وانظر (مجمع الزوائد) (١٠/ ١٤٨).
(٢) (مجمع الزوائد) (٢/ ٣١).

وروى الطبراني وغيره، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن داود عليه السلام قال: إلٰهي ما لعبادك عليك إذا هم زاروك في بيتك؟ قال: يا داود إن لكل زائر حقاً على المزور، وإنَّ حقاً عليَّ أنهم إذا زاروني أن أُعافيهم في الدنيا، وأغفر لهم إذا لقيتهم»[1] وهذا في الحاج والمعتمر.

وفي الحديث الذي رُوي بسند الثقات: «الحجاج والعمار وفد الله؛ دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم»[2] فلقد شرف الله المؤمن بالوفادة عليه.

أما عن مناجاته سبحانه، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أحدكم إذا صلى يناجي ربه»[3] الحديث، وقد جاء بيان ذلك في الحديث الآخر: «إذا قال العبد: بسم اللهِ الرحمن الرحيم ـ أي: في الصلاة ـ قال الله: تعالى ذكرني عبدي» إلى تمام الحديث كما في رواية البيهقي[4].

كما شرفك الله سبحانه بذكره ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤] إذ إن الصلاة جامعة لكل الأذكار: أفعالاً وأقوالاً وأحوالاً، وتسبيحاً وتحميداً، وقرآناً، وصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) (مجمع الزوائد) (٣/٢٠٨) عن سيدنا أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

(٢) قال في (مجمع الزوائد) (٣/٢١١): رواه البزار ورجاله ثقات، عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري، كتاب المواقيت، باب المصلي يناجي ربه عز وجل /٥٣١/ (٢/١٤).

(٤) في (السنن الكبرى)، كتاب الصلاة، باب تعيين القراءة بفاتحة الكتاب (٢/٣٩).

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤] أي: لذكرك لي ولذكري لك، كما قال: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢] وكما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥] أي: إنَّ ذكر الله لعبده أكبر من ذكر العبد لربه.

فسبحان من تشرفت بذكره الأفواه، وتشرفت بالسجود له الجباه.

ولما أثنى سبحانه على جملة من الأنبياء وأتباعهم، وذكرهم بالمدح والثناء قال بعد ذلك: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ﴾ [ص: ٤٩] أي: هذا ذكرنا أنبياءنا بالثناء والمدح في الملأ الأعلى والأدنى.

ولقد رفع الله تعالى ذكر سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فوق كل مذكور، ورفع مدحه فوق كل ممدوح فقال: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ وفي الحديث: «إنني لا أُذكر إلا ذكرت معي»[1].

وإذا أردت أن تعرف شرف القلب الذي حوى القرآن أو بعضه، فانظر في تلك الصحيفة البيضاء التي كانت كغيرها في الفضل والاعتبار، ثم إذا طبع عليها شيء من آيات الله تعالى رُفعت فوق الرأس، لأنها صارت مصحفاً.

كما شرفك أيها المؤمن بحبه وقربه، ففي الأثر: «من أقبل إلي تلقيته من بعيد، ومن أراد مرادي أعطيته فوق المزيد، أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيارتي، وأهل طاعتي أهل

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير وغيرهم.

كرامتي ، وأهل معصيتي لا أُقنطهم من رحمتي ، إن تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعائب» وما ذلك إلا لأنه سبحانه يحب قربك «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه» الحديث[1] .

* * *

---

(١) هذا طرف من حديث رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب التواضع /٦٥٠٢/ (١١/ ٤٣٠).

حول هدي النبي ﷺ للعالمين

تقدم البحث في أنواع الهدي الإلٰهي ومراتبه، ومنه هدي التوفيق إلى الإيمان ومقاماته، وقد امتن الله تعالى على المؤمنين بأن وفقهم ـ أي: هداهم ـ للإيمان فآمنوا ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] فما أعظم قدر نعمة الإيمان حتى امتن الله بها عليك أيها المؤمن؟!.

فاعلم أولاً أنه سبحانه لما أنعم عليك بالإيمان فقد شَرَّف قلبك وجعله مرآة لأنواره، ومشرقاً لأسراره، فما أشرف هذا القلب الذي أشرق فيه نور الله؟!! وإن المرآة الصافية إذا وُجِّهت إلى نور الشمس ظهر فيها نور الشمس، فما بالك بمرآة قلبك التي ظهر فيها نور الله تعالى.

وأما الدليل على ذلك فهو ما ذكره سبحانه في سورة النور ـ ومن شأن النور أن يُظهر حقائق الأمور وخفايا الأمور ـ فقال سبحانه: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أي: مثل نوره في قلب عبده المؤمن ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ...﴾ الآية [النور: ٣٥]، أما المشكاة: فهي صدر المؤمن، وأما الزجاجة: فهي قلبه، وأما

المصباح المضيء: فهو نور الإيمان في قلب المؤمن، فما أشرف هذا القلب الذي استنار بنور الله؟!!.

ولقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره» الحديث كما تقدم(1)، وهذا قوله سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الآية [الزمر: ٢٢].

وبسبب إيمانك أيها المؤمن فقد شرفك ربك وصرت أهلاً أن يصلي عليك ويسلم عليك، وما أشرف صلاة رب العالمين عليك! وما أكرم سلامه عليك!!

فقد جاء في (المسند)(2) أن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «أما يرضيك يا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن ربك يقول: إنه لا يصلي عليك أحد مرة إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد مرة إلا سلمت عليه عشراً» صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الآية [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٣]. فَذِكْرُكَ لله وتسبيحك له أيها المؤمن هو سبب لأن يصلي الله وملائكته عليك، أما المضاعفة فيها فبالصلاة على حبيبه صلى الله عليه وآله وسلم، ولاحظ هذا حين تصلي وتسلم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(1) ص/٤١٤.
(2) (٤/٣٠) عن سيدنا أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه.

وفي الحديث المرفوع عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول» ـ أي: في الصلاة ـ.

فقال بعض الصحابة: وعلى الثاني يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ أي: إذا لم يتمكن أن يكون من أهل الصف الأول.

قال: «إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول».

قالوا: وعلى الثاني يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟.

قال: «وعلى الثاني»[1] أي: إنّ الثاني في الدرجة الثانية من صلاة رب العالمين وملائكته.

وفي الحديث «إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف»[2] فإذا تمكنت أن تكون على يمين الإمام فهو خير لك من يساره؛ بشرط أن لا تجعل فرجة في الصفوف، وأن لا تخل في استقامتها واعتدالها.

وروى ابن خزيمة في (صحيحه)[3] «إن الله وملائكته يصلون على الذين يَصِلُوْنَ ـ مِنْ وصلَ يَصِل ـ الصفوف الأُول» جمع أول فعليك أيها المؤمن أن تسد الفرجة التي أمامك في الصف وهكذا. . . مَنْ سدها صلى عليه رب العالمين.

وقد جاء في فضل التشهد في الصلاة، أن المصلي لما يقول:

---

(١) رواه الإمام أحمد في (المسند) (٥/٢٦٢) وعزاه الهيثمي في (مجمع الزوائد) (٢/٩١) إلى الطبراني في الكبير عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب من يستحب أن يلي الإمام في الصف، وكراهية التأخر /٦٧٦/ (١/٤٣٦) وابن ماجه رقم /١٠٠٥/.

(٣) (٣/٢٦) باب ذكر صلوات الرب وملائكته على واصلي الصفوف الأُوَل /١٥٥٦/.

«السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أصابت ـ أي: هذه التحية والسلام ـ كل عبد صالح في السماء والأرض»[1].

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ذلك في صلاته، فلقد نال سلامه كل عبد مؤمن، ونالك أيضاً إن شاء الله تعالى، وما هذا إلا بسبب إيمانك الذي وفقك الله إليه، فله إذاً المنة عليك ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] أي: لأن الإيمان له منافع وثمرات وفوائد ومكارم، وفضائل وخصائص، مهما علمتم منها فالله أعلم.

وقد شرفك الله سبحانه أيها المؤمن أن الأنبياء استغفروا لك، وأن إمامهم سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم استغفر لك، وأن الملأ الأعلى وملائكة السماوات وأولياء الله يستغفرون لك.

وقد تقدم[2] الكلام أن من جملة وظائف حملة العرش ومن حوله: الاستغفار والدعاء للمؤمنين: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآيات من أول سورة غافر.

وقال تعالى مخبراً عن سيدنا نوح على نبينا وعليه الصلاة والسلام: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية [نوح: ٢٨]، وشمل هذا كل مؤمن ومؤمنة إلى

---

(١) كما في البخاري كتاب الأذان، باب التشهد في الآخرة /٨٣١/ (٢/٣١١)، ومسلم كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة /٤٠٢/ (٢/٥٧٥) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) ص /٤٤٨/.

يوم الدين ، وينفع هذا الاستغفار من الذنوب التي بينك وبين ربك ، وأما حقوق العباد فلابد من القصاص .

وقد استغفر الخليل عليه السلام للمؤمنين والمؤمنات: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وهذا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يستغفر لك أيها المؤمن: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية [القتال: ١٩].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم ، في الحديث الذي رواه البزار وغيره بإسناد جيد ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «حياتي خير لكم ومماتي خير لكم ، تُعرض علي أعمالكم: فما رأيت من خير حمدت الله ، وما رأيت من شر استغفرت لكم»(١) .

ولقد شرفك الله أيها المؤمن أنه يُقبل عليك إذا أقبلت عليه ، وما أشرف إقباله وأكرمه سبحانه عليك! .

فقد روى أهل السنن والمسانيد عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يزال الله تعالى مقبلاً على العبد في صلاته ما لم يلتفت ، فإذا صرف وجهه انصرف عنه»(٢) .

ولقد حذر النبي صلى الله عليه وآله وسلم المصلي من الالتفات

---

(١) (مجمع الزوائد) (٩/ ٢٤).

(٢) رواه الإمام أحمد في (المسند) (٥/ ١٧٢) ، وأبو داود كتاب الصلاة ، باب الالتفات في الصلاة / ٩٠٩/ (٢/ ٥٦٠) والنسائي كتاب السهو ، باب التشديد في الالتفات في الصلاة (٣/ ٨) وغيرهم عن سيدنا أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

بعنقه وعينه أو بقلبه فقال: «إذا قام الرجل في الصلاة أقبل الله تعالى عليه بوجهه ، فإذا التفت ـ أي: العبد ـ قال الله تعالى: يا بن آدم إلى مَنْ تلتفت؟ إلى من هو خير لك مني؟ أقبل إليَّ ، فإذا التفت الثانية قال مثل ذلك ، فإذا التفت الثالثة صرف الله تعالى وجهه عنه»[1].

وروى الترمذي وصححه ، وابن خزيمة ، وغيرهما ، عن الحارث الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالى أمر يحيى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات أن يعمل بهنَّ ، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهنَّ ، وإنَّه كاد أن يبطىء بها.

فقال له عيسى عليه السلام: يا يحيى إما أنْ تأمرهم أو أن آمرهم أنا بذلك!.

فقال له يحيى عليه السلام: بل أُبلغ أنا ، أخشى إن سبقتني أن يُخسف بي أو أُعذَّب.

فقام يحيى عليه السلام وجمع الناس في بيت المقدس، فامتلأ حتى جلسوا على الشُّرفات ، فقام فيهم خطيباً فقال: إنَّ الله تعالى أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن ، وأن آمركم أن تعملوا بهن:

آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، فإنَّ مثل ذلك! كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله: ذهب أو وَرِق ، وجعله في داره وقال له: اعمل وأدِّ إلي ، فكان هذا العبد يعمل ويُؤدي إلى غير سيده ، فأيكم يرضىٰ أن يكون عبده كذلك»؟!.

---

(١) رواه البزار عن سيدنا جابر رضي الله عنهما ، (مجمع الزوائد) (٢/ ٨٠).

وفي رواية ابن خزيمة قال يحيى عليه السلام: «فإن الله هو خالقكم ورازقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً».

«قال: وآمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإنّ الله تعالى ينصب وجهه لوجه عبده ما دام في صلاته».

وفي رواية ابن خزيمة: «فإن الله يُقبل على عبده ما دام العبد في صلاته»[1] إلى تمام الحديث.

ولقد شرفك الله تعالى أيها المؤمن بالتقرب منه، وأمرك بالتقرب حتى يُقربك فقال: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب۩﴾ وقرن به السجود ليدلك أن أعظم ما يُقربك إلىَ الله تعالىِ هو السجود، ففي الحديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء»[2].

أي: وحاشا ربكم أن يُخَيِّب دعاءكم وقد تقربتم إليه.

وقد أخبر الله سبحانه عن أوليائه أنهم يبذلون جهدهم في التقرب إلى الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

أما طريق التقرب إلى الله تعالى: فهناك التقرب بالأقوال، والتقرب بالأعمال، والتقرب بالأحوال أي: النفسية والقلبية.

أما التقرب بالأقوال: فهناك ذكره سبحانه، وأعظم الذكر تلاوة

---

(١) (سنن) الترمذي كتاب الأمثال /٢٨٦٧/ (٨/٧٦)، (صحيح) ابن خزيمة (٢/٦٤).

(٢) رواه الإمام مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود /٤٨٢/ (٢/٦٣٤).

القرآن الكريم الذي هو كلامه سبحانه: «وما تقرب العباد إلى الله تعالى بمثل القرآن» الحديث[1].

وروي أنَّ الإمام أحمد رحمه الله تعالى لما رأى ربه في المنام وسأله عن أفضل ما يتقرب به المتقربون إليه ـ أي: من حيث الكلام والذكر ـ قال: بكلامي. قال: ربِّ بفهم أم بغير فهم؟ ، قال: بفهم وبغير فهم[2].

واعلم أنَّ الأصل في ذلك ما رُوي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ﴿الٓمٓ﴾ حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف»[3].

وقد ذكر صلى الله عليه وآله وسلم ﴿الٓمٓ﴾ ولم يذكر غيرها من الآيات ، ليبين أنّ المضاعفة تكون للقارىء بفهم أو بغير فهم ، لأن أكثر الناس لا يعلمون معنى ﴿الٓمٓ﴾ فافهم.

وأما باقي الأذكار فعليك أن تعطي كل وقت ما يستحقه ، لأنَّ لكل وقت وظيفة يُطالبك بها.

وأما التقرب بالأعمال: فقد جاء في الحديث القدسي: «أنا عند

---

(١) رواه الترمذي ، كتاب ثواب القرآن الكريم ، باب ما تقرب العبد بمثل القرآن الكريم /٢٩١٣/ (٨/ ١١٦) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه.

(٢) ذكر القصة الحافظ الذهبي في (سير أعلام النبلاء) بإسنادين (١١/ ٣٤٧) فلتنظر هناك.

(٣) رواه الترمذي ، كتاب ثواب القرآن الكريم ، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ماله من الأجر /٢٩١٢/ (٨/ ١١٥) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» الحديث[1] ، فهو سبحانه يتقرب إليك ويقربك أضعاف ما تتقرب إليه.

وروى البخاري[2] عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «يقول الله عز وجل: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به...» الحديث. أي: إنَّ من تحقق بمقام قرب النوافل نال مقام المحبوبية ، فإن الله تعالى عندئذٍ يتولاه تولية خاصة في حواسه ومداركه كلها ، فيتولى سمعه فلا يوجهه إلا إلى ما يرضيه ، وهكذا بصره ويده ورجله ولسانه وفؤاده ، وهذا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وفي الحديث الذي علمه صلى الله عليه وآله وسلم للحسن رضي الله عنه: «وتولني فيمَن توليت»[3] الحديث.

فلا شيءَ أحب إلى الله تعالى من التقرب إليه بالفرائض التي

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ /٧٤٠٥/ (١٣/ ٣٨٤) ومسلم كتاب الدعاء ، باب الحث على ذكر الله تعالى /٢٦٧٥/ (٥/ ٢٥٨٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في كتاب الرقاق ، باب التواضع /٦٥٠٢/ (١١/ ٣٤٠).

(٣) تقدم تخريجه في /٤٣٤/.

فرضها سبحانه على عباده المؤمنين ، وما أجهل وما أحمق من اشتغل بالنوافل وكثرة الأوراد وأهمل ما عليه من واجبات تجاه زوجه وولده ووالديه وغير ذلك!!!.

أما النوافل فهي زيادات على الفرائض ، ولا تصير النافلة زيادة على الفرض إلا إذا كان الفرض تاماً كاملاً ، أما من ادعى أنه يصلي النوافل كالسنن وقيام الليل وصلاة الضحى وغيرها؛ وأنه صاحب نوافل فيقال له: لا تنال هذا إلا إذا كانت فرائضك مستقيمة كاملة ، لا ينقصها شيء من الآداب والسنن ، ولا ينقصها شيء من الخشوع لله والحضور والمراقبة.

فلا تَدَّعِ أنك صاحب مقام قرب النوافل ولم تحصل بَعْدُ على مقام قرب الفرائض . وكذلك فريضة الصوم والزكاة والحج وصلة الرحم وغيرها. . .

ومن كانت فرائضه ناقصة ـ كما تقدم ـ فتأتي النوافل لتكمل هذا النقص ، ولا تُعتبر عندئذٍ زيادات على الفرائض ، بل مكملات ومتممات لنقص الفرائض من خشوع وحضور وآداب ونحو ذلك. ففي الحديث: «إنَّ أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته ، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت فقد خَاب وخسر ـ ولم يَقُلْ تركها بل صلاها ولكنها ناقصة أو فاسدة ، أي: فقد تفسد لجهله في بعض أحكامها ـ وإن انتقص من فريضته شيئاً قال الرب تبارك وتعالى للملائكة: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ ـ أي: نوافل ـ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة»(١) : أي: فلا تكون

(١) رواه الترمذي ، كتاب الصلاة ، باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم =

صاحب نوافل إلا إذا زادت نوافلك على فرائضك. فافهم.

وتشمل النوافل بالأعمال والأقوال، ومن أعظمها تقريباً إلى الله تعالى قيام الليل، وهو من أفضل نوافل الصلاة، ففي الحديث «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم ـ أي: ينهى صاحبه ويحفظه عن الوقوع في الإثم ـ ومطردة للداء عن الجسد»(1) الحديث. أي: ليعطيك قوة وصحة في الجسد. فإن أهل الصلاح الخاص هم الذين يواظبون على قيام الليل، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقيام الليل ورغبنا فيه، حتى قال: «صلوا في الليل ولو ركعة واحدةً»(2).

وأفضل قيام الليل التهجد، وهو القيام بعد النوم في الثلث الأخير من الليل، والصلاة لله تعالى فيه.

وفي الحديث: «رحم الله رجلاً قام من الليل يصلي فأيقظ امرأته، فإن استيقظت وإلا نضح الماء في وجهها ـ وفي رواية: «رش الماء على وجهها» ـ ورحم الله امرأة قامت تصلي من الليل فأيقظت زوجها، وإن لم يستيقظ نضحت الماء على وجهه»(3).

= القيامة الصلاة /٤١٣/ (٢/١٣٧)، عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، والحديث في (المسند) (٢/ ٤٢٥) وغيرهما.

(١) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب سؤال العافية /٣٥٤٣/ (٩/١٩٩)، والطبراني في (الكبير)، (مجمع الزوائد) (٢/٢٥١) عن سيدنا سلمان رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبراني في (الكبير والأوسط)، (مجمع الزوائد) (٢/ ٢٥٢).

(٣) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب قيام الليل /١٣٠٨/ (٢/٧٣) والنسائي فيه أيضاً (٣/ ٢٠٥) وابن ماجه برقم /١٣٣٦/ وابن حبان في (صحيحه) /٢٥٥٨/ =

ومن قام الليل مواظباً سُجل في ديوان الذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، ففي الحديث: «إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصليا جميعاً؛ كُتبا من الذاكرين الله والذاكرات»[1] ، وفي الحديث: «أشراف أمتي - أي: أعلاهم رتبة في الآخرة - حملة القرآن وأصحاب الليل»[2] .

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نستغفر الله وقت السحر سبعين استغفارة)[3] أي: بعد الانتهاء من صلاة القيام ، وهذا قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧] وهو وقت يتجلى فيه رب العالمين على عباده ، ففي الحديث: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له»[4] .

وفي المسانيد: «ألا من مسترزق فأرزقه؟ ألا من مبتلى فأعافيه؟

= (١١٨/٤) والحاكم في (المستدرك) (٣٠٩/١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) الحديث له طرق متعددة بألفاظ متقاربة عند النسائي وابن ماجه ، وابن حبان في (صحيحه) ، والحاكم ، والنسائي في الكبرى ، ابن ماجه /١٣٣٥/ وابن حبان /٢٥٦٠/ والحاكم في (المستدرك) (٣١٦/١).

(٢) رواه الطبراني عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، (مجمع الزوائد) (١٦١/٧) ، وانظر تخريجه موسعاً في (الترغيب والترهيب) (٤٨٥/١).

(٣) عزاه في (الدر المنثور) (٢١١/٢) إلى ابن جرير وابن مردويه.

(٤) رواه البخاري كتاب التهجد ، باب الدعاء والصلاة في آخر الليل /١١٤٥/ (٢٩/٣) ومسلم في صلاة المسافرين ، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه /٧٥٨/ (٨٤٢/٢) والترمذي في كتاب الصلاة ، باب ما جاء في نزول الرب عز وجل إلى السماء الدنيا كل ليلة /٤٤٦/ (١٦٤/٢).

ألا سقيم فأشفيه؟ حتى يطلع الفجر» الحديث[1].

وإن الرب إذا تجلى فعلى العبد أن يتحلى، وذلك بالقيام والصلاة وقراءة القرآن والدعاء؛ لينال من خير ذلك التجلي.

وإن المؤمن لما يصير في عالم البرزخ تنكشف له أسرار الأوقات في عالم الدنيا، ويطلع على فضائلها وأنوارها، فإذا كان من قوام الليل ومرت تلك الأوقات عليه فرح بها ونال من أنوارها، ولكن الحسرة كل الحسرة على من ضيع تلك الأوقات بالنوم والغفلة.

وقام بعض الصالحين من الليل فسمع المُذَكِّر يذكر ويقول:

يا رجال الليل جدوا رب داع لا يرد

ما يقوم الليل إلا من له عزمٌ وجد

ليس شيء كقيام الـ ـليل للقبر يُعد

فقال له الرجل الصالح بعد أن فرغ من الصلاة: زدني زدني.

فقال:

قد مضى الليل وولى وحبيبي قد تجلى

فلا تحتجب عن حبيبك إذا تجلى، فهذا سوء أدب وقلة حياء، فمن أحب الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم فعليه أن يَسلك طريق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي الحديث: «عجب ربنا من رجلين ـ وفي رواية: «إن الله ليضحك إلى رجلين» أي: إنه يرضى كل الرضا ـ رجل ثار عن

---

(١) انظر مجمع الزوائد (١٠/١٥٣ و١٥٤).

وطائـه ولحافـه من بين أهله وحِبِّـه ـ أي: زوجـه وأولاده ـ إلـى صلاته ، فيقول ربنا: يا ملائكتي انظروا إلى عبدي ثار من فراشه ووطائه مِنْ بين حِبِّه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندي ، وشفقة مما عندي» الحديث[1] .

وصلى الله على سيدنا محمد كلما ذكره الذاكرون ،
وكلما غفل عن ذكره الغافلون صلاة وسلاماً دائمين
إلى يوم الدين آمين
والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) وتمامه «ورجل غزا في سبيل الله فانهزم الناس ، وعلم ما عليه في الانهزام ، وماله في الرجوع ، فرجع حتى أُهريق دمه ، رغبة فيما عندي ، وشفقة مما عندي ، فيقول الله عز وجل لملائكته: انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي ، ورهبة مما عندي حتى أهريق دمه» رواه الإمام أحمد في (المسند) (١/٤١٦) وانظر (مجمع الزوائد) (٢/ ٢٥٥) وابن حبان في (صحيحه) فصل في قيام الليل /٢٥٤٨/ (٤/ ١١٤).

المحتوى

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً
والحمد لله رب العالمين

* * *

كتب للشيخ الإمام عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالى

- حول تفسير سورة الفاتحة ـ أم القرآن الكريم .
- حول تفسير سورة الحجرات .
- حول تفسير سورة قٓ .
- حول تفسير سورة الملك .
- حول تفسير سورة الإنسان .
- حول تفسير سورة الكوثر .
- حول تفسير سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ .
- حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين بعدها .
- هدي القرآن الكريم إلىٰ الحجة والبرهان .
- هدي القرآن الكريم إلىٰ معرفة العوالم والتفكر في الأكوان .
- تلاوة القرآن المجيد ـ فضائلها ـ آدابها ـ خصائصها .
- شهادة لا إلَه إلا الله سيدنا محمد رسول الله ﷺ ـ فضلها ـ معانيها ـ مطالبها .
- سيدنا محمد رسول الله ﷺ ـ خصاله الحميدة ـ شمائله المجيدة .
- الهدي النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلىٰ مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية .
- التقرب إلىٰ الله تعالىٰ : فضله ـ طريقه ـ مراتبه .
- الصلاة في الإسلام : منزلتها في الدِّين ـ فضائلها ـ آثارها ـ آدابها .
- الصلاة علىٰ النّبي ﷺ : أحكامها ـ فضائلها ـ فوائدها .
- صعود الأقوال ورفع الأعمال إلىٰ الكبير المتعال ذي العزة والجلال .
- الدعاء : فضائله ـ آدابه ـ ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات .
- الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها .
- الإيمان بالملائكة عليهم السلام ومعه بحث حول عالم الجن .
- حول ترجمة الإمام العلامة المرحوم محمد نجيب سراج الدين رحمه الله تعالىٰ .
- شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث .
- أدعية الصباح والمساء ومعها استغاثات .
- مناسك الحج ويليها أحكام زيارة النبي ﷺ وآدابها .